الأخلاق والإنسان

كيف نتخلق بالقيم؟

ⓗ حسن موسى الصفار، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن بن موسى بن رضي
الأخلاق والإنسان.. كيف نتخلق بالقيم؟ / حسن بن موسى بن رضي الصفار ـ القطيف، ١٤٤٣هـ
٤٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٧-٢-٠٠٠٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
١ـ الأخلاق أ.العنوان
ديوي ١٧٠ ١٤٤٣/٤٨١١
رقم الإيداع: ١٤٤٣/٤٨١١
ردمك: ٧-٢-٠٠٠٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م

القطيف ـ المملكة العربية السعودية

أطياف للنشر والتوزيع

هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: Atyaf.qatif@gmail.com

حسن موسى الصفار

الأخلاق والإنسان

كيف نتخلق بالقيم؟

المحتويات

المحتويات.. ٥

مقدمة.. ٩

الفصل الأول: الأخلاق قيمة عليا.. ١٣

صورة نفس الإنسان ١٥

عنوان التقدم.. ٢٥

الأخلاق الفاضلة التزام دائم ٣١

التديّن الموروث والبعد الأخلاقي.. ٣٥

القيم بين التغنّي والالتزام.. ٤٩

الأخلاق بين التأثير والتأثر.. ٥٧

الأخلاق بين الوعظ والتقنين.. ٦٣

الفصل الثاني: إدارة الذات ٦٩

الثقة بنتائج عمل الخير ٧١

تبنّي الاهتمامات الكبرى ٧٥

استقبال العام الجديد ٨١

مستوى الجودة والإتقان.. ٨٥

بين الفطنة والسذاجة.. ٩١

ظواهر النصب والاحتيال ١٠٣
توثيق الحقوق ١٠٧

الفصل الثالث: مكارم الأخلاق ١١٣

صناعة الإحسان ١١٥
كُنْ في موقع العطاء ١٤١
الرفق مفتاح النجاح ١٧٣
الوفاء أشرف الأخلاق ١٧٧
تجلّيات المروءة في شخصية الإنسان ١٨٧
الصبر في العلاقات الاجتماعية ١٩٣
التعافي من الحقد والضغينة ٢٠١
البذاءة والفحش منطق اللؤماء ٢١٣
سيكولوجيّة الغيبة ٢١٧

الفصل الرابع: أخلاق التعامل ٢٣١

الرصيد الإيجابي للتداخل مع الناس ٢٣٣
ثقافة الاحترام ٢٣٧
البشاشة رسالة حبّ وتقدير ٢٥١
حسن الاستقبال ٢٥٥
الهدية تزرع المحبة ٢٦١
حسن الاستماع والإصغاء للآخرين ٢٦٧
احترام خصوصيات الآخرين وأسرارهم ٢٧٣
فن التغافل ٢٨١
لا تعجل في الحكم على الآخرين ٢٨٧
العتاب وحماية العلاقات الاجتماعية ٢٩١
الميزان في توقعاتك من الآخرين ٢٩٥

اشكر من حولك وتجاوز عن أخطائهم ٣٠٣
التكلّف في العلاقات الاجتماعية ٣٠٩
لا تبخل بالنصيحة والتذكير ٣١٣
التحفيز نحو السلوك الإيجابي ٣١٧
الفراق الجميل .. فراق بالتي هي أحسن ٣٢١

الفصل الخامس: في السلوك الاجتماعي ٣٢٥

التواصل الاجتماعي ٣٢٧
التنافس الإيجابي وتقدم المجتمع ٣٤١
الصراعات والتزام الأخلاق ٣٥١
اليسر في القوانين والعادات والسلوك ٣٦١
الأحياء الجديدة وحسن الجوار ٣٧٣
احترام كبار السن ٣٧٩
بين التعبير عن الرأي وافتعال الصراعات ٣٨٥

مقدمة

الأخلاق عنوان يلامس أبعاد شخصية الإنسان العقلية والنفسية والسلوكية، وكل مساحات حياته الفردية والاجتماعية، وجميع جوانب ارتباطه بما حوله من طبيعة ووجود.

إن منهجية الإنسان في التفكير واتخاذ القرار، وإدارته لحركة المشاعر والأحاسيس داخل نفسه، وتشكيل ردّات فعله على ما يواجه من مواقف وأحداث، وكل ألوان ممارساته وتصرفاته المتعلقة بذاته وبخارجه، كل ذلك يمثّل مظاهر وتجليات لعنوان الأخلاق.

فالأخلاق تجسُّد شخصية الإنسان، وتمظهر كينونته الإنسانية في فضاء الحياة. إنها الصورة البارزة لما تنطوي عليه ذاته، من فكر وعاطفة وإرادة ورغبة.

وتتشكل المعالم الأولى لشخصية الإنسان الأخلاقية من خلال عوامل الوراثة والتربية والبيئة التي ينشأ في أحضانها. ثم يأتي دور إرادته ووعيه في تعزيز ما ورثه ونشأ عليه من خُلق، أو تغييره وتعديله.

فعوامل الوراثة والتربية والبيئة، لا تصادر إرادة الإنسان، ولا تسلبه القدرة على الاختيار. ولو كانت شخصية الإنسان الأخلاقية لا تقبل التغيير والتطوير، لانعدم مبرر الثواب والعقاب، وانتفت الحاجة إلى الشرائع والأنظمة والأديان، ولم يكن لوجود المفاهيم والمدارس الأخلاقية أي فائدة ومعنى.

إن قدرة الإنسان على التغيير، وإعادة صياغة شخصيته الأخلاقية، هو الموجب لبعث الأنبياء، وهو الدافع لحركة الدعاة والمصلحين والمبشرين بمكارم الأخلاق.

ونقطة الانطلاق التي يحتاجها كل إنسان، هي التأمل في ملامح شخصيته الأخلاقية، واكتشاف نقاط الضعف والقوة فيها، من أجل العمل على إصلاح الذات، وإعادة تشكيل طبيعتها الأخلاقية، والارتقاء بها إلى مستوى أعلى من الكمال.

إن غفلة الإنسان عن ذاته، واسترساله فيما نشأ عليه وألفه من طريقة حياة، وشعوره بأنه محكوم وأسير للواقع الذي يعيشه، هو ما يحجب عنه التطلع إلى التغيير والإصلاح، ويمنعه من التقدم والرقي.

والمهمة الأساس للدين، ولدعوات الإصلاح الأخلاقي، هي دفع الإنسان للثقة بقدرته على التغيير في داخل ذاته، وفي أنماط سلوكه وتوجهاته. وتحفيز إرادته لاتخاذ قرارات التغيير، ومواجهة تحديات الممانعة وعقبات التنفيذ.

ثم إضاءة الطريق أمام الإنسان لكسب الوعي الأخلاقي، ومعرفة مصاديق القيم الفاضلة، وتطبيقاتها في واقع الحياة.

ويأتي في هذا السياق إبراز النماذج المشرقة ممن حققوا أعلى درجات الكمال الأخلاقي في التاريخ الإنساني، لتكون سيرتهم النقيّة مصدر إلهام، ودافع تحفيز وثبات، للمتطلعين نحو الكمال، والعاشقين لمكارم الأخلاق.

والكتاب الماثل بين يدي القارئ الكريم، يُعنى ببحث المسألة الأخلاقية، والتركيز على أهمية الأخلاق ودورها في حياة الإنسان الفرد والمجتمع، ويعرض البرامج والتطبيقات للقيم الأخلاقية في مجالاتها المختلفة، فيما يتعلق بإدارة الإنسان لنفسه وذاته، وفي تعامله مع محيطه الاجتماعي.

ويتحدث الكتاب عن أهم المفردات والمفاهيم الأخلاقية، وسبل تعزيزها في النفس، وأساليب تمثّلها وتطبيقها في الممارسة والسلوك. اهتداءً بالنصوص الدينية

من آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي العظيم، وعترته الطاهرة، وصحابته الأخيار، صلوات الله عليهم أجمعين.

إضافة إلى الاستعانة بمعطيات العلم، وتجارب التاريخ، وأحداث الواقع الاجتماعي.

إن أبحاث الكتاب ينصبّ اهتمامها على الجانب العملي السلوكي، دون توسع في عرض النظريات الأخلاقية للمدارس المختلفة.

وقد كتبتُ هذه الأبحاث في أزمنة متباعدة، لإلقائها في تجمعات المناسبات الدينية والثقافية، ثم رأيت تنسيقها وجمعها ضمن هذا الكتاب، ليستفيد منها القراء الكرام، وخاصة إخوتي العلماء، وزملائي الخطباء، الذين قد يجدون فيها مادة تساعدهم في تحضير خطاباتهم، وتناولهم للمواضيع الأخلاقية.

أسأل الله تعالى القبول والتوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

حسن بن موسى الصفار

١٢ ذو القعدة ١٤٤٢هـ

٢٢ يونيو ٢٠٢١م

الفصل الأول

الأخلاق قيمة عليا

صورة نفس الإنسان

تُعرّف الأخلاق بأنها صورة نفسية الإنسان، أو الانعكاس لداخله المعنوي والنفسي، فكما أن للإنسان جسمًا يمثل شكله وصورته المادية، من طول وقصر وملامح، فينظر الناس إلى شخصيته المادية من خلال ملامحه الجسمية، فإن هناك بُعْدًا آخر للإنسان، هي نفسه التي تعني الصفات والميول والتوجهات، وهذه تتجلى وتتجسد من خلال الأخلاق.

فالأخلاق هي صورة النفس الإنسانية.

ويشرح الأخلاقيون ذلك أكثر، فيقولون: إن الناس تتعرف شكل الإنسان من خلال جسمه، فيرون التفاوت في الأشكال من حيث الطول والقصر، والنحافة والامتلاء، وكذلك من حيث الجمال وعدمه، وعندما يريد الإنسان الاطلاع على الصورة النفسية لأخيه الإنسان، يتعرّف ذلك من خلال الأخلاق، التي تكشف صورة النفس، فهي الجانب الآخر من الشخصية الإنسانية، ولا يتبين جمالها وقبحها إلا من خلال الأخلاق، فالناس يتعرفون صفات النفس من خلال التعامل الأخلاقي.

وكما أن الأجسام فيها جمال، وقبح، وملامح جيدة، وغير جيدة، كذلك نفس الإنسان فيها الحسن، وفيها القبيح. فيها نقص، وفيها ضعف، وهذا أمر يتبينه ويراه الناس من خلال التعامل الأخلاقي مع بعضهم بعضًا.

ومما يؤسف له أن يحرص الفرد منّا على جمال شكله ومظهره أكثر من عنايته

بجمال النفس وطيبها؛ لأنه يعرف أن جمال الشكل والمظهر، يجذب الأنظار والنفوس، لذلك يحرص أن يكون مظهره وشكله جميلًا، فنرى الكثير يتهافتون على جراحة وعمليات التجميل، وخاصّة النساء، لتحرص الفتاة على شكلها وجمالها متجاهلة الجوانب الأخرى.

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنه ليس مستنكرًا في الدين أن يحرص الإنسان على حسن مظهره، فهو أمر مطلوب ومرغَّب فيه، لأن «اللّه جميل يحب الجمال».

والسعي للجمال وحُسْن المظهر هدي قرآني، يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣٢]، وحينما رأى النبي محمد ﷺ أعرابيًّا يدخل عليه وشكله وشعره غير منسَّق، قال ﷺ ـ فيما روي عنه ـ: «أمَا كان يجد ما يسكن به شعره؟»[1].

لكن من المفترض أن تبقى العناية بالمظهر في حدودها الطبيعية المتعارفة.

وفي المقابل ينبغي للإنسان أن يحرص على جمال صورته النفسية، فهي الأهم، وهي التي تؤثر أكثر في نفوس الآخرين وقلوبهم.

وللوصول للجمال النفسي على الإنسان الاهتمام بالتهذيب الأخلاقي، فالأخلاق هي شكل النفس وهيئتها، ومن هنا جاء التأكيد والتركيز على الأخلاق.

حضور الإنسان في قلوب الناس

قد تكون للإنسان نقاط قوة مختلفة، كل نقطة منها تجعل له موقعًا ما، ومستوى من الاهتمام والتقدير في أوساط الناس، فعندما يكون له نسب شريف، فإن ذلك يوجب له احترامًا، وقد يكون للإنسان موقع سلطة وقوة، مما يجعل له نفوذًا وتقديرًا، وفي مثال ثالث قد يكون صاحب كفاءة علمية، في مجال العلوم الدينية أو العلوم الطبيعية،

---

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود، ج٢، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية ـ دار الجنان)، ص٤٤٩، حديث٤٠٦٢.

ما يجعل له أهمية ومكانة عند الناس. وعندما يكون صاحب ثروة وأموال سيصبح له تأثير ومكانة. وهكذا مَن يكون له توجه عبادي، بحيث يعرفه الناس بالإقبال على العبادة والتهجد، تكون له قيمة في نفوس الناس، وهناك أمثلة كثيرة لمواقع ومناصب تكسب الإنسان المكانة والمنزلة بين الناس.

ولكننا إذا استقرأنا الروايات والأحاديث، فإننا سنجدها تعطي للأخلاق مكانة عُلْيَا فوق تلك الكفاءات، وهذا ما نشعره بوجداننا وفي واقعنا الخارجي، فمهما كانت نقاط القوة عند الإنسان كثيرة، من علم أو مال أو سلطة أو شرف ونسب أو ما أشبه ذلك، فإنه يبقى لأخلاقه الأثر الحاسم في مكانته عند الناس، فتتعزّز إذا كان صاحب خلق جميل، وتكبر هذه المكانة مع كفاءته. أما إذا كانت أخلاقه سيئة فإن ذلك يضعف تأثير كفاءاته ونقاط قوته الأخرى، ويؤكد هذه الحقيقة رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ربّ عزيز أذله خلقه، وذليل أعزه خلقه»[1]، حيث نفهم من كلمة (العزيز) و(الذليل) الواردتين في الرواية امتلاك القدرات وعدم امتلاكها، فيكون معنى الرواية: رب عزيز يمتلك نقاط قوة ـ من شرف ونسب، أو مال، أو مكانة علمية ـ أذله سوء خلقه.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران، الاية: ١٥٩] يوضح هذه الحقيقة بأجلى صورة، فهي تتحدث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو في أعلى مكانة أو منصب قد يناله إنسان في الدنيا، ومع ذلك فالآية تقرر أن الإنسان حتى لو بلغ أعلى المراتب، وهي النبوة والاتصال بالوحي الإلهي، لن يكون عزيزًا ويترك تأثيره في النفوس، ما لم يكن على درجة عالية من سموّ ورفعة الأخلاق.

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن أفضل نبي وأفضل رسول، ومع ذلك تجعل الخلق حاكمًا على جميع الملكات والمراتب التي يحصل عليها الإنسان، من حيث تأثيرها في الناس، ومن حيث المكانة التي تحفرها وسط المجتمع.

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج٧٤، ص٤٢٠.

إن اللّه تعالى يخاطب نبيه ﷺ: بأنك لو لم تكن لك أخلاق حسنة وكانت أخلاقك سيئة، لما نفعتك نبوتك ولا سائر كفاءتك في تعزيز موقعك بين الناس، ولما أفادتك في أن يقبلك الناس، ولانفضوا عنك.

إن أهم ما تريد الآية إيصاله أن الأخلاق لها حاكمية من حيث تكوين وتشكيل مكانة الإنسان في المجتمع ومقبوليته بين الناس، حتى على درجة النبوة، فكيف ببقية الكفاءات والقدرات. فلو أن إنسانًا عنده ثروة ومال، لكن أخلاقه سيئة، ترى هل يحبه الناس؟!، وكذلك لو كان يملك مستوى علميًّا متقدِّمًا، لكنه لا يتعامل مع الناس بالأخلاق الحسنة، فإن الناس لا يحبونه، ولن ينجذبوا إليه، لذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، مخاطبًا العلماء: «لا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم»[1]، ويبدو أن الخطاب ـ في الرواية ـ موجه إلى علماء الدين بألاَّ يتعاملوا مع الناس بفظاظة، حتى لا ينفروا منهم، فيذهب باطلهم وهو سوء التعامل الأخلاقي، بحقهم وهو التوجهات الدينية التي يبشرون بها، وهذا أمر طبيعي، فإذا كانت النبوة مع سوء الخلق لا تؤثر في الناس كما هو مفاد الآية، (وهو مسألة افتراضية، وإلا فجميع الأنبياء معصومون) فكيف بالعالم؟!.

ورد في حديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إن العبد ليبلغ عظيم درجات الآخرة بحسن خلقه وإنه لضعيف العبادة»[2]، فكثرة العبادة والتقرّب إلى اللّه من خلالها، بتلاوة القرآن وأداء النوافل وقراءة الأدعية والزيارات لا تقرّب الإنسان إلى اللّه إذا لم يصاحبها حُسْن الخُلُق، وهذا مفاد حديث آخر مروي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «سوء الخلق ذنب لا يغفر»[3].

وكما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ عند حديثه عن الظلم ـ: «إِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَ ظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَ ظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٣٦.
(٢) كنز العمال. ج٣، ص٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٤٣.

يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللّه قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا»[١].

بعض الأخطاء التي يرتكبها الإنسان في عباداته وعلاقته مع اللّه يمكن أن يتجاوز عنها ويغفرها اللّه له، لكن ظلم الآخرين والإساءة لهم ـ وهو المظهر الأخلاقي ـ هذا ظلم لا يُترك، ويُحاسب عليه الإنسان يوم القيامة، وقد ورد أنه قيل لرسول اللّه ﷺ عن امرأة تصوم نهارها وتقوم ليلها، لكنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال ﷺ: «لا خير فيها وهي من أهل النار»[٢].

من هنا جاء التأكيد على الأخلاق، حتى إن رسول اللّه ﷺ حينما يتحدث عن الأخلاق، يعدّها الهدف الأعلى من بعثته، فيقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]، وورد في حديث عنه ﷺ: «الإسلامُ: حُسْنُ الخلق»[٤].

وروي عن النبيُّ ﷺ: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا»[٥].

احترام الآخرين

وهذا من أهم تجليات الأخلاق الحسنة الفاضلة عند الإنسان، فالإنسان الذي له خلق حسن، هو الذي يحترم الآخرين، مهما كان وضعهم المادي ومكانتهم الاجتماعية، والإمام الحسين عليه السلام في هذا المجال يروي عن جده رسول اللّه ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان باللّه، التودد إلى الناس»[٦]، وفي بعض النصوص:

---

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.
(٢) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٣٩٤.
(٣) المصدر نفسه. ج١٦، ص٢١٠.
(٤) كنز العمال. ج٣، ص١٧.
(٥) مستدرك الوسائل. ج١٧، ص٤١٥، حديث٢١٧٠٩.
(٦) عيون أخبار الرضا. ج١، ص٣٨.

«التحبب إلى الناس»[١].

ومفاد الرواية أن الإنسان إذا أراد أن يتعرف مستوى عقل أخيه الإنسان فإنه ينظر إلى اهتمامه بالتودد إلى الناس والتحبب إليهم، كما يهتم بموقف الناس منه بانشدادهم إليه وانشداده إليهم، هذا هو رأس العقل، ومنطق العقلاء.

سئل الإمام الحسين مرّة عن معنى الأدب، فقال عليه السلام: «هو أن تخرج من بيتك، فلا تلقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك»[٢]، وهو المعنى نفسه الذي يرشد إليه الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق، حيث يقول فيه: «ولا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها»، بمعنى أن الإنسان في داخل نفسه عليه أن يهذّبها، فلا يشعر بالغرور والتعالي على الآخرين، بل لا يلتقي أحدًا إلا ويرى له الفضل عليه في جهة من الجهات، كما هو مفاد كلام الإمام الحسين عليه السلام.

عدم الإساءة إلى الآخرين

الأخلاق الحسنة تعني ألا نسيء لأحد، بل من الأخلاق الحسنة أن يتحمل الإنسان إساءات الآخرين، فقد جاء رجل إلى الإمام الحسين عليه السلام وقال له: «إن فيك كِبْرًا»!، وفي العادة لا يتحمّل أحد أن يأتي شخص ويواجهه بهذه العبارة، وخاصة إذا كان في موقع وجاهة، أو زعامة، في مثل هذه الحالة غالبًا ما يفقد الإنسان السيطرة على انفعالاته وضبط أعصابه، لكن الإمام الحسين عليه السلام يستقبل هذا المسيء بابتسامة هادئة، ويقول له: «الكِبْر للّه وحده ولا يكون في غيره»[٣]، يشير عليه السلام إلى الحديث القدسي المرويّ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[٤].

---

(١) بحار الأنوار. ج١، ص١٣١.
(٢) جمال الخواطر في الادب و النوادر، ج٢، ص٧٥.
(٣) بحار الأنوار. ج٤٤، ص١٩٨.
(٤) سنن أبي داود. ج٢، ص٤٥٦، حديث ٤٠٩٠.

إن الإمام الحسين عليه السلام لم تُثِرْهُ استفزازات هذا الرجل، فلم يغضب أو ينفعل، ولم يرد على إساءته.

إن التعامل الحَسَن مع المحسن لا فخر للإنسان فيه، فعندما يلْقي شاعر قصيدة في مدحك فتبدي له احترامًا، هذا ليس من موارد الفخر والاعتزاز، ولكن ما يشعر بالفخر والاعتزاز أن يتحمّل الإنسان مواقف الإساءة، بحيث يضبط أعصابه وردّات فعله.

والإمام الحسين عليه السلام كان يحترم البعيدين والقريبين، لذلك يُروى في سيرته، أنه على عهد جده رسول اللّه صلى الله عليه وآله هو وأخوه الإمام الحسن عليه السلام كانا يخاطبان جدهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالأبوة، فيقولان ـ مثلًا ـ: «أبتاه يا رسول اللّه»، أو: «يا أبتاه»، ويخاطبان أباهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بكنيته بالآخر، فالإمام الحسين يخاطب أباه الإمام عليًّا عليه السلام: «يا أبا الحسن»، والحسن يقول: «يا أبا الحسين»، تمييزًا وتعظيمًا لجدهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وذلك إلى وفاة جدهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فصارا يخاطبان أباهما عليًّا بالأبوة.

وهذه نقطة مهمّة، وهي مراعاة حُسْن التعامل مع الآخرين، وليبدأ هذا الأدب الإسلامي من المنزل وأقرب الناس، وهم أفراد الأسرة.

ومن حُسْنِ تعامل الإمام الحسين عليه السلام مع أفراد ما أنه ورد في سيرته عن الإمام الباقر عليه السلام أنه ما تكلم بين يدي أخيه الحسن إعظامًا له[1]، فإذا كان أخوه الإمام الحسن عليه السلام في مجلس لا يتكلم في محضره تعظيمًا وإجلالًا له.

وهذا أمر رأيته في بعض المجتمعات وبعض القبائل، فمن العادات عندهم أنه كما يقبل الفرد منهم يد أبيه أو رأسه، يقبل رأس أخيه الأكبر منه، وفي بعض الحالات كنت أراه يقبل يد أخيه الأكبر، وهذا نوع من الاحترام والتعظيم.

---

(١) بحار الأنوار. ج ٤٣، ص ٣١٩.

إن أهل البيت ﷺ بهذه السيرة الأخلاقية التي تميزوا بها يمثلون القدوة لنا في التعامل فيما بيننا، وخاصّة التعامل الأسري، وهي نقطة لا بدَّ أن نلتفت إليها جيدًا، فالأسرة هي اللبنة الأولى للمجتمع، وربما كثير من الظواهر السلبية يكون لها بيئة احتضنتها داخل الأسرة، لذلك ينبغي التأمل في سيرة أهل البيت ﷺ وتعاملهم فيما بينهم كأسرة متحابّة متآلفة.

احترام المعلّم

من مشاهد أخلاق الإمام الحسين مما ينقله التاريخ من سيرته: موقفه مع معلمٍ لولده علمه سورة الحمد، هو عبد الرحمن السلمي، فلما قرأها الغلام أمام أبيه الحسين ﷺ، أمر ﷺ بألف دينار لذلك المعلم، وفي رواية حشى فاه درًّا، فقيل له في ذلك، قال: «وأين يقع هذا من عطائه ـ يعني تعليمه ـ»[1].

وهو تصرّف من الإمام يدل على تعظيم العلم، وتقدير المعلم.

وهنا لا بدَّ لي من همسة تربوية مهمّة، وهي أننا بحاجة في مجتمعنا للتفاعل بين الآباء والأُسَر وبين السلك التعليمي، بين البيت والمدرسة، فهناك بعض الآباء الذين لا يهتمون بالعلاقة مع المدرسة التي يتعلم فيها أبناؤهم وبناتهم، فلا يهمه التواصل، ولا يبدي أيَّ اهتمام بذلك، فغالبًا ما يكون الحضور لمجالس الآباء ضعيفًا.

بل يصل الأمر في ضعف التعاون بين البيت والمدرسة إلى حد أن البعض لا يرد على الهاتف إذا اتصلت به المدرسة، بمجرد أن يرى رقم هاتف المدرسة لا يرد ولا يتجاوب، ولعل ابنه يقضي مرحلة دراسية كاملة دون أن يكلف نفسه عناء ومهمة الوصول إلى المدرسة لتفقد وضعه.

التواصل مع المدرسة مهم، لتفقد وضع الأولاد، ومن جهة أخرى، لإشعار الطالب باهتمام أسرته بدراسته، وثالثًا لإشعار المعلمين وإدارة المدرسة بأن هناك متابعة.

---

(١) مستدرك الوسائل. ج٤، ص٢٤٧، حديث ٤٦١٣.

إن من أهم الأمور التي تشجع وتدفع باتجاه إزالة الثغرات وموارد النقص والخلل في التعليم هو التواصل والمتابعة بين البيت والمدرسة، والإمام الحسين عليه السلام بسيرته يريد أن يلفت أنظارنا إلى أن ننظر إلى المعلم نظرة احترام، وأن نقدر الدور الذي يقوم به المعلم تجاه أبنائنا.

للآخر قراره وحريته

كان الإمام الحسين عليه السلام يقدر للآخرين حريتهم في الاختيار، حتى في المواقف الحساسة، ففي واقعة عاشوراء نجد أن الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء كان يعطي للآخرين الحرية في اختيار الموقف الذي يريدونه ويرونه، فَخَيَّر أصحابه أكثر من مرة في اللحوق به أو التخلّي عنه، وفي أكثر من مرّة ردّد هذه العبارات: «ليس عليكم مني ذمام»[1]، «فانطلقوا، في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي»[2].

وكان بعض الأشخاص يستأذنونه فيأذن لهم، والتاريخ ينقل لنا قصّة هرثمة بن أبي مسلم، فهو يتحدث عن نفسه، أنه شهد صفين مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وفي الطريق في منصرفه من صفين أو ذهابه إلى صفين، حينما حاذى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أرض كربلاء، حدثهم عما يجري في كربلاء وقال: «واهًا لك أيتها التربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب»، وتذكر هذا المشهد عندما كان مع قوم عمر بن سعد في كربلاء، فعزم على أن يترك عمر بن سعد، وجاء إلى أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، وروى ما سمعه من أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان يعرف قيمة المكان وقيمة القضية، حينها سأله الإمام الحسين عليه السلام: «معنا أنت أم علينا؟»، لكن هرثمة خانته الإرادة، فقال: «لا معك ولا عليك، خلّفت صبية أخاف عليهم عبيد اللّه بن زياد»، وفي هذا الموقف لم يغضب الإمام الحسين

---

(١) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري، ج٤، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٣١٧.

(٢) الكامل في التاريخ. ج٢، ص٥٥٩.

عليه السلام ولم ينفعل، بل نصحه بما ينفعه، قال له: «فامض حيث لا ترى لنا مقتلًا ولا تسمع لنا صوتًا فوالذي نفس حسين بيده لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلا كبّه اللّه لوجهه في نار جهنم»[1].

فلننظر كيف أن الإمام يقدر للآخرين اختيارهم وحريتهم، وهذا سلوك الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء يبينون ويبلغون الرسالة، والناس ـ بعد ذلك ـ أحرار، فـ ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[سورة المائدة، الآية: ٩٩]، وهذا بخلاف ما نراه من البعض الذي يأخذه الانفعال والحماس حينما يعتقد بأن رأيه هو الحق، ولا يرى للطرف الآخر حقًا في التفكير والقرار، مع أن الدعوة تحتاج إلى عنصر الحوار الهادئ في إقناع وتفهّم وجهة نظر الطرف الآخر، لأن أيًّا كان لا سلطان له على تفكير ومعتقدات الآخرين، فها هو القرآن الكريم يصوّر لنا طبيعة الدعوة التي يمارسها الأنبياء، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص٢٥٦.

عنوان التقدم

تتجلى الأخلاق الإنسانية ضمن بعدين؛ بعد ذاتي وآخر اجتماعي. فالبعد الذاتي يرتبط بإدارة الفرد لذاته، وضبطه لغرائزه وميوله، ويمكن تفسير حسن الخلق في البعد الذاتي، بما يعني تعزيز وتنمية الميول الإيجابية الحسنة في نفس الإنسان، وكبح جماح النزعات السلبية السيئة فيها، بما يفضي لإدارة الذات على نحو جيّد، وهذا تحديدًا معنى حسن الخلق في بعده الذاتي، أما حسن الخلق في بعده الاجتماعي، فإنّ ميدانه التعامل مع الناس، القريبين والبعيدين، على أساس الاحترام ورعاية الحقوق، والإحسان للآخرين.

طريق السعادة والنجاح

إنّ الإنسان الذي يتحلى بحسن الخلق في إدارته لذاته وتعامله مع الآخرين، هو أقرب للنجاح. بينما الآخر الذي يتطبع بسوء الخلق فمسيرته في الحياة أقرب للتعثر، ومردّ ذلك إلى ما يصنعه حسن الخلق من رضا داخلي، واستقرار نفسي، وارتياح لدى الإنسان، علاوة على ما يعود عليه من انسجام مع محيطه الأسري والاجتماعي، فإذا عاش المرء رضا نفسيًّا، وانسجامًا مع من حوله، فهذا هو الطريق إلى النجاح والسعادة في هذه الحياة.

وتشير كثير من النصوص الدينية إلى أنّ حسن الخلق هو السبيل إلى جعل الإنسان ناجحًا وسعيدًا في حياته. فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لا عيش

أهنأ من حسن الخلق»[١]، فالعيش الهنيء لا يأتي عبر المال أو المنصب ولا مختلف الامتيازات، بقدر ما يأتي نتيجة توفر الرضا في نفس الإنسان، والانسجام ضمن محيطه، وهذا بطبيعة الحال لا يتأتّى إلّا بحسن الخلق. وفي إشارة لافتة يربط أمير المؤمنين عليه السلام بين أخلاق الإنسان والوضع الاقتصادي الذي يعيشه، حيث يقول عليه السلام: «بحسن الأخلاق تدرّ الأرزاق»[٢]، ومعنى ذلك أنّ المرء كلّما كان أفضل أخلاقًا، كان أقرب إلى النجاح في مجالات حياته المختلفة وبما ينعكس على وضعه المعيشي. وعنه عليه السلام في ذات السّياق أنه قال: «من حسن خلقه، كثر محبّوه وأنست النفوس به»[٣].

في مقابل ذلك تشير النصوص الدينية إلى أن سوء الخلق لدى الإنسان هو الطريق إلى نكد العيش. حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «سوء الخلق نكد العيش وعذاب النفس»[٤]، فحياة المرء تتحول مع سوء الخلق إلى عيشة نكدة، وعذاب نفسي قائم، وفي كلمة أخرى روي عنه عليه السلام أنه قال: «سوء الخلق يوحش القريب وينفّر البعيد»[٥]، وورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من ساء خلقه، عذّب نفسه»[٦]، فالعذاب النفسي يبدو أنّه النتيجة الطبيعية لسوء الخلق على المستوى الشخصي.

لا نهضة دون أخلاق

أمّا على الصعيد الاجتماعي فالأمم تقاس في نهضتها وتقدمها بالمستوى الأخلاقي العام السّائد فيها. وذلك ما يتجلّى على صعيد تعامل الناس مع بعضهم

---

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج٢ ص٥٦٠، ووردت عن الإمام علي عليه السلام في عيون الحكم والمواعظ، ص٥٣٩.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص ١٨٨.

(٣) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي). ص٣٤١، حكمة ٦٠٤.

(٤) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٨٥.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٢٩، حكمة ٨٦.

(٦) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٥١٢، حديث ٢٦، ووردت في أمالي الشيخ الصدوق، ص٦٣٦، حديث٣ عن الإمام الصادق عليه السلام.

بعضًا، من حيث الاحترام المتبادل، والقدرة على التعايش، ورعاية الحقوق، والتعاون والقدرة على العمل الجمعي بين الناس، والانضباط والتقيد بالقانون والنظام، والإتقان في العمل، فهذه بأجمعها مصاديق متعددة للأخلاق الحسنة. إنّ هناك مجتمعات طالما اشتهر عنها سمة الإتقان في العمل، الأمر الذي انعكس على مستوى وجودة الإنتاج عندهم، وعاد إيجابًا على سمعتهم، وهذا ما يتضح في تعامل الناس مع السلع التجارية والمواد الآتية من بلدان معينة، على النقيض من سلع أخرى قادمة من بلدان أخرى لم تشتهر بسمعة جيّدة على صعيد الإنتاج، وهذا كله ناتج عن خُلق الإتقان عند تلك المجتمعات.

وينسحب الأمر ذاته على مستوى الانضباط العام والتقيد بالقوانين، والتزام المواعيد، فهناك مجتمعات تشتهر بحرصها الشديد على هذا الصعيد، بينما لا تجد الأمر ذاته في مجتمعات أخرى ليس بها انضباط عام، ولا تقيد بالقانون، ولا التزام المواعيد!، الأمر الذي ينعكس بطبيعة الحال على جميع المستويات، إنْ على صعيد تعثّر المشاريع العامة، أو تعطيل مصالح الناس، فلطالما تعثرت مشاريع خدمية رصدت لها الملايين دونما مبرر معقول، سوى ارتباط ذلك بغياب خلق التزام المواعيد والانضباط في إنجاز العمل، وذلك مرتبط من حيث الجوهر بأزمة في الأخلاق.

إنّ سيادة القيم الأخلاقية العامة في بعض المجتمعات هي المحرك الأساس لتقدمها. فإيقاع الحياة في المجتمعات المنضبطة أفضل، وحركة الإنتاج أكثر تقدّمًا ونموًّا، على النقيض من المجتمعات الأقلّ انضباطًا. ضمن هذا السياق يمكن فهم الارتباط بين الأخلاق وبين تقدم المجتمعات، الذي تشير له وتشدد عليه النصوص الدينية، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج١٢، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص١٥٥.

وينطوي تحت عنوان حسن الخلق كلّ السلوك الإيجابي، من قبيل الإتقان في العمل، والانضباط والتزام القانون، والاحترام المتبادل، ورعاية الحقوق، هذه كلها مصاديق لحسن الخلق، وجاء في الشعر العربي:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشريف وتهدم المجد»[١]، وقد كانت الأمة الإسلامية فيما سبق على مرتبة متقدمة من الشرف، على النقيض مما هي عليه اليوم، فأين ذهبت تلك الرفعة التي تميزت بها الأمة في سالف الأزمان؟ لقد ذهب ذلك المجد وانهدم ذلك الشرف، نتيجة سيادة الأخلاق السيئة، وغياب الأخلاق الحسنة، والقيم الإيجابية على الصعيد العام في الأمة.

ويشير الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه الحقيقة بقوله: «إنّ البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»[٢]، وللإلمام بفهم عميق للنص، ينبغي أن نفهم حسن الخلق بأنه الالتزام الصارم بالأخلاق العامة والقيم الإيجابية في الحياة. وحتى ندرك الصلة المباشرة بين الأخلاق وعمارة الديار وزيادة الأعمار، يكفي النظر إلى معدل الأعمار لدى بعض الشعوب، فاليابانيون مثلًا معروفون بمعدل عالٍ في الأعمار، وأسباب ذلك إضافة إلى تقدم مستوى الرعاية الصحية، أن علاقة الناس فيما بينهم على المستوى الاجتماعي لا تشكل ضغطًا نفسيًّا على الفرد الياباني. بينما المجتمعات التي يعاني الفرد فيها من الضغوط داخل الأسرة، والمدرسة، وفي مكان العمل، علاوة على ضغوط السلطة، فأيّ صحة وأيّ راحة ستبقى لهذا الفرد، وأيّ عمر طويل سيتمتع به!. من هنا ندرك جيّدًا كيف أنّ حسن الخلق يزيد في الأعمار، لجهة أنّ الناس في مقدورهم أن يوفروا على أنفسهم العناء والمشاكل النفسية، التي

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٥٣، حديث ٨٩.

(٢) الكافي، ج٢، ص١٠٠، حديث ٨.

هي من أهم أسباب السقم، واعتلال الصحة، وبالتالي قصر معدّل الأعمار.

الأخلاق مصالح ومكاسب

ولو نحّينا الوصايا الدينية جانبًا، لرأينا أنّ هناك أسبابًا ومصالح واقعية لا تحصى للالتزام بالقيم الأخلاقية. وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقيقة حين قال: «لو كنّا لا نرجو جنة ولا نخشى نارًا ولا ثوابًا ولا عقابًا لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنها مما تدلّ على سبيل النجاح»(١)، إنّ طلب مكارم الأخلاق، يصبّ في مصلحة تنظيم وتقدم حياتنا جميعًا، وما جاء التزام المجتمعات المتقدمة الأخلاق الحسنة، إلّا نتيجة وعيها بأنّ مصالحها مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بمدى التزامها هذه الأخلاق.

إنّ أمتنا الإسلامية ربما كانت أولى الأمم بالتزام الأخلاق الحسنة. وذلك لما تنتجه الأخلاق من مصالح لعامة الأمة في الدنيا أولًا، وثانيًا لما يصب في مصلحتنا الفردية في الآخرة كذلك، فالثواب الأخروي لن يتأتّى من خلال الصلاة والصيام فقط، وإنما يتحصل أكثر الثواب في الآخرة نتيجة حسن الخلق مع الآخرين، سواء في المنزل أو مع الجيران أو في التعامل مع زملاء العمل، فقد ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «حسّن خلقك يخفف الله حسابك»(٢)، إنّ ما يخفف العذاب يوم القيامة ليس التزام الصلاة والصيام وسائر العبادات فحسب، وإنما حسن الخلق هو أكثر ما يخفف على الإنسان العذاب. وورد في مقابل ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «سوء الخلق ذنب لا يُغفر»(٣)، فقد يُغفر للإنسان تقصيره في صلاته وصيامه ووضوئه، إلاّ أنّ سوء الخلق يبقى ذنبًا لا يُغتفر وفقًا للحديث النبوي الشريف، ذلك أنّ سوء الخلق سلوك متعلق على نحو مباشر بحقوق الآخرين، فالله سبحانه لا يغفر للمرء الذنوب المتعلقة

---

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج١٤، ص٢١٠.

(٢) محمد بن علي بن بابويه القمي. أمالي الشيخ الصدوق، طبعة ١٣٨٩هـ، (النجف: المطبعة الحيدرية)، ص٢٧٨.

(٣) كنز العمال، ج٣، ص٤٤٣، حديث ٧٣٦٣.

بالآخرين، إلّا أن يتنازلوا عن حقوقهم.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه»[١]، فلو كان لدى المرء ملف خاصّ به يوم القيامة، فسيكون العنوان الأبرز على ذلك الملف لحظة الفرز هو ما إذا كان هذا المرء حسن الأخلاق أم صاحب خلق سيئ، فالأخلاق هي عنوان صحيفة المؤمن، لذلك ينبغي الحرص على العنوان المناسب الذي يريد أن يجده الإنسان على صحيفته في الآخرة. ونختم بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «إنّ العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة»[٢]، وهذا الحديث وإن كان يُعلي من شأن الأخلاق الحسنة، إلاّ أنّه لا يعني بطبيعة الحال التقليل من شأن العبادة، بقدر ما يعني رقي وعلوّ مكانة حسن الأخلاق عند الله سبحانه وتعالى.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٩٢، حديث ٥٩.

(٢) كنز العمال، ج٣، ص٥، حديث ٥١٤٩.

الأخلاق الفاضلة التزام دائم

هناك لونان من الأعمال والممارسات التي تصدر من الإنسان:

اللون الأول: أعمال ضمن ما اعتاد عليه الإنسان وأصبح جزءًا من برنامجه.

أما اللون الثاني فهي الأعمال العارضة التي تحتاج إلى تفكير وتوجه للقيام بها.

اللون الأول يطلق عليه عادات. وهي ما تعوّد الإنسان ممارسته، دون حاجة إلى تفكير؛ لأنه اعتاد وألِف ممارسته، فيسهل عليه. ومعظم أعمال الإنسان وتصرفاته من هذا النوع. فالإنسان كما يقول علماء النفس: مجموعة من العادات تمشي على الأرض في كلامه ولباسه وشربه ومختلف ردود فعله، يتصرف في كلّ شيء غالبًا من وحي ما اعتاد عليه، يؤديه تلقائيًّا. كطريقته في المشي والكلام واللباس. والإنسان يقوّم من خلال عاداته التي ألِفها وليس من خلال الأشياء الاستثنائية الطارئة، لهذا عليه أن يراعي هذا الجانب أكثر من مراعاته للأمور الاستثنائية في حياته.

قالوا: إن العادة إنما تتحقق عند الإنسان إذا تحقق أمران: الميل النفسي للعمل، وتكرار العمل. وإذا توفر أحد الأمرين دون الآخر فإنه لا يتحول إلى عادة. فالمريض مثلًا قد يستمر مدة في تناول الدواء لكن ذلك لا يُعدّ عادة؛ لأنه لا يحبّه، بعكس التدخين مثلًا حيث يقوم به المدخن برغبة منه.

إنّ على الإنسان أن يعوّد نفسه الأشياء الطيبة فيكررها ويؤديها برغبة. يقول أمير

المؤمنين عليه السلام: «عوّد نفسك الجميل»[١]، وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «عود نفسك السماح، وتخير لها من كل خلق أحسنه»[٢]. فكر في الطريقة المثلى للمشي مثلاً، ورغّب نفسك فيها وكررها، وهكذا طريقة الكلام والتعبير عمّا في النفس، عوّد نفسك لغة مناسبة تستخدمها، إذا كررت الأسلوب وشوقت نفسك إليه تصبح عادة جميلة. علي عليه السلام يقول: «عوّد نفسك الجميل فإنه يجمّل عنك الأحدوثة ويجلب لك المثوبة»، أي إن حديث الناس عنك سيكون جميلًا، وأيضًا تنال الثواب العظيم من الله تعالى.

تنمية العادات الحسنة

يتعلل البعض بأن طبعي هكذا ولا يمكنني تغييره. هذا خطأ، فكلّ الطباع يمكن استبدالها ببذل الجهد والوقت وتحفيز الذات. الأعمال الطيبة تارة تصبح برمجة في النفس يمارسها الإنسان دائمًا، وتارة تكون لبعض الظروف فقط. ومن الأمثلة على ذلك:

- إنسان يعوّد نفسه إلقاء التحية على من يقابله، أيًّا كان، بينما البعض يتأمل في مَنْ يريد السلام عليه هل يعرفه أم لا؟ يستحقّ أو لا؟! فهذا لا يكون إلقاء التحية عادة عنده. فيما يطالب الإسلام بأن تكون هذه عادة: «من لقيته فحيّه».
- في آداب وأنظمة المرور يلزم بعض الناس أنفسهم التقيّد بها، يربط حزام السلامة، يتقيد بالإشارات وحدود السرعة. بينما البعض الآخر إذا مرّ على نقطة تفتيش ربط حزامه! وإذا كان هناك مراقبة تقيّد بالإشارات!

يحتاج الإنسان أن يبرمج نفسه على أن تكون الممارسات الطيبة طبيعة عنده، في سلوكه وكلامه وتعامله مع الناس، بغضّ النظر عمّن يكون أمامه ومن يتعامل معه. بعض الناس يحسن التعامل مع البعيدين، حفاظًا على سمعته، لكن القريبين

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٣٢.

منه يتهاون في التزام الأخلاق معهم، بما قد يؤذيهم، هذا يعني أن حسن التعامل لم يصبح عادة. كتب أحد الشباب يقول: دخل معي أبي في حوار على مواقع التواصل الاجتماعي، وهو لا يعرف أني ابنه، حيث كنت أكتب باسم مستعار، بينما كنت أعلم أنه والدي، وكان لي رأي خلاف رأيه. بينت له رأيي، فاختلف معي ولكنه قال لي: هذا رأيك وأنا أحترمه ولي رأي آخر. يقول الشاب: في البيت فتحت النقاش حول الموضوع نفسه واختلفنا، فغضب الأب وقال: (انطم وكل تبن) كما يُعبّر باللهجة الدارجة!

هذه ازدواجية، تدلّ على أن حسن التعامل ليس عادة عنده، وإنما حسب الظروف والأشخاص، مع امرأة أجنبية يتعامل بشكل حسن، مع زوجته لا، خارج البيت جيّد، وداخله غير ذلك. في بلده يحسب حسابًا لتصرفاته وأخلاقه، وفي السفر لأن الناس لا يعرفونه لا يرى نفسه مقيدًا بالآداب والأخلاق. الإنسان ينبغي أن يلزم نفسه الأخلاق الكريمة مع الجميع، وأينما كان، وفي مختلف الظروف.

كم من المشاكل تحدث على هذا الصعيد، قالوا إنّ شخصًا كان جالسًا في مطعم ونظر إلى من حوله وتحدث عنهم بسوء لأنهم كما اعتقد لا يعرفون لغته، وعند انصرافه مرّ بهم فقال له أحدهم: شكرًا لك، فصعق لذلك وخجل واعتذر إليهم. لماذا أسأت الحديث عنهم؟ فقط لأنهم لا يعرفون لغتك!؟ النبي ﷺ كان يمنع لعن الدواب، حتى لا يتعود الإنسان هذه الألفاظ النابية، وعلي عليه السلام يؤكد أن على الإنسان تعويد نفسه دائمًا وأبدًا على الفعل والكلام الجميل، ألّا يكون التزامك الأخلاق والعمل الجميل من وحي الظروف والمصلحة وإنما برمجة للنفس على الأمور الطيبة. «عوّد نفسك الجميل»، لا شأن لك بالطرف الآخر، الورود ذوات الروائح العطرة تكون للجميع لا تتغيّر، مَر بها إنسان أو حيوان، مؤمن أو كافر، فلتكن نفسك كالورود، تنبعث منك الروائح الجميلة بأخلاقك وتعاملك الحسن، «فإنه يجمل عنك الأحدوثة ويجزل لك المثوبة».

التديّن الموروث والبعد الأخلاقي

الدين رؤية للحياة، وقيم وشرائع أنزلها الله تعالى لهداية عباده، وإصلاحهم وإسعادهم.

والتدين هو التزام الدين عبر الإيمان برؤيته، وتبنّي قيمه، وتطبيق شرائعه.

لكن فهم الدين وتنفيذ تعاليمه قد تلحقه بعض الشوائب والانحرافات في مختلف الأجيال والمجتمعات، فتكون هناك صورة سائدة للدين، وشكل متداول لممارسته، من وحي الظروف والبيئة الاجتماعية للمنتمين إلى الدين.

لذا يتوجب على أبناء كلّ جيل أن يعيدوا فحص وقراءة ما تلقّوه من أسلافهم من الدين، عبر الانفتاح المباشر على المنابع والمصادر الدينية الأصيلة، ودراسة مستجدات حياتهم وتطورات عصرهم الذي يعيشون فيه.

ولا يصحّ الاسترسال مع الموروث الديني فهمًا وممارسة اعتمادًا على الثقة بالأسلاف؛ لعدم إحراز عصمتهم من الخطأ، ولأنّ تقدم الزمن، وتطور الحياة، واختلاف الظروف، قد يفرض تغييرًا في الفكر، أو اختلافًا في البرامج وأنماط السّلوك.

من هنا كانت ممارسة الاجتهاد في فهم الدين واستنباط أحكامه، فريضة قائمة على أبناء كلّ عصر ومجتمع، يجب أن يتصدى لها من تتحقق بهم الكفاية اللازمة، ويكونون بمستوى الحاجة والمطلوب.

ومن هنا أيضًا كان الأمر بالنظر في الكون، والتأمل في سنن الحياة، والتدبر في آيات القرآن الكريم، أمرًا موجّهًا إلى جميع الأجيال والأفراد. وليس خاصًّا بأبناء جيل خاصّ أو أفراد محدّدين.

ولا معنى لهذا الأمر إن لم تترتب عليه آثار في العلم والعمل.

الأخلاق والتدين الموروث.

يركز التدين التقليدي الموروث في مجتمعاتنا غالبًا على جانبين من الدين:

الجانب الأول: هو المعتقدات، **والجانب الثاني**: هو العبادات والشعائر الدينية، ولسنا الآن في معرض البحث عن تفاصيل هذين الجانبين، لكننا نريد الإشارة إلى ضعف الاهتمام في التدين التقليدي بجانب آخر من الدين وهو جانب الأخلاق والسلوك الاجتماعي.

حيث يفخر المتديّن بإيمانه العقدي، ويعتزّ بانتمائه لهذا الدين وهذا المذهب، ولا يقبل الانتقاص من شيء من متبنياته الدينية، كما يحرص على أداء عباداته من صلاة وصوم وحج، بدقة قد تصل إلى حدِّ الهوس والوسواس، ويهتم بالمشاركة في الشعائر والطقوس المذهبية متحدّيًا الضغوط والعقبات.

لكن هذا المتديّن نفسه قد لا تراه حريصًا على تنمية ذاته وتطوير مهاراته وكفاءاته، ولا يبدي الجدية في تحمل مسؤولياته، ولا يهتم بالإتقان في عمله ووظيفته.

يدقّق في مراعاة أحكام الطهارة والصلاة، ولكنه يتساهل في مراعاة حقوق الآخرين في محيطه العائلي والاجتماعي.

يصرف الجهد والوقت في المشاركة في المراسيم والشعائر الدينية، لكنه يبخل حتى بالقليل من جهده ووقته في الأعمال التطوعية، ومؤسسات الخدمة الاجتماعية.

ينفق الكثير من ماله في رحلات الحج والعمرة، وزيارة العتبات المقدسة، لكنه لا يتفقد أحوال الفقراء والمساكين في مجتمعه.

وقد أنتج هذا النمط من التديّن التقليدي مجتمعات تقلّ فيها الكفاءات، وينخفض مستوى الإنتاج، وتنتهك حقوق الإنسان، ويتضاءل العمل التطوعي، ويتدنى التكافل الاجتماعي، وذلك لغياب الاهتمام وضعف التركيز على الجانب الأخلاقي من رسالة الإسلام.

محورية الأخلاق في الدين:

حين نتأمل آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الشريفة، وهما المصدر الأساس لفهم الدين، ومعرفة قيمه وتشريعاته، نجد للبعد الأخلاقي فيهما مقام الأولوية وموقع الصدارة، فالأخلاق ليست قضية كمالية ثانوية، تدخل في نطاق المستحبات والمندوبات، كما ينظر إليها التديّن التقليدي، بل هي الغاية والمقصد الأساس في الدين.

حيث تضع أكثر من آية في القران الكريم مهمة التزكية في طليعة وظائف النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[سورة الجمعة، الآية:٢]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[سورة البقرة، الآية:١٥١].

وفي مورد آخر يُحدّد القرآن الكريم هدف رسالات الأنبياء، ومقصد الوحي الإلهي، بأنه اقامة العدل في حياة البشر، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[سورة الحديد، الآية:٢٥].

ويحصر رسول الله ﷺ مهمة بعثته فيما روي عنه بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١]، وفي حديث آخر: «إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[٢]، وفي حديث

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص٢١٠.

(٢) كنز العمال، ج٣، ص١٦، حديث ٥٢١٨.

ثالث: «بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها»(١).

أما المعتقدات الدينية من الإيمان بالله وبالوحي وبالمعاد يوم القيامة، فإنّ المطلوب تجلّي آثارها في أخلاق الإنسان وسلوكه الشخصي والاجتماعي، وإذا لم تتحقق تلك الآثار، فذلك يكشف عن زيف الإيمان، ووهن الاعتقاد، وهذا ما تصرح به سورة الماعون، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون].

كما تقرن عشرات الآيات الكريمة ذكر الإيمان بالعمل الصالح الذي هو ثمرة الإيمان، والكاشف عن صدقيته، كقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية:٦٢]، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [سورة الكهف، الآية:٨٨]، ﴿ وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[سورة العصر].

إلى جانب المعتقدات، فإنّ العبادات الدينية تستهدف تعزيز القيم الأخلاقية في نفس الإنسان، لتنعكس على سلوكه وممارساته، فحين تتحدث سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد عن حِكم العبادات وعلل التشريعات، نراها تركز على الغايات الأخلاقية، تقول عليها السلام: «فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك، و الصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، و الصيام تثبيتًا للإخلاص، و الحج تشييدًا للدين، والعدل تنسيقًا للقلوب»(٢)، ونجد في النصوص الدينية في مجال علل الأحكام وحكم التشريعات كثيرًا مما يؤكّد هذه الحقيقة.

الأخلاق وسيلة التقرب إلى الله

من الطبيعي أن يسعى المتديّن لعمل ما يقرّبه إلى الله سبحانه، ويؤهّله لرضاه،

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٨٧، حديث١٤٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص٢٢٣.

ولنيل المزيد من الأجر والثواب.

ولأن الثقافة الدينية التقليدية تركز على ذكر فضل الأعمال العبادية والبرامج الشعائرية، لذلك يقبل المتديّنون عليها، ويتنافسون على المبادرة إليها، والقيام بها.

فصلاة النوافل، والصيام المستحب، وتكرار الحج والعمرة، وزيارة العتبات المقدسة، وإقامة الشعائر الحسينية، وبناء المساجد والحسينيات، كلّها أمور تشهد إقبالًا واهتمامًا كبيرًا من قبل جمهور المتديّنين، بسبب ما غرس في قلوبهم ونفوسهم من فضل هذه الأعمال، وما أعدّ الله للقائمين بها من أجر وثواب.

وينبغي لنا أن نسرّ ونفخر بالإقبال على هذه البرامج العبادية والشعائرية؛ لأنّها جزء لا يتجزأ من الدين، والإقبال عليها مكسب للحالة الدينية.

لكن الإشكال يكمن في تجاهل الثقافة التقليدية؛ لأهمية القضايا الأخلاقية والسلوكية، وضعف التركيز على دورها في بناء شخصية الإنسان المتديّن، وعدم تداول ما ورد من النصوص في فضلها وثواب وأجر التحلي بها.

مع أننا نجد كثيرًا من النصوص الدينية التي ترجّح بعض السلوكيات الأخلاقية على كثير من الممارسات العبادية، وتتحدث عن ثواب وأجر كبير عند الله سبحانه وتعالى لذوي الأخلاق الفاضلة والمواقف النبيلة.

وحين نقرأ حديث القرآن عن أهمّ صفات المؤمنين الصالحين، نرى الحضور المكثف للصفات الأخلاقية، إلى جانب السمات العقدية والعبادية، كالآيات الأخيرة من سورة الفرقان حيث بدأت بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾[سورة الفرقان، الآية:٦٣]، مرورًا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾.

وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حسن خلقه بلغه الله درجة الصائم

القائم»(١).

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة»(٢).

وعنه ﷺ: «ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»(٣).

وعنه ﷺ: «إنّ أحبّكم إليَّ وأقربكم مني يوم القيامة مجلسًا أحسنكم خلقًا وأشدّكم تواضعًا»(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله»(٥).

سوء الخلق إثم أكبر

إذا كان المتديّن يحذر من الوقوع في الذنوب والمعاصي، ويتجنّب ما يوجب سخط الله وغضبه، فعليه أن يعلم أن ذلك لا يقتصر على ترك الواجبات العبادية، أو ارتكاب الآثام الشخصية، بل إنّ سوء التعاطي والتعامل مع الآخرين قريبين كانوا أم بعيدين، هو من أكبر المعاصي وأشدّ الذنوب والآثام، وهذا ما تؤكّده نصوص دينية كثيرة:

- فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سوء الخلق ذنب لا يغفر»(٦).
- قيل لرسول الله ﷺ: «إنّ فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل وهي سيئة الخلق

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٦٣.
(٢) كنز العمال، ج٣، ص٥، حديث ٥١٤٩.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٥١، حديث ١٥٩١٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص٣٨٥، حديث٢٦.
(٥) الكافي، ج٢، ص١٠١، حديث١٢.
(٦) كنز العمال، ج٣، ص٤٤٣، حديث ٧٣٦٣.

تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها، هي من أهل النار»[١].

- عن النبي ﷺ عند دفن سعد بن معاذ أنه قال: قد أصابته ضمّة، فسئل عن ذلك فقال: «نعم، إنه كان في خلقه مع أهله سوء»[٢].
- وورد عنه ﷺ قوله: «إنّ العبد... ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك جهنم»[٣].
- ويتحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن اتّساع عفو الله تعالى لأيٍّ تقصير يحصل من الإنسان تجاه ربه، لكن عدوان الإنسان على شيءٍ من حقوق أخيه الإنسان المادية أو المعنوية، هو ذنب غير قابل للتجاوز من قبل الله تعالى، حتى يسترجع صاحب الحقّ حقّه، يقول: «أَلَا وَ إِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَ ظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَ ظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً»[٤].

هكذا تبدو محورية الأخلاق وأولويتها من خلال الفهم الواعي للدين، مما يوجب إعادة النظر في الثقافة التقليدية السائدة، التي تبخس هذا البعد الخطير حقّه.

وتشتد الحاجة لإعادة صياغة الخطاب الديني في هذا العصر، وتغيير سلّم الأولويات والاهتمامات في طروحاته، لما تواجهه مجتمعاتنا من تحدّيات نابعة من سرعة تطور وتيرة الحياة، ومن الانفتاح الواسع على سائر الثقافات والمجتمعات.

إننا بحاجة لخطاب ديني يحفّز دوافع الخير في نفس الإنسان، ليكون أكثر كفاءة وفاعلية وعطاءً، وإلى ثقافة دينية تبثّ روح المحبّة والتسامح واحترام الحقوق المتبادلة بين الناس، ليصبحوا أقدر على التعايش والتعاون لخدمة مصالحهم المشتركة.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص ١٦٦.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق، ج٢، ص٣١٥.

(٣) كنز العمال، ج٣، ص٥، حديث ٥١٤٩.

(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

العبادات والتربية الأخلاقية

عندما نتأمل فلسفة تشريع الحج، وكذا جميع العبادات الدينية، ونستقرئ الأحكام والآداب المرتبطة بها، نجد أنها تستهدف غرضين أساسين:

الأول: توثيق صلة الإنسان بربه، عبر ذكر الله، وحمده، ودعائه، وتأكيد حالة العبودية والطاعة له تعالى.

الثاني: التربية على التزام القيم والأخلاق، ورعاية النظام في إدارة شؤون الحياة.

فكلّ عبادة من العبادات لها توقيتها ونظامها، فلا تؤدّى حسب المزاج، وفي أي ّوقت، كما أنّ لها أحكامًا تفصيلية دقيقة، تربي الإنسان على الانضباط والتركيز والإتقان.

فعلى سبيل المثال: وقت صلاة الظهر، عند زوال الشمس، فلا يصح أن تؤدى قبل وقتها بدقيقة واحدة، وصلاة الفجر (ركعتان)، فلا يجوز أن يتبرع الإنسان بزيادة ركعاتها، وهكذا بالنسبة للصوم والحج، لكلّ عبادة من العبادات وقت مخصص، يقول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾، وكلّ منسك في الحج له حدود ووقت وعدد، فالطواف معيّن بعدد، وكذا السعي، ورمي الجمار.

هذه الأحكام التفصيلية تربي الإنسان على الانضباط والإتقان، حتى يكون ذلك نهجًا له في إدارة أمور حياته.

كذلك فإنّ العبادات لا تؤدى إلّا بنية وقصد، ليكون الإنسان في جميع شؤونه واعيًا لما يريد الإقدام عليه، هادفًا فيما يمارس ويتصرف.

من جهة أخرى، فإنّ العبادات التي تؤدى بشكل جماعي مثل صلاة الجماعة أو الحج، فيها أحكام وآداب لأدائها الجماعي.

هناك أحكام تنظم علاقة إمام الجماعة وسائر المأمومين، وكذلك في الحج، حتى تكون العبادات في أجوائها الاجتماعية أنموذجًا للعلاقات بين أفراد المجتمع في

سائر مجالات الحياة.

الغفلة عن مقاصد العبادات

لكن كثيرًا من الناس يغفلون عن هذين الغرضين في أدائهم للعبادات الدينية، يؤدي العبادة ويغفل عن غرضها، إما بسبب الجهل، أو لتحول العبادة إلى حالة طقوس روتينية، يؤديها الإنسان فارغة من المضمون، فتفقد روحها، ولا تودي غرضها في حياة الفرد والمجتمع!!

من هنا فإنّ النصوص الدينية تؤكد على غرض العبادة وغايتها، يتحدث القرآن الكريم عن غرض الصلاة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ هذا هدف سامٍ للصلاة، وعلى الإنسان أن يقيس صلاته على أساس تحقيق هذا الهدف.

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فالصوم له غاية وهي التقوى، لا بُدّ من السعي لتحصيلها من خلال هذه العبادة، وعن (الهدي) في الحج يقول الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، ويقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، فالمفروض أن تؤدى مناسك الحج في أجواء قيمية أخلاقية، تحفها الآداب، واحترام حقوق الآخرين، ومراعاة أحكام الله، فهي من أهداف هذه العبادة، حتى يتربى الحاج على الالتزام بهذه القيم والأخلاق، أما إذا أدى عبادته دون أن يهتم بغرضها، تكون فاقدة للروح، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ بها مِنَ الله إِلَّا بُعْدًا»[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يُطِعِ الصَّلَاةَ، وَطَاعَةُ الصَّلَاةِ تَنْهَاهُ عَنِ

---

(١) السيوطي. الدر المنثور في التفسير بالماثور، ج٦، ص٤٦٥.

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنْ قُبِلَتْ صَلاتُهُ أَمْ لَم تُقبَلْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ مَنَعَتْهُ صَلاتُهُ عِنَ الفَحشاءِ وَالمُنْكَرِ، فَبِقَدَرِ ما مَنَعَتْهُ قُبِلَتْ»[٢].

وعنه عليه السلام: «لَا تَغْتَرُّوا بِصَلَاتِهِمْ وَلَا بِصِيَامِهِمْ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا لَهِجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ، وَلكِنِ اخْتَبِرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»[٣].

البعض يحمل همّ أداء العبادة، وكأنها ثقل يريد التخلص منها، بأيّ طريقة كانت، دون أن يلتزم بالضوابط ومراعاة القيم والأخلاق، وهذا خطأ كبير ينشأ عن الجهل أو الغفلة.

أداء الحج والتزام القوانين

فريضة عظيمة فرضها الله على كلّ إنسان مرة واحدة في عمره مع شرط الاستطاعة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

الاستطاعة الشاملة تعني توفر الوقت والصحة والمال والطريق الآمن، وأن يرجع إلى كفاية، فإن كان الحج يؤدي به إلى الحاجة بعد رجوعه لم يجب عليه.

فإذا ذهب الإنسان للحج بتكلّف وهو غير مستطيع، كأن يكون عليه دين، أو يرجع إلى دون الكفاية، فحجه هذا لا يسقط عنه الواجب الشرعي، حيث لا ينبغي أن يؤدى الحج كيفما اتفق، بل لا بُدّ أن يكون في إطار القيم والنُّظُم والضوابط.

ومن المسائل التي ينبغي التنبيه إليها لأداء الحج في هذا الزمن، مراعاة الأنظمة والقوانين التي وضعتها الحكومات لمواطنيها.

إنّ عدد المسلمين الآن (مليار وستّ مئة مليون نسمة) وإذا فتح المجال أمامهم

---

(١) ابن كثير. تفسير ابن كثير، ج٦، ص٢٥٤.

(٢) الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٩، ذيل الآية: ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٣) الكافي، ج٢، ص١٠٤، حديث٢.

للحج، فسيأتي منهم عشرات الملايين، والأماكن المقدسة في وضعها الحالي لا يمكنها أن تستوعب عشرات الملايين، طاقتها الاستيعابية محدودة، لذلك اتفقت الدول الإسلامية على نسبة معينة لكلّ دولة، فقد اتفق وزراء خارجية الدول الإسلامية، على كيفية تحديد نِسَبِ الحجاج كلّ عام، في مؤتمرهم السابع عشر في عمَّان بالمملكة الأردنية الهاشمية، من ٣ - ٧ شعبان ١٤٠٨هـ الموافق ٢١ - ٢٥ آذار/ مارس ١٩٨٨م، قرار رقم ٢١/ ١٧ - س، بأن تكون نسبة حجاج كلّ دولة، هي حاصل قسمة عدد سكان الدولة على عدد المسلمين في العالم[١]، وحتى لمواطني المملكة والمقيمين فيها هناك نظام لا يسمح لهم بتكرار الحج إلّا بعد مرور خمس سنوات على تاريخ أداء الحج[٢].

فالدول تضع قوانين لتنظيم حج مواطنيها، فكلّ من يرغب في الحج يسجل اسمه في قائمة الراغبين، وينتظر دوره، وفي بعض البلدان يستمر الانتظار سنوات عديدة، قد تصل إلى عشر سنوات.

هذه الضوابط والقوانين تجب مراعاتها، فإذا وجب الحج على المسلم، والقانون لا يسمح له في هذا العام، لأنه لم يأتِ دوره، هنا يسقط الوجوب عنه هذا العام، فكيف إذا كان الحج مستحبًّا؟!

البعض يحاول بمختلف الطرق أن يذهب إلى الحج، مع أنّ القانون لا يسمح بذلك!!

والقانون وضع رعاية لمصلحة الحجيج، فلو فسح المجال دون تحديد، وزاد العدد فوق الطاقة الاستيعابية، فلن يكون ذلك في مصلحة انتظام أمور الحج.

وإذا كان الحج الواجب يسقط عن المكلف إذا لم ينطبق عليه القانون، فمن باب أولى أن يتجنب الإنسان مخالفة القانون للحج المستحب، وذلك لعدة أمور:

---

(١) مجلة البحوث الفقهية المعاصرة العدد ٩٨، بحث بعنوان: حكم تحديد أعداد الحجاج والمدة الزمنية بين حجة وأخرى.

(٢) جريدة الجزيرة، ٢٠ شوال ١٤٢١هـ.

أولًا: مزاحمة من يأتون للحج الواجب.

ثانيًا: مخالفة النظام والقانون.

ثالثًا: التعرض للإهانة والمشقة.

وقد أكد المرجع السيد السيستاني ـ حفظه الله ـ على لزوم مراعاة القوانين التي توضع للحجاج في كلّ الدول، ومن جملتها في داخل المملكة حيث لا يجوز مخالفة هذه القوانين.

وفي الإجابة عن سؤال: حول التحايل على مؤسسة الحج بأن يدّعي كذبًا أو تورية توفر بعض الشروط التي تسمح لمن تتوفر فيه بأداء الحج استثناء عن الضوابط العامة؟

أجاب: إذا كانت المؤسسة المعنية تطبق العدالة في إيفاد الحجاج لم يجز التخلف عن قوانينها بما ذكر أو نحوه[١].

البعض قد يعرض نفسه للإذلال والإهانة أو المضايقة، بأن يوقف ويحتجز، أو يعاد فورًا من حيث جاء لأنه ليس لديه تصريح للحج، والشرع لا يريد من المسلم أن يودي العبادة بهذه الطريقة المذلة!!

وحسب الإحصائيات الصادرة عن حج عام ١٤٣٩هـ ألقي القبض على ٢٧٦٠ ناقلًا مخالفاً لحجاجٍ غير نظاميين، وبلغ إجمالي المركبات التي تمت إعادتها من منافذ العاصمة المقدسة ١٥٧,٣٣٥ مركبة[٢].

مراعاة الأخلاق

العبادات ينبغي أن تربي الإنسان على الأخلاق، ومراعاة حقوق الآخرين

---

(١) السيد السيستاني. مناسك الحجّ وملحقاتها، ص١٥.

(٢) يشار إلى أنّ أمير مكة المكرمة أعلن عن إحصائيات يوم الثامن من ذي الحجة كشفت عن ضبط ١٦٠ حملة حج وهمية، والقبض على (٩٠٧,٥٤٥) مخالفين لأنظمة الحج والعمرة، وإعادة (٩١١,٢٣١) مركبة مخالفة. جريدة عكاظ الاثنين ٩ ذو الحجة ١٤٣٩هـ - ٢٠ أغسطس ٢٠١٨م.
https://www.okaz.com.sa/article/1665332

ومشاعرهم، وفي الحج حيث يزدحم الحجيج في أداء المناسك، يُغفل البعض هذا الجانب، ويُبرز عضلاته في الطواف والسعي ورمي الجمار، ويؤدي أعماله بشدة وقوة، دون مراعاة لمن حوله!!

هؤلاء مسلمون، وفيهم نساء وضعفاء، وكبار سنّ، لكن البعض من أجل أن ينهي أعماله بسرعة، أو يكون أقرب إلى الكعبة يؤذي من حوله بشدته وعنفه!!

ونرى المشاهد نفسها عند أضرحة الأئمة عليهم السلام!!

وهذا ينطبق أيضًا على صلاة الجماعة، والتجمع في الحسينيات والمواكب، حيث ينبغي مراعاة الأنظمة والأعراف، وعدم مضايقة جيران المسجد أو الحسينية، أو إيقاف السيارات بصورة غير مناسبة.

بعض المساجد تزعج الجيران بمكبرات الصوت، وهذا لا يجوز شرعًا، ويستثنى من ذلك الأذان فقط، باعتباره إعلانًا للصلاة، أما أداء الصلاة، وإلقاء الخطب، والدعاء والبرامج الأخرى فلا يجوز استخدام مكبرات الصوت بحيث تزعج الجيران.

لماذا نخلق عند الناس نفورًا من الصلاة ومن برامج المسجد؟!!

بعض من يسكنون بجوار المساجد أو الحسينيات يتمنون أن يبيعوا بيوتهم بسبب الإزعاج الذي يحدث لهم!!

هذا تشويه للدين، لا ينبغي ممارسة العبادة بهذا الأسلوب.

القيم بين التغنّي والالتزام

من الطبيعي أن يمجّد الإنسان قيم الخير، لكنه يبقى باستمرار أمام تحدّي الامتثال لتلك القيم متى ما اصطدمت مع مصالحه الذاتية. إنّ قيم العدل والخير تنسجم مع فطرة وعقل الإنسان، وفيها حماية لحقوقه ومصالحه، لذلك فمن الطبيعي أن يمجّدها. لكن هذه القيم قد تتعارض أحيانًا، في مجال التطبيق، مع مصالح الإنسان ورغباته الآنية، فيكون حينئذٍ أمام امتحان عسير لمصداقيته، كمن يشيد بقيمة الحرية مثلًا، ثم يكون أعدى أعداء الحرية متى ما خالف تطبيقها رغبة من رغباته الذاتية. فهل يقبل المرء بهذه القيم سواء جاء تطبيقها لصالحه أم ضدّ مصالحه؟ أم أنه يقبلها متى ما كانت تصبّ في مصلحته فقط، وإذا ما تعارضت مع مصالحه فإنّ له رأيًا مختلفًا وموقفًا آخرا!

الازدواجية

ثمّة كثيرون يصدحون بالشعارات القيمية ليل نهار، لكن سرعان ما يفتضح موقفهم الحقيقي، عند تخلّيهم عن تلك القيم ساعة التطبيق. وهذا يشبه إلى حدٍّ ما، ذلك الشاب الذي لا يملك ثروة ولا مالًا عند بواكير شبابه، فتجده كثيرًا ما ينتقد بخل الأغنياء، وإحجامهم عن العطاء ومساعدة مجتمعاتهم، فإذا ما أتيحت لهذا الشاب الفرصة وصنع له ثروة نتيجة جدّه واجتهاده، وتهيؤ الظروف المناسبة له، ليصبح ضمن شريحة الأثرياء، فإذا به يصبح أشدّ بخلًا من أولئك الأغنياء الذي كان يكيل لهم سيلًا من الانتقادات الحادّة!. وقد تناول القرآن الكريم هذا النوع من الناس

في الآية الكريمة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّـهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّـهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[سورة التوبة، الآيات:٧٥-٧٧].

إنّ ذات الأمر ينطبق على الشأن السياسي. فهناك جهات طالما رفعت صوتها بالشعارات عاليًا وهي في صفوف المعارضة، لكنها حين وصلت للحكم وأصبحت بيدها مقاليد السلطة، أصبحت أسوأ بمراحل ممن كان في السلطة قبلها. ولطالما تكرر هذا المشهد في عالمنا العربي على يد أحزاب وشخصيات.

وعلى المستوى الشخصي هناك صنف من الناس، لديهم نزعة شديدة نحو تقويم الآخرين، إلّا أنّهم لا يرون أنفسهم ضمن دائرة التقويم! فأمثال هؤلاء لا يترددون في إخضاع آراء ومواقف الآخرين للمحاكمة وفق معيار القيم، فيهاجمون هذا الرأي بشدة، وينتقدون ذاك الموقف بحدّية بالغة، والسؤال؛ هو ما إذا كانت مواقف هذا الشخص نفسه وآراؤه منسجمة مع القيم التي يحتكم لها أم لا؟ ولو تناولنا في هذا الصدد مثلًا واحدًا وهو الانضباط المروري، فسنجد البعض ينتقدون بعنف المخالفين لأنظمة المرور، غير أنّهم هم أنفسهم ممن يخرق أنظمة المرور، ويبررون لأنفسهم تلك الخروقات بتبريرات واهية. وعلى غرار ذلك تجد من ينتقد غياب الانضباط عند الموظفين في الدوائر المختلفة، إلّا أنه بارع في اختلاق الأعذار لنفسه عند بروز التقصير منه شخصيًّا. من هنا ينبغي القول، إنّنا حينما نحاسب الآخرين على أساس القيم، فالمطلوب أن نحكّمها على سلوكنا وتصرفاتنا.

ولعلّ إحدى القضايا الشائكة في هذا الصدد هي قضايا الرأي وحرية التعبير. فحين يتعلق الأمر بالحقّ في ضمان حرية التعبير عن الرأي، فإنّ البعض يلحّ في المطالبة، وينتقد بشدة تكميم الأفواه، ويكرر الاستدلال بالآية «لا إكراه في الدين»، لكن في مقابل ذلك لا يجرؤ هؤلاء أنفسهم على ضمان حرية التعبير لأقرب الناس

إليهم، من أصحاب الآراء المخالفة لاجتهاداتهم وتوجّهاتهم، بل ويزيدون على ذلك بتبرير موقفهم القمعي بقذف مخالفيهم في الرأي بأنهم من أهل الضلال، وغير ذلك من عبارات التشنيع!، فإذا كنتم أنفسكم تنتقدون الآخرين لعدم ضمانهم حرية التعبير لكم، فلماذا تتقصمون ذات الموقف، فلا تعترفون للآخرين بحرية الرأي؟ أليست هذه ازدواجية مفضوحة؟!

المصداقية

وتشدّد الشريعة على تحلّي الفرد المسلم بالمصداقية، وقرن القول بالعمل. فأيُّ شعار وقيمة يرفعها المرء لا بُدّ وأن يلتزمها هو أولًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّـهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[سورة الصف، الآيتان:٢-٣]، وعلى هذا النحو تنطوي الكتب الحديثية، من قبيل كتاب الكافي وبحار الأنوار على باب مهم بعنوان «من وصف عدلًا ثم عمل بغيره»، أو بعنوان «من وصف عدلًا ثم خالفه»، وتجمع هذه الأبواب الأحاديث والروايات التي تتناول هذا السلوك ومن تلك النصوص ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ من أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلًا ثم خالفه إلى غيره»، يقول الشيخ المجلسي في بحار الأنوار[1] تعقيبًا على هذه الرواية: «إنما كانت حسرته أشدّ لوقوعه في الهلكة مع العلم»، أي إنّ هذا نفسه الذي يتحدث عن العدل، هو يعرف جيّدًا معنى العدل لكنه يوقع نفسه في خلافه، وكذلك الأمر مع الذي يتشدّق بالحرية ثم يفعل العكس، فهؤلاء يقعون في الخطأ مع علمهم المسبق بهذا الخطأ، ويضيف الشيخ المجلسي بأنّ هذا «أشدّ من الوقوع فيها بدونه»، أي بدون علمه، «لمشاهدته نجاة الغير بقوله، وعدم نجاته به».

أسباب الازدواجية

وهنا تساؤل عن تفسير وقوع بعض الناس في هذه الازدواجية بين القول والفعل؟

---

(١) بحار الأنوار. ج٦٩، ص٢٢٤.

وللإجابة عن هذا التساؤل يمكن إيراد سببين رئيسين لهذه الازدواجية:

أولهما: عدم تجذّر هذه القيم في النفوس، حيث لا تتجاوز لقلقة اللسان، كما يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٧].

أما السبب الآخر: فيكمن في البيئة الحاضنة، حينما يعيش المرء في بيئة تعزّز تطبيق القيم والتزامها، فهذه البيئة ستكون مساعدة بدرجة كبيرة، وعلى النقيض من ذلك إذا عاش المرء في بيئة تسودها مخالفة القيم، وتبدأ البيئة الحاضنة بالتربية، فحين يتربى الطفل على التزام القيم في المنزل والمدرسة، إضافة إلى وجود قانون يحمي القيم ويرعى تطبيقها، ووجود رأي عام اجتماعي يعترض على كلّ مخالف لتلك القيم، هذه العناصر بمجملها تمثل بيئة حاضنة تجعل الناس يلتزمون القيم، أمّا في حال غياب هذه البيئة، فإنّ القيم تتحول إلى مجرّد شعارات، كما هو حاصل بالفعل في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فبالرغم من كثرة الحديث عن القيم إلّا أنّ واقعنا لا يزال أبعد ما يكون عنها.

وعلى نحو الإيضاح لمدى أهمية البيئة الحاضنة التي تُعزّز تطبيق القيم والتزامها في المجتمع، نورد القصة التالية التي حدثت يوم الجمعة ١٨ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ (١٩ أبريل ٢٠١٤م) بجوار أقدم وأكبر المراكز الإسلامية في شمال أمريكا، وهو المركز الإسلامي في مدينة ديربورن بولاية ميتشيغن الأمريكية، الذي تأسّس سنة ١٩٦٤م على يد عالم الدين اللبناني الراحل الشيخ محمد جواد شري المتوفى سنة ١٩٩٤م رحمه الله، وجدّد بناء المركز سنة ٢٠٠٥ على مساحة ١١ ألف متر مربع، وكان يؤمّ الصلاة في المركز العلامة السيد حسن القزويني، وهو ممن يُفخر بهم من العلماء الواعيين، فهو عالم منفتح يعرف جيّدًا طبيعة وظروف الحياة في أمريكا، ويجيد التعامل مع مختلف الظروف المحيطة بالجالية الإسلامية هناك.

وفي اليوم الذي يصادف الجمعة العظيمة، أي يوم صلب المسيح بحسب التقويم الكنسي، عمدت امرأة للوقوف مقابل بوابة المركز الإسلامي، وكان المصلون

يفدون لأداء صلاة الجمعة، وكانت المرأة ترفع لافتة كبيرة مكتوب عليها؛ أنا أؤمن بعيسى؛ لأنّه حيّ، ولا أؤمن بمحمد لأنّه قد مات، وقد جاءها شاب من داخل المركز وسألها في حوار منشور عبر اليو تيوب عن معنى هذا الشعار الذي ترفعه، وعن سبب اختيارها هذا الوقت والمكان بالذات؟ علّلت المرأة موقفها بأن هذا اليوم يصادف الجمعة العظيمة وأنها أحبت أن تبلغ المسلمين في هذا المكان بموقفها من المسيح ومحمد على حدٍّ سواء، فردّ عليها الشاب بأن موقف المسلمين هو نفسه ما عبرت هي عنه حرفيًّا، فالمسلمون يؤمنون بأنّ الله تعالى قد رفع إليه نبيّ الله عيسى وهو لا يزال حيًّا، وأنّ النبيّ محمدًا قد مات، كما جاء في الآية الكريمة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٣٠]، وبذلك لا مشكلة ولا خلاف بيننا، فقالت المرأة إنّه ما دام لا مشكلة في محتوى اللافتة فما الضّير في أن أقف هاهنا؟

قامت إدارة المركز بالاتصال بمركز الشرطة، فسألتهم الشرطة عن مكان وقوف المرأة بالتحديد، وما إذا كان داخل ملكية المركز الإسلامي أم في الشارع العام؟ فأجابوا بأنها تتواجد خارج ملكية المركز، لكنها تجلس في مقابل البوابة مباشرة، فقالت لهم الشرطة إنّ المرأة ما دامت تقف على أرض عامة فهي حرّة في التعبير عن رأيها، فأعربت إدارة المركز عن خشيتها من حصول استفزاز أو مشكلة لسبب أو لآخر، فأرسلت الشرطة بعض عناصرها لمراقبة الموقف، وضمان عدم التعرض للمرأة، ما دامت تعبّر عن رأيها لا أكثر. وفي تلك الأثناء تحدّث خطيب الجمعة في المركز السيد القزويني، وخاطب المصلين بالقول إنّ اللافتة التي ترفعها المرأة قبالة مدخل المركز، إنما هي كلمة حقّ أريد بها باطل، ذلك أن ما أرادته هذه المرأة هو استفزاز المصلين المسلمين، طمعًا في أن يتعرض لها أيّ أحد، فتعمد وسائل الإعلام بعدها لافتعال قضية عريضة، وأكّد السيد رجاءه للمصلين بألّا يتعرضوا للمرأة، وأن يتجاهلوا وجودها تمامًا، وهذا ما حصل بالفعل، فقد تجنّب الناس الاقتراب منها أو التعرض لها، فبقيت مكانها حتى غادر آخر المصلين ثم طوت لافتها وغادرت، وغادر أفراد الشرطة بعدها، وانتهى الأمر وكأن شيئًا لم يكن.

الانضباط أمام الاستفزازات

من خلال هذه القصة يتضح مدى النّضج الذي يتمتع به هؤلاء الناس في هذه المواقف. فهناك قانون يحمي الحريات، ورأي عام تسامحي تجاه حالات الاختلاف الديني أو الفكري، ولكن دعونا نفترض لو أن مسلمًا شيعيًّا كتب لافتة ورفعها أمام مسجد سنّي، أو أنّ مسلمًا سنيًّا كتب لافتة ورفعها أمام مسجد شيعي، ربما وقعت نتيجة ذلك واقعة يسجلها التاريخ وتتحدث عنها الأجيال!.

إننا بحاجة إلى وعي أكبر في التعامل مع مثل هذه الحوادث الاستفزازية. فإذا عمد أحدهم لإساءة التعبير، وإساءة اختيار المكان والزمان لغرض الاستفزاز، فلماذا نعطيه الفرصة ونحقق له مبتغاه من خلال الاستجابة لاستفزازه؟ ما الذي يحذونا لجعل أجوائنا متشنّجة، ونفوسنا مشحونة، وقابلة للاستفزاز عند أقلّ موقف، كما لو أننا في انتظار سماع أقلّ استفزاز؟ وهذا تحديدًا ما بات يعرفه الأعداء عن طبيعتنا نحن المسلمين، إذ يكفي لافتعال مشكلة في أيّ بلد مسلم، أن يجري تشجيع أيّ أحمق على إلقاء خطبة نارية، أو كتابة مقالة تستفز مشاعر الطرف الآخر في بلده، سواء كان ضد السنة أو ضد الشيعة، أو أيّ جهة من الجهات، والنتيجة ستكون معروفة فور الانتهاء من هذه الخطبة أو المقالة.

ونشير أخيرًا إلى هذه القصة التي وقعت في عهد أمير المؤمنين ﮆ. فقد جاء في تاريخ الطبري أنّ عليًّا قام في الناس يخطبهم ذات يوم في مسجد الكوفة، وهو الخليفة حينها، وأثناء ذلك قام رجل من جانب المسجد صائحًا بشعار الخوارج؛ لا حكم إلّا لله، فما إنْ سكت حتى مضى أمير المؤمنين في خطبته دون إبداء أيِّ ردة فعل على الرجل، فقام آخر، وثالث حتى توالى عدة رجال منهم يرددون ذات الشعار، فقال الإمام عليّ ﮆ: الله أكبر، كلمة حقّ يلتمس بها باطل، ومضى يخاطبهم ﮆ بالقول: أما عندنا لكم ثلاثًا ما صحبتمونا، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا، ثم رجع إلى

مكانته من خطبته التي كان يخطبها؛ وكأنّ شيئًا لم يكن[١].

وبهذا يرشدنا الإمامعليه السلام إلى الخلق الرفيع والتعامل المطلوب إزاء حالات الاستفزاز، فهوعليه السلام لم يسكت عنهم وحسب، وإنما أعطى بسيرته وممارسته درسًا بليغًا في عدم الاستجابة إلى الاستفزاز، بل وضمان حقوق أولئك المعارضين. هكذا ينبغي أن تتجذّر القيم في نفوسنا.

(١) تاريخ الطبري. ج٤، ص٥٣.

الأخلاق بين التأثير والتأثر

إنّ الفطرة تحفّز الإنسان على التحلي بالسلوك الأخلاقي النبيل، والعقل يرشده إلى ذات السبيل. فهنالك عمق فطري وعقلي للنبل والأخلاق الإنسانية، يدرك من خلاله الإنسان تلقائيًّا أفضلية السلوك الحسن على السلوك السيئ، فأيما إنسان سوي يدرك حتمًا أفضلية الصدق على الكذب، والعدل على الظلم، والأمانة على الخيانة، والإحسان على الإساءة، فذلك هو الجواب الذي تمليه فطرة الإنسان وعقله، فتقرران أنّ السلوك النبيل هو الأفضل، وهو المطلوب.

في مقابل ذلك، هناك نزعات داخل نفس الإنسان، تدفعه إلى ارتكاب السلوك السيئ. وهذا هو تفسير جنوح الفرد نحو الانحراف وارتكاب الأخطاء، وتلعب الأجواء الخارجية التي يعيشها الفرد دورًا كبيرًا في الوقوع في الانحراف. كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، فعامل التربية والنشأة، والظروف المحيطة بالإنسان، لها دور كبير في أن يسير باتجاه أحد خيارين اثنين؛ السلوك الحسن، الذي يؤيّده العقل والفطرة، أو السلوك السيئ الذي تدفع إليه النزعات الشهوانية داخل النفس.

الانزلاق للخطأ عبر المحاكاة

ويدخل ضمن عوامل جنوح الفرد نحو الأخلاق السيئة، والوقوع في الانحراف،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب (٧٩)، حديث١٣٥٨.

ما يُعبّر عنه بالمحاكاة والعدوى الاجتماعية. وفي معنى المحاكاة أن يرى الفرد أحدًا يمارس سلوكًا ما، فيقوم بتقليده ويعمل عمله، وهكذا تتسرّب بعض الأخلاق للفرد عن هذا الطريق، وقد تجري المحاكاة تحت دافع الرغبة والارتياح لعمل الطرف الآخر، فيما يمكن أن يقوم البعض بمحاكاة بعض السلوك تحت دافع الانتقام، وهذه ناحية دقيقة مهمة، فقد يتعرض البعض لإساءة أو كلمة نابية، فيقوم بالردّ بالمثل، يرد السبّ بالسبّ، والشتيمة بمثلها، ومع تكرر حالة التقاذف بالألفاظ البذيئة، سيجد أنه قد انساق خلف استخدام الكلمات النابية، التي لم تكن في قاموسه فيما سبق!، وبذلك ينتقل إليه الخلق السيء بالمحاكاة الانتقامية.

ويُحذّر المختصون في التربية الأسرية من تسرّب السلوك الخطأ للأطفال عن طريق الأسرة نفسها. فإذا لمس الأبوان بروز حالة من العناد لدى طفلهما، فلا ينبغي أن يبادلاه العناد؛ لأنهما بفعلهما ذاك، يزرعان حالة العناد في نفس الطفل دون أن يشعرا، عند ذلك تتكرس حالة العناد لدى الأبوين، كما تتعزّز الحالة عند الطفل نفسه.

من هنا ينصح المختصون بأن تنأى العائلة عن الردّ على عناد الأطفال بعناد مقابل؛ لأنّ هذا يعني تعزيز السلوك السلبي عن طريق العدوى. وهذا ما ينطبق على كافة المجالات، فمن يعتاد على السلوك الإيجابي في قيادة السيارة واتباع نظام المرور، بعد سنوات قضاها في دولة متقدمة للدراسة أو العمل، ربما تجده قد تخلّى عن ذلك الانضباط الذي اعتاد عليه، بعد عودته للبلاد، ويبرر فعله بأن الناس هنا غير متقيدين بنظام المرور! فهو يقلد الآخرين في تجاوزهم لأنظمة المرور، والغريب أنّ مثل هذا الشخص ربما يمارس ذلك السلوك الخطأ وهو غير مرتاح؛ لأنه يقوم بالردّ على مخالفات الآخرين بأحد أمرين؛ إمّا بمحاكاة أفعالهم، أو التعرّض للعدوى منهم!

ولطالما حذّر المنهج القرآني من الوقوع في براثن العدوى السيئة، أو محاكاة أعمال المسيئين. فهناك توجيهات متتابعة بأن يظلّ المرء واعيًا لهذه المسألة، فإذا ما عمد أحدهم للتصرف والتلفظ عليك على نحو سيئ، فالحذر من الردّ

عليه بذات الأسلوب؛ لأنك بذلك تخضع إلى تأثيره، بدلًا من أن تكون أنت المؤثر فيه، ولا ينبغي بأيِّ حالٍ السماح لذلك الطرف بنقل أخلاقه السيئة إليك، في حال أنّ المطلوب أن تؤثر أنت فيه، وأن تنقل أخلاقك الحسنة إليه.

مواجهة السيئة بالحسنة

من هنا جاءت الوصايا الإسلامية للفرد المسلم بألّا يواجه السيئة بمثلها، حتى مع حقّه في ردّ الاعتداء، غير أنه من ناحية قيمية وأخرى تربوية، يوجّه الإسلام إلى النأي بالمسلم عن التأثر بأخلاق السوء، عن طريق المحاكاة الانتقامية؛ لأنه سيتأثر بالأخلاق السيئة لغريمه من حيث يشعر أو لا يشعر. لذلك تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

إنّ الحسنة هي الأفضل، وهي السبيل الصحيح. فإذا واجه المرء سلوكًا سيئًا، فليحذر من الانجرار والوقوع في منحدر السوء.

وهنا قد يتساءل البعض عن أفضل سبل المواجهة، بين الردّ بالمثل وبالطريقة السيئة نفسها، وبين ردع الطرف الآخر بسبل أخرى، كأن يلجأ لانتزاع حقّه بالطرق القانونية مثلًا، فهو بذلك يمارس الردع، وينتزع حقّه، دون التلوث بسلوك الآخر عبر تقاذف السُّباب والشتائم. ينبغي ألّا يقع الفرد المسلم في فخ الأخلاق السيئة الذي ربما نصبه الآخرون، من هنا يأتي تأكيد الآية الكريمة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ومضمون ذلك أن يلجأ المرء للبحث عن أفضل السبل الحسنة لدفع الإساءة. إنّ ردّ الإساءة بالتي هي أحسن ربما يساعد في تغيير الطرف المسيء إلى الأحسن، فعوضا أن يتشبه المحسن بالمسيء، ينبغي دفع الأخير للتشبه بالأول، لذلك تقول الآية الكريمة:﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وتلك إشارة عميقة إلى إمكانية أن تتغير الصفة السيئة عند الآخر نحو الأحسن.

لا شك أنّ ضبط الأعصاب، ولجم الرغبة في الانتقام خاصة في حال الخلاف الشديد تُعَدّ مسألة صعبة. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحالة بوضوح، حيث يقول

تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، بمعنى أنّ السيطرة على النفس ليست متاحة إلّا لمن لديه نصيب عظيم من الأخلاق والقيم.

ثمّة نصوص دينية كثيرة تشجع على التزام أعظم الأخلاق، والنأي عن الانسياق خلف السلوك السيئ للآخرين. فقد وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟، العفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك»[1]، وورد في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «وَسَدِّدْنِي لِأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ»[2]، حيث تأتي مواجهة الغش بالنصح لا بغش مماثل، ويمضي الإمام عليه السلام في دعائه بالقول: «وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ وأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ». إنّ البعض يتعامل مع الأخلاق على نحو التجارة، فيعطي من أعطاه، ويصل من يصله، وهذا عين ما نصفه بالمنحى التجاري في التعامل مع الناس، في مقابل ذلك هناك من لا يزحزحه شيء عن التعامل مع الآخرين على نحو قيمي، يريد أن تتكرس في نفسه الحالة القيمية والأخلاقية، ولا يزحزحه عنها أحد، فلا يردّ على السُّباب بالمثل، بل يستحضر قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وهناك من يفتقد قدرة السيطرة على نزعاته، فيظن أنْ لا ردّ للإساءة إلّا بإساءة مقابلة. وهو لا يدري أنه بذلك يتخلى عن خلقه وشيمه. وعلى هذا النحو، هل يجوز أن يردّ على الإرهابي الذي يفجر الأبرياء بردٍّ مماثل! وإذا مارس أحدهم الشتيمة هل يقابل على ذات النحو! وهل يواجه من يكفر المؤمنين بالتكفير المعاكس!، إن جميع هذه الأساليب خطأ جملة وتفصيلًا، وهي أبعد ما تكون عن المنهج القرآني الصحيح. ونستحضر هنا موقف أمير المؤمنين عليه السلام حينما عمد جيش معاوية إلى منع الماء عن جيشه في واقعة صفين، ثم استولى جيش الإمام على المشرعة، فقال أصحاب الإمام

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٧، كتاب الإيمان والكفر، باب العفو، حديث١.

(٢) الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيِّ الأفعال، الدعاء (٢٠)، ص٩٤.

حينها، يا أمير المؤمنين: نمنعهم من الماء كما منعونا، ونقتلهم بسيف العطش، ولكنه رفض ذلك وقال: «خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا إلى معسكركم وخلّوا بينهم وبين الماء»[١]، وجاء في شرح النهج أنه قال: «خلّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون»[٢] وكأن لسان حاله عليه السلام يقول لو فعلنا كما فعلوا فما الفرق بيننا وبينهم؟، ويقول الشاعر[٣]:

فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا وكـلّ إنـاء بالذي فيه ينضح

فينبغي للمؤمن أن ينضح أخلاقًا طيبة، كلامًا وأسلوبًا، فأن يشتمك أو يكفرك الآخرون ليس مبرّرًا لأنْ تنحدر بأخلاقك نحو ممارسة ذات السلوك الخطأ، فهذا خلاف ما يأمر به الله تعالى، وهذا ما ينطبق على كافة الدوائر المحيطة بالإنسان من عائلته وزملائه وأصدقائه. إنّ على المرء أن يكون حذرًا يقظًا، وأن يفكر مليًّا في مساعدة الطرف المخطئ، على تجاوز خطئه، لا أن يسلك الطريق الخطأ نفسه، وذلك ما يحتاج إلى وعي وإرادة وصبر ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٤٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص٣٣١.

(٣) أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي الملقب شهاب الدين المعروف بـ «حيص بيص».

الأخلاق بين الوعظ والتقنين

إحدى أهم غاياتِ بعثة الأنبياء وإنزال الشرائع السماوية، هي إقامة العدل بين الناس، وسيادة القيم الأخلاقية، كما يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، والقسط هو العدل، ويمكن أن يشمل المعنى كلّ القيم الأخلاقية التي تحفظ الحقوق بين الناس، وتُوجب تكامل الإنسان، وقد اكتملت منظومة هذه القيم على يد خاتم الأنبياء محمد ﷺ، حيث روي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ»(١).

والسؤال هنا: كيف يمكن أن تسود القيم الأخلاقية في المجتمع الإنساني؟ كيف يسود العدل والقسط بين الناس، مع وجود نزعة الأنانية في أعماق نفس الإنسان؟!

هذه النزعة غالباً ما تدفع الإنسان للتجاوز على حقوق الآخرين، والسعي للهيمنة عليهم، والانقياد للأهواء والشهوات، مع وجود هذه النزعة القوية في نفس الإنسان كيف يمكن أن يسود العدل ويقوم القسط بين الناس؟

يمكننا أن نستنتج من الآية الكريمة أنّ هناك ثلاثة مسارات، يجب أن تتكامل لإنجاز هدف سيادة العدل والقيم الأخلاقية.

المسار الأول: تهذيب النفوس

وذلك عبر إثارة نوازع الخير في نفس الإنسان، وتقويتها على نوازع الشر، فهناك

(١) الشيخ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص١١٢، حديث ٤٥.

صراع قائم بين نوازع الخير ونوازع الشر، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ويقول في آية أخرى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وفي سورة الشمس يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

الأنبياء والرسالات السماوية تأتي لتقوي نوازع الخير، وتضعف نوازع الشر داخل الإنسان وذلك بإحياء ضميره، وإيقاظ وجدانه، وإشعاره بالرقابة الإلهية، وتذكيره بالمصير الأخروي، وهذا ما تطلق عليه الآيات القرآنية عنوان الوعظ والتزكية، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [سورة الجمعة، الاية: ٢].

والتزكية في حقيقتها إضعاف نوازع الشر، وتهذيب نفس الإنسان، وتغليب نوازع الخير في نفسه، كما يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[سورة يونس، الاية: ٥٧] فالتعاليم والتوجيهات الدينية هي نوع من الموعظة التي تقدم للإنسان، وفي هذا السياق تأتي الآيات لتذكر الإنسان بمصيره الأخروي، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[سورة الكهف، الآية: ٤٩] عبر هذا الطريق هناك رهان على تهذيب نفس الإنسان، وإعداده للالتزام بالقيم.

للموعظة دور كبير في تهذيب النفس وإصلاح السلوك، لذلك ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ»(١)، «المَواعِظُ حَياةُ القُلُوبِ»(٢)، «بِالمَواعِظِ تَنْجَلِي الغَفْلَةُ»(٣).

ومن أهم أهداف البرامج الدينية كتلاوة القرآن، وقراءة الأدعية، والاستماع إلى

---

(١) نهج البلاغة. الكتاب ٣١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٦٥، حكمة ٢٠٤١.

(٣) المصدر السابق، ص١٦٦، حكمة ١١٨.

خطب الجمعة، أن يعرّض الإنسان نفسه للموعظة، حتى تكون نوازع الخير في نفسه أقوى من نوازع الشر.

المسار الثاني: التبني الاجتماعي للقيم الأخلاقية

بأن تكون البيئة الاجتماعية حاضنة أخلاقية.

المسألة الأخلاقية ليست حالة فردية، فالإنسان يعيش ضمن مجتمع، وإذا تبنّى المجتمع القيم الأخلاقية، فإنّ ذلك يهيّئ لسيادتها، ولقيام العدل بين الناس، حيث لا بُدّ أن يتهيأ الناس لإقامة العدل. فالآية الكريمة تقول: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، أي إنّ الناس هم أنفسهم يقومون بالعدل، وليس يفرض عليهم من خارجهم.

كيف يقوم الناس بالعدل؟

كيف تكون الحالة الاجتماعية باتجاه سيادة العدل؟

أن يتربى الناس على القيم الأخلاقية، بدءًا من المنزل والأسرة، مرورًا بمناهج التعليم والمدرسة، وانتهاءً بالأجواء العامة السائدة في المجتمع، بحيث تكون الثقافة الأخلاقية منتشرة في المجتمع، ويكون المجتمع بيئة حاضنة للقيم الأخلاقية، لهذا من الضروري قيام المؤسسات التي تبشر بالقيم الأخلاقية، كما نحن بحاجة إلى مؤسسات صحية، ومؤسسات عمرانية مختلفة، كذلك نحن بحاجة إلى مؤسسات تتبنى نشر قيم الأخلاق في المجتمع.

نحن نجد في المجتمعات المتقدمة مؤسسات للدفاع عن حرية الرأي، ومؤسسات لحماية البيئة، وللتوعية الصحية والمرورية، هذه المؤسسات ضرورية حتى يصبح المجتمع بيئة حاضنة مهيأة لتطبيق القيم الأخلاقية، فلا يكفي أنّ المؤمن كفرد يلتزم بهذه القيم، وإنّما عليه أن يتحمل مسؤولية التبشير بها أيضًا، ومن هنا جاءت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

هذه المسؤولية تدفع الناس من أجل أن يتعاونوا وأن تتضافر جهودهم كي تسود القيم الأخلاقية في المجتمع.

المسار الثالث: التقنين والردع

لا بُدّ من وجود قانون يحكم، وعقوبات تردع من تسول له نفسه التجاوز على النظام والقانون، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة، فبعد أن تتحدث عن إرسال الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، تتحدث عن الحديد وبأسه الشديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في إشارة إلى قوة الردع.

إنّ وجود الكتاب والنبي والشريعة وحدها لا تكفي، لا بُدّ من وجود قوة رادعة؛ لأنّ في المجتمع البشري من تشتد عنده نزعة الأنانية والعدوان، فلا بُدّ أن يواجه، حتى لو كان المعتدون والمنحرفون قلة في المجتمع، لكن القلة إذا سُكت عنها تتمدد وتتوسع، فلا بُدّ من وجود عقوبة ردع لمن يخالف القانون.

نحن نرى مظاهر الانضباط في المجتمعات الأخرى، من يسافر إلى البلدان الغربية يرى حالة الانضباط الكبير عند الناس، في حركة المرور، والنظافة، والتقيد بالنظام، واحترام الحقوق.

ومن أهم أسباب هذا الانضباط الذي نجده في المجتمعات الأخرى وجود القوانين الفاعلة، والعقوبات الرادعة، فلو ترك أولئك الناس دون قوانين وردع، لما كان وضعهم أفضل من وضعنا.

نحن في مجتمعاتنا الإسلامية نعاني من ضعف وفراغ في مجال التقنين، لدينا قيم أخلاقية، ونمتلك وسائل وعظ وإرشاد، لكن لا توجد إلى جانبها قوانين رادعة تضبط

السلوك المنحرف.

ومن الأمثلة المعاشة في حياة الناس نظام المرور، والقضايا التي ترتبط بالبيئة، أو ترتبط بالذوق العام في المجتمع، قد نسمع خطبًا وأحاديث حولها، لكن لا يوجد تقنينات كافية!!

إنّ إلقاء سائق السيارة مخلفات المأكولات، أو رمي أعقاب السجائر، أو علب المشروبات في الشارع أمر مخالف للذوق العام، وكذلك تشويه المرافق والأماكن العامة، لكن هذه النظرة من المجتمع لا تكفي لتغيير سلوك المخالفين، ولا بُدّ من وجود عقوبات رادعة، فالقوانين الرادعة هي التي تجعل الناس في البلدان المتقدمة يلتزمون بحماية الذوق العام.

بالطبع إلى جانب القوانين هناك عوامل أخرى لا نغفلها، لكن القانون الرادع له دور أساس في حماية الذوق العام والنظافة العامة.

ومثال آخر فيما يرتبط بالتعامل الأسري، في المجتمعات المتقدمة توجد قوانين شديدة حول العنف الأسري، فالأب ليس حرًّا أن يزجر ولده أو يضربه، هناك عقوبات وروادع، وكذلك التعامل والعلاقة بين الزوجين، هناك تقنينات تضبط العلاقة وتحفظ الحقوق، أما في مجتمعاتنا لا تزال حالة التقنين لمثل هذه الأمور ضعيفة، وإذا سنّت قوانين لا تكون مفعّلة!

وفي موضوع التحرش الجنسي لدينا كمتدينين توجيهات كثيرة حول النظرة المحرمة، والاعتداء على الأعراض، توجد آيات وروايات وأحاديث كثيرة، لكن ليس لدينا تقنين رادع للتجاوز على الأعراض، بينما في المجتمعات الأخرى فإنّ القوانين التي ترتبط بالتحرش الجنسي هي من أشدّ القوانين، وهذا ما نحتاج إليه في مجتمعاتنا، وكذلك الحال فيما يرتبط بالتحريض على الكراهية وإثارة العنصرية بسبب تنوع ديني أو عرقي.

التأخير في التقنين

في البلدان المتقدمة هناك قوانين فاعلة على هذا الصعيد، فالتقنين موضوع مهم من أجل حماية القيم والمبادئ والحقوق الخاصة والعامة.

ونجد كيف أنّ البعض يستفيد من مواقع التواصل الاجتماعي ليسبّ ويُشهّر بمن يشاء؛ لأنه بعد لم توضع قوانين رادعة، وما وضع منها لم يُفَعَّل، والناس ليست لهم جرأة في استخدام مثل هذه القوانين، كلّ هذه الأمثلة تدلّ على أهمية هذا البعد.

في رواية صحيحة عن داوود بن فرقد عن الإمام الصادق عليه السلام، يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَد جَعَلَ لِكُلِّ شَيءٍ حَدًّا، وَجَعَلَ لِمَن تَعَدَّى ذَلِكَ الحَدَّ حَدًّا»[1]، ويقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٢٩] ومن يتعدّى حدود الله، هل يترك؟!

يجب أن يعاقب ويردع، وفي الشرع مخالفات لها حدود معينة، أما بقية المخالفات فهي تقع ضمن مصطلح فقهي وهو (التعزير) أي إنّ الحكومة الشرعية في كلّ مجتمع تضع عقوبات رادعة للمخالفات التي ترتبط بالذوق، أو بمخالفة النظام، أو الاعتداء على حقوق الناس، وخاصة في مثل هذه العصور ومثل هذه الأزمنة.

فلا بُدّ أن تتكامل هذه المسارات الثلاثة:

- تهذيب النفوس عبر الوعظ والإرشاد
- البيئة الاجتماعية الحاضنة للقيم الأخلاقية.
- التقنين والردع.

---

(١) الكافي، ج٧ ص ١٧٦، حديث ١١.

الفصل الثاني

إدارة الذات

الثقة بنتائج عمل الخير

جاء القرآن الكريم خطابًا إلهيًّا، لاستنهاض الإنسان، بتفجير طاقاته، وتحريك فاعليته، وقد سلك القرآن الكريم عدة سبل، من أجل هذه الغاية، من تلك السبل:

- إلفات نظر الإنسان إلى ما منحه الله سبحانه وتعالى من طاقات وقدرات حتى لا يغفل عنها.
- ترغيب الإنسان في الفاعلية والحركة، وأن ذلك هو سبب نجاحه وتقدمه في الدنيا والآخرة.
- توجيه الأمر المباشر الصريح للإنسان بأن يعمل ويتحرك، وأن يتحمل مسؤوليته في هذه الحياة.
- ومن مناهج القرآن على هذا الصعيد، إزالة العقبات والمعوقات التي تمنع الإنسان من العمل والحركة؛ لأن هناك عوائق ذاتية وأخرى خارجية، تقعد بالإنسان عن أن يمارس فاعليته ونشاطه، ومن العوائق الذاتية ما يعتور الإنسان في الكثير من الأحيان، من مشاعر عدم جدوائية عمله، كأن يتساءل بينه وبين نفسه:

هل هو مجد أن أعمل أو أن أتحرك؟ وهل للعمل فائدة؟ وهل للتحرك نتيجة؟

في الغالب يجد الإنسان نفسه أمام تساؤلات من هذا القبيل، وخاصة إذا كان يعيش في محيط ليس إيجابيًّا، لا يتفاعل مع الحركة، أو لا يعترف بدور العاملين

الناشطين. في مثل هذه البيئة، قد تحصل عند الإنسان حالة من التراجع والإحباط، فلا يكون مندفعًا نحو الفاعلية والعمل.

لهذا نجد القرآن الكريم قد ركّز في أكثر من آية على معالجة هذه المشكلة، من أجل أن يقول للإنسان: أيها الإنسان، عليك أن تثق وتطمئن بأن أيّ مسعى تقوم به في طريق الخير، وأيّ تحرك صالح فإن له نتائجه الطيبة، وأنه لن يضيع، كل ذلك من أجل أن يطرد الإنسان مثل هذه المشاعر الاستسلامية الانهزامية.

الله تعالى يقول:﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ﴾، وتعني: أن أيّ خير يفعله الإنسان لن يكفر له. الكفر هنا بمعنى عدم الاعتراف، بمعنى الستر والجحود. أيها الإنسان كن واثقًا ومطمئنًا أنه لن يُجحد أو يُنكر أو يذهب هباءً، لن يضيع سدى. وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[سورة الأنبياء، الآية:٩٤].

في هذه الآية المباركة يقدّم الله سبحانه وتعالى ضمانة للإنسان، بأن أيّ عمل خير يفعله قلَّ أو كثر، فإنه مسجل ومكتوب، كل ذلك من أجل أن تكون عند الإنسان ثقة واطمئنان، بأن يسير في طريق الخير، وأن يتحرك باتجاه العمل الصالح، على صعيد وضعه الشخصي، وعلى صعيد وضعه الاجتماعي العام.

استعجال الثمرة

في كثير من الأحيان، قد لا تكون نتائج العمل فورية، وعلى الإنسان أن يكون واعيًا مدركًا أن بعض الأعمال طبيعتها تحتاج إلى وقت. فهناك فرقٌ بين من يزرع الخضراوات التي لا تحتاج إلا إلى أيام أو شهور قليلة حتى تورق وتثمر، وبين من يزرع فسيلة النخل؛ لأن من يغرس نخلة، عليه أن يعطي الأمر فرصة أطول. لذلك لو غرس إنسان مجموعة من فسائل النخل، وإلى جنبه جاره قد زرع بعض الخضراوات والحشائش، فإنه سيرى بعد شهر أو شهرين أن جاره قد أثمرت زراعته، وبدأ يحصدها وربما بدأ يبيع منها في السوق، بينما يجد أن نخيله لا تزال في طور النموّ وأنه متأخر

كثيرًا عن جاره في الحصاد. هذه حالٌ طبيعية، فعلى الإنسان أن يعرف أن هناك فرقًا بين ما زرعه وبين ما زرع جاره.

لا بُدَّ أن نعرف أن هناك بعض الأعمال بطبيعتها تحتاج إلى وقت وزمن، ثم إن مسيرة المجتمعات البشرية تعتمد على تراكم الأعمال والجهود. قد يكون جيل من الأجيال يعمل ويتحرك، لكن الثمار يقطفها الجيل الذي يأتي بعده. فالإمام الحسين وأولاده عليهم السلام لم يروا نتائج ذلك العمل الكبير، والنهضة العظيمة، التي قام بها حيث احتاجت إلى وقت حتى تؤتي ثمارها ونتائجها، وكذلك هي جهود الأنبياء والمصلحين.

ولو عاش الإنسان في محيط غير إيجابي يتنكر لسعيه وعمله، فعليه ألا يصاب بالإحباط واليأس، وذلك لأسباب تحدث عنها القرآن الكريم:

١. عليه أن يثق بأن ثوابه وجزاءه مضمون عند الله تبارك وتعالى، فلا كفران لسعيه، كما تعبر الآيةالكريمة: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.

٢. القرآن الكريم، عبر حديثه عن الأنبياء والرسالات السماوية، يوضح أن المسألة بحاجة إلى تراكم في الجهد والعمل، قد لا يكون أول جهد وأول تحرك يوصل الإنسان إلى الأهداف والغايات التي يتوخّاها، لكن عليه أن يستمر في العمل والسعي.

٣. قد لا تظهر قيمة العمل بشكل سريع، ولكنها لن تضيع حتمًا، وستظهر فيما بعد، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾. إنه مكتوب ومسجّل، والتاريخ يؤدي شهادته، كم في تاريخ هذه الأمة الماضي والحاضر من رجال عملوا وتحركوا، وجَدُّوا واجتهدوا، وأبلوا بلاءً حسنًا، لكن لم يقطفوا ثمار جهودهم في حياتهم، أو لم ينالوا التقدير المناسب لدورهم في حياتهم، لكن أجرهم مضمون عند الله تعالى، كما أن التاريخ يؤدي شهادته تجاههم. فليس كلّ من تحرك قطف الثمار، فقد تتأخر أو تحتاج الجهود إلى تراكم، وليس كل

من تحرك قوبل بالشكر والاعتراف، بل كثيرًا ما ووجه فاعلو الخير بالإيذاء والتنكر، كما واجه ذلك الأنبياء والمصلحون.

هكذا يطمئن القرآن الكريم الإنسان، بأن عليه ألا تقعد به مثل تلك الهواجس والمشاعر، وأن يستمر في عمل الخير وفي طريق الإصلاح.

تبنّي الاهتمامات الكبرى

الاهتمامات الذاتية للإنسان تفرض نفسها عليه، فهو يحب ذاته ويسعى لمصلحته الذاتية، وهذا أمر مشروع ومقبول، إلا أنه من غير المقبول أن ينحصر الإنسان في سجن اهتماماته الذاتية، فلا يفكر إلا في نفسه، ولا يهتم إلا بذاته، ولا يتحمّل أيّ مسؤولية تجاه مجتمعه وأمته.

ومعنى ذلك أن الإنسان لا يعرف نفسه، ولو عرف نفسه لرأى أنه أكبر من أن ينحصر في همومه الذاتية، وقد وهبه الله سبحانه وتعالى طاقات وقدرات، من أجل أن يقوم بدور كبير من خلال وجوده وحياته. ولا ينبغي للإنسان أن يستصغر نفسه فيهتم بذاته فقط، فهو خليفة الله في الأرض، ومكلّف من قبله تعالى بعمارة الكون، وبنشر وتطبيق القيم الفاضلة في المجتمع الإنساني.

من ناحية أخرى، فإن القسم الأكبر من مصالح الإنسان الذاتية مرتبط بالآخرين، وخاصة في هذا العصر، حيث أصبحت أمور البشر متداخلة، لدرجة أنه قد يظهر مرض في بلدٍ في أقصى الأرض، لكنه ما يلبث أن ينتشر ويغزو مختلف البلدان في العالم، وقد تُطرح فكرة في مكان ما، لكنها بعد وقت قصير، لا يتجاوز اللحظات والدقائق، تكون منتشرة على مستوى العالم كلّه. وهذا يؤكد تداخل المصالح الذاتية بمصالح المجموع. ومن سبل خدمة الإنسان لذاته أن يخدم المجموع، فيأخذ حصته من المجموع.

لهذا يربي الإسلام أبناءه على الاهتمامات الكبرى، فيهتم المسلم بالشؤون الكبرى في مجتمعه وأمته والعالم أجمع. وهذا ما تؤكد عليه النصوص والتعاليم الدينية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٤٣]. والشهادة بمعنى الحضور، أي ليكون لكم حضور في ساحة العالم، ويكون لكم رأي وفاعلية، ورقابة على ما يجري في المجتمع البشري كلّه، فأنتم شهداء على الناس كلهم، وليس على مجتمعكم فقط.

شروط الارتقاء

ولا يصل الإنسان فردًا ومجتمعًا إلى هذا الأفق من الاهتمامات الكبرى، إلا بثلاثة شروط:

أولًا: الوعي، بأن يعي الإنسان ذاته، ويعي ما حوله.

ثانيًا: الارتقاء بالمشاعر والاهتمامات الإنسانية، فيتألم لآلام الناس، ويفكر في أوضاعهم، بخلاف الأناني الذي لا يفكر إلا في ذاته، فإنه لا يستطيع أن يخرج إلى أفق الاهتمامات الكبرى.

ثالثًا: الثقة بالذات، بأن يرى الإنسان نفسه قادرًا على أن يعمل شيئًا، وأنه كفءٌ لذلك.

وتعاليم الإسلام تدفع الإنسان بهذا الاتجاه، لهذا كان المسلم في سالف الزمن يشعر بمسؤولية تجاه مجتمعه كلّه، انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، بل على مستوى العالم، ولذلك حين سئل أحد المجاهدين المسلمين ـ وهو ربعي بن عامر ـ في الحرب مع الفرس: «ما جاء بكم؟ قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنُخْرِج مَنْ يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

---

(١) بحار الأنوار ج٧٢، ص ٣٨.

(٢) الكامل في التاريخ. ج٢، ص١٠٦.

لكن الأمة لما أصيبت بالتخلف، قعد أبناؤها وتقاعسوا عن التطلّع إلى هذا الدور، وسيطرت الأنانية على النفوس، فأصبح كل واحدٍ لا يرى نفسه معنيًّا بما يدور في مجتمعه، ولا يرى نفسه مسؤولًا عما يحصل لأمته، فضلًا عن أن يتطلّع إلى دور على المستوى الإنساني العام.

ظاهرة المؤسسات العالمية

بينما نجد في المجتمعات الغربية كيف أن الناس فيها يطمحون للقيام بأدوارٍ عالمية، ويقومون بمساعٍ كونية، فهناك عدد كبير من المؤسّسات انطلقت لتعمل على مستوى العالم. ومن نماذج تلك المؤسسات، مجلس التفاهم العالمي، وقد عقد أحد اجتماعاته في مدينة الملك عبد الله الاقتصادية في رابغ، ولمدة ثلاثة أيام، بدءًا من الأحد ٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ الموافق ١٠ مايو ٢٠٠٩م وتم تغطية الحدث في الصحافة، ووسائل الإعلام.

ومجلس التفاهم العالمي، يهدف إلى حشد خبرات وطاقات ومعارف سياسيين بارزين، تولوا مناصب عُليا في بلدانهم، لتقديم توصيات وحلول عملية لصانعي القرار، حول المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها العالم. وأنشئ قبل سبعة وعشرين عامًا سنة ١٩٨٣م. وقد حضر هذه الاجتماعات التي عُقدت في السعودية مئتا شخصية من مختلف أنحاء العالم، لمناقشة أوضاع البشرية، وخرجوا بتوصيات وتقارير حول الوضع العالمي بشكل عام. كما حظيت هذه الاجتماعات برعاية رسمية، واستقبل الملك الأعضاء المشاركين، ومنهم:

السيد جان كريتيان رئيس وزراء كندا الأسبق، وهيلموت شيمدت المستشار الألماني الأسبق، ومحمد خاتمي الرئيس الإيراني السابق، وياسو فوكودا رئيس وزراء اليابان السابق.

هذه المؤسّسة واحدة من مئات أو آلاف المؤسّسات هناك، ومن بين المؤسّسات في تلك المجتمعات أيضًا: نادي مدريد لنشر الديموقراطية في العالم، ويضم عددًا

من الشخصيات والمفكرين على مستوى العالم، ولهم اجتماعاتهم المنتظمة، من أجل أن ينشروا الوعي الديموقراطي في مختلف أنحاء العالم. وهناك منظمات حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولية، وغيرها.

وما بالنا نحن لا يكاد الواحد منا يهتم حتى بالحارة التي يعيش فيها؟!

فتجد أحدنا يعيش في حارةٍ تفتقر إلى العديد من الخدمات، ويعاني فيها الناس من بعض المشكلات، وسكان الحي لا يجدون أنفسهم معنيين بأن ينشئوا لهم مجلسًا لحيِّهم، من أجل معالجة مشاكلهم في الحي الذي يعيشون فيه.

وعلى المستوى المذهبي نفشل في إيجاد الأطر الجامعة التي تجمعنا، رغم ما نواجهه من تحدّيات ومشاكل. وتجدنا نكتفي بمجرد الحديث عن هذه التحديات والمشاكل، وتضج مجالسنا من ذلك، دون أن يكون هناك سعيٌ جاد لمعالجات حقيقية.

وليس ذلك من افتقار مجتمعنا للكفاءات والقدرات، ففي المجتمع علماء وخطباء ومثقفون ورجال أعمال، ورجال لهم خبرتهم وتجاربهم. إلا أن وراء هذا العزوف أسبابًا كثيرة، وأبرزها:

١. القيود على النشاط الأهلي

فأغلب الحكومات في عالمنا العربي والإسلامي لا تعطي مجالًا للناس كي يتعاونوا مع بعضهم وتتشدد في إجراءات قيام الجمعيات والمؤسسات الأهلية.

أما في المجتمعات الغربية فالناس هناك يشعرون بالحرية، والمجال مُتاح أمام أيّ إنسان لإقامة أيّ نشاط فردي أو جمعي، محليّ أو عالمي، طالما كان ذلك ضمن القوانين التي تعتمدها تلك الدول.

٢. البيئة غير المشجعة

البيئة التي نعيشها لا تشجع على مثل هذه الاهتمامات، فتفاعل الناس وتجاوبهم

مع العمل التطوعي ضعيف. في حين أن المنظّمات الموجودة على مستوى العالم غالبًا ما تموَّل من القطاع الخاص(الشركات ورجال الأعمال).

والمتدينون في مجتمعنا تعوّدوا على تمويل الأعمال المألوفة، مجلس عزاء، أو بناء مسجد، أو ما شابه ذلك. أما تمويل منتدى ثقافي، أو جائزة للإبداع، أو تشجيع للأنشطة الفكرية والثقافية في المجتمع، فهذه الجوانب بعدُ لم تدركها أذهان كثير من الناس في مجتمعاتنا.

٣. ضعف روح العمل الجمعي

أغلب الناس لا يستطيعون التعاون مع بعضهم إلا حينما تتطابق كلّ الآراء والخصوصيات، أما حين تختلف المذاهب، أو التوجّهات ضمن المذهب الواحد، فإن أمر العمل الجمعي يكون في عداد المستحيل.

علينا أن نخجل من أنفسنا كمسلمين، إذ كيف نفشل في تكوين الإطارات التي تهتم بمعالجة مشاكلنا وقضايانا، بينما نجد العالم يعجّ بالمنظمات والمؤسّسات والإطارات التي تهتم بمختلف القضايا على المستوى الإنساني العام. إننا بحاجة إلى ثقافة جديدة، حتى يستطيع الناس أن يتحركوا، ويمارسوا فاعليتهم بحرية، ضمن الأنظمة والقوانين، التي تحمي تلك الحريات. كما أننا بحاجة إلى بيئة اجتماعية ثقافية، تشجّع على مثل هذه التوجّهات، وعلى كل منا أن يتحمّل مسؤوليته بالمقدار المتاح.

علينا أن ننطلق ضمن هذا الأفق الذي يريده لنا الإسلام، كما يقول تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

استقبال العام الجديد

من أجل أن يُنظِّم البشرُ حياتَه احتاجَ لمعيارٍ ونظامٍ يقيس به الوقت، والتفتَ الإنسان حوله، فرأى حركة الشمس والقمر، ورأى تغيُّر أجواءٍ وأوضاعِ الطبيعة بسبب حركتهما؛ لذلك هدته فطرته فاعتَمَدَ حركةَ الشمسِ والقمرِ؛ من أجل إعداد نظامٍ ومقياس يقيس به الزمن؛ فكانت وحدة اليوم، ووحدة الأسبوع، ووحدة الشهر، ووحدة السنة، وهكذا ما هو أقل؛ كالساعات والدقائق، وما هو أكثر؛ كالعقود والقرون.

إن هذا التنظيم للوقت، كله يعتمد في حياة البشر على حركة الشمس والقمر، لهذا يَمتن الله تعالى على خلقه في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فبالإضافة إلى الفوائد العظيمة المختلفة المرتبطة بوجود الشمس والقمر، تضاف هذه الفائدة أيضاً؛ إذ من خلال حركة الشمس والقمر، ينظِّم البشر الزمن، ويَجعل مقياساً لحركته.

مبدأ تأسيس السَّنَة

من الوحدات الزمنية الأساس هي السَّنة؛ والسَّنة عند كل البشر اثنا عشر شهراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً﴾[سورة التوبة، الآية: ٣٦]. بعضهم لديه حسابٌ شمسي، وبعضهم لديه حسابٌ قمري على حساب القمر ومنازله؛ هناك سنة فيها اثنا عشر شهراً عند مختلف الشعوب، ولديها بداية لسنتها، وحدث تبدأ به تاريخها، نحن كمسلمين نعتمد ـ في منطقتنا العربية ـ التقويم القمري، بناءً على حركة

القمر، والشهور عندنا هي شهور قمرية.

إن بداية السنة عند العرب سابقاً لم يكن لها تاريخ محدد، وكانوا يؤرِّخون بالحوادث مثل: عام الفيل؛ حجة الوداع؛ عام الحادثة الكذائية. حتى صاروا يؤرِّخون بعض السنين بنزول الآيات أو السور؛ كـ(براءة) مثلاً.

استمر هذا الحال عند العرب والمسلمين ؛ لأنه لم تكن لديهم حضارة، فبداية التاريخ واعتماده يرتبط بوجود حضارة عند أي مجتمعٍ بشري؛ وحينما بدأت الحضارة الإسلامية وشعر المسلمون أنهم يعيشون ضمن حركة حضارية، انبثقت فكرة تحديد بداية التاريخ عندهم، تكون هناك بداية للسنة.

اختلف المسلمون، وذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، من أين يبدؤون التاريخ؟ بأي حدث؟

قال بعضهم: نبدأ بميلاد رسول الله ﷺ، ونعتبر سنة ولادة الرسول ﷺ هي بداية التاريخ.

وقال بعضهم: نبدأ بالبعثة.

وقال بعضهم: بحجة الوداع.

وقال بعضهم: بوفاة رسول الله ﷺ. وتشير المصادر الإسلامية إلى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، هو الذي اقتَرح أن تكون بداية التاريخ بهجرة رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنها بداية نهوض الأمة، وتكوين كيانها، حينما جاء رسول الله ﷺ للمدينة المنورة، وبدأ تكوين وإنشاء المجتمع الإسلامي، وبالتالي انطلاق الحضارة الإسلامية؛ فأَخَذَ الأصحاب اقتراح أمير المؤمنين، ثم تداوَلوا حول الشهر، فتقرر أن تكون البداية من شهر المحرم، كبداية للسنة الهجرية الجديدة؛ من هنا بدأ التاريخ عند المسلمين.

أما المسيحيون فقرر زعماؤهم أن تكون البداية بسنة ولادة نبي الله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وما قبل ولادته يعتبر قبل التاريخ، فهناك أحداث تؤرَّخ بما قبل الميلاد،

أي ميلاد السيد المسيح ﷺ، وكثير من الشعوب الآن اعتمدوا هذا التاريخ.

استقبال السنة الجديدة

إن تعامل الإنسان مع بداية السنة الجديدة ينبغي أن يكون تعاملاً مفيداً وإيجابياً، فمجيء سنة جديدة هو بحد ذاته ينبغي أن يثير في نفس الإنسان مجموعة من المشاعر، أهمها:

أن يحمد الله تعالى على أن بلّغه سنة جديدة؛ ويَستشعر أنه قد انصرمت سنة من عمره، فيتأمل في نفسه؛ فكل إنسان عنده رصيد محدد من العمر، حينما تدخل عليه سنة جديدة، يجب أن يعلم أن الرصيد نقص سنة.

الإيحاء النفسي

مجيء سنة جديدة وما يصحبها من احتفاء واهتمام، ينبغي أن يوحي للإنسان بحالة من التفاؤل والأمل؛ الحياة فيها مشاكل، وآلام، لكن لا ينبغي أن تكون قفراً من الآمال، الأمل هو الذي يعمر قلب الإنسان، يعطيه الحيوية؛ لذلك فإن الإنسان وهو يبدأ السنة الجديدة عليه أن يتفاءل خيراً، وأن يَطلب من الله الخير، فالتفاؤل أمر ضروري، وينبغي أن يجدِّد الإنسان نفسيته وحياته.

في إيران نجد الإيرانيين في بداية السنة الشمسية الجديدة عندهم، التي تبدأ بأيام (النوروز) حسب مصطلحهم، يَستعد كل واحد منهم لكي يُشْعِر نفسه، ويُشعِر عائلته، بأنه يدخل وضعاً جديداً؛ يجعل تغييرات منزله متقاربة مع السنة الجديدة؛ يغسلون البيت وينظفون أثاثه ويعيدون ترتيبه. يقولون: هذا له فائدة كبيرة؛ فهو يوجِد إيحاءً نفسياً بتجديد الحياة عند الإنسان وعائلته وأبنائه، وكأنه يَستأنف الحياة من جديد، كأنه يفتح صفحة جديدة في حياته.

التخطيط للسَّنة الجديدة

كما للحكومة ميزانية محددة وتخطيط لموارد صرفها، كذلك الإنسان ينبغي أن

يعتمد هذا النظام؛ يخطِّط لتنظيم حياته؛ أنا مقبِل على سنة جديدة، فما هي برامجي؟ ما هي خططي؟ ما هو تفكيري؟

وضع الأهداف

ماذا تريد أن تحقق خلال هذه السنة؟ ماذا تريد أن تعمل؟

الإنسان الذي يسترسل يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، ولا يقف وقفة تأمل يحاسب فيها نفسه؛ قد لا يحظى بما يُؤمِّله من النجاح.

على الإنسان أن يخطِّط ويضع له برنامجاً، واستهدافات في هذه السنة، وفي آخرها يحاسب نفسه؛ ماذا أنجزَتْ؟ ماذا حققَتْ؟ وماذا لم أحقِّق؟ وما هي الأسباب؟ الشركات والمؤسسات لها هذا النوع من النظام.

لا بأس أن يكون الإنسان على مستوى حياته الشخصية والعائلية، يجلس مع العائلة ويتذاكر معهم؛ ما هو برنامجنا في هذه السنة الجديدة؟

قد تَحصل مفاجآت وطوارئ، لكن الأفضل أن تكون للإنسان خطة، وميزانية، ويضع له أهدافاً في المجال المعنوي، والاجتماعي، والثقافي، والمادي.

كم كتابٍ تقرر أن تقرأه خلال العام المقبل؟ كم برنامجٍ معرفيٍّ تفكر أن تدخله في السنة المقبلة؟ كم عملٍ عباديٍّ؟ كم نشاطٍ اجتماعيٍّ؟ ارسمْ أمامك أهدافاً؛ فالإنسان إذا وَضع أمامه هدفاً وتَحرَّك باتجاهه يحققه أو يقترب من تحقيقه كما قيل: «ما رام امرؤٌ شيئاً إلا وَصَلَ إليه أو دُونِه».

ضع أمامك عشرة أهداف، وحقِّق على الأقل خمسة أو ستة أو سبعة حسب همتك، المهم أن تضع أمامك أهدافاً، فمِن المناسِب جداً أن يفكر الإنسان بهذه الطريقة.

مستوى الجودة والإتقان

الحياة تفرض على الإنسان العمل والحركة، لتحصيل المكاسب، وتلبية المتطلبات، فلا خيار للإنسان في أن يعمل أو لا يعمل، وأن يتحرك أو لا يتحرك، فالحياة تفرض عليه أن يعمل وأن يتحرك. لكن التفاوت بين الناس، ليس في كونهم يعملون أو لا يعملون، وإنما يكمن التفاوت في مستوى العمل، ومدى الجودة والاتقان، سواء كان على الصعيد الفردي أم العام.

والإتقان يعني أداء العمل في وقته المناسب، وخلوه من الخلل، وإنجازه طبقًا لشروط وضوابط الأداء. هناك من الناس من يحرصون على إتقان أعمالهم، فيما يتساهل آخرون في أداء أعمالهم إلى حدِّ التسيّب، فأمثال هؤلاء عودوا أنفسهم تلفيق أعمالهم كيفما اتّفق.

إنّ تعاليم الإسلام تحضّ الإنسان المسلم على الإتقان في العمل، فليست المسألة مجرّد أداء العمل كيفما كان، وإنما المهم هو إنجاز العمل في غاية الجودة والإتقان.

الإتقان سمة الوجود

ويمكن رؤية التأكيد المشدّد في تعاليم الشريعة على إتقان العمل ضمن العديد من الأبعاد. ويأتي على رأسها التأكيد الإلهيّ منه سبحانه وتعالى في خلق الإنسان، وتكوين جميع الخلائق في غاية التكامل والإتقان، وكأنّ الغاية من ذلك إخبار البشر أنّ الإتقان هو السمة المطلوبة في الكون والحياة، حيث يقول سبحانه: ﴿صُنْعَ اللَّـهِ

الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[سورة النمل، الآية: ٨٨]، فأين ما يمم الإنسان وجهه، وجد الإتقان الإلهي في آفاق الكون، وأنواع الخلائق، في كلّ جانب ومجال، إن في تكوين الذرّات أم في خلق المجرات.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[سورة السجدة، الآية: ٧]، وبذلك يخبرنا تعالى بأنّ كلّ شيء خلقه سبحانه، لا بُدّ وأن يكون في أعلى مستوى من الإتقان والجودة.

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين، الآية: ٤]، وفي آية أخرى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّـهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ١٤]. وما ذلك كلّه إلا لكي يلفت نظر الإنسان إلى أنه يعيش في كونٍ صنع على أساس الإتقان، وتقوم سننه على الإتقان والإحكام، فليكن عملك وتحركك أيّها الإنسان منسجمًا مع الحال العام في هذا الكون البالغ الإتقان.

الآداب الشرعية جودة في السلوك

وقد بلغ من الآداب والسنن الشرعية التي تدفع باتجاه الإتقان حدًّا تناول أدقّ التفاصيل الشخصية لدى الإنسان، في مختلف مجالات حياته. حتى الأمور الخاصة، كالنوم والأكل ودخول بيت الخلاء، فمع أنّ النوم حاجة بيولوجية للجسم، إلّا أنّ في الشريعة آدابًا ووصايا متعلقة بهذا الأمر، وكذلك دخول بيت الخلاء فهناك مستحبات ومكروهات، كما يجري الحال نفسه مع الآداب المتعلقة بالأكل والشرب، التي تتناول المستحبات والمكروهات المتعلقة بالغذاء والشراب، بما يشمل ذلك الاهتمام بجودة الغذاء وطريقة تناول الطعام والشراب. وهناك عدد من النصوص الدينية الواردة حول ارتداء الملابس، من حيث النظافة والظهور بالمظهر الأنيق، إنّ جميع تلك الآداب والسنن جاءت لتربي الإنسان على الإتقان، لا مجرّد تأدية العمل كيفما اتفق.

الإتقان ميدان تنافس الأمم

لقد أصبح إتقان العمل اليوم محلًّا للتنافس المحموم بين الأمم والشعوب. فقد أصبحت المجتمعات تتسابق في إظهار مستوى الإتقان، في إنتاجها، وصناعاتها، وتعليمها، وخدماتها، فلم تعد المسألة أن يكون لديهم تعليم أو لا يكون، وإنما يكمن لبّ المسألة في مستوى ذلك التعليم وجودته، وكذلك الحال على مستوى الإنتاج الصناعي، والخدمات الصحية، حتى بات هناك مؤسسات دولية متخصصة في مراقبة مستوى الجودة والإتقان في كلّ مجالٍ من المجالات.

إنّ المراقب للأوضاع في مجتمعاتنا الإسلامية، يدرك بسهولة حجم الخلل الكبير، والعجز عن تقديم الأعمال المتقنة. وهذا بطبيعة الحال ما يؤدي إلى تعثّر التنمية في أوطاننا، نتيجة التسيب والإهمال على صعيد العمل، بالرغم من حجم الإنفاق الكبير الذي ترصده الحكومات، ذلك أنّ الحلقة المفقودة هنا، هي غياب الإتقان في أداء العمل.

حيث تُنشأ المدارس وتُرصد لها الميزانيات التعليمية، ويُوظّف المعلمون، لكن تجد الخلل ضاربًا بأطنابه بدءًا من مناهج التعليم، إلى البيئة التعليمية، إلى إعداد المعلم، وصولًا إلى مستوى أدائه لوظيفته، وهذا الخلل والتسيب هو الذي يؤدي إلى الفشل في مخرجات التعليم في الكثير من أوطاننا ومجتمعاتنا.

والحال نفسه مع الخدمات الصحية، فهناك ميزانيات ضخمة معتمدة على هذا الصعيد، ومع ذلك يرى المواطن أنّ هناك خللًا كبيرًا في مستوى الخدمات المقدمة.

ولو بحثنا عن سبب التردي هنا، فسنجد أنّ لبّ المشكلة أو جزءًا كبيرًا منها يكمن في تردّي مستوى الجودة الإتقان في العمل.

أسباب وعوامل:

الجودة والإتقان تحتاج إلى توفر عدة عوامل:

أولاً: ثقافة الإتقان

ينبغي أن يتربى الإنسان على ثقافة الإتقان منذ النشأة في المحيط العائلي، وخلال مرحلة الدراسة، وأثناء مراحل التدريب والتأهيل، إضافة إلى التوجيه والتثقيف العام، وما دمنا نمتلك هذا الوازع ضمن منظومتنا الدينية فينبغي أن نعمل على تفعيله، حيث نعتقد أنّ الله سبحانه يراقبنا وينظر إلى أعمالنا.

أيّها المعلم، لا تظن بأن مصدر الرقابة عليك هي إدارة المدرسة أو وزارة التعليم، بل أنت محاسب على عملك أمام الله سبحانه وتعالى، وكذلك الطبيب الذي يقدم خدماته العلاجية إلى المرضى، هو مؤتمن من قبل الله تعالى قبل أن يكون مؤتمنًا من إدارة المنشأة الطبية التي يعمل بها، أو من وزارة الصحة. لذلك ينبغي أن يظلّ شعور الإنسان قائمًا بأنّ الله سبحانه وتعالى يراقب عمله، وفقًا للآية الكريمة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٥]، وحين يتساهل أو يتسيّب في أداء الخدمة والواجب تجاه عباد الله، فإنه سيكون محاسبًا بين يدي الله سبحانه. من هنا ينبغي التأكيد دائمًا على ثقافة الإتقان وتفعيل الوازع الديني.

وإضافة إلى ما سبق، يُعَدّ إتقان العمل دليلًا على مدى احترام الإنسان لنفسه. ولا ينبغي أن يرضى لنفسه ولعمله الظهور مشوّهًا، فمن لا يجدّ في أداء عمله إنما يستهين بنفسه في حقيقة الأمر؛ لأنّ هذا العمل المشوّه سينسب إليه. وقد كتب أحدهم في سيرة أحد الخطباء، أنّ ذلك الخطيب كان إذا أراد الذهاب إلى قراءة مجلس، فإنه يهتمّ بالتحضير الجيّد، وكان مدعوًا ذات مرة للقراءة في مجلس ليس فيه حضور كثير، وعلى قلتهم لم يكن الحاضرون في المجلس من ذوي المستويات، إلّا أنّه مع ذلك ظلّ يعكف على التحضير، فخاطبه الكاتب متسائلًا عن سرِّ إجهاد نفسه في التحضير لهذا المجلس، فأجابه الخطيب بأني إنّما أجدّ في التحضير احترامًا لنفسي بالدرجة الأولى وحتى لا أقدّم خطابًا غير متقن، فالخطاب الذي ألقيه ينبغي أن أراعي فيه مستواي أنا، لا مجرّد قبول الآخرين له كيفما اتفق.

ثانيًا: التحفيز والتشجيع

إنّ وجود عناصر التحفيز تُعَدّ من أهمّ العوامل المشجعة على الإتقان في العمل. ذلك أنّ الموظف والعامل في أيّ مجالٍ من المجالات إذا لم يجد صدًى أو مردودًا لإتقانه العمل، فستضعف عنده مع الوقت الدافعية لإتقان العمل، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية وجود الحافز الذاتي والعامل الديني، لكن طبيعة البشر تتأثّر بالتقدير والشكر.

من هنا نجد المؤسّسات المهتمة بتطوير أداء منسوبيها تعمل على تفعيل جانب المحفّزات، التي تشجّع الموظفين والعاملين الذين يظهرون اهتمامًا أكبر بعملهم، والمؤسف أنّ ما يجري في بعض مؤسساتنا أحيانًا هو العكس تمامًا، فقد يأتي الموظف ولديه اندفاع كبير للعمل، غير أنه لا يحظى بالتقويم المناسب، بل يرى كيف تتورط إدارته في تقويم العاملين اعتمادًا على المحسوبيات والانتماءات المختلفة، وسرعان ما يضعف عنده مستوى الدافعية؛ لأنّ الأمر سيّان، أتقن عمله أم لم يتقن، وهذا أمر خطأ دون شك، غير أنّ الطبيعة البشرية تبقى عرضة للتأثر بوجود العوامل المحبطة وغياب عناصر التحفيز.

ثالثًا: الرقابة والتقويم

وأخيرًا تأتي أهمية وجود الرقابة والتقويم العام ضمن العوامل المؤدية للإتقان في العمل. فهي أمر بالغ الأهمية، سواء كان من قبل الجهات الرسمية أم الأهلية، فهناك على مستوى العالم مؤسسات لا تسكت على وجود الخلل بل تدفع باتجاه التحرك الرسمي والشعبي نحو استئصال الأخطاء، ولها أثر كبير في التوجيه نحو الإتقان والإحكام.

إنّ الحديث الوارد عن الرسول ﷺ: «إنّ الله تعالى يحبّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[١] يحفّز لدينا الوازع الديني، فالله سبحانه وتعالى يحبّ الإتقان، فإذا كان

(١) كنز العمال، ج٣، ص٩٠٧، حديث ٩١٢٨.

المرء يصلي ويصوم ويتعبّد، لأنّ الله يحبّ منه ذلك ويثيبه عليه، فكذلك الحال مع ضرورة الإتقان في العمل الذي ينبغي أن يظهر على أحسن ما يكون؛ لأنّ الله يحبّ منّا ذلك. فالمقاول الذي يعمل على بناء المساكن والعمارات للناس، يحبّ الله منه الإتقان في عمله، بينما يرقى التساهل في العمل إلى حدِّ خيانة الناس الذين وثقوا به. وهكذا الحال في سائر الخدمات الطبية والتعليمية وغيرها، ينبغي أن يعلم الإنسان أنّ الله تعالى سيحاسبه على عمله. إنّ الخلل في إتقان العمل هو الذي ينتج عنه هذا التخلف العام الذي نعيشه على مستوى التنمية في أوطاننا.

بين الفطنة والسذاجة

حين يسير الإنسان في طريقٍ مظلم فإنه بحاجةٍ لنور يهتدي به، حتى لا يتعرض للتيه والضياع، وحتى لا يعثر في حفرة من الحفر التي قد تكون في الطريق، وإذا لم يكن له نور يستضيء به، فإنه معرض لهذه الاحتمالات، كما أن درجة النور لها تأثير أيضاً، فكلما كان النور أكثر إضاءة، كان الطريق أكثر وضوحًا أمام السالك فيه.

وكذلك واقع الإنسان في هذه الحياة، فهي عالم جديد مجهول بالنسبة له، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [سورة النحل: الآية٧٨]، لذلك يحتاج في مسيرته إلى نور يستضيء به، وقد منح الله تعالى الإنسان هذا النور في أعلى درجاته، وهو يتمثل في العقل، فهو ذلك المصباح المنير، إلا أن الناس يتفاوتون في مدى التفاتهم لهذا النور، وفي مدى استضاءتهم به. وتلحظون أن بعض المصابيح الكهربائية الآن نستطيع التحكم في درجة الاستنارة بها، فيمكن أن تكون إنارتها خافتة ضعيفة لوقت النوم والاسترخاء مثلاً، أو تكون قوية الإضاءة عند الحاجة للقراءة والكتابة، بينما هناك مصابيح لها درجة معينة من النور ثابتة.

ومن حكمة الله تعالى وكرمه أن أعطى الإنسان مجالاً للتحكم في مدى الاسترشاد بهذه القوة الهائلة وهي العقل. فإلى أي مستوىً تستفيد من عقلك وقدراته اللامتناهية؟ إن ذلك يعتمد عليك أنت وعلى جدّك ومثابرتك.

وهنا يأتي مصطلح: الإنسان الفَطِن، وهو الذي يسترشد جيداً بعقله، والفَطِن من

الفِطنة، والفِطنة هي الحذق والفهم، ومعرفة خلفيات الأمور، وهذا لايتم إلا بالعقل. فالإنسان يكون فطناً حينما يسترشد عقله، ويرفع درجة الاستنارة به، أما إذا غفل عن عقله، أو انخفضت درجة استضاءته بعقله يقع في الحالة الأخرى، وهي السذاجة أو الغباوة، وبالتالي تضيع مصالحه في هذه الحياة، ويتعرض للتيه وللعثرات.

تجليات الفطنة في شخصية الإنسان

والفِطنة تتجلى في مظاهر، منها:

أولًا: الوعي والمعرفة بما حول الإنسان: كلما كان الإنسان أكثر وعيًا بما حوله من حياة وبشر وأوضاع، كان إدراكه للمعادلات الاجتماعية التي يعيشها أكبر، فيصبح أكثر فِطنة، أما إذا كان إدراكه ومعرفته محدودة ضعيفة، فبنفس تلك الدرجة تكون فطنته، ويكون معرضاً لحالة السذاجة والغباوة.

لذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا بدّ للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه ويحفظ لسانه ويعرف زمانه»[١]، وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ينبغي للمسلم أن يكون مالكاً لنفسه، مقبلاً على شأنه عارفًا بأهل زمانه»[٢]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[٣]، أي لا تلتبس عليه الأمور، ولا تختلط أمامه الأوراق.

ثانيًا: الانتباه والتركيز: مشكلة أكثر الناس أنهم لا يركّزون، فيمرون على الأمور مرور الكرام، من دون انتباه، وهذا ما يتحدث عنه القرآن الكريم، ويطلق عليه مصطلح الغفلة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[سورة يونس، الآية:٧]، بمعنى: لا ينتبهون، ولا يركّزون.

وربما يمرّ حدث معيّن على شخصين أو على عدة أشخاص، أحدهم يركّز وينتبه،

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول. ص ٢٠٣.

(٢) وسائل الشيعة. ج١٦، ص ٢٤٧.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول. ص٣٥٦.

والآخر لا يركّز ولا ينتبه، وبالتالي فإن مقدار التركيز والانتباه هو مما يحدد مستوى فطنة الإنسان.

وفي هذا السياق يُحكى أن أعرابياً شرد منه جمله، وأخذ يبحث عنه فلقيه رجل فقال له: عمَّ تبحث؟ قال: عن جمل لي شرد مني، فقال له الرجل: هل جملك أبتر الذيل (أي مقطوع الذيل)؟ قال: نعم. قال له: هل فيه رجل عرجاء؟ قال: نعم. قال هل جملك أعور؟ قال نعم. فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف في الجمل، أمسك به الأعرابي وقال: إذن أنت أخذت جملي. واقتاده إلى القاضي متهمًا إياه بسرقة الجمل.

فلما سأله القاضي وأنكر أنه أخذ الجمل، قال له القاضي: إذن من أين عرفت كل هذه الصفات عن الجمل؟ فقال الرجل: كنت سائرًا في الطريق فوجدت بعراً متجمعاً على غير عادة الجمال؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يميناً ويساراً عندما ينزل منه، ولكني وجدت هذا البعر متجمعاً في أكوام صغيرة، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل.

فقال له القاضي: وكيف عرفت أن الجمل أعرج؟ قال الرجل: لأني وجدت أن للجمل قدماً غائرة في الرمل، والأخرى قد لامست الرمل ملامسة خفيفة، فعرفت أنه أعرج. فسأله القاضي، وكيف عرفت أنه أعور؟ فقال الرجل: لأني وجدته يترك الخضرة في جانب ويأكل من واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة[١].

فبعض الناس يركّزون على الأشياء فيفهمونها بشكل دقيق، والبعض الآخر ليس لديهم تركيز، وعلى الإنسان ألّا يأخذ الأمور بسهولة وإنما يركّز تأمله فيها.

قبل أيام نشروا في الصحف عن مريضة في المستشفى جاءت لها الممرضة بالدواء، ولها مقدار من الدواء تتناوله كل عدد معين من الساعات، هذه المريضة ركّزت قليلاً في الدواء الذي جاءت به الممرّضة، فوجدته يختلف عن دوائها الذي

(١) محمد متولي الشعراوي. قصص الأنبياء ج٢، ١٩٩٦م، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي)، ص١٤٢٠.

يُصرف لها، فسألت الممرضة: هل أنت متأكدة أن هذا الدواء لي، قالت: نعم، وهذا لا يعنيك، أنا ممرضة وأعرف تكليفي، هذا دواءك، رفضت المريضة أن تتناول الدواء، مع إصرار الممرضة على إعطائها الدواء، فاستدعوا الإدارة، وتبين بالفعل أن هذا الدواء الذي جاءت به لهذه المريضة بالخطأ، وهو دواء لمريض آخر ولو تناولته هذه المريضة لسبب لها مضاعفات قد تكون خطيرة، وفتح تحقيق في المستشفى حول هذا الموضوع.

في المقابل كم من مريضٍ في المستشفى يسلم أمره للممرّض أو الممرضة، ويأخذ أدويته وهو مغمض عينيه، وكأن لا شغل له في الأمر، متجاهلاً ورود الخطأ. بينما نجد الناس في المجتمعات الأخرى يتعاملون مع الدواء بطريقة أكثر تركيزاً واهتماماً.

فالثقافة العامة للناس، والثقافة الصحية مهمّة جداً، وعلى الإنسان أن يتحلى بالفِطنة في هذا الجانب وفي كل جوانب الحياة، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الغفلة أضر الأعداء»[١].

ثالثًا: حماية الإنسان لحقوقه: على الإنسان ألّا يتساهل في حقوقه، بل عليه أن يحمي حقوقه، فالمتساهل تضيع حقوقه ويُستغل، وهذا خطأٌ كبير. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «المغبون لا محمود ولا مأجور»[٢].

ورد في سيرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام أن رجلًا كان يحمل له متاعًا من البصرة، يقول: كنت أحمل المتاع من البصرة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان ربما يماكسني فيه ـ المماكسة: طلب تخفيض الثمن ـ، فلعلي لا أقوم من عنده حتى يهب عامته، قلت له: يا ابن رسول الله، أجيئك بالمتاع من البصرة تماكسني فيه، فلعلي لا أقوم حتى تهب عامته؟ فقال: إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ج١، ص٢٩، حكمة٥٢٧.
(٢) كنز العمال. ج٤، ص١٩، حديث ٩٢٨٧.

المغبون لامحمود ولا مأجور»[١].

في رواية أخرى عن رجلٍ يسمى سوادة قال: كنا جماعة بمنى فعزّت الأضاحي فنظرنا فإذا أبو عبد الله ـ جعفر الصادق عليه السلام ـ واقف على قطيع يساوم بغنم ويماكسهم مكاسًا شديدًا، فوقفنا ننتظر، فلما فرغ أقبل علينا فقال: أظنكم قد تعجبتم من مكاسي؟ فقلنا: نعم، فقال: إن المغبون لا محمود ولا مأجور[٢]. وفي موضع آخر اعترض عليه أبو حنيفة قائلًا: عجب الناس منك أمس وأنت بعرفة تماكس ببُدنك ـ البُدن: الإبل ـ أشدّ مكاساً يكون، قال: فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «وما لله من الرضا أن أغبن في مالي»[٣].

إذاً ينبغي أن يتحلى الإنسان بالفطنة في حمايته لحقوقه، ولدينا نصوص كثيرة على هذا الصعيد تدعو الإنسان إلى عدم الوقوع في الغبن والخديعة والغباء والغفلة حتى تكون شخصيته شخصية المستفيد من عقله وتفكيره.

تنمية الفطنة في المجتمع

من الملاحظ أن طبيعة الناس في بعض المجتمعات وسجيتهم فيها تُبيّن مدى فِطنّتهم في أمورهم، بينما بعض المجتمعات يغلب على الناس حالة السذاجة، وهذا أمر ملحوظ بالنسبة لاختلاف الأفراد، واختلاف المجتمعات.

فكيف يمكننا أن ننمي حالة الفطنة في المجتمع؟ لتحقيق ذلك هناك عدة أمور:

الأول: مستوى الوعي الحقوقي في المجتمع: كلما كان الناس أكثر معرفة بحقوقهم، كانوا أبعد من أن يُستغفلوا، وإنما يُخدع الإنسان ويُستغفل لعدم معرفته بحقوقه، ولذلك فإن الوعي الحقوقي مهم جدًا في كل مجال من المجالات.

نجد في المجتمعات الأخرى أن كل معاملة يدخل فيها الإنسان هناك تحديد

(١) ابن عساكر. ترجمة الإمام الحسين، ص٩.

(٢) الكافي. ج٤، ص٤٩٦.

(٣) المصدر نفسه. ج٤، ص٥٤٦.

وتوضيح للحقوق التي له وعليه، فالسجين من بداية سجنه يُعطى قائمة بحقوقه التي له والتي عليه.

وكذلك في مختلف المجالات، الطالب ينبغي أن يعرف حقوقه، والراكب في الطائرة لديه تذكرة مبين فيها حقوقه على الجهة الناقلة.

لدينا الآن تجربة جيدة فيما يرتبط بالتعليم، حيث صدرت وثيقة حول حقوق الطالب، بحيث يعرف الطالب ما هي حقوقه كطالب في مجال التعليم، وهذا مهم جدًا، أن يعرف كل إنسان ما هي حقوقه، أما التجهيل، وعدم الوعي الحقوقي، فهي التي تجعل الكثير منا يقع في المشاكل.

علينا أن ننشر الوعي الحقوقي في مختلف الجزئيات والقضايا، فبالنسبة للعلاقات الزوجية مثلاً، نجد كثيرًا من الشباب والفتيات، يُجرون عقد الزواج، والعقد يعني اتفاقًا بين طرفين، إلا أنهم لا يعلمون بالحقوق والواجبات، والفتيات في هذا الجانب أكثر غفلة من الشباب، وهذا سبب لكثيرٍ من المشاكل وارتفاع معدلات الطلاق. ومن النماذج التي وضعت حدًّا لكثرة حالات الطلاق والخلافات الزوجية تجربة في ماليزيا تُلزم كل مواطن قبل الزواج، أن يدخل دورة لمدة شهر ليتعرف على الحياة الزوجية، من واجبات وحقوق، ويمكن خصم وقت حضوره في هذه الدورة من دوامه إذا كان موظفًا في الحكومة، أو في إحدى الشركات، فحصل بعد تطبيق هذا النظام أن نسبة الطلاق انخفضت؛ لأن الناس أصبحوا يعرفون ما لهم وما عليهم، وأيضاً في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قبل إجراء عقد الزواج يقدمون للشاب والفتاة ملفاً، يتضمن نقاط الحقوق يقرأها الزوجان، والمأذون الشرعي يسأل كلاً منهما عن الموافقة على بنودها وبعد ذلك يتم العقد.

أما في مجتمعنا فالأمر يسير بطريقة عفوية، وخصوصاً بالنسبة للفتيات حيث تتزوج البنت ولا تعرف ماذا لها وماذا عليها! لأن جهات التوجيه الديني في الغالب هي من الرجال، لذلك اعتدنا ألّا نخبر المرأة بكل حقوقها، وأنا شخصيًا تعرضت لهذا

الأمر، فحينما أتحدث عن حقوق المرأة في الحياة الزوجية، يعترض البعض بقولهم: إنك تستثير نساءنا علينا وتريدهم أن يتمردوا، إذا عرفوا هذا الكلام. لكنّ هذه حدود الله وهي حقوق للزوجة، ويجب أن تكون واضحة ومعروفة. فمثلًا: من حق الزوجة في عقد الزواج أن تشترط لنفسها الوكالة في الطلاق عن الزوج متى شاءت، هذا من حقها شرعًا، فحين ترى المرأة أن حياتها مع هذا الزوج لا تناسبها، وغير ممكنة لها، تستطيع أن تذهب وتجرى الطلاق، باعتبارها هي وكيلة عنه في الطلاق، وإذا قبل الزوج بهذا الشرط في العقد؛ فإنه لا يمكن إلغاؤه، ويبقى هذا الحق ثابتاً للمرأة.

والآن لدينا كثيرٌ من المشاكل والقضايا، يتعامل فيها الرجال بقسوة مع زوجاتهم، ويُجبرونهم على البقاء تحت سيطرتهم، مع عدم المعاشرة بالمعروف، ولا يقبل أن يطلقها، وهذا خلاف أمر الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: من الآية٢٢٩]، وفي بعض الأحيان إذا طلبت الزوجة الطلاق، أو الخلع، يطلب الزوج مبالغ طائلة، لتبقى المرأة ضائعة، وتضيع حقوقها، فلو أنها تشترط لنفسها منذ البداية أن تكون وكيلة عن الزوج في تطليق نفسها، لما وقعت في هذا المأزق. وأكثر الناس لا يرون أنه من المناسب إخبار النساء بهذا الحق.

إن الوعي الحقوقي مهم جدًّا، في مختلف المجالات، وهو يساعد الناس على أن يكونوا فطنين، ويدافعوا عن مصالحهم وحقوقهم.

الثاني: بذل التجارب والخبرات للناس: يتوفر مجتمعنا على تجارب كثيرة، إلا أنها لا تتداول لتكون في متناول الجميع، فمثلاً: كم من فتاة تقع في حالات الابتزاز، وهناك مخرج من ذلك، إلا أن هذه الفتاة المسكينة لا تعرف ما هو الطريق لكي تتجاوز حالة الابتزاز! فتدوير التجارب يحمي الكثير من المآزق التي وقع فيها غيرهم.

الثالث: عامل التربية: ينبغي للعائلة أن تربي أبناءها على حالة الفطنة، بأن تحذرهم وتوعيهم وتنبههم، ونحن الآن نعيش في عصر لا ينبغي فيه أن نتعامل مع الأمور بعفوية وسذاجة، نعيش في عصر فيه الكثير من التعقيدات والمشاكل، مع

وجود النفوس الشريرة، لذلك علينا أن نوعِّي أبناءنا. فموضوع التحرش الجنسي بالنسبة للأطفال، مثلاً، ينبغي أن يكون ضمن البرامج التربوية، هذا الطفل البريء لا يعرف عن الموضوع شيئًا، لذا يحتاج إلى توعية، إما من قبل العائلة أو عبر البرامج التدريبية التوعوية، بأن يحذر الطفل، ويُشرح له، وبدون ذلك يقع الكثير من الأطفال والناشئين والناشئات في مثل هذه المآزق؛ لأنه لا معرفة ولا خبرة لهم، وليس هناك تربية، فحين تخجل العائلة من فتح مثل هذه المواضيع لأبنائها، يصبح الأبناء ضحايا للجهل والغفلة.

الرابع: قوة الشخصية: كلما كان الإنسان أقوى شخصية كان أبعد عن الوقوع في الاستغفال، وفي فخ التضليل.

وهنا يأتي موضوع إثارة العقل في أوساط الناس، فالمجتمعات التي تحكمها العواطف غالباً ما يقع الناس فيها في فخ الاستغفال، بسبب العواطف، وإغفال العقل، ومجتمعاتنا العربية، وخاصة الخليجية منها، ينظر إليها من قبل الآخرين على أنها مجتمعات ساذجة، بالعواطف يمكن أن يؤخذ الكثير منها، ومن نماذج ذلك حالات التسول، فهناك شركات تأتي بأطفال ونساء إلى بعض مناطقنا، يتسولون ويطلبون الأموال، وقد كتب عن ذلك في الجرائد والمجلات، فيستغلون العاطفة في شهر رمضان المبارك، مثلاً، وفي أوقات معينة، وأماكن خاصة، عند المقابر والمجالس، والمساجد، بل أُكتشف أيضًا أن بعض حالات الإعاقة مفتعلة، من أجل أن يستثيروا بها العواطف، واكتشف أيضًا أن بعض النساء اللاتي يطلبن في بعض الشوارع في الواقع ليسوا نساء، بل رجال في لباس النساء. والسبب في ذلك أن هناك من يُراهن على السذاجة والبساطة في أوساط الناس، من أجل تحقيق مآربه.

ومن المظاهر أيضاً هؤلاء المشعوذون والدجالون والسحرة، وقد كُتب كثيرًا عن هذا الأمر، فقبل أيام قرأت تحقيقاً في إحدى الجرائد المحلية، أن أحد السحرة من أصل أفريقي أوقفوه، وبعد التحقيق معه تبيّن أنه جاء بتأشيرة عمل للمملكة، ولم

يجد فرصة عمل لمدة ستة أشهر، فأشار عليه البعض أن يمارس هذا الدور، فادّعى أنه يقرِّب بين القلوب، وأنه يوفِّق بين الأزواج، وأنه يفتح الطريق للنجاح في الحياة، ويعالج الكثير من المشاكل، ففوجئ بإقبال الناس عليه نساءً ورجالًا، وصار اسمه معروفاً، فتتصل به هذه المرأة، ويتصل به هذا الزوج، ويأخذ مبالغ من هذا وذاك، وكوّن له ثروة طائلة.

يحصل في بعض الأحيان أن شخصاً يسلك طريق العلم الديني حتى يصير عالمًا، فلا يكون ناجحاً في هذا المسار لسبب أو لآخر، فيكتشف أن هذا أفضل طريق لكسب المال والثروة، فيستثير العاطفة عند الناس، ويستقبل الاتصالات فهذا يطلب منه أن يحل له مشكلة، وذاك أن يفتح له فألاً، وغير ذلك. البعض من الناس يعترضون، إذ كيف يعمل هذا العمل وهو ضمن الوسط الديني، وقد جاءني جماعة يشتكون من بعض هذه الحالات، فقلت لهم: اللوم على من يتعامل مع الدجالين، لماذا يُستغفلون؟

وهناك قصة أسطورية مشهورة عن حمار الحكيم حينما سأله حماره: أيها الإنسان أنت تركبني وتمتطيني وتثقل ظهري، ألست أنا وأنت مخلوقين لله، فالله خلقني كما خلقك، قال: نعم، قال: إذاً لماذا أنت تركب ظهري ولا يحصل العكس؟ قال له: هذا لا يحتاج إلى تفسير عميق، أركبك لأنك حمار.

فالإنسان حينما يكون مغفلاً ساذجاً، فإن الآخرين يستغفلونه، وإلا كيف يقبل هؤلاء الناس أن يحكوا أسرارهم لمن لا يعرفونه؟ وكيف يقبلون ادّعاءاته؟

لدينا الكثير من المشاكل والقضايا في هذا المجال، شخص يوهمك بأنه قادر على أن يجعلك ثرياً في مقابل أن تعطيه مبلغاً من المال، وحالته يرثى لها، لماذا لا يثري نفسه إذاً؟ كيف يقبل عقلك هذا الأمر؟ على الإنسان أن يحتاط لنفسه.

كم من النصابين الذين أخذوا أموالاً من الناس على أساس استثمارها لهم، وفي البداية يخدعهم ويعطيهم بعض الأرباح، ويجمع له الملايين ثم يهرب.

مع أننا نجد في هذا الإطار أن أطول آية في القرآن الكريم هي الآية التي تتحدث حول موضوع توثيق الديون بين الناس، بأحكام تفصيلية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٨٢].

فلماذا يتساهل الإنسان في حقوقه؟ ونسمع كل يوم عن محاولات نصب جديدة، فمثلاً في الإنترنت مواقع لشركات وهمية للشراء، وتنمية الثروة! وهناك من يتعامل معها فيقع في فخ النصب والابتزاز وتضيع أمواله وآماله؟

استغلال العواطف الدينية

وفي بعض الأحيان يكون هناك استغلال للعاطفة الدينية، فمثلاً رسائل بالجوالات تقول: انشر هذه الرسالة ١٣ مرة، وإلا سيصيبك بلاء. وقبل مدة نقل إليَّ أن هنالك رسائل تتداول بالجوالات في شهر رجب، أن من كانت في بيته بنت اسمها زينب أو فاطمة فعليه أن يدفع صدقة في هذا الشهر، وإذا لم يدفع صدقة فقد يصيبه بلاء! إن هذا كلام فارغ. إن الصدقة تدفع البلاء كما ورد في بعض الحاديث، لكن ربط ذلك باسم معين أو زمن معين لا أصل له.

فالله تعالى أعطى الإنسان عقلاً، حتى يفكر به، وعليه أن يستثمره الاستثمار الأفضل.

وفي السيرة النبوية نقرأ أن رسول الله ﷺ حينما بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأجج ناراً وأمرهم أن يقتحموا فيها، فأبى قوم أن يدخلوها، وقالوا: إنما فررنا من النار، وأراد قوم أن يدخلوها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها أو دخلوا فيها لم يزالوا فيها» وقال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وأثنى قوم بحضرته ﷺ على رجل حتى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا يا رسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟ فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»[2].

لذلك يجب أن نكون واعين، فلا نُستغل عبر العواطف الدينية، وباسم الدين، ينبغي للإنسان أن يكون فطنًا، وألا يُستغفل، وألا يتنازل عن شيء من حقوقه دون إرادة ووعي.

وهنا نقرأ هذه الرواية الجميلة عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «ضاق علي بن الحسين عليه السلام ضيقة فأتى مولى له فقال له: أقرضني عشرة آلاف درهم إلى ميسرة، فقال: لا، لأنه ليس عندي، ولكني أريد وثيقة، قال: فنتف له عليه السلام من ردائه هدبة، فقال عليه السلام: هذه الوثيقة، قال: فكأن مولاه كره ذلك فغضب عليه السلام وقال: أنا أولى بالوفاء أم حاجب بن زرارة؟ فقال: أنت أولى بذلك منه، قال عليه السلام: فكيف صار حاجب يرهن قوسًا وإنما هي خشبة على مائة حمالة وهو كافر فيفي وأنا لا أفي بهدبة ردائي؟! قال: فأخذها الرجل منه وأعطاه الدراهم، وجعل الهدبة في حق، فسهل الله جل ذكره المال فحمله عليه السلام إلى الرجل، ثم قال له: قد أحضرت مالك فهات وثيقتي، فقال له:

(١) سنن أبي داود. ج٢، ص٤٦، حديث٢٦٢٥.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٥٨.

جعلت فداك ضيّعتها، قال: إذًا لا تأخذ مالك مني، ليس مثلي يستخف بذمته، قال: فأخرج الرجل الحق فإذا فيه الهدبة فأعطاه علي بن الحسين عليه السلام الدراهم وأخذ الهدبة فرمى بها وانصرف»[١].

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان يقظًا، وفي حديث مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «المؤمن كَيِّس فطن حذر»[٢]، كَيِّس يعني: لديه كياسة وفطنة.

---

(١) الكافي. ج٥، ص٩٦.

(٢) كنز العمال. ج١، ص١٤٣، حديث٦٨٩.

ظواهر النصب والاحتيال

حين يمتلك الإنسان مصباحًا، فإن عليه أن يستضيء به في الظلام، أما إذا لم يستخدم هذا السراج، فإنه سيتعرض للضياع والتيه أو السقوط، وإلى مختلف الأضرار والأخطار، وحينئذ لا يلومنّ إلا نفسه؛ لأنه كان بإمكانه ألا يقع في الضرر والخطر، لو استخدم المصباح الذي بيده.

كذلك هو العقل، فهو السراج الذي منحه الله تعالى للإنسان، ليستضيء به في دروب الحياة، وهو تلك القوة التي يميّز الإنسان بها بين الخير والشر، بين الصالح والطالح. وتكمن مشكلة الإنسان في أنه قد لا يلتفت إلى عقله، وقد يجمده فلا يرجع إليه، ولا يستضيء به. في مقابل المجنون الذي لا يملك عقلًا، وبذلك يسقط عنه التكليف. إن أكثر الناس يمتلكون هذا السراج (العقل) ولكنهم لا يستضيئون به.

لذلك يؤكد القرآن الكريم الدعوة إلى استخدام العقل، بل إن القرآن كله دعوة لاستخدام العقل والاستفادة منه، ففيه عشرات الآيات التي تحرِّض الناس على استخدام عقولهم، فقد تكرر قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٥٨] يعني: لا يستخدمون عقولهم. وكذلك تكرر قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، و﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾، و﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، و﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وكثير من الآيات التي تحرِّض الإنسان وتدفعه إلى الالتفات لعقله واستخدامه.

البعض من الناس يستخدم عقله في مجال ويجمّده في مجال آخر، مثلًا في المجال الاقتصادي تراه ذكيًّا، ويدرس الأمور، لكن في المجال الديني تجده خرافيًّا، يقبل الخرافات والأساطير. فيصدق عليه قول الشاعر:

فطنٌ بكلّ رزيةٍ في ماله ... وإذا أصيب بدينه لم يشعر

إن الرسول ﷺ يؤكد في أكثر من موضع قوله: «ما تم دين إنسان قطّ حتى يتم عقله»[١]، أي يتم استعماله لعقله، وقد خاطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قومه في بعض المواقف بقوله: «أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ»[٢].

الانسياق خلف شائعات خرافية

نرى الآن في مجتمعاتنا، مع الأسف الشديد، كيف أن بعض الشائعات تنتشر، وتأخذ مداها عند الناس! ويستغرب الإنسان كيف أن هؤلاء الناس لم يفكروا وكيف أنهم انساقوا خلف الشائعات، رغبة في الثراء السريع؟!

وقد نقلت إحدى الصحف خبر انشغال الناس في منطقتنا الخليجية بشائعة حول ماكنة الخياطة القديمة (سنجر)، وتناقلت مواقع الإنترنت أن أصل هذه الشائعة: أن رجلًا ألمانيًّا ادّعى أنه عثر على كمية كبيرة من الذهب الروماني تقدر بالملايين، لكن هذا الذهب محمي بواسطة الجن، ويلزمه زئبق أحمر لفك الجن عن هذا الذهب، ولا يتوفر هذا الزئبق الأحمر إلا في هذه المكائن القديمة للخياطة. وسرت هذه الشائعة، وأخذت أسعار هذه المكائن في التصاعد، إلى أن وصلت قيمتها في حراجات في حفر الباطن ووادي الدواسر والرياض والكويت من خمسين ألف إلى مئة ألف ريال. وبدأ الناس يبحثون عنها في كل مكان[٣].

فأين عقول هؤلاء الناس؟!

---

(١) كنز العمال. ج١٥، ص٩١٦، حديث ٤٣٥٨٣.

(٢) نهج البلاغة خطبة ٩٧.

(٣) جريدة الرياض. العدد ١٤٩٠٣ الصادر يوم الاثنين ١٧ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ.

وشائعة أخرى انتشرت في أوساط بعض النساء، بأن مما يفيد لتطويل الشعر ولجماله: القمل، فصرن يبحثن عن القمل، ووصلت قيمة القملة الواحدة إلى مئة وخمسين ريال، حسب تحقيق حول الموضوع نشرته جريدة اليوم بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٠هـ.

هكذا يكون الناس حينما تسيطر عليهم السذاجة الجمعية، ويصرفون أموالهم خلافًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[سورة النساء، الآية: ٢٩].

هذه حالات من النصب والاحتيال، وعلى الناس أن يستعملوا عقولهم حتى لا يقعوا فريسة لهذه الأمور. علينا أن نوعّي أنفسنا وأبناءنا في كلّ المجالات، حتى في المجالات الدينية، علينا أيضًا أن نكون واعين، حتى لا ننخدع باسم الدين. لذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استرشدوا بالعقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا»، وورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «ولا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ»[1].

علينا أن نشيع الثقافة العقلانية في مقابل الثقافة الخرافية، وثقافة الأوهام والأساطير، حتى وإن صدر بعضها ممن يتزيًّا بزي الدين، فإما أن يكون مشتبهًا أو يكون مغرضًا، فإن الدين دين العقل، كما ورد عنه ﷺ: « لا دين لمن لا عقل له»[2].

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ٢٨١.

(٢) مستدرك الوسائل. ج١١، ص٢٠٨، حديث ١٢٧٥٥.

توثيق الحقوق

إنّ تداخل المصالح وتشابك الحقوق المادية بين الناس أمر مرتبط بطبيعة الحياة الاجتماعية. وبذلك يغدو من الطبيعي جدًّا أن تكون مستحقّات أحدٍ في عهدة أحدٍ آخر، وأن تكون مصالحه تحت يد غيره، وقد يترك إنسان شيئًا من ماله أمانة أو وديعة عند طرفٍ ما، وقد يقترض آخر مالًا أو يقرض المال لآخرين، ولربما عمل ثالث أجيرًا فتأخرت مستحقّاته، أو أخذ رابع بضاعة من أحدٍ إلى أجلٍ، وعلى هذا النحو يجري التداخل والتشابك في المصالح والحقوق بين الناس.

ويتأسّس هذا التداخل على قدرٍ من الثقة اللازمة فيما بين الناس، إذْ أنّ غياب الثقة على نحوٍ مطلق يجعل حياة الناس أكثر تعقيدًا. غير أنّ ذلك لا يعني انعدام حالات الجور على حقوق الناس والتعدّي على أمانات بعضهم بعضًا؛ لما في أعماق البشر من نوازع وميول شرّيرة، ربما دفعت إلى إنكار حقوق الآخرين، والحيف على مصالحهم. ولربما جرى ذلك لا على سبيل العدوان، وإنّما بسبب الغفلة والنسيان، اللذين يعتريان الإنسان فينسى حقوق الآخرين التي في ذمّته.

تعزيز القيم وضرورة التوثيق

وفي سبيل حفظ الناس حقوق ومصالح بعضهم بعضًا، أكّد الإسلام على تعزيز القيم الأخلاقية، وتوثيق تلك الحقوق. فقد ركّز الدين في الجانب الأول على تعزيز القيم الأخلاقية، كالأمانة والورع والوفاء، بغرض الحؤول قدر الإمكان دون وقوع

حالات العدوان والجور، غير أنّ تعزيز القيم الدينية وحده ليس أمرًا كافيًا، لضمان حماية حقوق الناس. لذلك شرع الإسلام الجانب الآخر، وهو المتمثل في توثيق الحقوق خطيًّا، متى ما كان لأحدٍ حقٌّ في ذمّة آخر.

قد يتساهل بعض الناس في هذا الأمر اعتمادًا على الثقة وحسن الظن، كما أنّ آخرين ربما يأنفون مطالبة غرمائهم لهم توثيق الحقوق، عادّين ذلك تشكيكًا في ذمتهم. والحقيقة أنّ المسألة ليست متعلقة بغياب الثقة، بقدر ما هي توثيق للحقوق بين الناس فهو أمر مطلوب بذاته، من الناحية الشرعية والناحية العملية، فقد ينسى أحد الطرفين ذلك الحقّ، أو ربما توفي الشخص المدين فيؤول ذلك الحقّ المطلوب إلى يد طرف ثالث، كالورثة مثلًا، فعندها كيف يثبت صاحب الحقّ حقّه أمام الوارثين!.

أطول آية في القرآن الكريم

وقد أولت الشريعة أهمية بالغة لمسألة توثيق الحقوق بين الناس. وبلغ من أهميتها أنْ خصّص الله لها أطول آية في القرآن الكريم، فلا توجد آية أطول من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة بدءًا من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، التي غطّت صفحة كاملةأو ما يزيد، وقد تناولت الآية بالتفصيل موضوعًا محدّدًا وهو توثيق الحقوق وكتابتها. وسردت الآية تسعة عشر بندًا، نعرض هنا لبعضها، وجاء في طليعتها الأمر الإلهي بالكتابة وتوثيق الحقوق، الذي قد يأتي بحكم الواجب في مورد، ومستحبًّا في مورد آخر، وجاء في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ والدَّين هو كلّ حقٍّ لأحدٍ في ذمّة آخر، فقد يشتري شخص سلعة، ولا يدفع الثمن، عندها يتحول الثمن إلى دَين في ذمّة المشتري، وبذلك يكون كلّ حقٍّ غير مستوفى هو دَين. والدَّين أوسع من القرض، فالقرض متعلق باقتراض مبلغ معيَّن من أحدٍ، أما الدَّين فهو كلّ حقٍّ لشخصٍ في ذمّة آخر.

كما تحدثت الآية الكريمة عن الكتابة بالعدل، قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، فالقائم على التوثيق كتابة، ينبغي أن يكون عادلًا وكاشفًا ضمن الوثيقة عن

كامل حدود وتفصيل الحقّ.

وتمضي الآية لتتناول مسألة وجوب إقرار المدين بالدَّين الذي عليه، بإملائه على الكاتب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾، وذلك لأهمية الإقرار بالدَّين من طرف المدين شخصيًّا.

كما أشارت الآية الكريمة إلى جانب آخر وهو لزوم شهادة الشهود على ذلك الدين، قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾.

ومضت الآية إلى معالجة حالة التّساهل المتوقعة عند بعض الناس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾، فالعبرة تكمن في ضرورة كتابة الدَّين، بصرف النظر عن كونه صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، وذلك لكي يتعوّد الناس تسيير أمورهم على نحو منظّم.

ويأتي التأكيد الإلهي على توثيق الحقوق بين المتداينين، لغرض بالغ الأهمية، ألا وهو إحقاق العدل وإقامة القسط. حيث تقول الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّـهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾، أي أنّ كتابة الحقوق خطيًّا تشكل ضمانة للعدل، وحصانة للشهادة، فلا يكتفي عندها الاعتماد على الذاكرة الشخصية المعرضة للعطب والضعف والنسيان والاشتباه، فتضيع حقوق الناس. وعلاوة على ذلك تمثل عملية التوثيق ضمانة لنزع الارتياب وإزالة سوء الظنون، فتشيع بذلك أجواء الاطمئنان المتبادل في المجتمع، قال تعالى:﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

التساهل قد ينتج نزاعات

إنّ منشأ كثير من المنازعات المتعلقة بالديون، هو غياب التوثيق الخطّي بين المتداينين. من هنا ينبغي أن يتجه الجميع نحو التوثيق كتابيًّا لكلّ حقّ أو دين لهم أو عليهم.

وفي هذا السياق ورد وجوب تضمين الوصية حقوق الناس الباقية في ذمّة الموصي، حتى لا تضيع حقوق الآخرين. إنّ هذا الأمر الجوهري لا ينبغي أن يعفي أحد نفسه من الالتزام الصارم به، اتّكاءً على صداقة حميمة، أو ركونًا إلى قربى عائلية. بل إنّ ذلك ينسحب أيضًا حتى على الحقوق والديون المترتبة بين الزوجين، أحدهما للآخر، فإذا شاركت الزوجة المتمكنة ماليًّا زوجها في بناء منزل الزوجية من باب المساعدة والتبرع، فذلك أمر طيّب، ولا نقاش فيه، وعندها لا معنى لتوثيق تلك المساعدة، أما إذا كانت مشاركة المرأة زوجها في بناء المنزل قائمة على أساس اعتبار المنزل الجديد ملكًا مشتركًا بينهما، فهذا يستلزم التوثيق، وتبيان حقوق كلّ طرف، درءًا لأية مشاكل مستقبلية، ولا يجوز للزوج حينها أن يأبى التوثيق اتّكاءً على الثقة وحسب، فهذا الأمر مرتبط بحقوق الآخرين، والقرآن الكريم يأمر به.

وكذلك الحال مع كلّ أشكال الشراكة بين الأقرباء والمعارف والأصدقاء، فالواجب أن يوثّق خطيًّا كلّ اتفاق أو تفاهم بينهم، فذلك أدعى لتعزيز الثقة، ومنع تسرّب الريب والشك فيما بينهم، والأهمّ أن يضمن الجميع كامل حقّهم غير منقوص.

رسمية الأوامر الإدارية

ومن المسائل الجديدة في هذا السّياق، مسألة توثيق الأوامر الإدارية بين الموظفين وأصحاب القرار، داخل الإدارات والمؤسّسات والشركات. إذْ يجري في بعض الأحيان اكتفاء الموظف عند معالجة بعض القضايا والأعمال الإدارية المهمة، بالأوامر الشفهية ممن هم أعلى منه، فإذا وقعت مشكلة ما، ربما تنصّل المسؤول المباشر من مسؤولية إعطاء تلك الأوامر، لتقع المسؤولية كاملة على عاتق ذلك الموظف الصغير، فيدفع الثمن غاليًا، لا لشيءٍ إلّا لأنه لا يملك ما يثبت تلقّيه أمرًا رسميًّا يبرر به الإجراء المتخذ. وتنسحب ضرورة التوثيق الكتابي للأوامر الإدارية داخل منشآت العمل بين العاملين وأصحاب القرار.

الاحتياط لحماية الحقوق والمصالح

وتتضمن النصوص الدينية الحثّ على اتخاذ المرء أقصى درجات الحيطة والحذر، لحماية نفسه وحقوقه ومصالحه، من خلال الحرص على التوثيق. ولا يتصورنّ أحدٌ أنّ التساهل في كتابة وتوثيق المعاملات مع الآخرين، أنه بذلك يمارس التسامح، وحسن التعامل مع الآخرين، إنّما على النقيض من ذلك، فهو خلاف ما أمر به الخالق جلّ وعلا من التوثيق والكتابة، ناهيك عن أنّ هناك نصوصًا دينية تهاجم أولئك المتساهلين في توثيق الحقوق!. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أربَعَةٌ لا تُستَجابُ لَهُم دَعوَةٌ،... ورَجُلٌ كانَ لَهُ مالٌ فَأَدانَهُ بِغَيرِ بَيِّنَةٍ، فَيُقالُ لَهُ: أَلَم آمُركَ بِالشَّهادَةِ ؟»[1]، ومن الواضح وفقًا لحديث الإمام عليه السلام أنّ المفرّطين في توثيق حقوقهم، لا مكان لتبرمهم وشكواهم، حين يُظلمون ويُغلبون على أمرهم، بل هم فوق ذلك معرضون للمحاسبة والعتاب الإلهي. وورد عنه عليه السلام أنه قال: «مَن ذَهَبَ حَقُّهُ عَلى غَيرِ بَيِّنَةٍ لَم يُؤجَر»[2]، حيث يبيّن الإمام عليه السلام بأنّ ضياع الحق نتيجة غياب التوثيق أمر لا يثاب عليه الإنسان؛ لأنه تعالى لا يريد للناس أن يتعوّدوا التسيّب والتساهل في الحفاظ على حقوقهم.

ومما ورد في شأن المحافظة على الحقّ وتجنّب التعرض للغبن، ما رواه أَبُو هِشَامٍ الْقَنَّادُ الْبَصْرِيُّ. قَالَ: كُنْتُ أَحْمِلُ الْمَتاعَ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَكَانَ رُبَّمَا يُمَاكِسُنِي فِيهِ، فَلَعَلِّي لا أَقُومُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى يَهَبَ عَامَّتَهُ، قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَجِيئُكَ بِالْمَتاعِ مِنَ الْبَصْرَةِ تُماكِسُنِي فِيهِ ـ فَلَعَلِّي لا أَقُومُ حَتَّى تَهَبَ عَامَّتَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَغْبُونُ لا مَحْمُودٌ وَلا مَأْجُورٌ»[3]، فالإمام عليه السلام كان يماكس الرجل، أي يدفعه لتخفيض أجر التحميل، غير أنّه عليه السلام ما يلبث أن يقسم على من هم حوله كلّ ذلك المال، فلما استفسر

---

(١) الكافي، ج٢، ص٥١١، حديث٢.

(٢) المصدر نفسه، حديث٣.

(٣) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، ج٤، ص٤٠٢.

الرجل، أوضح له عليه السلام مذمومية تعريض المرء نفسه للغبن، وأنّ هناك فرقًا بين أن يُغبن الرجل في ماله، وأن يعطيه عن رضى وطيب نفس، فهنا يقع الأجر والثواب.

ومما نقل في هذا الشأن أيضًا: «تَعَاشَرُوا كالإِخْوَانِ، وَتَعَامَلُوا كَالأجانِبِ»[١]، وذلك لجهة توثيق الحقوق البينية، تجنّبًا لأية مشاكل مستقبلية، ونأيًا عن النزاع والخصومات الاجتماعية. هكذا توجّه الشريعة إلى تأكيد دعامتين أساسيتين، وهما: تعزيز القيم الأخلاقية بين الناس، وتوثيق الحقوق بينهم خطيًّا؛ لغرض حماية حقوق ومصالح كلّ الأطراف.

---

(١) أبو الفضل الميداني. مجمع الأمثال، ج١، ص١٥٠.

الفصل الثالث

مكارم الأخلاق

صناعة الإحسان

الإحسان لغة: من الحُسْن، وهو ضد القبح، والإساءة. واصطلاحاً: يقصد به أحد معنيين:

الأول: بمعنى الإتقان، أي إتقان الشيء، وأحسنت الشيء يعني أتقنته، وأديته متقناً على خير وجه، ومنه قوله تعالى:﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية:٣]، يعني جعل صوركم متقنة، ومنه قول رسول الله ﷺ: «إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك»[1] أي أتقن ركوعك وسجودك.

الثاني: بمعنى فعل الخير للغير، أو فعل ما ينفع الغير، بأن تعمل عملاً ينفع الآخرين، وهذا يطلق عليه إحسان.

وباعتبار أن الإنسان يُحب ذاته، فمن الطبيعي أن يفعل ما ينفع نفسه وما يخدم ذاته. أما أن يعمل الإنسان عملاً ينفع الآخرين، فهذا يعتبر درجة متقدمة، واستجابة للفطرة النقية؛ لأن الفطرة الإنسانية تدفع الإنسان لكي يخدم وينفع الآخرين.

دوافع الإحسان

١. **الدافع الديني**: قد يندفع الإنسان نحو خدمة الآخرين بدافع ديني، فهو يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، ويؤمن بالقيم الإنسانية السامية، ويخدم الآخرين استجابة لإيمانه، لأن الله تعالى يرضيه خدمة عباده، ويقابلها بأعظم الأجر

---

(١) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٢٤٧.

والثواب، حيث ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله»[(١)].

٢. **الفطرة والمشاعر الإنسانية**: وقد يندفع الإنسان لخدمة الآخرين بسبب حسّه الإنساني، وفطرته السليمة.

٣. **الوعي الاجتماعي**: وقد يندفع الإنسان للإحسان استجابة لوعيه الاجتماعي؛ لأنه يدرك أن خدمته للآخرين تعود عليه بالخير، وبالمكسب، من خلال قوة مجتمعه الذي هو جزء منه، ومن خلال ما يعود عليه من مكاسب شخصية عبر خدمته للآخرين.

فضل الإحسان

تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الإحسان ومشتقات هذه الكلمة، إضافةً إلى الأمر بالإحسان والإشادة بالمحسنين بمختلف الاشتقاقات، فيما يزيد على مئتي آية قرآنية، وبالتالي فإن هذا المفهوم (الإحسان) هو من أكثر المفاهيم الأخلاقية وروداً في القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[سورة النحل، الآية:٩٠]، وهذا أمرٌ صريح من الله سبحانه لك أيها الإنسان بأن تكون محسناً للآخرين ونافعاً لهم. وفي آياتٍ كثيرة جاء الحديث حول فضل الإحسان، ومكانة المحسنين، ويكفي من ذلك أن الله تعالى خصهم واعتبرهم من أهل محبته، كما هو صريح الآية الكريمة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وآيات أخرى تتحدث عن أن الله تعالى يرافق بعنايته من يحسن إلى الناس: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك يعني أن عناية الله ترافقك إذا كنت تحسن إلى الناس، وفي آية أخرى يشير الله سبحانه وتعالى إلى أن رحمته ولطفه قريب من المحسنين: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومما لا شك فيه أن الإنسان في حاجة إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة، وهذه الآية تؤكد

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٣٧.

أن الطريق الأقرب إلى رحمة الله تعالى يكمن في الإحسان. وفي آية أخرى يُقدّم الله تعالى البشارة للمحسنين، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا يقتصر الفضل على الإحسان للبشر فقط، بل يتعداه للإحسان لسائر المخلوقات، ففي الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر. قد ادلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها»[١]؛ لأنها أحسنت، ورحمت كلباً يلهث من العطش والظمأ، فكيف لو أحسن الإنسان إلى أخيه الإنسان.

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»[٢] ويشرح هذا الحديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة يقال لهم: إن ذنوبكم قد غفرت لكم فهبوا حسناتكم لمن شئتم»[٣].

ومعنى ذلك أن ما لديكم من رصيد من الحسنات التي لا تحتاجون إليها وزعوها على الآخرين المحتاجين، فالمحسنون إلى الناس في الدنيا يعطيهم الله تعالى كذلك فرصة تقديم الإحسان للآخرين يوم القيامة؛ لأن هؤلاء المحسنين لديهم ما يكفيهم من الحسنات ليدخلوا الجنة بسلام آمنين. أضف إلى ذلك، أن الإحسان ونفع الآخرين يحفظ الإنسان من المكاره، وكم من الروايات والنصوص الكثيرة الواردة بشأن حفظ وسلامة الإنسان العامل بالمعروف، والمحسن للآخرين، فصنائع المعروف تقي ميتة السوء كما ورد في الرواية عن علي عليه السلام: «وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء»[٤].

إن صنع المعروف للناس والإحسان للآخرين، يجلب المحبة ويجذب قلوب الناس لصاحب الإحسان، فمن أحسن إلى الناس فإنه يستقطب عواطفهم ومشاعرهم

(١) صحيح مسلم، ص١٢٣٣، حديث٢٢٤٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٢٨٨.
(٣) الكافي. ج٤، ص٢٩.
(٤) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٨٩.

ويجذب قلوبهم.

وكما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

إن الإحسان شريعة أخلاقية، وكل إنسان مهما كان دينه، ومهما كان توجهه، فإن فطرته السليمة تدفعه إلى الإحسان وعمل الخير ونفع الآخرين. وقد تناولت آيات القرآن الكريم والنصوص الشريفة جملة من آثار الإحسان ونتائجه، ومنها:

أولًا: العطاء الإلهي الكبير، ومن ذلك:

- محبة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، تكرر في خمس آيات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- عناية الله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- القرب من رحمة الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- البشارة من الله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾.
- الضمان من الله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تكررت في أكثر من مورد، ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.
- الثواب في الآخرة: عن علي عليه السلام قال: «نعم زاد المعاد الإحسان إلى العباد»[١].

ثانيًا: جذب القلوب: وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[٢]، وبالإحسان تملك القلوب، يقول علي عليه السلام: «من كثر إحسانه أحبه إخوانه»[٣]، «من كثر إحسانه زاد خدمه وأعوانه»[٤].

ثالثًا: الأثر الاجتماعي، فالإحسان للناس يودي بطبيعة الحال إلى المزيد من

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) كنز العمال. ج١٦، ص١١٥، حديث ٤٤١٠٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) المصدر نفسه، حكمة ٩٦٠.

التماسك المجتمعي، وصناعة القوة الاجتماعية، وقد عبرت الآية الكريمة عن هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وكذلك في الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

كما خص الله تعالى المحسنين بجملة خواص، منها: راحة النفس، وسعادة القلب، والوعد بالعطاء الإلهي في الآخرة، ومحبة الناس وانجذاب القلوب نحوهم، إلى جانب ما يتحقق للمجتمعات التي يكثر فيها الإحسان من القوة والمنعة والتماسك.

مجالات الإحسان وآلياته

١. الكلمة الطيبة والرأي النافع

إن أول مجال من مجالات الإحسان وآلياته هي الكلمة الطيبة والرأي النافع، وذلك بخلاف ما قد يتبادر إلى الأذهان غالباً حول ارتباط الإحسان بالإنفاق المالي، ومساعدة المحتاجين والمعوزين تحديدًا، مع أن الإنفاق يشكل بالفعل أحد مجالات الإحسان، لكنه ليس الوحيد.

إن بذل الكلمة الطيبة للناس، المتمثلة في إبداء التقدير والاحترام، وفي تقديم التجربة الشخصية، والخبرة العامة، والرأي النافع، يشكل أحد مجالات الإحسان الضرورية التي تحتاجها مجتمعاتنا. فكثير من الناس في مجتمعاتنا يعانون من ضعف الخبرة والتجربة في إدارة الحياة، فهم يواجهون مصاعب في ترتيب أمور حياتهم، وحل مشاكلهم على اختلافها، وهذا ضعف ملحوظ، خاصة مع التطورات الكبيرة التي طرأت على المجتمع، إن متطلبات الحياة أخذت في التشعب والتعقيد، وسط انعدام الخبرة والتجربة لدى أكثر الناس، في مقابل تنامي حاجاتهم الحياتية. من هنا كان تمرير التجارب الشخصية الناجحة في أوساط الناس، وتقديم الخبرة والرأي النافع أحد مجالات الإحسان، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة بالكلمة الطيبة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي

السَّمَاءِ﴾[سورة إبراهيم، الآية:٢٤]، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله»[١]، وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة»[٢].

وتتراوح مجالات تقديم الخبرة من إرشاد الطلبة المتخرجين في الثانوية لاختيار الكليات المناسبة لهم، إلى المساعدة في توفير فرص العمل، وتقديم الاستشارة للشباب في مجال تأسيس المشاريع والأعمال الحرة، وصولًا إلى مساعدة أبناء المجتمع في مجال إنشاء الشركات والمشاريع الاستثمارية.

فهناك آلاف الطلاب من خريجي الثانوية كل عام يواجهون خيارات محيّرة في اختيار تخصصاتهم الجامعية المناسبة لسوق العمل. إن تقديم النصح والإرشاد لهؤلاء هو شكل من أشكال الإحسان وآلية من آلياته.

وكثير من الشبان ليست لديهم معرفة بالفرص الوظيفية المتاحة أمامهم، وهم بذلك أحوج ما يكونون إلى من ينصحهم و يرشدهم ويقدم لهم الخبرة، ولهذا كان إنشاء لجان التأهيل الوظيفي في الجمعيات الخيرية استجابة لهذه الحاجة، فهو مجال من مجالات الإحسان، غير أننا بحاجة في السياق ذاته إلى أن نعطي لأبنائنا وشبابنا خبرة وتجربة في اقتحام مجال الأعمال الحرة، وأن نرشدهم باتجاه إدارة المشاريع الناجحة، وتأسيس المؤسسات والشركات الإنتاجية. لا بدّ من القول هنا إن الوظيفة ليست هي الخيار الوحيد، بل ليست هي الخيار الأفضل، فالأعمال الحرة أفضل بكثير من الحصول على وظيفة. إن كثيراً من أبنائنا وبناتنا لا يمتلكون الخبرة اللازمة في هذا المجال، ولذلك هم بحاجة ماسة إلى دعم وإلى إرشاد ومساعدة.

الأعمال الحرة خيار أفضل

وتحضرني في هذا السياق تجربة طيبة لمجموعة من الشيعة المقيمين في أوروبا وبعض بلاد أفريقيا، والمعروفين بالخوجة، هذه المجموعة تعود أصولها لشبه القارة

---

(١) كنز العمال. ج٦، ص٣٥٩، حديث ١٦٠٥٢.

(٢) وسائل الشيعة. ج٥، ص٢٣٣.

الهندية قبل أن تتنتشر حول العالم، من المعروف أن هؤلاء الخوجة أغلبهم من التجار ورجال الأعمال، ويروون سرّ تجربتهم الناجحة التي تتمحور في تربيتهم لأولادهم منذ الصغر على نبذ العمل الوظيفي، والتوجه عوضًا عن ذلك صوب التجارة والأعمال الحرة، وهم يعمدون في هذا المجال نحو مساعدة بعضهم البعض في تأسيس الأعمال التجارية الكبيرة في مختلف المناطق، لذلك تجدهم باستمرار من أبرز التجار والأثرياء أينما تواجدوا، وقلما تجد بينهم من هو فقير محتاج؛ ذلك لأنهم يتوارثون الخبرة والتجربة، ومساعدة بعضهم على نحو دائم.

وعلى ذات المنوال يمكن النظر إلى تجربة اليهود كمثال آخر، فاليهود في مختلف أنحاء العالم تحولوا من مجتمع منبوذ ضعيف إلى مجتمع قوي، نتيجة اهتمامهم بالتجارة والاقتصاد والعمل الحر. فقد درج اليهود على تبادل الخبرات فيما بينهم، فكل رجل أعمال منهم يشعر أن من مسؤوليته أن يساعد أبناء جماعته على أن يصبحوا تجارًا، وأصحاب مؤسسات، ورجال أعمال ناجحين. إن تقديم الخبرات مجال مهم من مجالات الإحسان نحن في أمسّ الحاجة إليه.

الاستشارات العائلية

وينسحب الإحسان بالكلمة الطيبة كذلك على المجال الاجتماعي، فهناك كثير من المشاكل العائلية القائمة في المجتمع، التي لا تحتاج في كثير من الأحيان لأكثر من كلمة طيبة يتقدم بها بعض المصلحين لذات البين. فالكلمة الطيبة مفتاح لمعالجة كثير من المشاكل، من هنا نحتاج إلى أناس يتفرغون إلى تأسيس وإنتاج ثقافة التماسك والانسجام العائلي واحتواء المشاكل الأسرية. وهنا نشيد بانطلاق تجربة الهاتف الاستشاري القائمة في بعض الجمعيات الخيرية، التي تحتاج إليها كل منطقة من مناطقنا، فمهمة هؤلاء الاستشاريين المتطوعين تقديم العون والاستشارة للأسر التي تعصف بها الخلافات العائلية، سواء بين الزوج وزوجه، أو بين الأولاد وأبويهم، فلا يتطلب الأمر سوى مكالمة هاتفية لطلب المساعدة في حل المشكلة، لا

شك أن هذا شكل من أشكال الإحسان عبر المشاركة بالرأي والكلمة الطيبة.

ترشيد الممارسات الشبابية

إن الكلمة الطيبة والرأي النافع يلعبان دورًا محوريًا في احتواء ومواجهة التصرفات الخاطئة من قبل بعض أبناء المجتمع. وقد قرأت في هذا الصدد عن تجربة أوردتها مجلة (ديستسناسيون سانتيه) الفرنسية، أجريت في جامعة كاليفورنيا وغرضها مساعدة المدخنين على التوقف عن هذه الممارسة، من خلال تقديم المساعدة المباشرة من متخصصين عبر الهاتف. وقاد هذه التجربة الدكتور (شو انغ زو) من جامعة كاليفورنيا، الذي نجح مع فريقه المؤلف من عشرات التلاميذ في معالجة ٣٣٠٠ مدخن، فقد كان هؤلاء الطلبة يتصلون بالمدخنين يوميًّا، ويحادثونهم عن مخاطر وأضرار التدخين، وتأثيره السلبي والمباشر على سلامة أعضاء بدنهم. وتورد المجلة أنه بعد مرور شهر واحد على التجربة، أقلع نحو ثلث هؤلاء المدخنين عن عادتهم، وامتنع عن التدخين بعد أشهر قليلة ٩٦ ٪ من المشاركين في هذه التجربة، وقال بعضهم عن الدعم الذي قدمه لهم تلامذة (شو) إنه كان مهماً كثيراً وكمعالجة نفسية[(١)]، فهؤلاء الطلبة استطاعوا عبر الاتصالات والحديث الهاتفي مع المدخنين أن يسهموا في حل مشكلة لدى هؤلاء الناس.

كما نذكر في هذا السياق تجربة تأسيس اللجان المحلية لمساعدة المدمنين على المخدرات في التعافي والإقلاع عن هذه العادة المدمرة. وتتركز مهمة هذه اللجان على معالجة وتوجيه المتورطين في بلاء المخدرات. إن من الأصح أن نطلق على المدمنين عنوان المرضى؛ ذلك لأن النظرة للمدمن باعتباره مجرمًا يستحق العقوبة والردع باتت من الماضي، فقد تغيّرت النظرة للمدمنين اليوم حيث صنفوا باعتبارهم مرضى يستحقون العلاج والمساعدة في تجاوز هذه الحالة المأساوية. إن

---

(١) جريدة الحياة. صحيفة يومية تصدر من لندن، العدد ١٤٤٦٤ بتاريخ ٢٠ شعبان ١٤٢٣هـ الموافق ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٢م.

«مجموعة زمالة المدمنين المتعافين» في المنطقة تعتمد في برامجها على الاتصال واللقاء المباشر بين الأعضاء المتعافين من مشكلة الإدمان بالمتورطين في تعاطي المخدرات، لنقل تجربتهم في تخطي معضلة الإدمان، وإقناعهم بالتخلي عن تعاطي المخدرات، وقد تمكن أعضاء اللجنة في منطقتنا من التأثير على عدد من المتورطين في مشكلة الإدمان وإنقاذهم من هذا المرض.

من هنا، فالإحسان قد يكون بالكلمة الطيبة، وبالرأي النافع. فهناك الكثير من المرضى الذين ربما لا يعرفون كيفية الوصول لسبل العلاج، وآخرون لديهم مشاكل مختلفة، قد تكون قابلة للحل بقليل من الجهد، من قبيل التورط في الديون المالية، أو التوقيف لأي سبب آخر، ولا يعرفون سبل الخروج من هذا المأزق، فهؤلاء بأمسّ الحاجة إلى من يرشدهم ويعينهم، ولذا تبرز الحاجة إلى قيام مؤسسات استشارية، مهمتها تقديم الحلول والاستشارات المجانية للناس، فللرأي قيمة كبيرة، وهو مجال مهم من مجالات الإحسان.

٢. بذل المال

بذل المال والعطاء من أهم تجليات الإحسان، وفي مجتمعنا نشعر بالحاجة إلى تنمية حالة البذل والعطاء، إذ إن واقع مجتمعات أخرى في هذا الجانب أفضل مما هو عليه واقع مجتمعنا. وقد يقول قائل: إن مجتمعنا تنقصه رؤوس الأموال الكبيرة، إلا أن هذا الكلام ليس دقيقاً، فمجتمعنا فيه خيرٌ كثير، إضافةً إلى أن البذل والعطاء مطلوبٌ من الجميع وليس من الأثرياء فقط، فالله تعالى في كتابه الحكيم يُشجّع الإنسان على الإنفاق والبذل مما آتاه الله تعالى من فضله، يقول تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [سورة النور، الآية:٣٣]، كما أن الله تعالى وعد بأن يُعوّض على الإنسان ما أنفقه، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩]، وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة قط فأعطوا ولا تجبنوا»[1]،

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق). من لا يحضره الفقيه ج٤، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٣٨١.

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه ينزل ملك كل ليلة في الثلث الأخير ينادي: «اللهم أعط كل منفقٍ خلفاً وأعط كل ممسك تلفاً»[١].

لقد آن الأوان لأن يلتفت الأثرياء لحاجات مجتمعهم من خلال إطلاق المشاريع الاقتصادية التي تخدم الناس، عوضًا عن الاكتفاء بإعطاء الصدقات الصغيرة هنا وهناك. المجتمع في حاجة ماسة إلى من ينفق في مجال إسكان الفقراء والمحتاجين، ودعم البعثات الدراسية للطلبة المحتاجين، وتزويج العزاب، وتأسيس المستوصفات والمستشفيات لخدمة المجتمع، إن جميع ذلك من مجالات الخير والإحسان.

٣. السعي العملي

ومن تجليات الإحسان السعي على نحو عملي في مساعدة الناس لحل مشاكلهم، وتذليل العقبات أمامهم. فهناك الكثير من الناس ممن يواجهون مشاكل المرض أو السجن وما أشبه ذلك، لكن تعوزهم الحيلة ويحتاجون لمن يقف بجانبهم، ويدلّهم ويأخذ بأيديهم، ويتحرك لمساعدتهم، هذا سعي عملي مطلوب في خدمة الناس، وهو مجال من مجالات الإحسان وآلياته، وفي ذلك أجرٌ كبير، وفضل عظيم عند الله تعالى، فعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «من سعى في حاجة أخيه المسلم، فاجتهد فيها، فأجرى الله على يديه قضاءها كتب الله عزّ وجلّ له حجة وعمرة، واعتكاف شهرين في المسجد الحرام وصيامهما، وإن اجتهد ولم يجر الله قضاءها على يديه، كتب الله عزّ وجلّ له حجة وعمرة»[٢]. فالسعي العملي في حوائج المؤمنين بحد ذاته من الإحسان ويستحق عليه الإنسان الأجر والثواب.

فحريٌّ بنا جميعاً أن نُعزّز في أنفسنا هذه التجلّيات، لنكون من المحسنين الذين يُحبّهم الله تعالى، ويكتب لهم من فضله عظيم الأجر والثواب.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٦٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٣٦٩، حديث ٢١٧٨٧.

ثقافة الإحسان وتنميته

إن واحدة من أبرز نقاط الضعف في أي مجتمع هي قلة عدد المحسنين، وهذا ما يتطلب معالجة خاصة. فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات من المحسنين، لكن تكمن المشكلة الحقيقية في قلة عدد هؤلاء المحسنين، وبقاء هذه الممارسة ضمن إطارها الفردي ودائرتها المحدودة. إن الوضع الأمثل في أي مجتمع هو أن يصبح الإحسان وأعداد المحسنين حالة ظاهرة سائدة في المجتمع، لا مجرد حالات فردية تعدّ على الأصابع، ينبغي أن تكون هناك حالة إحسان في المجتمع بأنواعه ومجالاته المختلفة. فكيف نصنع مثل هذه الحالة وننميها في مجتمعنا؟ هناك عدة أمور ينبغي الالتفات لها لتحقيق هذا التطلع النبيل:

أولاً: التربية على الإحسان

إن أولى لبنات صناعة الإحسان في أي مجتمع هي تربية الأبناء على الإحسان. فالأب ينبغي أن يربي أبناءه على الإحسان منذ نعومة أظفارهم، وقد رأينا كيف يمارس بعض الآباء هذا النوع من التربية، فهم حينما يعطون أبناءهم نفقتهم أو ما يعرف بالمصروف اليومي، يضعون عليه مبلغًا رمزيًا يحثون الابن على التصدق به للفقراء والمساكين، وبهذا ينشأ الابن وقد تربى على فعل الإحسان في حقّ الغير، فكم هو رائع أن تربي العائلة أبناءها على مساعدة المحتاجين والتبرع للصناديق الخيرية المخصصة لمساعدة الفقراء، ذلك حتى يتربى الولد على هذه الحالة، فيكون مسلكًا أساسيًّا يسير فيه طوال حياته، في دراسته وعمله وعلاقاته الاجتماعية، فالتربية عامل أساس ومهم في تشجيع الأبناء على العطاء والإحسان وخدمة الآخرين.

ثانياً: نشر ثقافة الإحسان

من لبنات صناعة الإحسان في المجتمع، نشر ثقافة الإحسان في الأوساط العامة. جنبًا إلى جنب مع ثقافة حث الناس على العبادات من الصلاة والصيام والحج. فالمطلوب ألا يقتصر خطابنا الديني على حث الناس على جانب العبادات

فحسب، بل الواجب أيضًا حثهم على عمل الخير، وقضاء الحوائج، وتفريج الكرب، والوقوف إلى جانب المضطرين والمحتاجين. إن نشر ثقافة الإحسان يجب ألا تغيب عن مجالسنا ومحاضراتنا وكتاباتنا ووسائل إعلامنا، فهذا أمر في غاية الأهمية.

ثالثاً: مأسسة الإحسان

ينبغي أن يتحول عملنا الخيري والاجتماعي إلى عمل مؤسسي منظم في كل مجال من المجالات عبر تحويل الإحسان من العمل الفردي المحدود، إلى حال المؤسسة، فكل حاجة من حاجات المجتمع، ينبغي أن ترعاها مؤسسة قائمة بذاتها، تتولى سدّ الفراغ في ذلك الجانب.

وقد أصبح هذا الأمر بحكم البديهيات في المجتمعات الأخرى، فمنظمات المجتمع المدني باتت تغطي كل مجالات الحياة في الكثير من المجتمعات المتقدمة، بدءاً من حماية البيئة، ولجان أصدقاء المرضى، ولا تنتهي عند منظمات رعاية الحيوانات. بل ينسحب الأمر في مجالات العمل التطوعي إلى رعاية الطلبة الأجانب في تعلم اللغات المحلية، فهناك في بعض الجامعات الغربية متطوعون لمساعدة الطلبة الأجانب في تعلم اللغة الإنجليزية على نحو منظم، ففي بعض الجامعات قوائم بأسماء المتطوعين من أبناء البلد المستعدين لصرف الوقت في مساعدة الطلبة المستجدين على تعلم اللغة الإنجليزية، عبر المحادثة المباشرة. وقد أخبرني أحد طلابنا في أستراليا أن متطوعًا من الأستراليين خصص له ساعات محددة يصرفها معه في سبيل أن يتعلم منه اللغة الإنجليزية، فقد فرّغ ذلك المواطن الأسترالي نفسه لعدة أسابيع لمساعدة هذا الطالب الغريب على تعلم اللغة، هذا نوع من الإحسان. من هنا كان من اللازم أن تنشأ لدينا مؤسسات تطوعية في مختلف المجالات.

ومما يؤسف له تكرر شكوى مختلف المؤسسات من ضعف التفاعل الاجتماعي معها، فالجمعيات الخيرية تشكو من ضعف التفاعل مع أنشطتها، والأندية الرياضية تشكو من ضعف الإقبال عليها، وصناديق الزواج ومراكز الأسرة تشكو الأمر ذاته.

هنا لا يمكن إنكار تفاعل بعض الخيرين مع مختلف الأنشطة الاجتماعية، إلا أنه لا يزال محدوداً ودون مستوى الحاجة والتطلع. لذلك تبرز الحاجة لنشر ثقافة الإحسان ومأسسة عمل الإحسان والبذل في خدمة الآخرين.

رابعاً: تشجيع الإحسان

إن أحد أهم جوانب تعزيز ظاهرة الإحسان في المجتمع، يكمن في شكر المحسنين، وتقدير دورهم من قبل المجتمع، إن تقدم ظاهرة الإحسان مرهون في جانب منه بتقدير حالة الإحسان وشكر المحسنين، بينما المجتمع الذي يتجاهل محسنيه، ولا يقدر العاملين والساعين بالمعروف تنخفض وتتضاءل فيه حالة الإحسان.

من هنا نجد النصوص الدينية تشجعنا على شكر المحسن، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[١]، وأبعد من ذلك، يحثنا ربنا سبحانه وتعالى حتى عند ردّ التحية البسيطة بأن نرد بأحسن منها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[سورة النساء، الآية:٨٦]. فالواجب علينا أن نشكر المحسنين وأن نقدّر دورهم، فهذا أمر مطلوب ومهم للغاية، وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام فصل في رسالة الحقوق بعنوان حق ذي المعروف عليك، جاء فيه «وَأَمّا حَقُّ ذِي المَعْرُوفِ عَلَيكَ فَأَنْ تَشْكُرَهُ وتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ وتَنْشُرَ لَهُ الْمَقالَةَ الْحَسَنَةَ، وَتُخلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَينَكَ وبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ»[٢]، فحق الإنسان المحسن على المجتمع أن يشكره ويذكر إحسانه، وهذه روحية يفتقدها بعض الناس على المستوى الشخصي مع شديد الأسف، فهؤلاء لم يتربوا على شكر المعروف.

قرأت في إحدى الصحف مقالة لأحد الكتاب ذكر فيها كيف تغير سلوك ابنه

---

(١) أبو داؤود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داؤود ج٢، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الريان)، ص٦٧١، حديث ٤٨١١.

(٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص٧.

الصغير بمجرد عودته للبلاد من بعثته الدراسية، يقول الكاتب عندما كنت في الخارج مع عائلتي، تربى ابني الصغير على شكرنا أنا ووالدته على أي عمل نقدمه له مهما كان صغيرًا، ونحن نقابله بذات التصرف أيضًا، فنحن نشكره على أي عمل يقوم به تجاهنا مهما صغر، ويضيف الكاتب أنه تفاجأ بعد عودته للبلاد بشهر، بأن ابنه كفّ عن مقابلة والديه بالشكر كما درج على ذلك سابقًا، وذلك حين أعطاه هدية فلم ينطق بكلمة شكرًا، فلما سأله عن سبب إحجامه عن تقديم الشكر مقابل الهدية التي تلقاها، قال الولد: الناس هنا لا يقولون شكرا، فهذا الولد لم يعتد على سماع كلمة الشكر في بلاده بخلاف ما كان عليه أيام بقائه في الخارج.

إن تقديم الشكر للمحسنين على المستوى الفردي أو المجتمعي أمر واجب، إذ ينبغي لنا ردّ الإحسان لمن أحسن إلينا. المؤسف في الأمر أن بعض المجتمعات لديها حالة من الجفاء والجفاف، فمن السهل أن تجد أحدهم يأتيك لحاجة فيُظهر لك الاحترام والتقدير حينها، ومتى ما انتهت حاجته، فكأنه لم يعرفك، ولم يرك، وقد لا يسلم عليك. نحن في الوقت الذي نؤمن فيه بضرورة أن يكون الإحسان خالصًا لوجه الله تعالى، كما قال الله تعالى عن أولئك المخلصين الصادقين من أهل البيت عليهم السلام: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٩]، لكن الإنسان، أي إنسان يبقى بشرًا يتأثر بالتشجيع، ويطرب للثناء، فلماذا لا نشجع المحسنين عبر شكرهم والدعاء لهم بالخير والأجر والثواب. وذلك بخلاف تصرف بعض الناس الذين يجتهد الآخرون في معالجة مشاكلهم، فيصرفون أوقاتهم، ويبذلون ماء وجوههم لغرض المساعدة، فإذا ما انتهت مشكلتهم يبخلون حتى بنسبة المعروف لأهله، ويستنكفون عن شكر من ساعدهم، إن هذا نكران للمعروف.

المطلوب أن يشجع الناس بعضهم بعضًا على عمل المعروف وشكر الإحسان، والدعاء لمن يحسن إلينا فيما بيننا وبين الله. ولو ضربنا مثلًا ببعض المتطوعين الذين يعملون في الجمعيات الخيرية جزاهم الله خيرًا، فالكثير منهم موظفون ولديهم

عوائل ومسؤوليات وأعمال، لكنهم مع ذلك يصرفون أوقاتهم الخاصة في العمل كمتطوعين في هذه الجمعيات، لكنهم كثيرًا ما يقابلون بالنكران، وفوق ذلك تطالهم الاتهامات بدلًا من أن يشكرهم المجتمع.

النقد البنّاء

نشير هنا إلى أن بعض الانتقادات العنيفة التي تطال هؤلاء قد تكون نتيجة أخطاء معينة، ولا يوجد أحد معصوم من الخطأ، لكن مقابلة هذه الأخطاء ينبغي أن تكون على نحو بنّاء، وليس بالتشهير والإسقاط، فالمجتمع الذي يشهر برجالاته، ويسقط العاملين للخير فيه، لا يمكن أن يتقدم، وقد تنحسر في هذا المجتمع حالة الاهتمام بالعمل التطوعي، والانخراط في الشأن العام، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[1]، أقلّ الواجب أن نستمر في الدعاء لصاحب المعروف المرة تلو الأخرى حتى نتأكد أننا أدينا الواجب اللازم علينا اتجاهه.

في هذا الإطار لا بدّ وأن نقدر عاليًا بروز مؤسسات اجتماعية تعنى بتقدير العاملين والناشطين في الحقل العام.

نحن نحتاج إلى ثقافة تشجيع الإحسان وتنميته، فالمحسن نفسه يكسب قبل أن يكسب الآخرون، يقول تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾[سورة الإسراء، الآية:٧] فالإحسان ينعكس عليك أنت، فأحسن كما أحسن الله إليك، واعلم أن ما عندك من خير من الله، فابذل للناس يعطيك الله المزيد من الخير، قال تعالى:﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة البقرة، الآية:٥٨]، إن من يحسن إلى الناس هو أول من يشعر بالراحة النفسية، ففي الإحسان لذة لا يشعر بها إلا من وفق إليها، فإذا وفق إنسان لتفريج كربة إنسان آخر، تغمره راحة نفسية، ولذة روحية لا تعادلها أية لذة، علاوة على اكتساب حب الناس.

---

(١) سنن أبي داؤود. ج٢، ص٣٧٧، حديث ١٦٦٩.

مواجهة الإساءة بالإحسان

ثمة صراع دائم أزلي في حياة البشر، بين توجهات الخير وتوجهات الشر، المنبثقين كليهما من داخل الإنسان. حيث تنبثق توجهات الخير انطلاقًا من الفطرة السليمة، ويدعمها العقل، فيما تنبثق توجهات الشر من الشهوات والأهواء، ويشجع عليها الشيطان. إن هذا الصراع الدائم لن يحسم في هذه الحياة الدنيا، ما دام الأمران يعتركان في أعماق الإنسان نفسه. ولعل أقرب تشبيه لهذه الحالة، هو التجاذب بين الصحة والمرض في حياة الإنسان، فالمرض أمر قائم وموجود باستمرار، إلا أن هناك جهودًا تبذل باستمرار من أجل مكافحته، ولا توجد جهة واحدة في العالم تدعي استئصالها لجميع الأمراض، فذلك أمر متعذر، غير أن الممكن والمتاح للجميع هو تعزيز الحالة الصحية، وتقوية المناعة لدى البشر، ومقاومة الأمراض بغرض الحدّ منها وإضعاف مسبباتها. وكذلك الحال مع الصراع بين توجهات الخير وتوجهات الشر، فنظرًا لتعذر حسم هذا الصراع دنيويًا، فإن جلّ ما تسعى إليه الشرائع السماوية هو تعزيز جانب الخير في نفس الإنسان، وإضعاف جانب الشر عنده، فذلك جلّ ما تصبو إليه كل الرسالات السماوية.

تعزيز توجهات الخير

وتتضمن الشرائع السماوية وسائل وأساليب عديدة لتعزيز جانب الخير عند الإنسان، وإضعاف جانب الشر. ومن ذلك معادلة مواجهة الشر والرد عليه، وخاصة ضمن إطار العلاقات الاجتماعية، فيا ترى، ما طبيعة هذه المواجهة وكيف يكون الرد؟ فهل تكون مواجهة الشر بالشر؟ أم هل ينبغي الرد على السوء بما هو أسوأ؟.

حقيقة الأمر، قد يكون الرد بالمثل أمرًا مطلوبًا في بعض الحالات، كما في مجابهة الظلم مثلًا، غير أنه وضمن العلاقات المجتمعية تذهب التعاليم الدينية إلى النأي عن الرد بالمثل، والميل نحو مقابلة الشر بالخير والإحسان. أي إنه، ومع ما تعطيه الشرائع السماوية من حق الرد بالمثل، وفقًا للآية الكريمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٤]، غير أن الشرائع تشدد في الوقت ذاته على أن أسلوب الرد بالمثل ليس هو الأسلوب الأمثل دائمًا، وإنما الأصل أن يسعى الناس لمواجهة الشر والسوء بالخير والإحسان، يقول تعالى في هذا الشأن: ﴿وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[سورة الرعد، الآية: ٢٢]، فالله تعالى يحث المؤمنين على الميل نحو درء السوء، أي مواجهته، بالإحسان، مع وعده تعالى للمؤمنين إثر ذلك بالعاقبة الحسنة دنيا وآخرة.

وتوضيحًا للأمر، يعمل معسكر الشيطان على تعزيز توجهاته القائمة على الشر بالدرجة الأساس. وبذلك يأتي الدخول في المشاحنات والاعتداء اللفظي والجسدي ضمن سياق التوجهات الشيطانية، فأيما اعتداء سافر من طرف على آخر، فإنه حتمًا يخدم معسكر الشيطان، فإذا جاء الرد بالمثل فستكون الخدمة لمعسكر الشيطان مضاعفة، ذلك أن حالة التنازع والاعتداء والاعتداء المقابل هي الحالة التي يريد معسكر الشيطان تعزيزها بين البشر. إذًا ومع حفظ الشرائع السماوية لحق الرد بالمثل ردعًا للعدوان، إلا أنها تشدد في الوقت ذاته على ضرورة إعادة النظر والتفكير أكثر من مرة في خيارات أخرى للرد، ومنها وأهمها مواجهة الإساءة بالإحسان، والغرض من ذلك منع تكرر الإساءة، وعدم تفاقم المشكلة، علاوة على ما يرتجى من تأثير ذلك في الطرف الآخر المسيء، بحيث يحجزه عن تكرار الإساءة.

لماذا نواجه الإساءة بالإحسان

وتشدّد النصوص الدينية باستمرار على مقابلة الإساءة بالإحسان. يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ تكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ»[1]، ومضمون ذلك، أن إذا استنفذ أخوك طاقته في توجيه الإساءة إليك، وسخّر إرادته في ارتكاب الشر ضدك، فإن المطلوب من الإنسان المؤمن أن يستنفذ أقصى طاقته في الإحسان، وأن يجعل

(١) نهج البلاغة. خطبة ٣١.

إرادته مسخرة للخير.

إن المشكلة الشائعة في العلاقات بين الناس، بدءًا من الزوج وزوجه، والأب وأبنائه، وكذلك الجيران والزملاء، إذا تلقى أحدهم إساءة من الآخر، فإن أول ما تثور عنده هي الرغبة في الرد والمسارعة في الانتقام للنفس، وعلى جري المثل يريد أن «يرد الصاع صاعين»، ومع الشعور بالرضا من تحقيق الانتقام مرحليًا، إلا أن الشرائع الدينية تنأى بالمرء عن هذا التوجه، وتحذّر من عدم نيل العاقبة الحسنة، وإنما تأتي العاقبة الحسنة عند مواجهة الإساءة بالإحسان.

جاء في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن من فضل الرجل أن ينصف من لم ينصفه ويحسن إلى من أساء إليه»[١].

وورد في دعاء مكارم الأخلاق للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وهو دعاء بالغ الروعة، ويمتاز على كثير من الأدعية بالوضوح والفصاحة، وملامسة كلماته الحياة الاجتماعية عن قرب، وهو من الأدعية التي يُوصى بالمواظبة والمداومة عليها، جاء في هذا الدعاء: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ». ويشدد الدعاء على حالة التسديد الإلهي في ضبط النفس، ذلك أن مقابلة الغش بالنصح تحتاج إلى تسديد إلهي، بالنظر إلى ميل الطبيعة البشرية للانتقام، وكذلك الحال في التعامل مع هجران ومقاطعة الآخرين، فالدارج عند الناس مقاطعة من قاطعهم، في حين يدعو الإمام ربه أن يهبه التسديد لأن يواجه بالبر أهل الهجران والقطيعة، والحال نفسه يجري مع البخلاء الذين يدعو الإمام ربه أن يوفقه لأن يبذل لهم مما عنده.

خلق عظيم يحتاج إرادة عظيمة

ولا مناص من القول إن هذا النمط من السلوك الاجتماعي النبيل أمر صعب،

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٣٧، حكمة ٢٨٠.

سيما إذا كان الطرف الآخر المراد إبداء اللين تجاهه، ضعيف الحال، من قبيل الأبناء أو الزوجة أو العامل عنده، فغالبًا ما يجد الإنسان نفسه أمام تحدّي التراجع أمام هذا الضعيف، بيد أن هذا هو مكمن الفخر في التزام القيم. يقول الإمام علي عليه السلام: «من كمال الإيمان، مكافأة المسيء بالإحسان»(١).

ويرقى مجال العلاقة بين الأقرباء والأرحام إلى اعتباره أحد أهم المجالات الاجتماعية حاجة لتعزيز جانب الإحسان في مقابل الإساءة. ذلك أن ما يجري في الكثير من الأحيان، هو انشغال الناس في معيشتهم اليومية وشؤونهم الحياتية، وذلك ما ينتهي بالكثيرين إلى قلة التواصل الاجتماعي فيما بينهم. أو ربما حصل التباعد لما غاب عن أذهان البعض من الأهمية الحيوية لصلة الرحم. أو لعله شاب النفوس شيء من الملامة لسبب أو لآخر، فأدى إلى شيء من التباعد، كما هو حال البشر إجمالًا وخاصة بين الأرحام، عند ذلك إذا ما جاء رد الفعل موازيًا للفعل، بأن جاءت القطيعة مقابل القطيعة، فقد زادت القطيعة استحكامًا. والحال أن المطلوب بشدة أن يبادر المؤمن إلى صلة أرحامه وإن قطعوه، ذلك إذا ما أراد أن يغيظ الشيطان، وأن يرضي ربه، ويضمن لنفسه عقبى الدار.

العوائد الكبيرة

إن مقابلة الإساءة بالإحسان لها نتائج إيجابية كبيرة على مختلف الأطراف وخاصة بين الأرحام والأقرباء. ذلك أن الرد من أحد الطرفين على القطيعة بالصلة، يبطل في حقيقة الأمر تلك القطيعة، فلا تعود أمرا قائما، وبالتالي لم يتحقق ما يريده الشيطان. وعلاوة على ذلك، ربما أعاد الطرف الآخر النظر في أمر القطيعة، فيبادر هو الآخر إلى التواصل، فيتحقق بذلك الانتصار للقيم الخيرة.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تقطع رحمك وأن قطعتك»(٢)، ونقل عن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٧٥، حكمة ١٦٧.

(٢) الكافي. ج ٢، ص٣٤٧، حديث ٦.

أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «أوصاني خليلي صلى الله عليه وآله أن أصل رحمي وإن قطعوني وجفوني»[١]، وعن علي عليه السلام أنه قال: «صلوا ارحامكم وإن قطعوكم»[٢]، وفي حديث لافت قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة! من وصل من قطعه، وعفا عمن ظلمه، وأعطى من حرمه»[٣]، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إن لي أهلًا كنت أصلهم وهم يؤذوني، وقد أردت رفضهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إذن يرفضكم الله جميعًا، فقال: وكيف أصنع، فقال صلى الله عليه وآله: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيرًا»[٤]، وهذه كلمة نبوية عظيمة.

وللحق، لا ينبغي أن نُغفل الصعوبة الكامنة خلف تقمص الخُلق العظيم القائم على مجابهة الإساءة بالإحسان. فذلك مما يتطلب إرادة قوية، وعزيمة كبيرة. وليس منا من لا يثمّن عاليًا قول الله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[سورة فصلت، الآية: ٣٤]، لكن من هم أولئك القادرون على تقمص هذه الحالة المناقبية العالية، التي تتعالى على الثأر الشخصي والانتقام للنفس، ويأتي الجواب منه عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[سورة فصلت، الآية:٣٥]، فلا يتحقق ذلك إلا بتوفر الإرادة القوية من جهة، والتسديد الإلهي من جهة أخرى.

وهناك بعد شخصي لمسألة ارتكاب الإساءة وضرورة مقابلة ذلك بالإحسان. حيث يطرأ على الإنسان الضعف فتصدر منه الأخطاء بحق الله سبحانه، ويرتكب الذنوب، فإن المطلوب آنئذٍ أن يتبع المخطئ بالحسنة السيئة، وذلك عين ما جاءت به الآية الشريفة ﴿ وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾. إن على المخطئ أن يعمل الخير تعويضًا

---

(١) كنز العمال. ج ١٦،ص ٢٤٥، حديث ٤٤٣١٩.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص٤٠٢، حديث ٢٩.

(٣) كنز العمال. ج ١٥، ص ٨٣٥، حديث ٤٣٣٢١.

(٤) بحار الأنوار. ج ٧١، ص ١٠٠، حديث٥٠.

عن أخطائه وسوء أفعاله. ولعلّ تلك هي نفسها فلسفة الكفارات المعروفة في الشريعة، من قبيل كفارة الإفطار عمدًا في شهر رمضان، أو مخالفة بعض أحكام الحج وغير ذلك، التي لا تعدو في جوهرها، أي الكفارات، عن القيام بعمل الخير المعبر عنه في الآية الكريمة ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾، لغرض تجاوز ﴿السَّيِّئَةَ﴾ أي درؤها ودفعها. وشأن ذلك شأن الإنسان المخطئ بحق ربه، الذي ليس عليه إلا أن يستغفر الله ويعمل عملًا صالحًا، يقول تعالى في هذا الشأن: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[سورة هود، الآية:١١٤]، وورد عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن أنه قال: «اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[١]، وجاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ما أحسن الحسنات بعد السيئات وما أقبح السيئات بعد الحسنات»[٢]. فجميع ما سبق إنما يصبو لتعزيز قيم الخير في النفوس.

وتنطوي التعاليم الدينية على إشارة لافتة حول ضرورة أن تتناسب الحسنة الراهنة، مع السيئة المرتكبة، حتى تمحوها وتتجاوزها. فلا بُدّ من أن تتناسب الحسنة في وضوحها ودلالاتها، وضوح ودلالة السيئة. فلو ارتكب أحدهم الغيبة أمام الناس بحق شخص من الأشخاص، فلا يكفي أن يتصل به هاتفيًا في وقت لاحق ويبلغه اعتذاره عن الإساءة التي وجهها له أمام الآخرين، فليس من الإنصاف توجيه الإساءة علنًا، فيما يجري تقديم الاعتذار سرًا، وإنما ينبغي أن تتناسب طبيعة الاعتذار مع ظروف الإساءة. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من عمل سيئة في السر فليعمل حسنة في السر، ومن عمل سيئة في العلانية، فليعمل حسنة في العلانية»[٣]، وذلك حتى تتناسب الحسنة مع السيئة. هكذا نجد التعاليم الدينية ملامسة لدقائق النفس الإنسانية وأحوال المجتمع في علاقاتهم البينية العامة، وفي صلتهم بربهم.

---

(١) صحيح الترمذي. حديث ١٩٨٧.

(٢) الكافي. ج٢، ص٤٥٨. حديث ١٨.

(٣) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ١٠٣.

مكافأة الإحسان

جبلت الفطرة الإنسانية على مقابلة الإحسان بالإحسان. فإذا ما تلقّى الإنسان إحسانًا من أحد، فسيكون ذلك سببًا لتنامي مشاعره الودّية تجاه ذلك المحسن، ما يدفع تلقائيًّا إلى ترجمة ذلك الإحسان إلى شكر مقابل، واستعداد لتقديم أيّ خدمة لقاء ذلك الإحسان، هذه حالة فطرية وجدانية عند بني البشر، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[1]، وورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «بالإحسان تملك القلوب»[2]، إنّ الإحسان من طبيعته أن يترك أثرًا في الطرف المُحسَن إليه.

حتى الحيوان يتأثر بالإحسان

وقد يتخطّى الأثر الإيجابي للإحسان إلى الحيوان أيضًا. فالحيوان ينجذب بطبيعته إلى من يعامله بالرفق والإحسان، وهذا أمر ملحوظ في علاقة الناس بالحيوانات، إضافة إلى ما كتب في هذا الصدد من الكتب والبحوث. بل إنّ اللافت على نحو أكبر، أنّ علاقة بعض الحيوان بالبشر ربما كانت أكثر وفاءً وإخلاصًا من بعض علاقة البشر ببعضهم بعضًا، وقد كتب العالم المسلم محمد بن خلف المعروف بابن المرزبان (توفي ٣٠٩هـ) كتابًا تحت عنوان «تفضيل الكلاب على بعض من لبس الثياب» تناول فيه قصصًا لوفاء الكلاب لأصحابها، في مقابل انعدام هذه الصفة عند بعض البشر، نقيضًا لفطرتهم السوية.

وقد تناولت وسائل الإعلام مشاهد وقصصًا كثيرة في هذا السياق، ومن أواخر هذه القصص ما عرضه موقع (العربية نت)، ووسائل إعلام أخرى، من قصة البرازيلي الذي تعرّض لوعكة صحية دخل على إثرها المستشفى، وقد بقي كلبه الوفي «سيكو» في انتظاره على باب المستشفى مدة ثمانية أيام، في وقت لم يقم أحد من عائلة الرجل أو معارفه بزيارته أو الاطمئنان عليه، وقد بقي الكلب منتظرًا طوال هذه المدة، إلى أن

(١) كنز العمال. ج١٦، ص١١٥، حديث ٤٤١٠٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٦٣، حكمة٥.

سمح الأطباء في اليوم الثامن لصاحبه المريض بالخروج على كرسي متحرك، لرؤيته عند باب المستشفى، وقد أظهر الفيديو الذي عرضته القنوات، كيف انطلق الكلب نحو الرجل كالبرق، وأخذ يتمرّغ على قدميه ويتشممه ودموعه تجري[١]. وهذا ما يؤكد أنّ أثر الإحسان ليس مقتصرًا على البشر فقط.

واستطرادًا، ينبغي الإشارة هنا، إلى عدم وجود أصل شرعيّ لذكر عبارة «أجلكم الله» أو «أكرمكم الله»، عند ذكر اسم حيوان من الحيوانات. فقد اعتاد بعض الناس على ذكر هذه العبارات كلما جاؤوا على ذكر الكلب أو الحمار أو البقرة في أحاديثهم، ونحن وإنْ كنّا نعد هذه العبارات من قبيل الاحترام والتقدير الذي اعتاد البعض تقديمه لمخاطَبيهم، بحكم التقاليد الاجتماعية، إلّا أنّه ينبغي التذكير أن جميع ذلك مما لا أصل ديني له، فهناك في القرآن الكريم سور بأكملها حملت أسماء الحيوانات؛ كالبقرة والفيل والنمل، ولم يذكر أحد من أئمة الإسلام، شيئًا من هذه العبارات التبجيلية أمام مستمعيه عند ذكره أسماء الحيوانات.

مبدأ يتجاوز الانتماءات والأديان

إنّ مكافأة الإحسان بالإحسان يُعَدّ مبدءًا عامًّا، غير مختصّ بلون أو فئة من البشر. وهذا بالتحديد ما تريد الآية الكريمة الإشارة إليه، في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، فمقابلة الإحسان بالإحسان، ينبغي أن تكون سمة عامة في تعامل البشر بعضهم مع بعض، فأيّما إنسان أحسن إلى آخر، فإن المتوجب أخلاقيًّا، هو التفكير فورًا في مكافأة هذا الإحسان بإحسان مقابل، بصرف النظر عن خلفية ذلك المحسن الدينية والعرقية والقومية. وقد ورد أنّ الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين تلا الآية الكريمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أنه قال عليه السلام: «جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس

(١) العربية نت. الثلاثاء ١٥ جمادي الثاني ١٤٣٥هـ الموافق ١٥ أبريل ٢٠١٤م.

المكافأة أن تصنع كما صنع، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»[١].

ورغم أن أحدًا لا يعترض على مبدأ ردّ الإحسان بالإحسان، لكون ذلك عملًا إنسانيًّا فطريًّا، إلّا أنّنا لا نعدم رؤية من يتنكر لذلك. فلا يعود يكافئ الإحسان بالإحسان، وتزداد حالة التنكر هذه جرّاء تقادم الزمن على الإحسان الذي أسبغه الآخرون عليه، أو نتيجة لخلاف أو سوء تفاهم ناشب بينه وبينهم، علمًا بأنّ الحاجة لتذكر إحسان الآخرين إنّما تغدو أشدّ إلحاحًا مع مرور الزمن، وحين الاستغناء عن ذلك الإحسان القديم، حيث إنّه مبدأ ملزم وواجب التنفيذ حتى مع تقادم السنين، فمرور الزمن لا يلغي ولا يجمّد تطبيق هذا المبدأ. وكذلك الحال حين ينشب الخلاف مع صاحب الفضل والإحسان القديم، لا يجوز أن تطغى مشكلة الخلاف البيني على شعور المرء بإحسان الطرف الآخر إليه في يومٍ ما.

وبالوالدين إحسانًا

إنّ النصوص الدينية تشدّد على استحضار مبدأ الإحسان مقابل الإحسان في كلّ الحالات. وهناك نماذج عديدة يمكن الإشارة لها في هذا السياق، منها ما يرتبط بالعلاقة بالوالدين، فلا أحد على الإطلاق يحسن للإنسان كإحسان الأبوين، وعلى نحوٍ لا يشبهه إحسان أحدٍ لأحد في هذا العالم، غير أنّ الأبناء سرعان ما يكبرون ويمتلكون وسائل القدرة، فلا يعودون يشعرون بالحاجة إلى الوالدين، وربما تقادم الزمن ببعض الأبناء فينسون ما فعل الوالدان لأجلهم، وأيّ إحسان قدّماه لهم، ويتفاقم الحال أكثر حين يصبح الوالدان أو أحدهما في حالة نفسية أو صحية غير مؤاتية، وهنا تحديدًا ينبغي أن يتذكّر الأبناء مبدأ مكافأة الإحسان بالإحسان، بأن يتذكروا أن هذين الوالدين طالما أحسنا إليهم أيّما إحسان، وعلى نحو لو جند المرء كلّ حياته لأجلهما لما خرج من طوق إحسانهما.

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٤٣، حديث٧.

لا تنسَ إحسان زوجتك

كما ينبغي عدم تجاهل مبدأ الإحسان ضمن سياق العلاقات الإنسانية الأخرى. ومن ذلك ما يندرج ضمن علاقة الرجل بزوجته، سيّما وأنّ الزوجة في مجتمعاتنا الشرقية تتحمل أعباءً كبيرةً في حياتها الزوجية، فهي التي تهيئ الطعام، وتغسل الثياب، والأهمّ من ذلك إنجابها وحضانتها للأبناء، حيث إنّ مهمتها لا تنتهي مع الإنجاب، وإنّما تتحمّل كامل المسؤولية عنهم منذ أن يفتحوا أعينهم على هذه الحياة، فهي التي ترضعهم، وتسهر على رعايتهم، وتهتم بمختلف شؤونهم حتى يبلغوا أشدّهم، بما في ذلك متابعتهم في مرحلة الدراسة والتعليم، وهذا الجهد الجبار الذي تقوم به المرأة، مما لا يجوز للزوج أن يتجاهله أو ينساه.

إنّ تقادم الزمن بالزوجين ينبغي ألّا يُنسي الزوج الإحسان الذي بينهما. سيّما مع بلوغ الزوجين سنًّا متقدمة، وفي ظلّ انتهاء دور الأمومة مع بلوغ الأبناء، أو عجز الزوجة عن القيام بأعباء المنزل. إنّ جميع ذلك لا ينبغي أن يُنسي الزوج إحسان هذه المرأة إليه، وإلى أولاده، كما ورد في قوله تعالى حول العلاقة بين الزوجين ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

كما أنّ المرأة هي الأخرى ينبغي ألّا تنسى فضل زوجها عليها، فقد ستر عليها، وأمتع حياتها، وقام بشؤونها، وكان أبًا لأبنائها، إلّا أنّ الخطاب هنا يتوجّه للرجل على نحو أكبر، لكونه الأكثر شعورًا بالاستغناء والاستقلالية عن المرأة.

ينبغي للإنسان أن يكون وفيًّا مع زوجته. حتى لو قُدِّر أنْ فارقها شرعًا، فليكن الفراق بإحسان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، وقد جاء في آية أخرى التذكير الإلهي للإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

إنّه ليقشعر البدن إزاء بعض الحالات التي يصبغها الجفاء وقلة الوفاء بين الأزواج،

في حين يجدر بالإنسان أن يتذكّر دائمًا المبدأ القرآني الوارد في الآية الكريمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، فالأولاد الذين يسرّ المرء برؤيتهم، ألم يكن لتلك الزوجة الدور الأكبر في إنجابهم وتربيتهم وتنشئتهم؟ أفلا يعتبر هذا إحسانًا ينبغي أن يجازى بإحسان؟ أوَلا يشفع لها ذلك في التجاوز عن زلّاتها؟

التنكّر لإحسان الدائنين

أما النموذج الأخير الذي ينبغي فيه استحضار الإحسان، فهو في التعامل مع الدائنين. إذْ من الوارد جدًّا، أن يلجأ كثيرون من منطلق الحاجة إلى أن يقترضوا المال من غيرهم، فإذا ما تيسّرت أمور المقترض، وحان وقت السّداد، فعليه أن يبادر لأداء الدَّين، مع تقديم الشكر لمن أقرضه، أو صبر عن استرجاع حقّه، لكن بعض المديونين يتنكّر لإحسان الدّائن، بل يقابله بالإساءة والمماطلة، وربما قاد ذلك إلى نشوء المشاكل واللجوء إلى أروقة المحاكم، وذلك أبعد ما يكون عن مبدأ الإحسان مقابل الإحسان. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعي سبيل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره، فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»[1]، وهذا أمر مألوف، حيث إنّ كثيرين من أصحاب المعروف لديهم ما يكفي من الشواهد على نكران الجميل، ونسيان الإحسان الذي جادوا به على الآخرين، حتى لم يعد لديهم الاستعداد لتقديم المزيد من الإحسان للآخرين، في حين كان ينبغي مكافأة الإحسان بالإحسان، كأن يعيد للمقرض ماله بأكثر من القرض الأصلي، دون شرط مسبق.

هكذا ينبغي للإنسان أن يتذكر في كلّ الحالات مبدأ مكافأة الإحسان بالإحسان، هذا المبدأ الشرعي العقلي الوجداني، أثناء تعاملاته المختلفة مع الناس.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٣٠٩، حديث ٢١٦٢٤.

كُنْ في موقع العطاء

ترتبط حياة الإنسان في هذه الدنيا ارتباطًا وثيقًا بأبناء جنسه ومحيطه. فهو جزء منهم، يعيش معهم، وتتداخل حياته مع حياتهم، فلا يستطيع أن ينفصل عن أبناء نوعه من البشر، ويعيش منقطعًا عنهم، فلا بُدّ له إذًا من العيش مع الناس؛ لارتباط مختلف شؤونه بشؤونهم.

غير أنّ هناك تفاوتًا ملحوظًا بين الناس، حيال مدى ارتباطهم بالآخرين والعلاقة معهم، فهناك من يعمد إلى تقليص ارتباطه بالآخرين إلى أدنى الحدود الممكنة، فيكتفي بالمقدار الضروري من العلاقة بالناس، ولا يسعى إلى توسيع شبكة علاقاته الاجتماعية، وهذا أمر غير محبّذ، إذْ من الخير للإنسان أن يتوسّع في علاقته مع أبناء جنسه، وإن شاب تلك العلاقة بعض المشاكل أحيانًا، حيث ورد في الحديث عنه ﷺ: «إنّ المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم»[1]. في مقابل ذلك، هناك من يسعى إلى توسيع رقعة ارتباطاته مع الآخرين، إلى أقصى حدٍّ ممكن.

إنّ علاقة الإنسان بالآخرين قائمة على أساس مبدأ الأخذ والعطاء، فهو يأخذ منهم ويعطيهم، غير أنّ مربط الفرس هنا، هو في الموازنة بين الأخذ والعطاء، والمدى الذي يعطي المرء الناس أو يأخذ منهم.

---

(١) كنز العمال. ج١، ص١٥٤، حديث٧٦٩.

الأخذ والعطاء في العلاقة مع الناس

هناك أصناف من الناس، يمكن التمييز بينهم حيال مسألة الأخذ والعطاء، في علاقتهم بالآخرين. فهناك من يتساوى عنده ميزان الأخذ والعطاء، فهو يعطي الناس بمقدار ما يأخذ منهم، فالأمر بالنسبة لهذه الفئة أشبه بكفّتي ميزان، على صعيد العلاقة بالآخرين، لجهة الأخذ منهم وتقديم العطاء لهم.

أمّا الصنف الثاني من الناس، فهم أولئك الذين يسعون إلى الأخذ من الآخرين أكثر من عطائهم، وهذا الصنف تتعزز فيه حالة النهم نحو الاستحواذ على كلّ ما تقع عليه يده من المكاسب والمصالح، التي يستطيع الاستحواذ عليها من الآخرين، من أفراد عائلته وأصدقائه وزملائه ومعارفه، في مقابل محدودية العطاء الذي يقدّمه لهم، عادًّا هذا السلوك نوعًا من الحذاقة والذكاء.

وعلى النقيض من ذلك يأتي الصنف الثالث من الناس، وهم الذين يسعون إلى أن يكون عطاؤهم للناس أكثر من أخذهم، بحيث تكون السمة الرئيسة في علاقتهم العائلية والاجتماعية هي سمة العطاء، فلا يعود المعيار قائمًا على مقدار ما يأخذون من الناس، وإنّما التفكير دومًا في مدى ما يعطونه لهم.

ترجيح كفّة العطاء

ويدفع العقل السليم، إلى جانب النصوص الدينية، نحو التحلي بصفة العطاء في العلاقة بالآخرين، أكثر من الأخذ منهم. حيث تشجّع الإنسان المؤمن على التخلق بصفة البذل والعطاء، فقد ورد عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»[١].

وجاء في نصٍّ آخر عنه ﷺ أنه قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[٢]، وفي ذلك حثّ على السعي نحو احتلال موقع العطاء للآخرين، وهذا هو

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الزكاة، ص٣٥٠، حديث١٤٢٩.

(٢) المصدر نفسه. حديث١٤٢٧.

معنى اليد العليا، كما ورد في حديث عنه ﷺ أنه قال في صفة المؤمن: «.. أنه قليل المؤونة كثير المعونة»، فالإنسان المؤمن إن اضطر للأخذ من الآخرين بحكم العلاقة الطبيعية بين الناس، فسيكون ذلك ضمن الحدود الدنيا، في مقابل كثرة المعونة التي يقدّمها للآخرين.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «من خالطت فإن استطعت أن تكون يدك العليا عليهم فافعل»[1]، ومضمون ذلك أن يحرص الإنسان على أن يكون في موقع العطاء والإحسان للآخرين أنّى كان معهم، في حضرٍ أو سفرٍ أو تجارةٍ أو عمل. وجاء عن الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام أنه قال: «إن خالطت الناس فإن استطعت أن لا تخالط أحدًا منهم إلّا من كانت يدك عليه العليا فافعل»[2].

إنّ التعاليم الدينية تفيض بالتوجيهات الحاضّة على التفكير في العطاء للآخرين، على نحو يفوق الأخذ منهم. فقد ورد في المسائل الفقهية حول البيع والشراء «استحباب أن يأخذ الإنسان ناقصًا وأن يعطي زائدا»، وذلك بأن يشتري الشيء ناقصًا ـ باختياره ـ، خلافًا لاستيفاء الحقّ مضاعفًا كما يفعل البعض. وينسحب ذلك على أمر اقتراض المال من الآخرين، فالأفضل إرجاع الدين مع الزيادة، ما لم تشترط الزيادة ابتداءً. وكذلك تندرج الحقوق الزوجية في هذا السياق، إذْ إنّ تمام المروءة أن يعطي الزوج زوجه الحقّ مضاعفًا، وإن نال حقّه منها منقوصًا. والحال نفسه ينطبق مع العاملين في المؤسسات التجارية، فإن استطاع المالك إنقاص ساعات العمل تفضّلًا فليفعل، فهذه هي اليد العليا، عوضًا عن محاسبة العامل على واجباته حسابًا عسيرًا، أو التراخي في إعطاء حقوقه.

نتائج مستحقة

يربّي الإسلام الإنسان على أن يكون معطاءً للآخرين على نحوٍ أكبر من أن يكون

---

(١) الكافي. ج ٢، ص ٦٣٧.

(٢)تحف العقول عن آل الرسول. ص٣٩٥.

أخّاذًا منهم. وبذلك يحقق مكاسب عديدة، منها:

أولًا: ميل الإنسان للعطاء، يدفعه لتنمية طاقاته وقدراته، بغرض التوفر على الإمكانات التي تجعله في مقام من يعطي الآخرين ويتفضل عليهم، ويبذل المال في خدمة أهله ومجتمعه، بخلاف الآخر الذي بالكاد يفكّر في توفير احتياجاته الشخصية وحسب، والذي مهما بلغ فإن أُفق حركته يبقى محدودًا. ولا يقتصر العطاء على المسألة المالية، وإنما يتجاوزها إلى مجمل القدرات والإمكانات، إن لجهة العطاء العلمي، أو بذل الجاه والمكانة الاجتماعية، أم النشاط الثقافي، التي تبقى في مجملها حقلًا مفتوحًا للعطاء غير المحدود. وهكذا يشكّل الطموح إلى بلوغ محلّ العطاء، أكبر دافع إلى مضاعفة الإمكانات والقدرات الذاتية.

ثانيًا: تنمية المشاعر الإيجابية، والنزعات الخيرة، في نفس الإنسان. تلك المشاعر والنزعات التي ستأخذ طريقها في تعامل الإنسان مع عائلته وأصدقائه وزملائه وعماله. وفي هذه الحالة، سيكون محور تفكير الإنسان في علاقته مع الآخرين، هو ما سيعطيهم ويقدم لهم، لا ما يريد أن ينتزع منهم.

ثالثًا: الثواب الإلهي الكبير، فالإنسان الذي يريد ثواب الله ورضاه، ينبغي أن يدرك بأنّ ذلك غير منحصر في الصلاة والصيام، والالتزام بمختلف العبادات، وأداء المستحبات بقدر ما هو منوط أيضًا بالعطاء الذي يأتي على رأس الأعمال ذات الثواب المؤكد، والذي ينبغي ألّا يزهد فيه المؤمن، وإنما يبادر إليه على نحو مضاعف عمّا سواه.

ولطالما جاءت النصوص الدينية تترى في الحثّ على العطاء. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أعان أخاه يومًا كان خيرًا له من اعتكاف شهر»[1]، ولنا أن نتخيّل مقدار ثواب المعتكف في المسجد شهرًا من الزمان، صائمًا مصلّيًّا قارئًا للقرآن

(١) الدر المنثور. ج٢، ص٢٣٢.

الكريم، يتعبّد الله ويدعوه ويتهجد إليه، ومع ذلك يجعل النبي ﷺ ثواب إعانة إنسان بالمال أو الجاه أو الوقت أعظم من هذا الاعتكاف بكلّ ما فيه من الثواب.

إنّ التميز بالعطاء يبقى أمرًا منوطًا بأريحية الإنسان، سواء كان وسط جماعة في سفر، أو عضوا في مجلس إدارة لنشاط من الأنشطة، أو أيّ مكانٍ أو مجالٍ من المجالات، فسيكون كلّ همّه أن يجعل حضوره متميزًا بالعطاء للآخرين. والحال نفسه في العلاقة العائلية مع الزوجة، حيث ينبغي أن يكون محور تفكير الإنسان في مقدار ما يعطي زوجه لا ما يأخذ منها، وكذلك الحال بين الأصدقاء وزملاء العمل، ولنتذكر دائمًا الحديث النبوي «المؤمن قليل المؤونة كثير المعونة»، وفي نصٍّ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المؤمن حسن المعونة، خفيف المؤونة»[(١)]، فالمؤمن أبعد ما يكون عن الإثقال على عائلته وأصدقائه وزملاء عمله، نتيجة كثرة متطلباته.

قيمة الجود والسخاء

نعم الله تعالى على الإنسان متعددة ومتنوعة، فمنها؛ نعمة العلم، ونعمة المال، ونعمة الجاه، والمهارات والقدرات، وبمقدار ما يتوفر للإنسان من هذه النعم، فإنه يصبح مقصدًا لحوائج الناس، ومقتضى ذلك أن يشرك الآخرين في هذه النعم التي أنعم الباري بها عليه. وبمعنى آخر؛ ألّا تكون النعم التي يسبغها الباري سبحانه حكرًا على صاحب النعمة وحده، بقدر ما ينبغي بذلها للناس.

كما ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال: «ما عظمت نعمة الله على أحدٍ إلّا عظمت عليه مؤونة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرّض النعمة للزوال»[(٢)].

إنّ هناك نسبة وتناسبًا بين نعم الله على العبد، وبين حاجات الناس إليه، وزوال النعمة ربما كان بأحد طريقين؛ إما من خلال زوال النعمة نفسها، أو زوال المرء ذاته ومفارقته لتلك النعمة.

---

(١) الكافي. ج٢، ص٢٤١، حديث٣٨.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٧٩، حديث٥٩.

الجواد أنموذج للسّخاء

إنّ حياة الإمام الجواد عليه السلام كانت أنموذجًا للعطاء والسّخاء. وما لقب بالجواد إلّا لكونه عنوانًا مجسِّدًا للجود، فقد كانت هذه الخصلة الأكثر بروزًا وجلاءً في سيرته عليه السلام. وفي هذا الصّدد يقول الذهبي، أحد أبرز المؤرخين، في كتابه «تاريخ الإسلام» عن الإمام الجواد، أنه عليه السلام «كان أحد الموصوفين بالسّخاء، فلذلك لقب بالجواد»[١]، وقال ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة»: «محمد بن عليّ الجواد كان من أعيان بني هاشم وهو معروف بالسّخاء والسّؤدد ولهذا سمّي الجواد»[٢]، كما أورد الصفدي، وهو من أعلام أهل السنة أيضًا في كتابه «الوافي في الوفيات» عن الإمام الجواد عليه السلام: «كان من الموصوفين بالسّخاء؛ ولذلك لقب بالجواد»[٣].

وقد نقل المؤرخون قصصًا كثيرة عن سخاء الإمام الجواد عليه السلام. ومن ذلك ما ورد، بأنّ أحمد بن حديد قد خرج مع جماعة من أصحابه إلى الحج، فهجم عليهم جماعة من السرّاق، ونهبوا ما عندهم من أموال ومتاع، ولما انتهوا إلى يثرب، انطلق أحمد بن حديد إلى الإمام محمد الجواد، فأخبره بما جرى عليهم، فأمر عليه السلام له بكسوة وأعطاه دنانير ليفرّقها على جماعته، وكانت بقدر ما نُهب منهم.

الموارد المالية للإمام الجواد

من هنا يأتي السؤال عن مصدر هذه الأموال التي بين يدي الإمام عليه السلام، وفي هذا الشأن يشير المؤرخون إلى عدة مصادر، أولها ما كان يجريه الخليفة العباسي من راتب سنوي للإمام عليه السلام، فقد احتضن المأمون العباسي الإمام الجواد، وتظاهر برعايته، بعد وفاة أبيه الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وقد أراد المأمون من وراء ذلك التغطية على قتله الإمام الرضا مسمومًا، والتظاهر بميوله لآل البيت، وثمّة من يرجح أن يكون هذا العطاء للإمام بغرض وضعه عليه السلام تحت المراقبة.

(١) الذهبي. تاريخ الإسلام، ج١٥، ص٣٨٥.
(٢) منهاج السنة النبوية. ج٢، ص١٢٧.
(٣) الوافي بالوفيات. ج٤، ص ٧٩.

ليس من الصحيح القول بأنّ الإمام الجواد عليه السلام إنما قبل عطاء المأمون مضطرًا، بل لأنه عليه السلام رأى في ذلك دعمًا يصبّ في صالح رسالته ومنهجه، وإلّا لو لم يكن كذلك لما قبل الإمام من المأمون ذلك العطاء. فأئمة أهل البيت ليس من دأبهم إيثار الحماية والسّلامة الشخصية على حساب رسالتهم، وغاية ما هناك أنّ الإمام الجواد وجد أن إقامة العلاقة مع المأمون، وفق الموازين القائمة آنذاك، كان أجدى وأكثر نفعًا للرسالة من الاصطدام معه، بل إنّه عليه السلام ذهب أبعد من ذلك عندما قبل الزواج من ابنة المأمون المعروفة بأمّ الفضل، وأجرى الأخير للإمام راتبًا سنويًّا قدّره المؤرخون بنحو مليون درهم، وهذا ما كان يُعَدّ مبلغًا ضخما آنئذ. وإذا ما علمنا بأنّ الإمام الجواد لم يعش حياة باذخة ولم يسع لذلك، سيما مع علمه بأن هذا المال إنما هو من بيت مال المسلمين، فقد خصّص ذلك العطاء لتقسيمه على المسلمين، فكان ينفق بسخاء على المحتاجين والسائلين.

أما المصدر الآخر للأموال التي تحت يد الإمام الجواد عليه السلام فكانت الحقوق الشرعية. حيث كان المؤمنون من كلّ مكان يوصلون زكاة أموالهم وأخماسهم ونذورهم وكفّاراتهم.

أما المصدر الثالث فهي الأوقاف الشرعية لأهل البيت، فقد كانت لهم أوقاف كثيرة يتوارثون الولاية عليها، بدءًا من الإمام عليّ عليه السلام الذي كانت تحت يده مزارع كبيرة قام على غرسها وزراعتها بنفسه، وكذلك بقية الأئمة. وقد كانت هذه المصادر المالية تدرّ على الإمام الجواد، فكان يصرف منها بسخاء حتى لقب بالجواد.

العطاء قيمة إنسانية حضارية

إنّ الجود والعطاء قيمة إنسانية حضارية مهمة، يركز عليها الدين كثيرًا. وفلسفة ذلك، هي أن غاية ما يحتاجه الإنسان أن تتوفر له سبل العيش الرغيد، وتسدّ جميع حاجاته الأساسية والكمالية، فماذا عسى أن يفعل بما زاد على ذلك من أموال، خاصة وأنه سيأتي عليه يوم يفارق كلّ هذه الأموال فتذهب بأجمعها لغيره من الورثة، من هنا

يأتي التوجيه الديني للإنسان نحو التفكير الصحيح في مصير الثروات التي تحت يده. لا غرو أنّ للإنسان أن يضمن كل احتياجاته الشخصية من هذه الثروة، ولا ضير في أن يجعل لنفسه مالًا احتياطيًّا يقيه عائدات الدهر، كما أنّ من الطبيعي أن يترك لأبنائه ما يعينهم في مستقبل حياتهم، سيما إذا لم يكونوا في سنّ العمل. ولكن ما زاد على ذلك ينبغي أن يجد طريقه نحو الإنفاق في سبيل الله، وخدمة المجتمع.

إنّ ما سبق ليس مختصًّا بأصحاب الثروات الطائلة وحدهم، وإنما يشمل كلّ الميسورين. فأيّما شخص لديه دخل جيّد، فهو مدعو للإنفاق على نفسه قدر حاجته، أما ما زاد على ذلك، من أموال تكدس في البنوك، أو تترك ضمن ادخارات الشركات، أو تعوم في سوق الأسهم ومحافظ الاستثمار، فماذا يريد الإنسان بكلّ هذه الأموال؟! إنّها في نهاية المطاف إمّا ستزول عنه أو يزول هو عنها. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «جُدْ بما تُجِدْ تُحْمَدْ»[1] حيث يكون الشكر للإنسان المنفق موصولاً من قبل الله ومن قبل الناس. وفي كلمة أخرى قال أمير المؤمنين عليه السلام: «جود الرجل يحبّبه إلى أضداده، وبخله يبغّضه إلى أولاده»[2]، إنّ السّخاء ربما جلب محبة الأعداء، على النقيض من البخل الذي يسبب بغض أقرب الناس للإنسان وهم أولاده. إنّ وجود الإمكانات المالية مدعاة لأن ينفق الإنسان منها عبر التوسيع على عياله وأرحامه، وينفع بها أبناء مجتمعه، وإلّا فبماذا ينتفع الأثرياء من أموالهم المجمّدة؟!

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أنه قال: « هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلًا، ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو في معصية الله، فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره، فرآه حسرة وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عزّ وجلّ»[3]، لذلك فإنّ على الإنسان أن يعيد النظر

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٨٦، حكمة ٢٦.

(٢) المصدر نفسه. ص١٨٨، حكمة٨٣.

(٣) الكافي. ج٤، ص٤٢.

في تعامله مع ما عنده من مال وثروة، فهذا ما يقود إليه العقل والوجدان.

أين أثرياء العرب؟

ومما يذكر في هذا الشّأن توقيع مجموعة من أبرز الأثرياء في الولايات المتحدة، في لقاء جمعهم قبل سنوات، على وثيقة تقضي بأن يتبرع كلّ واحد منهم بنصف ثروته، لصالح الإعمال الإنسانية والخدمة الاجتماعية، وقد استجاب لهذه الدعوة ثلاثون مليارديرًا أمريكيًّا، أوليس الإنسان المسلم أولى بهذا التوجّه؟! من المؤسف أن نجد بعض الأثرياء العرب سنويًّا على قوائم الأكثر ثراءً في العالم، فيما تحيط بهم من بني جلدتهم شعوب بأكملها تئنّ من الجوع وينهشها الفقر، وما يستتبع ذلك من الاضطرابات والقلاقل، أوليست هذه هي حال الناس في اليمن والصومال والسودان وغيرها من البلدان التي تعاني شعوبها الجوع والعوز!. وحتى في مناطقنا العربية الميسورة تنتشر الفئات الفقيرة المكبلة بالديون، وارتفاع أسعار السكن، وغلاء المعيشة، سيّما في ظلّ رواتب محدودة لا تسدّ الرمق أمام كم الالتزامات الكبيرة. في حين ينتشر عدد غير قليل من كبار أثرياء العالم في هذه المنطقة!، فماذا يفعل هؤلاء الأثرياء بأموالهم وثرواتهم؟ ولا نريد هنا التعميم، فهناك من الأثرياء من يتحلّون بالسّخاء، نسأل الله أن يوسّع عليهم، وأن يضاعف لهم الخير والأجر والثواب، ويكثر من أمثالهم، غير أننا نأمل أن يكون كلّ ثريٍّ وكلّ ذي مال، من الذين ينفقون في خدمة مجتمعهم ودينهم.

السعي للثروة والقدرة

بعض الناس حين يسمعون قصصًا وأخبارًا عن الأسخياء، والمنفقين، يتشجعون للعطاء، حيث يتمنى لو أن عنده ثروة لينفق منها، وفي الواقع على الإنسان أن يسعى لكي تكون له ثروة وقدرة، ولا ينبغي له أن يقبل لنفسه مستوًى محدودًا من الجاه أو المال، بل عليه أن يجعل طموحه بلا حدود.

في كثير من المجتمعات أغلب الناس لديهم تطلع لتحسين وضعهم الاقتصادي،

ويفكرون كيف يصبحون أثرياء؟ وكيف يمتلكون الثروة؟ أما في مجتمعنا ـ وللأسف ـ فإن أغلب الناس شعارهم «أقل ما فيها يكفيها»، فالمهم لدى الفرد منا أن يحصل على لقمة العيش، وعلى الوظيفة التي يُسَيِّر بها شؤون حياته.

الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩] قبل أن تتحدث عن الإنفاق تتحدث عن بسط الرزق والتقدير في الرزق.

اللّه سبحانه يبسط الرزق لبعض من الناس، ويقدر على البعض الآخر، وفي الوقت نفسه لا يوزّع اللّه الأرزاق بين الناس بشكل عبثي، وإنما ضِمن سنن ووسائل وحكمة إلهية، ولذلك ورد عن علي بن عبد العزيز قال: قال لي أبو عبد اللّه عليه السلام: «ما فعل عمر بن مسلم؟» قلت: «جعلت فداك، أقبل على العبادة وترك التجارة»، فقال عليه السلام: «ويحه، أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له؟ إن قومًا من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣] أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: «قد كفينا»، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله، فأرسل إليهم، فقال: «ما حملكم على ما صنعتم؟» قالوا: «يا رسول اللّه، تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة»، فقال: «إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»[(١)].

ومثله قوله صلى الله عليه وآله: «إني لأبغض الرجل فاغرًا فاه إلى ربه يقول: «اللهم ارزقني»، ويترك الطلب»[(٢)].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن رجلًا سأله أن يدعو اللّه له أن يرزقه في دعةٍ، فقال عليه السلام: لا أدعو لك، اطلب كما أُمِرْتَ، وقال: «ينبغي للمسلم أن يلتمس

(١) الكافي. ج ٥، ص ٨٤.

(٢) مستدرك الوسائل. ج١٣، ص١٥، حديث١٤٥٩٧.

الرزق حتى يصيبه حرّ الشمس»[١].

هذا الرجل يريد من الإمام أن يدعو له على أساس أن دعاء الإمام عليه السلام مستجاب، إنه يريد أن يأتيه الرزق وهو جالس في بيته من غير عناء، ولم يقبل الإمام ذلك، يقول تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[سورة الملك، الآية: ١٥].

فأساس فلسفة وجود الإنسان في هذه الحياة لكي يعمر الكون، كما جاء في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[سورة هود، الآية: ٦١].

النَّاس في بعض المجتمعات يتحفزون للعمل والسعي والإنتاج، بينما تجد الهمة للسعي في بعض المجتمعات قليلة، والأثرياء يُعدُّون فيها على الأصابع، فإذا أراد الإنسان أن يحصي الأثرياء في المجتمع لا يجد عددًا كبيرًا، بينما في مجتمعات أخرى تجد أعدادًا كبيرة من الأثرياء.

ومن ذلك ما نشره تقرير عن الحالة المادية بسويسرا، حيث يفيد التقرير أنه من بين كل ٢٥ سويسري يوجد بينهم مليونير واحد[٢].

ومجتمعات أخرى غير المجتمع السويسري إذا وُضِعَت قائمة لعدد الأثرياء المتمكنين فيها، تجد أمامك قائمة كبيرة.

بينما في بعض المجتمعات عندما يحصى عدد الأثرياء في المدينة الواحدة بالكاد يصلون إلى عدد الأصابع في اليد الواحدة.

أسباب عدم السعي للثروة والقدرة

هذه المسألة ليست عفوية بل تدل على حالة معينة.

يوجد هناك عاملان أساسان، هما:

---

(١) دعائم الإسلام. ج٢، ص٥.

(٢) جريدة الوطن. بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٤٢٥هـ.

١. التربية

المجتمعات التي تربي أبناءها على الاتكالية والاعتماد على الغير، بحيث يتربى الولد من صغره إلى أن يصبح شابًّا على أن أباه وأهله ينفقون عليه، ويوفرون له كل شيء، من دون عناء، هذا الإنسان يستمر على هذه الحالة، بحيث يريد أن تتوفر له احتياجاته دون عناء وتعب طوال حياته.

وفي هذه النقطة يُنْقَل أن العرب في الجاهلية كانوا يربون أبناءهم على الخشونة، ولذلك يدفعون بالطفل الصغير حتى يتربى في البادية، وهي عادة حسنة، ذلك أن التدليل وتوفير كل شيء للأبناء في كثير من الأحيان ليس لصالح بناء شخصيتهم.

لذلك لا أظن أنه من الصالح أن يشعر الأب بفخر واعتزاز بأنه اشترى لولده سيارة من أفضل الموديلات وأرقى الماركات، وربما دلَّله بطرق وأساليب أخرى.

وربما تكون هذه الممارسات الطائشة بالسيارات والدرّاجات النارية ناتجة عن مثل هذا النوع من التدليل، حيث لا يكون الابن هو من وفّر لنفسه هذا النوع من المركبات.

وأتمنى أن توجّه كثير من هذه المصروفات في خدمة أبنائنا فعلًا، فبدل أن يشتري الأب المتمكّن لابنه سيارة غالية الثمن، بإمكانه أن يصرف هذا المبلغ في أن يرسله للدراسة بالخارج، ليأتي بشهادة عالية ودراسة جادّة.

إننا نرى بقية المجتمعات التي تعيش مستوى اقتصاديًا أقل مما نعيشه، ينفقون كل ما يجمعونه في حياتهم من أجل أن يدرس أبناؤهم دراسة متقدمة.

إننا لا نتوقّع بفعل هذا النوع من التربية على الدعة والتواكل أن يكون الأبناء منتجين جادين.

٢. الثقافة السائدة في المجتمع

بعض المجتمعات تسوده ثقافة تدفع للعمل وللثراء، وبعض المجتمعات على

العكس من ذلك، تسودها ثقافة الاتكال والرضا بالحال.

قصة عالم الاجتماع الألماني

ينقل عن عالم الاجتماع الألماني المعروف ماكس فيبر (١٨٦٤- ١٩٢٠م) ـ وهو من كبار علماء الاجتماع، ومن مؤسسي علم الاجتماع الحديث، إذ كان أمين مكتبة، ثم توجه إلى علم الاجتماع، وأصبح من عباقرة علم الاجتماع في هذا العصر.

ينقل عنه أنه كان قد لفت نظره وضع منطقتين متجاورتين في ألمانيا متساويتين في ظروفهما الطبيعية، لكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي في إحدى المنطقتين يختلف عن الأخرى، إحدى المنطقتين بها تقدم اقتصادي، والناس فيها أثرياء، لديهم مصانع وتجارة رائجة، بينما الأخرى غالبية أهلها فقراء، ويعيشون في حالة ريفية، ليس لديهم تلك الثروات والإمكانات الكبيرة.

فالتفت العالم فيبر لهذا التفاوت، وحاول أن يبحث هل هناك سبب لهذا التفاوت؟، ووضع لذلك احتمالات عدة، منها:

هل هذه المنطقة فيها ثروات والأخرى لا يوجد بها مثل تلك الثروات؟

هل الوضع في المنطقة من حيث الطقس يختلف عن الأخرى؟

وضع كل الاحتمالات فلم يجد سببًا، إلى أن التفت إلى أن السبب في ذلك هو الفارق في الثقافة، إذ كانت المدينة المتقدّمة صناعيًّا تنتمي إلى المذهب البروتستانتي، وكانوا ضمن المدرسة الكالفنية، وهي تعدّ مدرسة متطورة في هذا المجال، إذ كان يتربى الناس فيها على أن مكانة الناس في الآخرة هي بحجم مكانتهم في الدنيا.

بينما المنطقة الأخرى كانت ملتزمة بالمذهب الكاثوليكي في المسيحية، وهذا المذهب التقليدي يُزهّد أتباعه في الحياة، ولا يعطي أهمية للحياة، ولا يبعث الهمّة على النشاط والعمل الاقتصادي.

(جون كالفن) ـ صاحب المدرسة الكالفنية المسيحية ـ ربَّى الناس في مجتمعه

على أنه ينبغي لهم أن يكونوا متقدمين في الدنيا، لكي يكونوا متقدمين في الآخرة، فكان يربط في أذهانهم بين التقدم في الدنيا والتقدم في الآخرة.

كما أن لديه مفهومًا لا نتفق معه فيه .. فهو يقول: إن اللّه يحب النُّخب، ولا يحب الفقراء المساكين، ويقصد بالنُّخب ـ هنا ـ أصحاب الثروات، وأصحاب المكانة الاجتماعية والعلمية، فيقول بأن هؤلاء هم جماعة اللّه وليس الناس الفقراء التعساء.

ولذلك اكتشفَ العالم الألماني (ماكس فيبر) أن الفارق بين المنطقتين هو هذا الفارق الثقافي، منطقة ثقافة أبنائهم تدفعهم إلى النشاط والفاعلية، والمنطقة الأخرى ثقافة أبنائها لا تدفعهم إلى ذلك. ولهذا تقدمت هذه وتأخرت تلك.

أثر الثقافة الاجتماعية

وفي هذه النقطة أتذكّر أنني في أولى سفراتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٠م، أثناء وجود طُلاب في مؤتمر إِسلامي التقيت طالبين وصلا للتوّ إلى أمريكا، أحدهما من لبنان، والآخر من إحدى المناطق الخليجية، وكان الفارق بينهما أن الطالب الخليجي أتى ولديه بِعثة رسمية من الدولة، ومالٌ من أهله، وكان في حالة جيدة، بينما الطالب اللبناني استطاع بصعوبة أن يحصل على مالٍ للتذكرة ليتسنى له الدراسة في أمريكا.

وبعد خمس سنوات اتفق أن التقيت هذين الطالبين مرة أخرى، ولكن مع فارق كبير، فالطالب الخليجي لم يتمكن من إتمام دراسته، لينقطع عنه تمويل البعثة، لدرجة أنه أتى إلى المؤتمر باحثًا عمن يقدم له المساعدة المالية، ليتمكّن من مواصلة المعيشة في الولايات المتحدة الأمريكية، بينما الطالب اللبناني إلى جانب دراسته التي أتمّها حصل على بطاقة الـ «Green Card» (البطاقة الخضراء)، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعَمِل بالتجارة، وأصبح لديه إِمكانات جيدة وثروة ومكانة اجتماعية.

هذان الطالبان جاءا إلى الولايات المتحدة الأمريكية في وقتٍ واحد، لكن مع اختلاف في النظرة إلى الحياة وفي الثقافة وأسلوب التربية، وكذلك طبيعة المجتمع

الذي أتى منه كل منهما.

ففي لبنان نُلاحظ أن طبيعة المجتمع فيها دفع وتحفيز وتطلع، لذلك أبناء المجتمع اللبناني أينما ذهبوا ـ مغتربين وهاربين عن بلدهم بسبب الفقر أو الحرب ـ يصبحون في مختلف المناطق أثرياء، وبعضهم وصل إلى مواقع سياسية في تلك البلاد.

والسبب في ذلك هو وجود ثقافة اجتماعية دافعة في هذا الاتجاه لدى المجتمع.

إن مجتمعنا بحاجة إلى ثقافة تدفع أبناءه إلى الثراء وإلى التقدم الاقتصادي، وخاصّة أن منطقتنا تتوفر بها ثروات هائلة، ولها تاريخ اقتصادي.

وليس من من المجدي البحث عن التبريرات، التي هي جزء من هذه الثقافة التقاعسية، مُقنعين أنفسَنا أننا غير مقصرين، وأننا نسعى، ونتخيّل أمامنا العوائق غير الواقعية.

هذه التبريرات جزء من الثقافة التقاعسية التي تُثبِّط الهِمم، فمهما كانت العوائِق، فالإنسان الناشط وصاحب الإرادة، يتجاوز العوائق، وذلك بدليل ما نراه أن أفرادًا منَّا استطاعوا أن يُصبحوا أصحاب ثروة وإمكانات عالية.

الدين يدعو إلى العلو

يبدو لبعضنا أن الدنيا ليست ذات أهمية، إنما الأهم كسب رضا اللّه تعالى.

إن وجود مثل هذه الثقافة تقلل أهمية الحركة والنشاط، وهي في الواقع تخالف نصوص الدين وتعاليمه.

تعاليم الدين تشجع الإنسان المؤمن أن يكون أفضل من غيره، كما قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

المؤمنون لا ينبغي لهم أن يكونوا في حالة يرثى لها من التخلف العلمي والحضاري، إنما ينبغي لهم أن يكافِحوا حتى يكونوا في موقع أفضل حياتيًّا واقتصاديًّا، كما يقول

اللّه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٣٩].

مراعاة المظهر والسلوك العام

لماذا يقبل الإنسان لِنفسه أن يكون منظره وهيأته ليست في المستوى اللائق والمتقدم؟!

ينبغي لنا أن نهتم بمنظرنا، فهذه مسألة مهمة، إن اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣١].

وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر»، قال رجل: «يا رسول اللّه، إنه ليعجبني أن يكون ثوبي جديدًا ورأسي دهينًا، وشراك نعلي جديدًا »، قال ﷺ: «ذاك جمال، واللّه جميل يحب الجمال»[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إن اللّه يحب الجمال والتجمُّل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإن اللّه إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى عليه أثرها»، قيل: «كيف ذلك؟» قال: «ينظف ثوبه، ويطيب ريحه»[٢].

وعنه عليه السلام أنه نظر إلى رجل من أصحابه، عليه جبة خز ـ إلى أن قال ـ: ثم قال أبو عبد اللّه عليه السلام للرجل: «الْبَسْ وَتَجَمَّلْ، فإن اللّه ـ عز وجل ـ يحب الجمال ما كان من حلال»[٣].

الإنسان المؤمن ينبغي أن يعيشَ حياةً أفضل، فغير المسلمين ليسوا أولى منا بزينةِ الدُنيا والطيباتِ من الرزق فيها، فينبغي لنا أن نسعى، وأن يكون لدينا طموح، وأن نتعاون كمجتمع وأفراد وجماعات، فهذا إِعزاز للدين والعقيدةَ التي ننتمي إليها.

وقد جاء توجيه النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بهذا الاتجاه، كما ورد في حديث عن نبينا

---

(١) المستدرك على الصحيحين. ج١، ص٧٨، حديث ٦٩.

(٢) وسائل الشيعة. ج ٥، ص ٧، حديث٥٧٤٦.

(٣) مستدرك الوسائل. ج ٣، ص ٢٣٥، حديث٣٤٦٥.

محمد ﷺ أنه قال: «نِعْمَ العون على تقوى اللّه الغنى»[١].

وروي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «نعم العون الدنيا على الآخرة»[٢]، وعنه عليه السلام في قول اللّه عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٠١]، قال: «رضوان اللّه والجنة في الآخرة، والسعة في الرزق والمعايش، وحسن الخلق في الدنيا»[٣].

وقال عليه السلام: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[٤].

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[٥].

وفي حديث آخر ينسب للإمام علي عليه السلام أنه قال: «خيرُ الدنيا والآخرة في خصلتين: الغِنى والتُقى، وشر الدنيا والآخرة في خصلتين: الفقر والفجور»[٦].

وورد عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «أَصلِحوا دنياكُم، واعملوا لآخرتِكُم»[٧].

بين الغنى والتعلّق المذموم بالدنيا

وهنا نقف مع ما قد يحسبه البعض تناقضًا، فهناك أحاديث تحث على حب الحياة وطلب الغنى، وهناك بعض الروايات جاءت في ذم الدنيا والغنى كقوله ﷺ: «ازهد

---

(١) الشيخ الصدوق. محمد بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، ج ٣، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) من لا يحضره الفقيه. ج ٣، ص ١٥٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه. ج ٣، ص ١٥٦.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. ج٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٣٠١، كلمة رقم٤٤٦.

(٧) محمد الريشهري. التنمية الاقتصادية في الكتاب والسنة، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ، (قم: دار الحديث)، ص٥٠، حديث١.

في الدنيا يحبك اللّه»[١]، أو كقوله ﷺ: «شرّ أمتي الأغنياء»[٢]، وهذا ليس تناقضًا، فليس معنى هذه الأحاديث ترك الدنيا، إنما معناها عدم التكالب عليها والتعلّق بها على حساب القيم وأداء الواجبات الشرعية.

والطلب عندما يكون من الحلال ويصرف في الحلال والطاعة، فهذا مقتضى الجمع بين الدنيا والآخرة، وهذا ما نفهمه من قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال، يكفّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»[٣]، وقوله عليه السلام: «من طلب الدنيا استغناءً عن الناس وتعطفًا على الجار، لقي اللّه ووجهه كالقمر ليلة البدر»[٤].

وهذه كلها أحاديث تدل على أن الثروة من المنظور الإسلامي خير معين على التقوى وبناء النفس، كما أنها ساترة للنقائص والعيوب.

العلاقات وأصحاب الجاه

هُناك تجارب كثيرة تُبين كيف أن أشخاصًا بجدهم ومثابرتهم أصبحوا أثرياء ولديهم قدرات هائلة، سواء كانت قدرات مالية أو وجاهية، وللأسف فإن البعض من الناس لا يعرف قيمة وجود ذوي الجاه، والمقصود هنا ذوي العلاقات الاجتماعية الواسعة والنافِذَة، والقادرة على التدخل في حلّ كثير من المشاكل والأزمات.

ومن الخطأ ما يعتقده البعض من أنه لِيصبح ذا علاقات وجاه ينبغي أن يكون ثريًّا، فهذا مفهوم غير صحيح، لأن المجال مفتوح للعلاقات من خلال المعاشرة الطيبة، وخلق علاقات حسنة مع مختلف الأطراف، وهناك أشخاص لم ينطلقوا من موقع ثروة ولا من موقِع إمكانات، لكنهم تعرفوا إلى الناس وكونوا صداقات معهم،

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٥، باب استحباب الزهد في الدنيا.

(٢) محمد مهدي النراقي. جامع السعادات. ج٢، الطبعة السابعة١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٣٦، فصل (ذم المال).

(٣) بحار الأنوار. ج١٠٠، ص٧، حديث٣٠.

(٤) المصدر نفسه. ج١٠٠، ص٨، حديث٣١.

فخَدموا غيرهم واندمجوا، وأصبحت لهم شخصية ومكانة في المجتمع.

لكن معظم أبناء مجتمعنا يميلون إلى الانغلاق على أنفسهم، وصداقاتهم قد لا تتجاوز مناطق سكنهم، ولا يهتمون ببناء جسور العلاقة والانفتاح مع الآخرين، ليكونوا معروفين وأصحاب مكانة وجاه على المستوى الوطني.

مجالات الإنفاق ونماذجه المشرقة

الإنسان في هذه الحياة يكون تحت تصرفه مال، قلَّ ذلك المال أو كثُر، وهناك من يعطيه اللّه سبحانه و تعالى سعة في المال والرزق، لكن الموفقين من هؤلاء هُم الذين ينفقون أموالهم على خارج دائرتهم واهتماماتهم الشخصية، في المصلحة العامة، وخدمة الناس، بينما البعض الآخر من الأثرياء المتمكنين لا تكون لديهم هذه الحالة من روح البذل والعطاء، لأن من طبيعة الإنسان أن تكون نفسُه شحيحةً، ولذلك يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[سورة الحشر، الآية: ٩ وسورة التغابن، الآية: ١٦]، وفي آية أخرى يقول اللّه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[سورة النساء، الآية: ١٢٨].

على الإنسان أن يتنبّه للحقيقة التي تؤكّدها الآية الكريمة، وهي أن المال وهذه الأرزاق إنما هي للّه سبحانه، ومن جهة أخرى عليه أن يتنبّه للحقيقة الثانية، وهي أن الإنفاق في سبيل اللّه، إنما يرجع بالفائدة على الإنسان نفسه، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩].

بمعنى أن اللّه تعالى يعطيك بدلًا عن المال الذي أنفقته، فهو خيرُ الرازقين.

ويقول في آية أخرى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٧]، وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١١٠، وسورة المزمل، الآية: ٢٠]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٧٢].

وفي الأحاديث تأكيد لهذه الحقيقة أيضًا، فقد ورد عنه ﷺ: «إن للّه في كل ليلة ملكًا ينادي: اللّهُم أعطِ كلَّ منفقٍ خلفًا وكلَّ ممسكٍ تلفًا»[١].

والإنسان ينبغي أن يكون لديه ثقة باللّه سبحانه، كما ورد عنه رسول اللّه ﷺ: «من صدّق بالخلف جاد بالعطية»[٢]، ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ»[٣].

نحنُ نعد أنفسنا مجتمعات متدينة، مؤمنين بالإسلام ولدينا هذا القرآن وهذه النصوص الشرعية التي تدعونا وتحفزنا إلى الإنفاق، لكننا نرى أن المجتمعات الأخرى سبقتنا في هذا المجال.

التبرعات في المجتمعات الأخرى

١. تقرير ٢٠٠٣ للتبرعات في الولايات المتحدة الأمريكية يشير إلى أن الأمريكيين تبرعوا للجمعيات الخيرية بـ ٢٤٥ بليون دولار، ٣٥ ٪ منها للجمعيات الدينية، والباقي للمؤسسات الصحية، والتربوية، والثقافية[٤].

٢. كما أن بعض الشخصيات الثرية في الولايات المتحدة الأمريكية تتبرع كل عام بمبالغ كبيرة، ومنهم على سبيل المثال: بل جيتس، صاحب شركة مايكروسوفت، أكبر شركة في العالم للصناعة المعلوماتية، الذي يتبرّع سنويًا بالمليارات.

وورن بوفت تبرع بمعظم ثروته، حيث تبرع بـ ٣٧ مليار دولار، وأبقى لنفسه منها ٦ مليارات فقط.

لماذا تسبقنا هذه المجتمعات في الإنفاق والعطاء؟! ولا نجد إلا نماذج قليلة جدًا

---

(١) وسائل الشيعة. ج٧، ص٣٩١، حديث٩٦٦٣.

(٢) الكافي. ج٤، ص٢، حديث٤.

(٣) نهج البلاغة. حكمة ١٣٨.

(٤) مجلة الوسط. عدد ٦٤٩، الصادر بتاريخ ٥ يوليو ٢٠٠٤.

في مجتمعنا من مثل هؤلاء؟!

العطاء وآفة المن

إن بذل الإنسان الجهد والمال لقضاء حاجات الآخرين يعد نعمة كبيرة يهبها الله إياه، لا يفسدها سوى (المنّ) والشعور بالاستعلاء على المحتاجين. فالله الذي يعطي كل شيء من المال والقدرة والجاه، ولولا عطاء الله للإنسان لما استطاع أن يعطي أحدًا مثقال ذرة، وبذلك وجب عليه شكر الله؛ لأنه سبحانه وفقه ليتبوأ مكانة المعطين، بخلاف الكثيرين الذي رزقهم الله من فضله لكنهم استسلموا لسيطرة الشح والبخل على نفوسهم.

من هنا إذا رأى الفرد نفسه وقد تسامت على هذا الشح، وأعطت مما أعطاها الله، فتلك نعمة تستحق الشكر. غير أن ما يجري في بعض الأحيان أن يصاب المرء المعطي بآفة الشعور بالاستعلاء وإشعار الآخرين بالحاجة، وذلك انطلاقًا من شعوره بأنه أعلى منهم، وأن له فضلًا عليهم، إلى درجة يشعرهم بالذل و(المنّ) والفضل عليهم.

ومعنى (المَنّ) لغة هو النعمة الثقيلة، لكنه وصف يطلق اصطلاحًا على التحدث عن إعطاء الآخرين. فأنْ يعطي المرء شيئا لأحد المحتاجين، فيتحدث عن ذلك العطاء مما يُشعر المحتاج بالدونية فذلك هو المَنّ. فلا بُدّ من التحصن ضد هذه الآفة من خلال التخلق بالأخلاق والتربية الإسلامية، ووفقًا للتعبير القرآني ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، و﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعم كل خير وكل ما ينفع الناس في حياتهم الدنيوية والأخروية، غير أن دقة التعبير القرآني تظهر من خلال المقطع الآخر في الآية الذي جاء فيه: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾، والحرف (ثم) تفيد التراخي وليس الفورية، ومعنى ذلك أن الإنسان المعطي قد يمنّ بالعطاء فور القيام به، وقد يكون بعد تقديم العطاء بزمن، وتشير الآية الكريمة إلى أن المن خصلة منبوذة، فإذا أعطى المرء شيئا للآخرين فعليه ألّا يمن عليهم ولا يعيّر الآخرين بمعروفه إليهم، وفي ذلك أجر كبير من الله ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

المنّ إهانة وأذى

إن تذكير المحتاجين بالأفضال والعطايا التي نمنحها إياهم ينطوي على جرح صارخ لكرامتهم. فالإنسان لا يريد أن يشعر بالضعف، ولا شيء أقسى على الناس من تذكيرهم بحالات ضعفهم، فتلك مما تسبّب أذى وضررًا نفسيًا بالغًا، حتى إن أغلب الناس لو خيروا بين مصلحة يعطوها وبين حفظ كرامتهم فإنهم سيختارون الأمر الثاني. يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، ومقتضى الآية الكريمة أن يعتذر المرء عن العطاء خير من أن يعطي ثم يمنّ على الآخرين.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾، فالصدقة لها أجر كبير عند الله لا ينبغي أن يضيع ويمحق عبر ممارسة المن والإيذاء لمن أعطيت، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تمن على الناس من منطلق استكثارك ما أعطيت لهم.

وورد عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: ـ ومنهم ـ المنّان الذي لا يعطي شيئًا إلا منّه»[١].

كما ورد عن النبي الأكرم ﷺ: «من اصطنع إلى أخيه معروفًا فمن به عليه حبط عمله»[٢]، أي كما لو أنه لم يفعل ولم يعطَ شيئًا. ولذلك على المرء أن يتجنب هذه الآفة وألّا يتحدث عما قدم وفعل للآخرين.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «المن يهدم الصنيعة»[٣]، وينطوي الحديث على تشبيه بليغ يصور صنيعة الخير بالصرح المشيد غير أنها عرضة للهدم والتدمير نتيجة (المن).

---

(١) صحيح مسلم. ج ١، ص ٧١.

(٢) وسائل الشيعة. ج٩، ص٤٥٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه. ج ٢، ص ٧١.

وعنه ﴿عليه السلام﴾ في وصيته لعبدالله بن جندب «وإن كانت لك يد عند إنسان فلا تفسدها بكثرة المن والذكر لها، ولكن أتبعها بأفضل منها فإن ذلك أجمل بك في أخلاقك، وأوجب للثواب في آخرتك»[1].

لا تتحدث عن ما أعطيت

هناك بعض الناس اعتادوا على الحديث عن كل عطاء ومعروف أسدوه للآخرين، وهذا ما يجعل عطاءهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف. وورد عن أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ أنه قال: «أحيوا المعروف بإماتته فإن المنة تهدم الصنيعة»، وفي المقابل يحث على ذكر محاسن صنائع الآخرين بحقنا، يقول ﴿عليه السلام﴾: «إذا صنع إليك معروف فاذكره وإذا صنعت معروفًا فانسه»[2].

ولعلّ أسوأ أنواع المنّ هو المنّ على الأقرباء المحيطين، فقد يصل مستوى اللؤم لدى بعض الناس أن يمنَّ بما يعطي حتى لزوجته وأولاده، فيعيّرهم بما يعطيه لهم، وذلك غاية اللؤم؛ لأن النفقة على العيال واجبة أولًا، وثانيًا لأنه إنما يعطيهم مما أعطاه الله، أما الأمر الثالث؛ فحينما تمنّ على عيالك تجرح مشاعرهم وهم يعيشون تحت كنفك، في حين بإمكان غيرهم أن يبتعد عنك بمجرد تجرعه مرارة المنّ من قبلك.

وفي خدمة الزوجة لزوجها أجر عظيم وهو داخل في باب الجهاد كما ورد في الحديث «جهاد المرأة حسن التبعل»، لكنها إذا أتبعت ذلك بالمنّ على زوجها فقد نسفت كل ثوابها، وكذلك الأمر بالنسبة للأولاد.

المنّ بالعبادة والتديّن

على المرء أن يراقب نفسه ويتوقى الوقوع في حالة (المنّ)؛ لأنها يمكن أن تمتد حتى إلى علاقته بالله تعالى. فآفة المن يمكن أن تدفع المرء للجرأة على ربّ العالمين، بحيث يمنّ على الله بأعماله وعباداته من حج وصلاة وصوم!. وقليل من

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول. ص ٣٠٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. حكمة ١٥٣٩.

التفكر للإنسان يدرك به أنه لو جمع كل صنيع الخير فلن يوازي ذلك واحدة من أنعم الله عليه، لذلك يتحدث القرآن الكريم عن أولئك الذين كانوا يمنون على رسول الله ﷺ إسلامهم بالقول: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، من هنا على المؤمن أن يتعود دائمًا الشكر حينما يتوفق لعبادة سيما الصلاة، إن سجدة الشكر ليست جزءا من الصلاة، ولا هي واجبة، ولكن يستحسن التعود عليها حتى يتعود شكر الله تعالى على توفيقه له لأداء هذه الفريضة، وهكذا الأمر بإزاء كل عبادة وكما ورد في ما حكاه الله تعالى على لسان عباده المؤمنين: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

لا ينبغي لأي إنسان كان أن يمن بعطائه على غيره، وهذا ما يلفت إليه أمير المؤمنين واليه على مصر مالك الأشتر بقوله: «إياك والمنّ على رعيتك بإحسان، فإن المن يبطل الإحسان».

وينسحب ذات الأمر على الناشطين العاملين في خدمة مجتمعهم، فهم أولى الناس بالنأي عن المن على مجتمعهم.

التخفيّ بالعطاء

وعلى النقيض من ذلك تشجع التعاليم الإسلامية على عمل الخير سرًا، وأن نقدم الصدقة والخير للناس دون أن يتعرفوا علينا، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب»[(١)]، وجاء في رواية أخرى « سبعة في ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله:... ورجل تصدق بيمينه فأخفاه عن شماله»[(٢)] ذلك حتى لا يشعر الفقير والمحتاج بالضعف أمامك.

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام: «يخرج في الليلة

(١) المستدرك على الصحيحين. ج١، ص١٢٤.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧١، ص ٣٥٤.

الظلماء، فيحمل الجراب على ظهره حتى يأتي بابًا بابًا، فيقرعه ثم يناول من كان يخرج إليه، وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيرًا لئلا يعرفه»[١].

عن محمد بن إسحاق إنه كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به بالليل[٢].

عن هشام بن سالم قال: كان أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام إذا اعتم وذهب من الليل شطره أخذ جرابًا فيه خبز ولحم والدراهم فحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله فقدوا ذا فعلموا أنه كان أبا عبد الله عليه السلام »[٣].

إن على الإنسان أن يتعود تقديم العطاء للجميع، فيما يتوجب عليه في ذات الوقت أن يبتعد عن عادة المنّ على من أعطي.

البخل عاهة في النفس والسلوك

يُعدّ البخل والإمساك عن إنفاق المال في موارده عاهة من العاهات المعيبة للأشخاص.فالأصل أن يكسب الإنسان المال من أجل أن ينفقه على حاجاته ومصالحه، لكن جمع المال قد يصبح عند البعض هواية فيحرصون على جمعه ويبخلون عن إنفاقه في موارده، وهذه آفة وعاهة كبيرة تصيب الإنسان. إن ذلك يشبه تمامًا جمع الطعام دونما هدف، فالإنسان إنما يعدّ الطعام حتى يأكل منه ويطعم الآخرين، أما إذا أصبح مجرد جمع أصناف الطعام ـ دون أكله ـ هواية لدى أحد الناس، فإن النتيجة معروفة وهي فساد ذلك الطعام وتلفه وصدور الروائح الكريهة منه، فالطعام في الأصل يُعدّ من أجل أن يؤكل لا أن يجمع ويترك هكذا. وكذلك المال إنما يكسبه الإنسان ويجمعه من أجل أن ينفقه على حاجاته ومصالحه المادية

(١) المصدر نفسه. ج ٤٦، ص ٨٩.

(٢) المصدر نفسه. ج ٤٦، ص ٨٨.

(٣) الكافي. ج٤، ص٨.

والمعنوية، فإذا لم يصرف منه في هذه الموارد فهذا يعني سوء تعامل مع المال. وهذا ما يطلق عليه البخل، أي الامتناع عن صرف المال في موارده، وهذه عاهة من العاهات.

أرضية البخل

إن البخل خصلة ذميمة تنبع من سوء تفكير عند الإنسان أو لخلل في نفسه. وذلك من خلال الجنوح في التفكير والخشية من الفاقة إذا أنفق من ماله، أو تعتريه حالة الأنانية ولؤم النفس فتمنعه من الإنفاق، ولذلك وردت النصوص الدينية التي تحذر المرء من الوقوع في هذا المطب، أو الإصابة بتلك العاهة، فمن وجد في نفسه شيئًا من البخل فعليه أن يراجع هذه النصوص من آيات وأحاديث، وأن يتأمل في سيرة من حوله من الناس، حتى يعالج هذا المرض حتى لو لم يكن سوى في مراحله الدنيا، لأن ذلك معرض للاستفحال تمامًا كما تستفحل وتزيد أمراض الجسم إذا سكت عنها الإنسان.

ورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد القول: «البخل جامع لمساوئ العيوب»[١]، ويقول: «البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود»[٢]، وبهذا يشير عليه السلام إلى خلل التفكير الذي يعتري البعض، فالله الذي رزق الإنسان هذا المال سيعطيه غيره، لذلك عليه أن ينفق دون خشية الفقر، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «حسب البخيل من بخله سوء الظن بربه، من أيقن بالخلف جاد بالعطية»[٣]، وجاء عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إياكم والبخل فإنها عاهة لا تكون في حرٍّ ولا مؤمن إنها خلاف الإيمان»[٤]. والإنسان الحرّ وفقًا للراوية هو الذي له نفس سليمة متحررة من العقد، والمؤمن الذي يهتدي بهدي الإسلام لا يكون بخيلًا، ثم يضيف الإمام عليه السلام:

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٣٧٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٩، حكمة ٢٥١.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٠، ص٣٠٧، حديث٣٥.

(٤) المصدر نفسه. ج٧٥، ص٣٤٦.

«إنها خلاف الإيمان».

وفي كلمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ وَ يَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ»(١)، بمعنى أن البعض يطلب الغنى هربًا من الفقر، فإذا ما استغنى من مال الله أمسك عن الإنفاق فحاله سيكون حينها كالفقير الذي ليس لديه ما ينفق. فما الفائدة من الأرقام الفلكية الموجودة في الأرصدة البنكية إذا لم يقم صاحبها الغني بواجب الإنفاق؟!

والغريب أن لدى بعض الناس هوسًا في النظر نهاية كل شهر لأرقام أرصدته المكدسة في البنوك، تلك الأرصدة التي تستفيد منها البنوك بالمتاجرة بها، فالواحد من هؤلاء يعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

نتائج البخل وآثاره

وللبخل نتائج سلبية على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ومنها:

١. القلق النفسي وضيق المعيشة

إن أول ما يصاب به البخيل جراء بخله هي حالة القلق وضيق المعيشة. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «أقل الناس راحة البخيل»(٢). فالبخيل عادة ما يكون في قلق دائم من التعرض لأدنى خسارة قد تؤدي إلى تضاؤل رصيده المالي. بل أكثر من ذلك، فإذا تعرض إلى موقف يتوجب عليه فيه دفع شيء من ماله تراه يمتقع لونه ويتمنى لو أنه لم يحضر ذلك المكان. وقد تحدثت إحدى الزوجات تشكو بخل زوجها، فكانت تقول أنه يأتي بعض الأيام متغير المزاج على غير عادته فتسأله عن السبب فيتضح السبب أن فقيرًا جاءه ذلك اليوم وطلب منه مبلغًا من المال، وآخر طالبه بالتبرع من أجل مشروع خيري، فيطيل ذلك البخيل الشكوى من السائلين وجامعي التبرعات الخيرية!. هكذا هو البخيل، في قلق دائم من الخسارة ومن الاضطرار لدفع شيء من ماله.

(١) نهج البلاغة، حكمة ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٠، ص٣٠٠.

وورد في السياق ذاته عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليست لبخيل راحة»[١]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «أبخل الناس من بخل على نفسه بماله وخلّفه لورّاثه»[٢]. ومما ينقل في هذا الصدد أن شابًا كان محتاجًا إلى مبلغ من أبيه لشراء سيارة، لكن والده، وعلى كثرة ماله، لم يعطه ما طلب، حتى إذا توفي الأب بعد ذلك بأيام قليلة، قال الولد حينها، الآن أستطيع شراء أكثر من سيارة وليست سيارة واحدة فقط، فهل هذا ما يريده الإنسان؟، حقيقة الأمر أن البخيل يبخل على نفسه باليسير فيما يخلف لوارثه الكثير. لذلك فالبخل يخلق حالة من القلق والضيق في نفس الإنسان.

٢. سوء السمعة

تأتي السمعة السيئة في الوسط الاجتماعي ضمن أبرز الأعراض السلبية للبخل وشح النفس. إذ يخلق كل امرئ صورة ذهنية عن نفسه بين الناس، فيقرأ الناس من حولهم ويقيمون الأفراد بناء على ممارساتهم وإن لم يفصحوا عن تقييماتهم تلك على نحو مباشر، فالكريم يمدحه الناس والبخيل يذمونه. يروى عن الإمام علي قوله عليه السلام: «البخل عار»، «بالبخل تكثر المسبة»[٣]، وعن الإمام الرضا عليه السلام: «البخل يمزق العرض ـ أي السمعة»[٤]، ويقول الإمام علي عليه السلام: «من بخل بماله ذل»[٥]، وقال عليه السلام: «من بخل بدينه جل»[٦]، فالإنسان الذي لا يفرط في دينه ويمسك عليه يكون جليلًا عزيزًا، بخلاف الذي يمسك ماله فإنه يكون ذليلًا.

٣. النفور الاجتماعي

يلتف الناس حول من يحسن إليهم فيما ينفرون بشدة من البخيل المقتر. فالإنسان

---

(١) المصدر نفسه. ج٧٠، ص٣٠٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ١٠٣، حكمة ٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٦٤، حكمة ٢٤.

(٤) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣٥٧.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٣٥، حكمة ٤٢٠.

(٦) المصدر نفسه. ص٣٣٥، حكمة ٤١٨.

الذي يعطيه الله الخير فيوسع على عياله وعلى الناس من حوله يجد الترحيب والالتفاف منهم، والعكس صحيح. وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله»[١]، وعن الإمام الرضا عليه السلام: «صاحب النعمة يجب عليه التوسعة عن عياله»[٢]. فينبغي للرجل إذا أعطاه الله الخير أن يوسع على عياله حتى يدعون له بطول البقاء عوضًا عن تمني موته. إن أكثر الناس نفورًا من البخيل المقتر هم عياله، حتى إنهم ربما يتمنون الخلاص منه سريعًا ليتمتعوا بإرثه بعد وفاته، وإن لم يصرحوا بما في نفوسهم.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»[٣]، إن أولى الناس بالنعمة التي حباها الله المرء هم أقرب الناس إليه؛ زوجته وأولاده ووالداه ومن يعول، وإلا فما فائدة المال.

جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: «ملعون ملعون من ضيّع من يعول»[٤]، فالعيال أمانة في رقبة المرء، والزوجة الكادحة تستحق الكثير، وقد كتب أحد الكتاب يقول إن الزوجة تقوم بأدوار كثيرة بحيث لو استأجر الرجل لكل دور من أدوارها من يقوم به مقابل المال لكلفه ذلك كثيرًا، ومنها مهمات الطبخ والكنس وإدارة البيت والحمل والرضاع وما شابه. ولذلك على الإنسان ألّا يبخل على عياله.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن يأكل بشهوة عياله، والمنافق يأكل أهله بشهوته»[٥]، ومعنى ذلك أن المؤمن يأكل مما يشتهي عياله، فيعطيهم وفق رغبتهم، أما المنافق فيبدأ بنفسه ولا عليه من غيره، فالذي يشتهيه هو يفرض على أولاده أن يأكلوا منه، وهذا خطأ كبير، إذ على الإنسان أن يحسب حسابًا لرغبات من حوله.

---

(١) الكافي. ج٤، ص١١.
(٢) المصدر نفسه. ج٤، ص١١.
(٣) الكافي. ج٤، ص١١.
(٤) المصدر نفسه. ج٤، ص١٢.
(٥) وسائل الشيعة. ج٢١، ص٥٤٢.

وينسحب موضوع البخل ليشمل التقتير على الأرحام والأقارب أيضًا. فالإنسان إذا أعطاه الله الخير فلا بدّ وأن ينعكس ذلك على من هم حوله، ومن العجيب جدًا أن ترى ثريًا وحوله فقراء من أرحامه وأقرب الناس إليه وقد يكون أخوه أحدهم، فكيف يطيب له العيش مرتاحًا وأقرب الناس إليه يعيشون الفقر والحاجة؟!، لماذا لا تنفق على هؤلاء، ومن أجل ماذا تجمع الأموال؟، فإذا كنت تخاف الفقر فذلك سوء ظن بالله تعالى. لذلك ورد عن رسول الله ﷺ: «البخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار»[1]. ومن الملاحظ أنك تجد في بعض الأحيان مجموعة من الناس تعيش مرتاحة لا لشيء إلا لأن من بينهم واحدًا سخيًا يلتف الجميع حوله، فيما يهرب أناس آخرون من البذل والعطاء على من حولهم حتى يصبحوا أبعد ما يكونون عن الناس.

تربية النفس على البذل

هناك من أهل الخير من ينعكس خيره على من حوله فيبارك الله له في خيره، ويجعله أضعافًا مضاعفة. ومن المؤكد أن من يعش في الدنيا نافعًا للناس فسيجعل الله له في الآخرة مقامًا عليًا، حتى يخاطب الله أمثال هذا يوم القيامة بأن ادخلوا (الجنة) وأدخلوا من شئتم. فالسخي يعيش مرتاحًا في دنياه وآخرته، بينما البخيل يعيش شقيًا في دنياه وآخرته. لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وورد عنه ﷺ: «أبخل الناس من بخل بما افترض الله عليه»[2].

عن الإمام علي عليه السلام: «إذا لم يكن لله في عبد حاجة ابتلاه بالبخل»[3]، ومعنى ذلك أن من لا قيمة له عند الله، فإن الله يبتليه بالبخل، أي إن هذا العبد يختار لنفسه هذا الطريق.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٠، ص٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه. ج٧٠، ص٣٠٠.

(٣) الكافي. ج٤، ص٤٤.

جاء رجل لرسول الله ﷺ وقال: «يا رسول الله أي الناس أفضلهم إيمانًا؟ قال ﷺ: أبسطهم كفًّا»[١].

إن البخل ينعكس سلبًا على علاقة الإنسان مع أقاربه وأرحامه، فليس لبخيل صلة رحم. ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «شاب سخي مرهق في الذنوب أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل»[٣]، وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه دخل عليه مولى له فسأله الإمام هل أنفقت اليوم شيئًا؟ قال: لا والله، فقال له الإمام: فمن أين يخلف الله علينا؟ أنفق ولو درهمًا واحدًا[٤].

ينبغي للإنسان أن يمارس عادة الإنفاق في سبيل الله على نحو يومي. لذلك فمن المستغرب ردة فعل بعض الناس حين يعرض عليهم طلب الدعم والمساهمة في مشروع خيري، فيكرر القول بأنه سبق له المساهمة في مشروع خيري مشابه قبل ذلك!. ينبغي للإنسان أن يعود نفسه على الإنفاق يوميًا على مصالح الدين والمجتمع والجيران والأقرباء وأن ينأى بنفسه عن أساليب التهرب من الإنفاق. ورد عن الإمام علي عليه السلام: «كثرة العلل آية البخل»[٥]، وعنه عليه السلام: «البخيل متحجج بالمعاذير والتعاليل»[٦]. كما ورد في الأثر أن على الإنسان أن يتعوذ بالله من البخل، لذلك على الإنسان أن يربي نفسه على الإنفاق في كل يوم وأن يكون واثقًا من عطاء الله تعالى.

---

(١) الكافي. ج٤، ص٤٠.
(٢) المصدر نفسه. ج٤، ص٤٠.
(٣) الكافي. ج٤، ص٤١.
(٤) المصدر نفسه. ج٤، ص٤٤.
(٥) بحار الأنوار ج ٧٤، ص٢٠٩.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٩، حكمة ٢٥٥.

الرفق مفتاح النجاح

يمثل لين الجانب والسماحة والرفق بالآخرين نقطة جذب واستقطاب فعالة للنفوس والقلوب. فحين يتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان فهو إنما يكون على تماس مباشر مع مشاعر وأحاسيس ذلك الآخر، تلك الأحاسيس التي تمثل في حقيقة الأمر العمق الفعلي لوجود الإنسان، الأمر الذي ينبغي أن يحسب له حسابًا. ذلك على النقيض تمامًا من تعامل الإنسان مع الجمادات والكتل المادية الصماء التي لا تتميز بأيّ قدر وجداني يذكر.

إن مشاعر الإنسان وأحاسيسه تستجيب سريعًا للغة الاحترام والتقدير، والتعامل بالرفق واللين. في حين ينفر البشر عند مواجهتهم بلغة الإساءة والتعامل الخشن. من هنا إذا أراد المرء أن يستميل الآخرين نحوه فإن أول ما يتوجب منه أن يتعامل معهم التعامل الحسن، وأن يخاطب فيهم مشاعرهم وأحاسيسهم.

في إشارة قرآنية لأفضل أساليب التخاطب مع الآخرين يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسان عَدُوًّا مُبِينًا﴾. إن تخيّر أفضل العبارات، وأجمل الكلمات عند مخاطبة الآخرين، هو ما يجعلك أقرب إلى قلوبهم، ويجعلهم أقرب منك. كما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما من شيء أجلب لقلب الإنسان من لسان»[1]، ومقتضى القول إن الخطاب الجميل والقول الحسن هو الأكثر قدرة وتأثيرًا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٨٥، حكمة ٢٤٥.

على اجتذاب قلوب الآخرين.

الرفق مع المخطئين

تؤكد تعاليم الإسلام جانب الرفق واللين حتى مع المخطئ من الناس. فعوضًا عن التعامل معه بأسلوب الشدة والفظاظة التي قد تدفعه للإصرار على خطئه، تدعو التعاليم الدينية إلى التعامل مع المخطئ بأسلوب الرفق واللين، أملًا في أن يدفعه ذلك لتغيير سلوكه ونظرته تجاهك وتعامله معك، وذلك هو ما أشارت له الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وهكذا كان رسول الله ﷺ والأئمة والصالحون يتعاملون مع الآخرين بسياسة الرفق واللين، حتى إذا كان أولئك في موقف الخطأ. ورد في رواية عن أنس بن مالك قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزرموه، دعوه فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا للبول والقذر، إنما هي لذكر الله عزّ وجلّ والصلاة وقراءة القرآن»[(١)]، يقول ذلك الأعرابي: «والله لقد أتاني فما أنبني ونهرني وما ضربني»، هذه هي اللغة السليمة وهذا هو النهج النبوي في التخاطب مع الناس، وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»[(٢)]، وعنه ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[(٣)]، وورد عنه ﷺ: «إن الله يحب الرفق ويعين عليه»[(٤)]، وقوله ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[(٥)].

---

(١) صحيح مسلم. ص١٦٥، حديث ٢٨٥.

(٢) الكافي. ج٢، ص١١٩.

(٣) صحيح البخاري. كتاب الأدب، ج٤، ص٩٢، حديث٦٠٢٤.

(٤) الكافي. ج٢، ص١٢٠، حديث١٢.

(٥) المصدر نفسه. ج٢، ص١١٩، حديث٧.

الرفق بالعائلة أولًا

ولعلّ أقرب الدوائر التي يتوجب على المرء أن يراعي فيها الرفق والتعامل الحسن هي العائلة. إن على الإنسان أن يكون رفيقًا في تعامله مع أسرته وعياله، فإن للرفق داخل العائلة آثارًا عظيمة، فحين يألف أفراد العائلة التعامل الحسن، فإن ذلك سوف ينعكس على صحتهم النفسية، بينما حين تكابد الزوجة القسوة والتعامل الخشن من زوجها، فإن جميع ذلك سوف ينعكس على نفسيتها وطريقة تربيتها للأبناء، والأمر ذاته بالنسبة للأولاد، فإنهم سوف يصابون بالعقد والمشاكل النفسية حينما يعيشون الفظاظة والقساوة داخل البيت من قبل الأبوين. من هنا على المرء أن يلزم جانب الرفق بأبنائه وخاصة الصغار منهم فلا يكون قاسيًا عليهم، ولا خشنًا في تعامله معهم.

وتحضّ التعاليم الدينية على تبادل الرفق ولين العريكة في تعاطي الزوجين مع بعضهما. إذ ينبغي أن تكون الزوجة رفيقة بزوجها، حتى لا تحول حياة العائلة إلى جحيم، كما ينسحب الأمر ذاته على تعامل الرجل مع زوجته، فقد ورد في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «حق الزوجة أن تعلم أن الله تعالى جعلها لك سكنًا وأنسًا وتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك فتكرمها وترفق بها». وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق»[1]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما زوي الرفق عن أهل بيت إلا زوي عنهم الخير»[2].

وتأتي ضرورة التزام جانب الرفق في إطار العائلة، وصولًا إلى الأصدقاء والزملاء، وما حولنا من الأشياء والكائنات. فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرًا وأحبّهما إلى الله عزّ وجلّ أرفقهما بصاحبه»[3]، وورد عن علي عليه السلام: «الرفق بالأتباع من كرم الطباع»[4]، بل ويتعدى جانب الرفق إطار البشر حتى يصل

(١) مسند أحمد بن حنبل. ج٦، ص٧١.

(٢) الكافي. ج٢، ص١١٩، حديث٨.

(٣) المصدر نفسه. ج٢، ص١٢٠، حديث١٥.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٤، حكمة ٨٦٣.

إلى الحيوان والجمادات، فقد وردت نصوص عديدة بشأن الرفق بالحيوان، وكذلك الأمر بالنسبة للتعامل مع الجمادات، فبعض الناس يتعاملون مع الأشياء تعاملًا فظًا قاسيًا فيتعود على هذه الحالة، حتى إنك حين تراه يفتح بابًا ويغلقه بقسوة تظن أن بينه وبين الباب عداوة وثأرًا.

نتائج الالتزام بالرفق

ثمة نتائج عديدة وآثار تترتب على التزام الإنسان جانب اللين والرفق، ومن ذلك:

أولًا: استحقاق الرفق من الله

إذا كان الإنسان رفيقًا بالناس فهو أقرب ما يكون لاستحقاق الرفق الإلهي يوم القيامة. فقد يشعر الفرد في الحياة الدنيا بالقوة، لكنه عمّا قريب سينتقل عن هذا العالم إلى عالم الفناء، فكيف ستكون حياته هناك سواء في القبر، أو مصيره يوم القيامة. لا شك أن تعامل المرء مع من حوله في الدنيا سيحدد طريقة التعامل التي سيواجه بها يوم القيامة، فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «كان آخر ما أوصى به الخضر موسى عليه السلام قال: ما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة»[1].

ثانيًا: الرفق بالآخرين سبيل النجاح

إن التعامل الحسن مع الآخرين والرفق بهم تضع الفرد على سكة النجاح. فهناك علاقة طردية بين النجاح الشخصي والرفق بالآخرين. قال الإمام الصادق عليه السلام: «من كان رفيقًا في أمره نال ما يريد من الناس»[2]، وعن علي عليه السلام: «الرفق مفتاح النجاح»[3]، وقال عليه السلام: «الرفق ييسير الصعاب ويسهل شديد الأسباب»[4]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن شئت أن تكرم فلن وإن شئت أن تهان فاخشن»[5].

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٦٣.
(٢) الكافي. ج٢، ص١٢٠، حديث١٦.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٤، حكمة ٨٦٩.
(٤) المصدر نفسه. ص٣٤، حكمة ٨٧٢.
(٥) الكافي. ج١، ص٢٧، حديث٢٩.

الوفاء أشرف الأخلاق

الوفاء في الأصل يعني الإتمام والإكمال. فإذا أتممت شيئًا أو أكملته قيل لك أوفيته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، بمعنى إتمام الكيل وعدم الإنقاص، و منه الوفاء بالعهد. حينما يكون عهد من الإنسان مع الله تعالى أو مع أحدٍ من خلقه، فإنجاز ذلك العهد والوعد من الوفاء، وهو من صفات المؤمنين التي يحبّها الله ويمتدحها، يقول تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾. ومنه الوفاء بالعقود والاتفاقات المبرمة بين الإنسان وبين الآخرين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

وهناك معنى أخلاقي للوفاء يُراد به حفظ الجميل والإحسان لذوي الإحسان. حينما يُسدي لك أحدٌ جميلًا، ويصنع لك معروفًا، في وقتٍ من الأوقات، فإن حفظك لذلك الجميل، وشكرك لذلك الإحسان والمعروف، يُعتبر وفاءً، وهذا هو المعنى الذي نريد الحديث عنه.

هناك من يتنكّر للجميل والمعروف، أو يتعاطى معه وقتيًّا، فيبدي الاحترام والتقدير لمن يحسن إليه ما دام هو في حاجة لهذا الإحسان، فإذا ما انقضت حاجته، نسي ذلك المحسن وتنكر له، وهذا خلاف الوفاء. الإنسان الوفي هو الذي يبقى ذاكرًا للمعروف ومقدّرًا للجميل، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أشرف

الخلائق الوفاء»[1] يعني أن أشرف مكارم الأخلاق أن يكون الإنسان وفيًّا لمن يُحسن إليه.

وفي هذا السياق وردت نصوص تتحدث عن حرمة كفران معروف الآخرين كما يحرم الكفر بنعم الله تعالى.

الوفاء للوالدين

ليس هناك جميل ولا معروف أعظم من معروف الوالدين وإحسانهما، فإنهما بعد الله تعالى مصدر وجود الإنسان، وسبب حياته، والوفي من الناس يُعرف مقدار وفائه بمقدار برّه بوالديه. فحين يكون الإنسان صغيرًا فهو في موقع الضعف والحاجة لوالديه، فإذا تقدم بالوالدين العمر، وأصبحا في موقع الضعف، وأصبح هو في موقع القوة، فهل سيفي مع من أسبغا عليه برّهما ووقتهما وحياتهما ما لم يسبغ عليه أحدٌ مثل ذلك أو قريب منه؟

الله تعالى يأمر بالشكر للوالدين بعد الشكر له يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، كما ستحاسب يوم القيامة عن شكرك أو عدم شكرك لله تعالى، كذلك ستحاسب عن شكرك أو عدم شكرك للوالدين. بعد عبادة الله تعالى ليس هناك واجب على الإنسان أعظم من حقّ الوالدين، يقول تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. حتى أدنى كلمة تشعرهما بالانزعاج يأمرك الله تعالى بتجنبها.

فضل الوالدين عظيم، فأنّى لامرئ أن يوفّيَ حقّ والديه، لهذا يطلب منه الاجتهاد في هذا الأمر. فقد روي أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ

(١) غرر الحكم، حكمة ٢٨٥٩.

هل أديت حقها؟ قال «لا ولا بزفرة واحدة»[١].

وشكا رجلٌ إلى رسول الله ﷺ سوء خلق أمه فقال: لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين؟ قال: إنها سيئة الخلق، قال: لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟ قال: لقد جازيتها؟ قال: ما فعلت، قال: حججت بها على عاتقي؟ قال: ما جزيتها ولو طلقة»[٢].

هكذا على الإنسان أن يتذكر دائمًا وأبدًا معروف والديه. مع الأسف الشديد، كم نرى في هذه الفترات من يتنكر لمعروف والديه، أو يلقي بدور رعايتهما على إخوانه، فلماذا تقصّر أنت وتتركهم يسبقونك إلى الخير؟!

والبر بالوالدين لا يقتصر على وجودهما في الحياة، بل حتى بعد وفاتهما، حيث ينبغي أن يستمر بالدعاء لهما والتصدق عنهما وعمل الخير وإهداء ثوابه إليهما.

الوفاء مع الزوجة

ومن مصاديق الوفاء، الوفاء للحياة الزوجية. حينما يرتبط رجل وامرأة برباط الزوجية تكون بينهما حياة مشتركة مفتوحة يعبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ويصفها في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. قد يموت أحد الزوجين أو يمرض، فكيف يؤدي الصحيح منهما حقوق الآخر، وفاءً للعشرة التي بينهما؟ هل سيتعامل بالوفاء، ويقف مع الطرف الآخر في هذه المحنة، أم يتنكر له وينسى ما كان بينهما من معروف وعشرة؟ قد يتغيّر خلق أحد الزوجين بسبب كبر السن، وهذا لا يبرر التنكر لتلك العشرة السابقة، لا يصحّ نسيان الجميل من كلا الزوجين. والأسوأ من ذلك أن يتصاعد الخلاف بين الزوجين إلى حدِّ التفكير في الانتقام، أو إنهاء الحياة الزوجية بطريقة عدائية، بينما

(١) ابن كثير. تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٣٨.

(٢) الزمخشري. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ٢، ص ٤٤٥.

يؤكّد القرآن الكريم أهمية أنْ يتم الفراق بين الزوجين بأسلوب مناسب، يقول تعالى: ﴿إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

فالمرأة تتزوج الرجل في فترة شبابه وقوته ونشاطه، لكن الزمن وصروفه قد يذهب بهذه القوة والفتوة، وقد يصبح الرجل عاجزًا، ولكن الزوجة الوفية تبقى وفية لهذه العشرة الزوجية، فتتحمل زوجها إذا مرض، وتصبر عليه إذا افتقر، وتواسيه إذا كبر.

ينقل أحدهم أنه يعرف زوجة كانت تذوب في زوجها احترامًا وتقديرًا، حتى أنها تشهق إذا ذكرت اسمه، وبعد مدة من الزمن أصيب الزوج بإعاقة لم يعد معها قادرًا على الحركة والنشاط، فانقلب الحال رأسًا على عقب، لدرجة صارت تسمع زوجها كلامًا مهينًا، وتتثاقل في أداء حوائجه، وهذا خلاف الوفاء، وصورة سيئة لحفظ العشرة. لكن في مقابل ذلك هناك نساء يضربن أروع الصور في حسن العشرة مع أزواجهن.

وكذلك الحال بالنسبة للأزواج. فالرجل يتزوج المرأة في صباها بكامل جمالها وقوتها، وتنجب له الأبناء، وتدير شؤون بيته، حتى إذا كبرت سنها، ولحقت بها الآلام والأسقام، ولم يعد ير منها ذلك الجمال الجسمي الظاهري ولا تلك الخدمة، نسي تلك العشرة الطيبة، وما كان منها، كما نقل عن ذلك الإعرابي الذي طلق زوجته بعد عشرة دامت خمسين سنة، ولما سألته معاتبة: تفعل هذا بعد طول عشرة؟ قال: والله ما لك عندي ذنب غيره!، يعني ذنبك هذه المدة الطويلة بيننا التي جعلتني أملُّ منك. بينما في المقابل هناك من يحمل قدرًا كبيرًا من الوفاء، ويبقى وفيًا لزوجته، حتى لو صدر منها ما يسيء له بسبب كبر سنها، كما هي طبيعة الإنسان عند الكبر.

وفاء زوج

هناك قصة جميلة متناقلة في هذا الجانب رواها أحد الأطباء، يقول: «ذات صباح مشحون بالعمل في غرفة الطوارئ بالمستشفى، وفي حوالي الساعة الثامنة والنصف، دخل عليَّ عجوز يناهز الثمانين من العمر، لإزالة بعض الغرز من إبهامه، وذكر أنه في عجلة من أمره، لأن لديه موعدًا في التاسعة، طلبت منه أن يجلس على الكرسي

المخصص لإجراء الغيارات على الجروح، وتحدثت قليلا وأنا أزيل الغرز وأهتم بجرحه، سألته عن طبيعة موعده ولماذا هو في عجلة من أمره؟ فأجاب: كل صباح أذهب لدار الرعاية لتناول الإفطار مع زوجتي، فسألته عن سبب دخول زوجته لدار الرعاية؟ فأجابني بأنها هناك منذ فترة لأنها مصابة بمرض الزهايمر (ضعف الذاكرة) بينما كنا نتحدث انتهيت من التغيير على جرحه، وسألته: وهل ستقلق زوجتك لو تأخرت عن الميعاد قليلا؟ فأجاب: إنها لم تعد تعرف من أنا، إنها لا تستطيع التعرّف علي منذ خمس سنوات مضت، قلت مندهشًا: ولا زلت تذهب لتناول الإفطار معها كل صباح على الرغم من أنها لا تعرف من أنت؟! ابتسم الرجل وهو يضغط على يدي وقال: هي لا تعرف من أنا، ولكني أعرف من هي». هذه صورة رائعة للوفاء.

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثال الأروع حيث كان وفيًا لزوجه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد. ولا يصح لرجل أن يقارن هنا ويقول: تلك خديجة لا زوجتي، ففي المقابل ذاك رسول الله وليس أنت، فنحن نتحدث هنا عن جوهر الموقف، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

خديجة ظلت في قلب رسول الله حتى آخر لحظة من لحظات حياته الشريفة، ولم يفتأ يذكرها ويثني عليها كلما غادر الدار، كما ورد عن أم المؤمنين عائشة: كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها. فذكرها يومًا من الأيام فأدركتني الغيرة. فقلت: هل كانت إلا عجوزًا، فقد أبدلك الله خيرًا منها، فغضب، حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس. ورزقني الله منها أولادًا إذ حرمني أولاد النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبدًا[١]. وقالت أيضًا: ما غرتُ على أحد من أزواج النبيّ ما غرت على خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، وما ذاك إلاّ لكثرة ذكر رسول الله لها،

---

(١) ابن عبد البر. الاستيعاب، ج ٤، ص ١٨٢٤.

وكان لمّا يذبح الشاة فيتبع بها صدائق خديجة فيهديها لهنّ[١].

الوفاء علامة نبل

يأتي الوفاء في طليعة الأخلاق الإنسانية الفاضلة. فهو علامة نبل ومظهر للإنسانية الحقة، ففطرة الإنسان النقية تدفعه لشكر المعروف ومكافأة الإحسان بالإحسان، وأن يكون وفيًا لمن عاشره بخير.

والوفاء وفاءان: وفاء لموقف، ووفاء لعشرة. وقد أمر الدين الكريم بهذا الخلق العظيم بمختلف أشكاله وألوانه، وهذا ما تصرح به الآية الكريمة ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فهي تستثير مشاعر الإنسان الوجدانية، حيث لو طرح هذا التساؤل على نفسه فإن فطرته النقية ستجيب بجلاء ووضوح بأن الإحسان يكافأ بالإحسان. وأن هذا الإحسان يُكافأ به المحسن بغض النظر عن دينه وتوجهه. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «قول الله عز وجل ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ جرت في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، من صُنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع به، بل يرى مع فعله لذلك أن له الفضل المبتدأ»[٢].

وروى الإمام الباقر عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٣].

وجاء عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل»[٤].

من هنا جاءت فضيلة الوفاء في أعلى سلم الفضائل الإنسانية وأكثرها انسجامًا مع الفطرة السليمة التي خلق الله البشر عليها.

---

(١) سنن الترمذي. ج ٣، ص ١١٨، حديث ٢٠١٧.

(٢) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٣٠٦، حديث٢١٦١٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه. ج ٤، ص ٣٨٠.

(٤) عيون أخبار الرضا. ج٢، ص ٢٧، حديث ٢.

وتأتي هذه الفضيلة الأخلاقية ضمن سياقات مختلفة منها ما يدخل ضمن رد الجميل للآخرين إجمالًا، ومنها ما يستوجب تقديرًا لعشرة الأقربين:

الوفاء لموقف

إن كل من يسدي معروفًا مهما صغر فهو يستحق مقابلته بمعروف وإحسان أكبر. فقد تمر على الإنسان بعض الظروف الصعبة، فيجد هناك من يسدي له معروفًا، فيرتاح منه ويقدم له شكره، ويحفظ هذا الصنيع له، وإذا ما سنحت له الفرصة لرد الجميل بادر لرده، هذا هو الوفاء لموقف. ولا يهم هنا أن ننظر لمن نرد الجميل والمعروف، ولا من أي دين وتوجه هو. هذا ما نستفيده من سيرة رسول الله ﷺ فقد ورد أنه في يوم من الأيام التفت إلى حسان بن ثابت، وهو شاعر ويحفظ الشعر، وقال له ﷺ: يا حسان أنشدني شيئًا من شعر الجاهلية، فأنشد له حسان قصيدة للأعشى وهي في هجاء علقمة بن علاثة، وقد اختارها حسان لقوتها ورصانتها أدبيًا، ولكن النبي ﷺ لما عرف أنها في هجاء هذا الشخص، قال له ﷺ: يا حسان لا تنشد مثل هذا بعد هذا اليوم، فتعجب حسان: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر!، فقال: يا حسان أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى، وأن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني فنال مني، وسأل هذا فأحسن القول فيّ[١].

لقد حفظ رسول الله ﷺ هذا الموقف لرجل لا يؤمن به، اللهم إلا لكلمة حسنة قالها ذلك الرجل عنه. بل إنه كان يكافئ من أحسن إلى أصحابه، كما فعل مع وفد النجاشي القادم من الحبشة، إذ قام يخدمهم بنفسه. فقال له أصحابه: نكفيك يا رسول الله. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافيهم[٢]، مع أن الوفد القادم كانوا نصارى.

وعلى غرار ذلك ما صنعته السيدة زينب بنت علي مع النعمان بن بشير الذي عاد

---

(١) تاريخ مدينة دمشق. ج ٤١، ص ١٤٧.

(٢) البداية والنهاية. ج ٣، ص ٨٤.

بسبايا آل البيت من الشام إلى المدينة المنورة، فحينما وصلت الأسرة الهاشمية إلى المدينة، بادرت السيدة زينب فور وصولهم إلى جمع ما تبقى من حلي عند النساء والأيتام، وقدمته للنعمان نظير حسن تعامله مع الهاشميات طيلة رحلتهم(١)، وقد فعلت السيدة زينب ذلك مع علمها بأن هذا الرجل إنما كان يؤدي مهمة مكلفًا بها من قبل السلطة الأموية، إلا أنها تدرك مع ذلك أن إحسانه يجب أن لا يضيع، ولهذا كافأته. لأن مقابلة الإحسان بالإحسان في مختلف المواقف أمر يدخل في صميم الأخلاق والفضائل الإسلامية والإنسانية العليا.

الوفاء للعشرة

إذا كان الوفاء، بصفة عامة، فضيلة لا غنى عنها في التعامل مع الآخرين فهي مع الأقربين أشد إلحاحًا. إذ يعيش الإنسان مع أناس برهة من الزمن يشاركونه همومه وأفراحه، ومن أبرز أولئك الناس: الوالدان، والزوجة، والأولاد، والجيران، والأصدقاء، وما شابه، ومهما طالت المدة أو قصرت، فإن الوفاء لهم حق.

وللجيران أيضًا حق الوفاء للعشرة، حتى لو انتقل الشخص إلى منزل آخر لكن هذا لا يعفيه عن التواصل مع جيرانه السابقين، وكذلك الأصدقاء الذين يعيشون مع الإنسان فترة من الزمن ثم يفترق عنهم بسبب انتهاء مدة الدراسة أو العمل، أو بسبب سوء تفاهم أو ما أشبه، ولا يصح أن يمضي كل في طريقه وينسى ما كان من العشرة السابقة، فهذا خلاف الوفاء. إن آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين وسيرتهم توجهنا نحو هذا السلوك الأخلاقي الرفيع، بل تجد روايات توصي بأن يصل الولد أصدقاء والده: «إِنَّ مِنْ بِرِّ رجُلٍ بِأَبِيهِ أَنْ يَبَرَّ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»(٢).

الوفاء للمحسن

قد تمرّ على الإنسان محنٌ وشدائد، فيسخّر الله تعالى إليه من يُسدي له معروفًا،

---

(١) الكامل في التاريخ. ج ٢، ص ٥٧٨.

(٢) كنز العمال. ج ١٦، ص ٤٧٣، حديث٤٥٥١١. ومثله في مسلم، ص١٣٨٢، حديث١٣.

فمن الواجب حفظ هذا المعروف.

تصاب بالعجب من بعض الأشخاص حين يخبرك بأنه سافر وأصابته شدة ومحنة وأن شخصًا ساعده ووقف بجانبه، فتسأله: هل ما زلت تتواصل معه؟ فيقول: زمن مضى ولا أدري ما حاله! هذا ضعف في الوفاء، الإنسان الوفيّ هو الذي لا ينسى من طوّقه بمعروف مهما كان ذلك المعروف. ولنا في سيرة رسول الله ﷺ أسوة حسنة من مكارم أخلاقه، كان يذكر معروف من أسدى إليه معروفًا ولو كان مشركًا أو كافرًا.

في غزوة بدر حذّر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقتلوا بضعة أشخاص من المشركين، حتى ولو كانوا في صفوف العدو بالمقدار الممكن، وممن نهى عن قتلهم أبو البختري بن هشام بن الحارث، حيث قال ﷺ: «من لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله»[١]. وإنما نهى ﷺ عن قتله؛ لأنه كان أكفّ القوم عنه بمكة[٢]. هو لم يحسن لرسول الله ﷺ لكن رسول الله ﷺ يحفظ له أنه لم يؤذه مع بقية مشركي قريش.

وجاء في السيرة النبوية أن رجلًا أسود، وقيل امرأة، كان يقم ـ يكنس ـ المسجد فافتقده رسول الله ﷺ فسأل عنه، فقالوا: قد مات. فعاتب ﷺ أصحابه: «أفلا كنتم آذنتموني به دلوني على قبره أو قال على قبرها» فأتى قبرها فصلى عليها[٣].

هذه هي الشيم والأخلاق الإنسانية الفاضلة، أن تذكر وتشكر كلّ من أحسن إليك من بداية حياتك، ولا ينبغي أن يمنعك كونهم مختلفين معك في الدين أو التوجّه، كما قرأنا في سيرة رسول الله ﷺ وكيف كان يتعامل مع الكفار والمشركين ممن أحسنوا إليه أو إلى أصحابه.

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية. ج ٣، ص ٣٤٨.

(٢) تاريخ الطبري. ج ٢، ص ١٥١.

(٣) صحيح البخاري. ج١، ص١١٧، حديث ٤٥٨، وورد في رقم ١٣٣٧.

تجلّيات المروءة في شخصية الإنسان

تتجسّد الأديان السماوية من حيث الجوهر في انبعاث الصفات والمعاني الإنسانية عند البشر، أكثر من تمثلها في حزمة من الطقوس والعقائد. ومن أبرز الصفات التي تدفع التعاليم الدينية نحو تمثلها معنويًّا وسلوكيًّا هي صفة «المروءة».

والمروءة عند الفرد تعني الحالة الإنسانية في أجلى صورها، حيث تتمثل المروءة في الصفات الأساسية التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان بما هو إنسان، من أمارات الخير، وصفات الكمال.

والمروءة كما هو واضح لا تبعد كثيرًا في اشتقاقها اللغوي عن معنى المرء، أي الإنسان، فقد استخدم القرآن الكريم مفردة المرء في معادل نوعي لمفردة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وجاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، وجاءت مفردة المرء في الآيتين بمعنى الإنسان.

وتعني المروءة في جوهرها تلك الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان بمقتضى إنسانيته. تلك الإنسانية التي جاءت الأديان من أجل بعثها عند البشر. لذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا خير في دين ليس له مروءة»[1]، وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «المروءة اسم جامع لسائر الفضائل والمحاسن»[2]، كما ورد عن الإمام

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٧١، حكمة ٤٠.

(٢) المصدر نفسه. رقم ١٩٢١.

الكاظم عليه السلام أنه قال: «لا دين لمن لا مروءة له»[١]، ومضمون ذلك أن التديّن ليس مجرّد التزام أداء الطقوس والمعتقدات، وإنما هو بعث للمعاني الإنسانية في قلب الإنسان، وترجمتها إلى سلوك خارجي.

التمسّك بالدين

وهناك سلسلة من التجليات الواقعية للمروءة في حياة الأفراد، يشير الإمام الحسن بن علي عليه السلام عند سؤاله عن المروءة إلى جانب منها، بقوله عليه السلام في تعريف المروءة أنها: «شُحّ الرجل على دينه، وإصلاحه ماله، وقيامه بالحقوق»[٢]، ويتناول الشقّ الأول، أي شحّ الرجل على دينه، المدى الذي يذهب إليه الإنسان في التزام المبادئ الدينية الكبرى، باعتبارها سلوكًا أصيلًا في شخصيته، لا يمكن بأيِّ حالٍ أن يتخلى عنها تحت أيِّ ظرف، ترغيبًا أو ترهيبًا، والنأي عن المتاجرة بتلك المبادئ تبعًا لتقلب الظروف، وتغيّر اتجاه المصالح الخاصة.

ومن المعروف أنّ «الشح» في مجال المال هو انعدام الرغبة في إنفاقه، كذلك جاءت عبارة «شُحّ الرجل على دينه» في كلمة الإمام عليه السلام، بمعنى المحافظة على الدين بكلّ أبعاده وجوانبه، والحرص على عدم التفريط في الدين، على أي نحوٍ من الأنحاء، وهذا أهمّ تجلٍّ من تجلّيات المروءة.

إنّ بعض الناس لا يترددون في إبراز مظاهر التزامهم الديني، لكنهم في لحظة زمنيةٍ ما يظهرون الوجه الآخر من شخصياتهم. عندما تصطدم مبادئ الدين مع أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم، فإنّهم سرعان ما يتنازلون عن مبادئهم الدينية.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، في المقاربة بين التزام المبادئ والتفريط فيها تبعًا للمصلحة الدنيوية أنه قال: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى

---

(١) السيد البروجردي. جامع أحاديث الشيعة، ج١٦، ص٤٩٧، حديث ١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٦.

أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[١]، وهذا عين التمسّك بالدين والنأي عن التفريط في المبادئ، أمام الإغراءات والشهوات، وقال عليه السلام في كلمة أخرى: «قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ»[٢]، ومعنى ذلك أنّ صاحب الخبرة والحيلة قد يقف على ثغرات كثيرة، ربما يحقق من خلالها مصالح ذاتية، بتجاوز أوامر الله تعالى، أو الجرأة على نواهيه سبحانه، فيعرض عن تحصيل تلك المصالح وهو ليس بغافل عنها، بل عالم بها، ومدرك لقيمتها المادية التي يراها ماثلة أمامه رأي العين، لكنه في حقيقة الأمر لا يريد تجاوز أوامر الله من أجل تحقيق مصالح آنية، وهنا تحديدًا يتجلى الاختبار الحقيقي، فيما إذا كان المرء متمسكًا بمبادئه، شحيحًا على دينه، أم أنه من أولئك النهازين للمطامع، ولو على حساب دينهم ومبادئهم.

أين يتجلى الالتزام الديني؟

ومما يُذكر في هذا الشأن ما كتبه أحد المسلمين الملتزمين، بقوله إنّه تعلم الالتزام الديني من امرأة أجنبية غير ملتزمة أخلاقيًّا. ثم يشرح قائلًا إنه ارتبط بتلك السيدة في علاقة عاطفية، رغم كونه متزوجًا، وذات يوم وبينما هو معها إذ دخل وقت الصلاة، فاستأذنها مدة خمس دقائق حتى يؤدي الصلاة، فسألته تلك المرأة عما يفعل، فقال إنه رجل مسلم ملتزم، والإسلام يوجب عليه أداء الصلاة في وقتها، لذلك يريد تأدية الصلاة، يقول الرجل إنّ المرأة بادرته بالسؤال حينئذٍ، بقولها: وماذا يقول دينك في أمر خيانتك الزوجية التي أنت بصددها؟، فوقع عليه الكلام كالصاعقة، كمن كان نائمًا فاستيقظ فزعًا، فأخذ يحدّث نفسه بأن الله الذي أمر بالصلاة، هو جلّ شأنه الذي نهى عن الفاحشة، فبدأ عندها يُسائل نفسه، عما إذا كان التزامه الديني يمثل التزامًا حقيقيًّا أم أنه بخلاف ذلك.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة. خطبة ٤١.

وحقيقة الأمر أنَّ أكثر ما تظهر فيه قيمة شحّ الرجل على دينه، عندما تتراءى له مصلحة أو تلوح أمامه شهوة، أو يطمع في رغبة. فحين يراد من موظف أن يتواطأ على زميل بريء من زملائه، مقابل أن يحظى بترقية وظيفية ما، هنا يظهر حقيقة الالتزام الديني.

إنّ أحد المؤمنين عُرض عليه الحصول على نصيب وافر من قطعة أرض شاسعة، في حال شارك في الاستحواذ على تلك الأرض من غير وجه حق، فأدركه الوازع الديني، ورفض المشاركة في ذلك، فسئل عن سبب تفويته لتلك الفرصة، وما إذا كان يجهل قيمة المكسب الذي ستدره عليه تلك الأرض، فأجاب بأنه يدرك ذلك جيّدًا، لكنه يأبى أن يدخل هذا المدخل غير الشرعي، وهذا هو المعنى الحقيقي لشحّ الرجل على دينه، وهذا أحد أكثر مظاهر المروءة جلاءً.

إدارة الشأن الاقتصادي

ويتمثل التجلّي الثاني للمروءة، في التوجه إلى إصلاح الوضع الاقتصادي الخاص. فإذا امتلك الإنسان الثروة والأموال، فسيكون بإزاء امتحان جادٍّ لمروءته، من خلال إظهار حسن التصرف والتدبير الجيّد، فليس من المروءة التراخي والتكاسل في إدارة الأموال الخاصة، بتركها عرضة للضياع والاختلاس على يد الآخرين. إن الإهمال في إدارة المال الخاص أمر مخالف للمروءة، فمن لا يهتم بإصلاح ماله فإنه مفتقد للمروءة، بحسب تعبير الإمام الحسن عليه السلام، ذلك أنّ الثروات الخاصة التي حباها الله الفرد، إنما هي أمانة ينبغي إظهار حسن التصرف بها، وتجنب هدرها وتبذيرها، بما يشمل ذلك سبل استثمارها، وطرق الإنفاق منها، مما يدخل في نطاق إصلاح المال.

إنّ التعاليم الدينية التي تلزم الإنسان العقيدة الصحيحة، وتدعوه إلى العبادة المخلصة، هي التعاليم نفسها التي تطالبه بإظهار السلوك الحياتي الرشيد. إنّ تضييع الأموال نتيجة الإهمال أمر لا يدعو للفخر مطلقًا، ولن يفيد المهمل لثروته التبجح

في المجالس مفتخرًا بأن المال المهدر عبثًا لا يعني له شيئًا، فذلك خلاف المروءة.

أداء حقوق الآخرين

أمّا التجلّي الثالث للمروءة، فهو قيام الإنسان بأداء حقوق الآخرين عليه. ومن ذلك حقوق الوالدين والزوج والأبناء والجيران والعاملين المستأجرين، وحقوق سائر الناس، هذا ما يؤكّده الإمام الحسن عليه السلام كمظهر أبرز لمروءة الإنسان.

وجاء في هذا المورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا وَ يُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَ لَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ»[١]، ومما ورد في هذا الشأن ما روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «يقول الله تبارك وتعالى لعبدٍ من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانًا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[٢]. وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ»[٣]؛ لأن المطلوب أداء حقوق الناس في كلّ مجالٍ من المجالات المادية والمعنوية.

(١) نهج البلاغة، خطبة ٢١٦.
(٢) الكافي. ج٢، ص٩٩، حديث٣٠.
(٣) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٧، حديث٢.

الصبر في العلاقات الاجتماعية

يحتوي تراث الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ثراءً كبيرًا في المسألة الأخلاقيّة، لا نظير له في تراث عموم القادة الدينيّين والاجتماعيّين؛ حيث تحدّث كثيرًا عن أهميّة الأخلاق، ودورها في حياة الفرد والمجتمع، وتناول أغلب مفردات الصفات الأخلاقيّة، في جانبيّ الفضائل والرذائل، على أنّ ما وصل إلينا ليس إلّا جزءًا ممّا قاله عليه السلام، وهناك الكثير من تراثه الذي لم يصل، ومع هذا نجد ثراءً منقطع النظير في هذا التراث المنقول.

مفردة الصبر في تراث علي

احتلت «مفردة الصبر» حيّزًا واسعًا في تراثه عليه السلام، على أنّ من الضروري التنويه إلى تكامل النظريّة مع التطبيق في التراث الأخلاقيّ له عليه السلام؛ إذ نلاحظ كلامًا مع سيرة عمليّة مارسها عليه السلام.

وقد تحدّث عن مفردة الصبر في عشرات من الكلمات والنصوص؛ وأوضح أساس الصبر وجذره في شخصيّة الإنسان، حيث لخّصه بالكلمة التالية:

«أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّه»(١).

فمن يمتلك يقينًا بأنّ الله لا يفعل به إلّا الخير والصلاح، سواء أدرك المصلحة أم لم يدركها، مثل هذا الإنسان يمتلك أرضيّة كاملة لملكة الصبر.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١١٠، حكمة٢٠٧.

والصبر في رأي عليّ عليه السلام لا يعني الخنوع، وإنما هو الإرادة القويّة، من هنا نجده يقرّر أنّ: «الصَّبْرُ شَجَاعَة»[1]، قد يكون شجاعة المواجهة للمشكلة، أو شجاعة تحمّل المشكلة والتكيّف معها.

إنّ الصبر عند عليّ عليه السلام وسيلة لتجاوز المشاكل وليس الخنوع لها، من هنا قال عليه السلام: «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلَى كُلِّ أَمْر»[2].

وقال أيضًا: «وَمَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ الصَّبْرِ اهْتَدَى إِلَى مِضْمَارِ النَّصْر»[3].

إنّ كلّ مشكلة تمرّ بالإنسان سوف تنتهي وتنقضي، سواء في العاجل أم الآجل، وعليه أن يتجاوزها بأقلّ قدر من الخسائر، يقول عليه السلام:

«إِنَّ لِلنَّكَبَاتِ غَايَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهَا، فَإِذَا حُكِمَ عَلَى أَحَدِكُمْ بِهَا فَلْيُطَأْطِئْ لَهَا وَيَصْبِرْ حَتَّى تَجُوزَ...»[4].

فالصبر على أقلّ التقادير يساعد الإنسان الذي حلّت به النكبات على تخفيف تداعياتها، فـ «بِالصَّبْرِ تَخِفُّ الْمِحْنَة»[5] كما يعبّر عليه السلام في كلمة أخرى بقوله: «الصبر يهوّن الفجيعة»[6].

حقيقة الصبر

لكن علينا أن نعرف معنى الصبر في كلمات الإمام عليه السلام؟

يجيب الإمام بذكر وصفين أساسيّن لهذه المفردة، كما ورد في النصّ المرويّ

---

(١) نهج البلاغة. ص٤٩٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٤٠، حكمة ١٠٨٣.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٧٩.

(٤) تحف العقول عن آل الرسول. ص٢٠١.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٦٥، حكمة٧٢.

(٦) المصدر نفسه. ص٤٠، حكمة١٠٩٣.

عنه: «الصَّبْرُ أَنْ يَحْتَمِلَ الرَّجُلُ مَا يَنُوبُهُ وَيَكْظِمَ مَا يُغْضِبُهُ»(١).

ولا شكّ أن المقصود من الرجل في هذا النصّ هو الإنسان ذكراً وأنثى، ومرام هذا الحديث هو الإشارة إلى ضرورة أن يتحمّل الإنسان النوائب التي تلمّ به، كشرط لوصفه بالإنسان الصبور، وليس هذا فحسب، بل عليه ألّا ينفعل مع الشيء الذي يغضبه بردّ فعل وممارسة انتقامية.

أقسام الصبر وأنحاؤه

إنّ الصبر عند عليّ عليه السلام على أنحاء كما ورد عنه حيث قال: «الصبر إمّا: صبر على المصيبة، أو على الطاعة، أو عن المعصية، و هذا القسم الثالث أعلى درجة من القسمين الأولين»(٢).

لكن يبقى السؤال عن كيفيّة فاعليّة الصبر عند الإنسان، فهل هو حالة تكوينية، أو مزاجيّة لا ترتبط بالمقوّمات والاستعدادات التي يهيئها الإنسان في نفسه، أم أنّ الفضائل الأخلاقيّة ـ ومنها الصبر ـ أمور كسبيّة؟

أجاب الإمام عليه السلام في كثير من النصوص بأنّ الأخلاق أمر كسبيّ، يمكن للإنسان أن يكتسبها ويتدرّب عليها، فقد قال عليه السلام: «عَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ»(٣).

و عنه عليه السلام: «عَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ؛ وِنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ»(٤).

وعنه عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّبْرِ التَّصَبُّرُ»(٥).

فعلى الإنسان أن يعيش حالة التصبّر، وإن كان يعيش مرارة الألم والمضض؛ فهذا من أفضل أنواع الصبر؛ لأنه يُعزّز هذه الملكة والخلق في نفسه.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٩، حكمة١٠٥٩.
(٢) ابن أبي الحديد. شرح النهج، ج١، ص ٣١٩.
(٣) وسائل الشيعة. ج ١٥، ص ٢٦٣، حديث ٢٠٤٥٦.
(٤) نهج البلاغة. كتاب٣١.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١١٤، حكمة٣٥٥.

الصبر الاجتماعيّ حالة متألقة

هناك صبر يرتبط بالشأن الذاتي والشخصيّ كما في حال المرض والخسارة، والمشاكل التي ترتبط بذات الإنسان؛ وهناك صبر أهمّ هو الصبر الاجتماعيّ، بأن يتحلّى الإنسان بالصبر في علاقاته مع الآخرين، وهذا هو الامتحان الكبير الذي وضعه الله سبحانه وتعالى أمام الإنسان في هذه الحياة، كما أشارت لذلك الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[سورة الفرقان، الآية: ٢٠].

فالامتحان الحقيقيّ الذي يمرّ به الإنسان هو في علاقاته مع زوجه وأبنائه ووالديه وجيرانه، ومن يحيط به في مختلف دوائر الحياة، والمؤسف أنّ بعض الناس لا يملكون صبرًا في علاقاتهم الاجتماعيّة؛ فحينما يواجهون مشكلة في علاقاتهم الأسريّة، تراهم لا يصبرون، ولا يتحمّلون المشكلة، حتى وإن كانت طفيفة، وكذا مع جيرانهم والمحيطين بهم، لذلك جاءت النصوص من أجل تأكيد أهميّة الصبر في مجال العلاقات الاجتماعيّة.

ومن باب المثال نلاحظ العلاقات الأسريّة بين الزوج وزوجه، فإنّ الإنسان يحتاج فيها إلى مستوى من الصبر، بحيث يتمكّن خلاله من استيعاب بعض المشاكل من شريكه الآخر؛ فالزوجة في نهاية المطاف بشر ينتابه ظروف ومزاج وحالات مختلفة، ولا تمتلك مواصفات حسب الطلب والمقاييس التي يطلبها الزوج، كأيّ سلعة توفّرها الأسواق، بل إنّ الزوجة التي تتوفّر وفقًا للطلب والمواصفات الخاصّة، قد لا تستمر بمواصفاتها، وذلك لتغيّر مزاج الزوج نفسه في بعض الأحيان، تبعًا لظروف الحياة؛ والأمر كذلك بالنسبة للزوج فهو إنسان له ظروفه ومزاجه، وعلى المرأة أن تستوعب بعض الأحداث التي تحصل في هذا السياق، وتضعها في موضعها المناسب لها، من هنا وردت نصوص حول الصبر بين الزوجين، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا أَعْطَى أَيُّوبَ عليه السلام عَلَى بَلَائِهِ؛

وَمَنْ صَبَرَتْ عَلَى سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا أَعْطَاهَا اللَّهُ مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ»[١].

والأمر كذلك بالنسبة إلى الجار؛ فعلى الإنسان أن يصبر في العلاقة معه، كما ورد عن الإمام الصادق ﷺ: «لَيْسَ حُسْنُ الْجِوَارِ كَفَّ الْأَذى، وَلكِنَّ حُسْنَ الْجِوَارِ صَبْرُكَ عَلَى الْأَذى»[٢].

إنّ الصبر في العلاقات الاجتماعيّة مهمٌّ جدًّا، وخاصة لمن يعمل في الشأن الاجتماعيّ؛ حيث يوجد في كلّ مجتمع أناس متطوعون في الميدان الاجتماعيّ، على اختلاف مجالاته، من دينيّ وثقافيّ وخيريّ وسياسي، ومن يعمل في هذا الميدان يحتاج إلى دروع من الصبر والتحمّل؛ لأنّ المجتمع الذي يتعامل معه فيه طبقات مختلفة، من جهلة ومخادعين وطامعين وحاسدين ومخالفين في الرأي، وعلى الإنسان الذي يشتغل في هذا الميدان أن يتحلّى بالصبر.

والملاحظ أنّ بعض من يدخل هذا الميدان بروح مندفعة، لا يلبث أن ينكفئ على نفسه ويتراجع، بمجرد أن تطرأ أمامه مشكلة في الطريق؛ لعدم امتلاكه ثقة في نفسه؛ فإن الانكفاء والانزواء من العمل الاجتماعيّ ليس فخرًا فهو في متناول الجميع، بل الفخر هو القيام بالدور والمسؤوليّة الاجتماعيّة، والتحمّل في مواجهة الصعوبات، والصبر عليها.

الصبر العلويّ نظريّة وتطبيق

حينما يقرأ الإنسان سيرة عليّ ﷺ، يشعر بمدى المضاضة والألم والعناء الذي تحمّله أمير المؤمنين ﷺ في الصبر على المجتمع الذي كان يعيش فيه، فلم نقرأ في سيرته ﷺ، إساءة من جهته بحقّ أحدٍ، بل كان ديدنه خدمة الناس ونفعهم، وهو الذي أشاد الدين، وبنى كيان المجتمع الإسلامي مع نبي الرحمة ﷺ، هذا المجتمع الذي ضحّى عليّ من أجل أن يقوم كيانه، لم يجازه سوى الألم وغصّات المعاناة.

---

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص٢١٣ـ٢١٤.

(٢) الكافي. ج٢، ص ٦٦٧، حديث٩.

قال عليه السلام في إحدى كلماته: «فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا»[١].

وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَار»[٢].

لقد كان عليٌّ مهيّأً لهذا الأمر، ولم يكن متفاجئًا مما حدث وحصل معه، ولم يصدم بالطريقة التي واجهها به هذا المجتمع من نكران الجميل، بل كان عليٌّ ملمًّا بهذه النتيجة من أول الأمر، حيث أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله بما سيواجهه من عناء ومشكلات، كقوله صلى الله عليه وآله له ذات مرة: «إنّ الأُمّة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملّتي، وتقتل على سنّتي. من أحبّك أحبّني، ومن أبغضك أبغضني. وإنّ هذه ستخضب من هذا ـ يعني لحيته من رأسه ـ »[٣].

و«رَوَى سَدِيرٌ الصَّيْرَفِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: اشْتَكَى عَلِيٌّ شِكَايَةً فَعَادَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَسَأَلَهُمَا: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا؟

قَالا: عُدْنَا عَلِيًّا.

قَالَ: كَيْفَ رَأَيْتُمَاهُ؟

قَالا: رَأَيْنَاهُ يُخافُ عَلَيهِ مِمَا بِهِ.

فَقَالَ: كَلَّا! إِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يُوَسَّعَ غَدْراً وَبَغْياً، وَلَيَكُونَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِهِ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي»[٤].

فقد أراده الله تعالى قدوة ونموذجًا في تحمّل المشاكل والألم في ميدان العمل الاجتماعي، ففي رواية عن أنس بن مالك: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فمرّ بحديقة،

(١) نهج البلاغة، خطبة ٣.

(٢) المصدر نفسه. خطبة ٢١٧.

(٣) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص ١٥٣، حديث ٤٦٨٦.

(٤) بحار الأنوار. ج٣٤، ص٣٣٧ـ٣٣٨.

فقال عليّ ﵇: ما أحسن هذه الحديقة! قال: حديقتك فى الجنّة أحسن منها. حتى مرّ بسبع حدائق، كلّ ذلك يقول عليّ: يا رسول الله، ما أحسن هذه الحديقة، فيردّ عليه النبيّ ﷺ: حديقتك في الجنّة أحسن منها.

ثمّ وضع النبيّ ﷺ رأسه على إحدى منكبي عليٍّ فبكى، فقال له عليّ: ما يُبكيك يا رسول الله؟ قال: ضغائن فى صدور أقوام لا يُبدونها لك حتى أفارق الدنيا.

قال عليّ ﵇: فما أصنع يا رسول الله؟ قال: تصبر. قال: فإن لم أستطِع؟ قال: تلقى جميلًا. قال: ويسلم لي ديني؟ قال: ويسلم لك دينك»[1].

من هنا فعلى الإنسان الذي يعمل في الجانب الاجتماعيّ، أن يقرأ معاناة عليّ بن أبي طالب ﵇ حينما تواجهه الصعوبات والمشاكل، ليرى طبيعة المعاناة التي واجهها هذا الإمام ﵇ حتى قال: «لَقَدْ ظُلِمْتُ عَدَدَ الْحَجَرِ وَالْمَدَر»[2].

وعنه ﵇: «مَا لَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَا لَقِيتُ»[3].

فقد واجه ما واجه حتى وهو في موقع الخلافة والحكم، وقد كشف عن هذا الأمر في خطبة له ﵇ ذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة جاء فيها: «وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي...»[4].

إنّ كلمات عليّ هذه تُدمي وتؤلم القلب، حتى نراه من شدّة معاناته يقف أمام أصحابه، ليسجل سطورًا مليئة بالحسرة والألم والخيبة، مما عاناه من المحيطين به...«لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ

---

(١) تاريخ دمشق. ج٤٢، ص ٣٢٣.

(٢) المفيد. الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، ص١٢٤.

(٣) بحار الأنوار. ج٣٤، ص٦٣.

(٤) نهج البلاغة. خطبة ٩٧.

أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ...»[١].

وهكذا حتى كتب الله له الشهادة في محراب صلاته، على يد شخص طالما غمره عليّ عليه السلام بإحسانه ولطفه، واستمر في إبداء الشفقة عليه حتى بعد جريمته وعدوانه، حيث كان عليّ عليه السلام على فراش مرضه يوصي أبناءه بالإحسان إلى قاتله عبد الرحمن بن ملجم «أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشتُ رأيت فيه رأيي، وإن أنا متّ فاضربوه ضربة لا تزيدوه عليها»[٢].

(١) نهج البلاغة. خطبة ٢٧.

(٢) الموفق بن أحمد الخوارزمي. المناقب، ص ٣٨٨ ـ ٤٠٣.

التعافي من الحقد والضغينة

بناء مكارم الأخلاق هدف أساس للشرائع السماوية. لذلك احتلّ هذا الموضوع المساحة الأكبر ضمن النصوص الدينية وجهود القادة الدينيين، ولعلّ مراجعة عابرة لمختلف الكتب الدينية المقدسة، ووصايا الأنبياء والأئمة، تكشف لنا مدى التركيز الغالب فيها على الجانب الأخلاقي، ليس هذا وحسب، وإنما عمدت الشرائع السماوية إلى توظيف الجانبين الآخرين فيها، أي العقائد والعبادات، لتعزيز الجانب الأخلاقي.

وإذا كانت مكارم الأخلاق هي أساس الشرائع السماوية فإنّ أساس الأخلاق تزكية النفس. ومعنى تزكية النفس هو النأي بها عن شوائب الانحراف والتوجّهات السلبية، وبناء المشاعر الإيجابية تجاه الناس، وهذا في مجمله هو الأمر الأساس على المستوى الأخلاقي.

ذلك أنه إذا كانت نفس الإنسان عامرة بالمشاعر الإيجابية تجاه الناس، فإنّ ذلك يهيئها لكي تتعامل معهم تعاملًا حسنًا، أمّا إذا كانت نفس الإنسان تطفح بالمشاعر السلبية، فإنّ ذلك يدفعه بطبيعة الحال للتعامل السيئ مع الآخرين. وبذلك تكون مشاعر الإنسان وأحاسيسه الداخلية تجاه الناس هي الأمر الأساس والمهم، فكلّما كانت المشاعر إيجابية كان المرء أقدر على التعامل الإيجابي معهم، وعلى النقيض من ذلك إذا كانت المشاعر سلبية، فإنّ ذلك يهيئ النفس للسلوك السّلبي تجاههم.

مرض الحقد

إنّ من الأمراض الخطيرة التي تصيب نفس الإنسان مرض الحقد. وقد أشار إلى ذلك الإمام الحسن العسكري عليه السلام حين قال: «أقلُّ الناس راحةً الحقود»[١]، وتنبع خطورة الحقد لما ينعكس من أعراضه المرضية على المرء نفسه أوّلًا، وما ينعكس على علاقته بالآخرين ثانيًا.

وقد تحدثت نصوص دينية كثيرة عن مشكلة الحقد، وفي التعريف اللغوي قال ابن منظور في معنى الحقد إنّه إمساك العداوة في القلب، والتربص لفرصتها، والحقد هو الضغن، بحيث يحمل المرء الضغينة في نفسه على الآخرين.

إنّ من الدارج في العلاقات الاجتماعية، أن يواجه المرء أحيانًا ما يسوؤه من الآخرين، سواءً الأقربين أو الأبعدين. ومن ثم، يأتي السؤال عن الأسلوب الأمثل للتعامل مع التصرفات المزعجة من طرف أولئك؟

والجواب عن ذلك: إنّ التعامل الأفضل مع التصرفات المزعجة هو الصفح والتجاهل والتجاوز، واعتبار تلك التصرفات وكأنها لم تكن أصلًا، غير أن هذا المستوى من التعامل ربما عُدّ مرتبة أخلاقية عالية لا يرقى لها كلّ أحد.

وهناك مرتبة أخرى وهي التي تقتضي التعامل مع الموقف بقدره وفي حينه، فلو أسيء لشخص من الأشخاص في مجلس ما على سبيل المثال، ورأى المعتدَى عليه أن يرد الإساءة، فليكن التعامل مع الموقف في حينه ولتنتهي المسألة فور ذلك.

إلا أنّ هناك أشخاصًا لا يكفيهم التعامل مع الموقف في حينه، وإنما تبقى المشكلة، ويبقى موقف الإساءة ماثلًا في نفوسهم، بل ويتحول إلى مخزون نفسي من العداوة والكراهية، وهذا تحديدًا ما يُعبّر عنه بالحقد.

ولعلّ خطورة هذا المرض تكمن في تحوّل الاستياء من أيِّ شخص إلى كراهية

---

(١) تحف العقول، ص٤٨٨.

تجاهه، ثم تتحول تلك الكراهية شيئًا فشيئًا إلى عداوة، وقد يعقب العداوة التحول إلى سلوك انتقامي. من هنا، فالحقد هو الإبقاء على المشاعر السلبية تجاه الآخرين.

وفي هذا السياق ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «حقد المؤمن مقامه ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئًا»[1]. ومقتضى رواية الإمام عليه السلام أنْ إذا سمع المرء ما يزعجه، فإنه ربما تأذى نتيجة ذلك، ولربما اندفع نحو الردّ على مصدر الإساءة، لينتهي الموقف ضمن هذا الحدّ وإلى غير رجعة. غير أنّ ما يجري لدى بعض الناس أنّ الأمر لا يكاد ينتهي عندهم مدى الحياة، فلو تعرّض إليه أحد في موقف ما، فلربما احتفظ بذلك إلى ما شاء الله، ولربما تحوّل الأمر إلى ثأر شخصي متجدّد بين الحين والآخر، ومن العجب أن يحتفظ المرء بسجل خاص في نفسه يخزّن فيه مختلف المؤاخذات على المحيطين به، لا يزول على مدى الأعوام. والأعجب من ذلك أن هناك من يُدرّبون أنفسهم بالممارسة على حفظ المواقف المسيئة للآخرين، فهم بذلك ينشئون في أنفسهم جبالًا من الأحقاد على الآخرين.

تخزين المشاعر السلبية

إنّ الإبقاء على الأحقاد والمشاعر السلبية إزاء الآخرين مسألة مؤذية للنفس بالدرجة الأولى. ذلك أنّ نفس الإنسان مجبولة على الارتياح عندما تنعكس في داخلها المشاعر والصور الإيجابية والذكريات الجميلة، وعلى النقيض من ذلك تشعر بالانزعاج عند استعادة المواقف المؤذية، من هنا يصبح الإبقاء على المشاعر السلبية تجاه الآخرين، هو بحدّ ذاته مبعث أذى وانزعاج للإنسان. وكلّما استطاع المرء أن يمحو المشاعر السلبية من نفسه، فسيكون ذلك مبعث راحة له، ويكون أقدر على التعامل الإيجابي مع الآخرين.

وقد حذّرت العديد من النصوص الدينية من الوقوع في براثن الحقد. فقد ورد عن

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٢١١، حديث ٧.

أمير المؤمنين قوله عليه السلام: «سبب الفتن الحقد»[١]، فالإنسان الحاقد على الآخرين، يُبرّر لنفسه مختلف الارتكابات بحقهم، ولا يرى بأسًا في سوق الكلام السيئ ضدهم، واستغابتهم، وازدرائهم، واتخاذ مختلف المواقف السلبية تجاههم، وبذلك يتحول هذا الحقد إلى دافع للفتن والمشاكل. كما ورد عنه عليه السلام أنه قال: «طيّبوا قلوبكم من الحقد فإنه داء موبئ»[٢]، وجاء في رواية أخرى عنه عليه السلام: «من اطّرح الحقد استراح قلبه ولبّه»[٣]، وقال عليه السلام: «الحقود معذّب النفس متضاعف الهمّ»[٤]، أي إنّ هموم الحقود عادة ما تكون في ازدياد مستمر.

إنّ على المرء أن يتجنب استحضار الأقوال والمواقف المسيئة التي يمرّ بها سواء مع المحيطين به أو البعيدين عنه. فمن غير المناسب استحضار الزلات والأخطاء التي ربما وقع فيها أو ارتكبها أحد الزوجين بحقّ الآخر، وكذلك الشأن مع أفراد العائلة أو الأصدقاء، فالواجب أن يتجاوز المرء جميع ذلك، ولا يستحضره بين الفينة والأخرى، وبعبارة أخرى، ينبغي لنا أن نتجنّب الاحتفاظ بأرشيف لأخطاء الآخرين في نفوسنا!، لأنّ تداعيات هذا الأمر ستكون مؤذية لنا بالدرجة الأولى.

للتخلص من الأحقاد

وبإطلالة على النصوص الدينية نجدها تورد جملة من الوصايا للتخلص من مرض الحقد.

ومن أولها، التزام المكاشفة والمصارحة، فلا ضير من الاستفسار ومعاتبة من يرتكب الخطأ، فلربما كان لديه مبرّر ما، دفعه للتصرف على النحو الذي جرى، ولعله بذلك يسحب كلامه ويتراجع عن خطئه، لينتهي الموقف وتطوى بذلك المشكلة،

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٢٢٥، حكمة ٢١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٢٤٩، حكمة ٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٠، حكمة ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩، حكمة ٦٥٦.

وقد ورد في هذا الشأن عن الإمام الهادي عليه السلام قوله: «العتاب خير من الحقد»[١]، فالانفتاح ومعاتبة الطرف المخطئ أفضل بكثير من حمل الأحقاد عليه.

أمّا الوصية الثانية فهي التقارب واتخاذ المبادرات الإيجابية من الطرف الآخر، لغرض امتصاص الاحتقان، وتبريد نقاط التوتر، فقد ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «تصافحوا يذهب الغلّ، وتهادوا تحابّوا وتذهب الشحناء»[٢]، وذلك على النقيض مما يقوم به بعض الناس حيث يعمدون للابتعاد عمّن يختلفون معهم، ولا يبدون رغبة في مقابلتهم، بل يتجنبون مصافحتهم، حتى لو جمعهم مجلس واحد، ولا معنى لجميع ذلك إلّا الرغبة والإصرار على عداوة الآخرين، والاحتفاظ بسخونة الخلاف معهم، وهذا خطأ كبير.

أما ثالث الوصايا للتخلص من مرض الحقد، فهي الامتناع عن الاستماع إلى النميمة، ورفض النقولات المنسوبة للآخرين، ذلك لأنّ الكثير من الأحقاد تنشأ نتيجة النميمة، كأن يأتي من يقول لك إنّ فلانًا قال فيك كذا وكذا، من هنا ينبغي للمرء ألّا يُصغِي للنقولات، ولا يستجيب لتأثيراتها على نفسه، وضمن هذا السياق نفهم التحريم الشرعي للنميمة، وكما نقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «من نَمَّ لك نَمَّ عليك»[٣].

إنّ من الخطأ الاعتقاد بأنّ من يأتون بالنميمة هم أناس محبّون ومدافعون. بل العكس غالبًا هو الصحيح، فمن يعمد لجلب طعون الآخرين فيك، إنما يزيدك همًّا وغمًّا، فهو أشبه ما يكون بمن يأتيك بالقمامة والأوساخ عند بيتك، والنميمة والكلام السيء لا يقلّ نتانة عن القمامة، فلا ينبغي بأيِّ حالٍ أن نرتاح لها.

وقد ورد عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأصحابه: «لا يُبْلِغْنِي

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٥ ص٣٦٩، حديث ٤.

(٢) الإمام مالك. كتاب الموطأ، ج٢، ص٩٠٨، حديث ١٦.

(٣) سير أعلام النبلاء. ج١٠، ص٩٩.

أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[1]، وفي هذا النهج النبوي درس كبير لنا جميعًا.

تبادل الأحقاد بين الجماعات

من هنا، نحن أحوج ما نكون للتربية على المحبّة ونبذ الكراهية. ومن المؤسف جدًّا أن تتحول الكراهية من نطاق الأفراد إلى نطاق الجماعات، حيث تعمد كلّ جماعة على تربية أبنائها وأتباعها على الحقد على الجماعات الأخرى، فينشأ الصغير وتنشأ معه الانطباعات السلبية عن الآخرين، فيحقد عليهم وهو بعد لم يتعاطَ معهم يومًا، ولم يصله سوء منهم أبدًا، اللّهم إلّا النشأة ضمن بيئة درجت على زرع الأحقاد والضغائن في نفسه ضدّ الأطراف الأخرى، لاعتبارات الاختلاف المذهبي، أو الاتّجاه السياسي، أو لأيِّ قضية خلافية أخرى. ومن اللافت أنّ هذه الأضغان سرعان ما تتبخر عندما تتاح الفرصة للقاء المباشر والعيش المشترك مع المختلفين، بعد أن كان يحكمها الحذر والريبة، كما تفيد بذلك تجارب كثير من الناس.

إنَّ زراعة الأحقاد والضغائن في النفوس هي أسوأ ما يمكن أن تمر به المجتمعات، لذلك ينبغي أن نربّي أبناءنا على محبّة الآخرين، ومن الخطأ الفادح التعلّل بسلوك الآخرين في زرع الأحقاد والرد عليهم بالمثل، فلا ينبغي الانسياق خلف هذا المسلك، فالدين والمبادئ والأخلاق توجّهنا إلى المسلك الآخر، القائم على محبة الآخرين، وحسن الظن بهم، والرغبة في التقارب معهم.

تجاوز الأحقاد

إن من أسوأ الأمراض التي تعلق بقلب الإنسان هي الغلّ وحمل الأحقاد على الآخرين. والغِلّ بكسر الغين هو الحقد، والغُل بضم الغين هو القيد، هذا الغل والحقد الذي قد يعلق بقلب الإنسان مدعاة لأن يتعاهد المرء قلبه بالتطهير بين آونة وأخرى، حتى تزول عنه هذه الشوائب، تمامًا كما يتعاهد جسمه وملبسه بالنظافة

(١) سنن أبي داوود. ج٥، ص ٢٩٩، حديث ٤٨٦٠ (٤٨٢٧).

وإزالة الأوساخ. فمن المعلوم أن المرء يهتم بإزالة الأوساخ لسبب ذاتي مرتبط به؛ لأن القاذورات والأوساخ بطبيعتها تثير اشمئزازه، كما قد تسبب له أضرارًا صحية، إضافة إلى ارتباط ذلك بعلاقته بالآخرين؛ لأن وجود الأوساخ على جسم الإنسان أو ثيابه ومكانه ينفّر الآخرين منه، بينما النظافة والأناقة تكون عامل جذب وارتياح.

إن امتلاء القلب بالغلّ والأحقاد على الآخرين هو أسوأ من اتساخ الجسم بالقاذورات.

دواعي التخلص من الحقد

هناك أسباب ثلاثة تدعو الإنسان للاهتمام بإزالة الغلّ والحقد عن قلبه:

١. الغلّ عبء على قلب الإنسان

يسبب وجود الغلّ في نفس الإنسان عبئًا ثقيلًا عليه، فإذا كان عندك ضغينة على أحد فإنك تشعر تلقائيًا بثقل على نفسك، وهذا أمر وجداني، فتراك تستفز فورًا حينما تلتقي ذلك الشخص أو يذكر أمامك، أرأيتم الإنسان الذي يتحسس من بعض الأطعمة والروائح، فتبدو على جلده مظاهر الحساسية حين يقترب منها؟ كذلك الإنسان الذي في قلبه حقد على أحد من الناس، فإنه يأخذ طريقه على قسمات وجهه وطبائعه.

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الغلّ داء القلوب»[1]، ومعنى ذلك أنه مرض حقيقي، يضرب وجدان المرء، وعنه عليه السلام: «من اطّرح الحقد استراح قلبه ولبه»[2]، وعنه عليه السلام: «الحقود معذب النفس متضاعف الهم»[3] فعلى الإنسان أن ينظّف قلبه من الأحقاد، ويلقي عن نفسه أعباء الغلّ لمصلحته الذاتية.

---

(١) عيون المواعظ والحكم، ص٣٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٣٠، حكمة٢٤١.

(٣) عيون المواعظ والحكم، ص٥٩.

٢. الغلّ يعقّد العلاقة مع الآخرين

إن امتلاء قلب الإنسان بالأحقاد مدعاة لسوء العلاقة مع الآخرين. فالحقد هو سبب كثير من الاعتداءات، فحينما يحقد أحدهم على شخص فإنه يسيء الظن به، كما يدفع الحقد إلى الغيبة، فالحاقد على شخص من الأشخاص عادة يذكره بما يكره، ويجعل حقده سببًا لتتبع عيوب ذلك الطرف، وأخيرًا فإن الحقد سبب لجميع أشكال العدوان المادي والمعنوي. لذلك على الإنسان أن يطهر قلبه من الأحقاد حتى يستريح من هذه الأثقال التي قد تدفعه للعدوان والجور على الآخرين.

٣. الحقد مخالف لرضا الرب

يُعدّ امتلاء القلب بالأحقاد على الآخرين مخالفًا لرضا الربّ سبحانه وتعالى. فالإنسان الذي يكون قلبه مثقلًا بالأحقاد والأضغان بعيد عن الله تعالى، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام كلمة رائعة جاء فيها: «من خلا عن الغلّ قلبه، رضي عنه ربه»[1]. فالإنسان بمقدار ما يحمل من أحقاد يخسر الثواب والحسنات التي يكسبها من عمل الخير الذي يؤديه، من صيام وصلاة وعبادات وأعمال البر، فالحقد يذهب بهذه الحسنات أدراج الرياح. ورد عن الإمام علي عليه السلام: «الغلّ يحبط الحسنات»[2]، ومقتضى ذلك أن الأعمال الفاضلة التي تؤديها لا تذهب إلى حسابك في بنك الحسنات، بسبب الأحقاد والأضغان. لذلك على الإنسان أن يتعاهد قلبه دائمًا وأبدًا وأن ينظفه من الأحقاد على الآخرين، حتى ينال رضا الربّ.

الخلاف لا يبرر الحقد

إن بروز الخلافات بين الناس أمر طبيعي، لكنه لا يجوز أن يكون سببًا لحقد دائم ومستحكم. فحصول الخلافات وسوء التفاهم يكاد يكون من طبيعة البشر، ولكن على الإنسان ألّا يبقي آثار أي مشكلة في قلبه على نحو دائم. وفي هذا المقام هناك

---

(١) عيون المواعظ والحكم، ص٤٦٢.

(٢) المصدر نفسه. ص٤٠.

رواية عن الإمام الصادق ﷺ ورد فيها: «حقد المؤمن مقامه، ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئًا»[١]، ويشير مضمون الرواية إلى أصحاب النفوس السامية عندما تثور بينهم مشكلة ما مع آخرين، فإن انفعالهم لا يجاوز لحظات الغضب في وقتها، فإذا ما قام من مقامه فإنه ينسى كل ما حدث، ويعود كأن شيئًا لم يكن.

إن مما يؤسف عليه أنك تجد بعض الناس تمر عليه الشهور والدهور، وهو يحمل في نفسه آثار مشكلة ما عرضت له، فيتركها تأخذ من نفسه مأخذها، والأسوأ من ذلك ما يجري أحيانًا من توارث للأحقاد والعداوات من الآباء إلى الأبناء، وذلك بخلاف التعليمات والأخلاق الدينية.

وبنظرة سريعة على آي الذكر الحكيم في شأن الطلاق على سبيل المثال، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، ومقتضى ذلك أن وقوع الطلاق بين الزوجين وتفارقهما لا ينبغي أن يكون سببًا للحقد عند الطرفين، أو أن ينسحب إلى عوائلهما، بل على النقيض من ذلك، ينبغي أن يكون الانفعال نتيجة المشكلة محصورًا ومحدودًا بزمن ولحظة المشكلة، فلا ينبغي أن يطول أكثر من ذلك. وجاء في رواية أخرى عن الإمام الصادق ﷺ: «المؤمن يحقد ما دام في مجلسه، فإذا قام ذهب عنه الحقد»[٢].

لا حقد عند أهل الجنة

إن أهم صفة يتحلى بها أهل الجنة هي نزع الغلّ والأحقاد من نفوسهم وصدورهم. يقول الله تعالى متحدثًا عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، ومعنى ذلك، وفقًا لبعض المفسرين، أن لا أسباب للأحقاد بين أهل الجنة، فيعيشون في سلام وأمان، في حين ذهب مفسرون آخرون إلى أنه وقبل دخول

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢١١، حديث٧.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول، ص٣١٠.

الناس الجنة تكون هناك محاسبة وتصفية من الأحقاد، فيقتص الناس من بعضهم بعضًا، وقد وردت في ذلك روايات ومنها عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[1]. من هنا لا ينبغي للإنسان أن يخسر أعماله بسبب الأحقاد والضغائن تجاه الآخرين، ومن منا يحتمل حساب ذلك اليوم؟ أو يعرّض نفسه لطول الحساب؟ فالسعيد من نقى نفسه في الدنيا ليقيها في الآخرة من شدة ذلك الموقف.

كيف نتجاوز الأحقاد؟

أولًا: لا بُدّ وأن نتطلع إلى تجاوز هذه الحالة وأن نسعى في ذلك. فكما نفكر في تنظيف الأبدان والأماكن والملابس، فلنفكر جديًا في تنظيف نفوسنا وقلوبنا من هذه الأوساخ، والآية الكريمة حينما تأتي بصيغة الدعاء: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فذلك من أجل تكريس هذا التطلع حتى يصبح هدفًا نسعى لتحقيقه، وإيحاءً ذاتيًا عند الإنسان بأن يساءل نفسه حول أمد هذا الحقد ضد الآخرين. فالتطلع للتخلص من الأحقاد أمر مهم جدًا في تجاوز هذه الحالة.

ثانيًا: أن يتفادى المرء الخصومات مع الآخرين بالقدر الممكن.

ثالثًا: السعي للمصالحة مع المخالف، ومن يحمل أو نحمل تجاهه موقفًا سلبيًا. فما يحصل في بعض الأحيان أن يحمل المرء ضغينة على أخيه بناء على كلام منقول عنه، ولعله حين يذهب إليه ليتبين الأمر، يجد أنه لم يقل ذلك، أو لعله كان يقصد شيئًا آخر غير الذي فسّر به، وقد يعتذر عمّا بدر منه، لكن بعض الناس لا يرغب في ذلك كله، كما لو كان يرغب في استمرار التشاحن

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الرقاق، ج٤، ص٢١٧، حديث٦٥٣٥.

والحقد مع الآخرين. بادر أنت، وإن لم يأتِ هو فلتكن أنت أسمى وأنبل، اذهب وعاتبه كما ورد عن الإمام الهادي عليه السلام: «العتاب خير من الحقد»[١].

كيف ننزع الغلّ من الصدور؟

كل إنسان في علاقاته البينية مع الآخرين، قد يحصل له ما يثير انزعاجه، ويصيبه بالاستياء، وذلك بسبب اختلاف الرأي، أو تضارب المصالح، أو تفاوت الأمزجة، وهذا أمر طبيعي. فالإنسان كتلة من العواطف والمشاعر، ومن طبيعته التأثر بما يمر عليه من مشاهد ومواقف، فليس المطلوب من الإنسان أن يكبت مشاعره وأحاسيسه، لكن المطلوب هو السيطرة على هذه المشاعر، والتحكم في ردة الفعل، والمدى الزمني لتفاعله مع أمر ما. كما أن عليه السعي لحل أي مشكلة تنشب بينه وبين الآخر قريبًا كان أو بعيدًا.

على الإنسان ألّا يغفل عن أي مشكلة تكون بينه وبين الآخرين، فقد تؤدي إلى مضاعفات سيئة، من صالحه أن يسعى لحلها، وليس من الصحيح أن يكون راغبًا في استمرارها.

العقل والشرع يدفعان الإنسان لمعالجة مشاكله مع الآخرين، وأن يبادر لحلها «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٢] كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومطلوب من الإنسان ألّا يثقل قلبه ونفسه بمشاعر العداء طويلًا. انزعاج الإنسان من شخص ما أو جهة ما يسبب له عبئًا ثقيلًا على نفسه. نسيان موضوع المشكلة خير للإنسان نفسه، سيّما إذا مرّ عليه زمن، ومن نعم الله تعالى على الإنسان نعمة النسيان في مثل هذه الموارد، يتفاعل مع أي مشكلة تمر عليه ولكن بمرور الزمن ينساها أو تخف وطأتها على نفسه.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٦٩.

(٢) صحيح البخاري. ج ٧. ص ١٢٨.

الأحقاد أغلال القلوب

بقاء الأحقاد في نفس الإنسان يحولها حسب تعبير القرآن الكريم إلى (غِل)، والغل بالكسر، كما يقول اللغويون، مصدر غلَّ يغِلُّ، وهو مأخوذ من مادة غلل، التي تعني تخلل شيء وثبات شيء، أي تسرب شيء ما إلى مكان ما، ومن ثم يثبت فيه. وحينما يتسرب الحقد إلى نفس الإنسان ويستقر فيها ويتعزز يسمى (غل)، وهو الضغن يبقى في نفس الإنسان، أو الحقد الكامن في الصدر. الله تعالى يقول عن المؤمنين أنهم يطلبون منه عز وجل أن يزيح عن قلوبهم الأحقاد والأضغان، ربنا ﴿لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تترك الحقد يبقى في قلوبنا، فيتحول إلى غلّ على أي فرد ينتمي إلى نفس الدائرة التي ننتمي إليها وهي الإيمان.

البذاءة والفحش منطق اللؤماء

حينما يتكلم الإنسان فإنه يرسل صورة عمّا يجول في ذهنه وما يدور في نفسه، فاللسان ليس إلا ترجمان وحكاية عمّا في خاطر الإنسان، الكلام هو صوت الذهن المسموع، ومن هنا كان الكلام كاشفًا عما في قلب الإنسان، فإذا كان كلامه طيبًا يكشف ذلك عن طيب داخله، وإذا كان سيئًا ينبئ عن سوء داخل نفسه.

بعبارة أخرى، فإن اللسان أشبه شيء بالمغرفة التي تغرف من القدر، فهي لا تحمل إلا ما هو موجود في القدر، لذلك جاءت النصوص مؤكدة كون الكلام مرآة عما في النفوس. ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «المرء مخبو تحت لسانه»[١]، وعنه عليه السلام: «كلام الرجل ميزان عقله»[٢]، وعنه عليه السلام: «اللسان ترجمان الجنان»[٣]، فعلى الإنسان أن يفكر في كلامه قبل أن يتفوه به، وأن يلجم لسانه عن كل قول قبيح، وهو حق اللسان على الإنسان.

وهناك نصوص كثيرة حذّرت عن الكلام الذي فيه فحش وقبح، وقد يقع ذلك من بعض الناس، إما بسبب انفعال، وإما أن لسانه قد اعتاد على البذيء من الكلام، وهذا أخطر من الأول.

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ١٤٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٠٢، حكمة ٣١.

(٣) المصدر نفسه. ص٥٨، حكمة ١٨١٨.

بين اللسان وداخل الإنسان

وكما أكدنا وجود علاقة جدلية بين الكلام وبين داخل الإنسان، فإن هذه العلاقة الجدلية لها شكل آخر، وهي أن لجم اللسان يؤدي إلى لجم الداخل أيضًا، ويساعد على صياغة الإنسان وتهذيبه من الداخل، فعندما يلجم الإنسان كلمة السوء، إنما يعني أنه أعاد ترتيب وصياغة ما في داخله من أفكار ومشاعر، يعبّر الإمام الصادق عن هذا المعنى بما ورد عنه عليه السلام: «من عذب لسانه زكى عقله»[(١)].

من ناحية أخرى، فإن التحكم في الكلام يساعد الإنسان على التحكم في مشاعره وأفكاره وردات فعله، وبالتالي يتمكن من تهذيب نفسه، وتنظيف داخله.

هناك بعض الناس من يعوّد نفسه الكلام الفاحش في بداية الأمر في البيت أو مع الأصدقاء المقربين، من باب المحبة وكسر الحواجز، إلا أنها سرعان ما تتحول إلى عادة متأصلة على لسانه، لذلك يحذر الإسلام من قول السوء مطلقًا حتى مع الدواب والأنعام، فلا يقول في حقها وصفًا سيئًا فاحشًا. حين سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدهم يلعن بعيره التفت إليه وقال: «من هذا اللاعن بعيره... انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم»[(٢)].

فيجب على الإنسان أن يتجنب القول الفاحش مطلقًا، حتى عن الجمادات كالذي يلعن سيارته مثلًا.

لا تُستدرج للبذاءة

ولو أن أحدًا استخدم اتجاهك ألفاظًا سيئة فمن حقك الرد عليه بالمثل، لكن الإسلام يأمرك أن تتنزه عن ذلك في هذا المورد، جاء في السيرة النبوية أن جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: السام عليكم، وكانت عائشة موجودة

---

(١) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ٢٧٨.

(٢) صحيح مسلم. ص١٦٠٤، حديث ٣٠٠٩.

فغضبت، وقالت: وعليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش»[١]، هكذا يرتفع الإسلام بالمسلم لكي يكون مهذبًا في طبعه وقوله، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له»[٢]، وهذا أمر خطير أن يحرم الله الجنة على من لا يبالي بكلامه ويجري الفحش على لسانه، وقد قال العلماء في هذا المورد إن المقصود تحريم الجنة مدة من الزمن وليس مطلقًا، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أقوامًا سيخرجون من النار قد أصابهم سفع من النار عقوبة بذنوب عملوها ليخرجهم الله بفضل رحمته فيدخلون الجنة»[٣]، فمن يفحش في الكلام يحرم من الجنة ولو لمدة فيكون مصداقًا لحديث الإمام الصادق عليه السلام، سأل رجل أحد الأئمة: هل في الناس من لا يبالي ما قيل له؟ فكان الجواب «من تعرض للناس يشتمهم وهو يعلم أنهم لا يتركونه، فذلك الذي لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه»[٤].

ويروي الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه ﷺ أنه قال: «إن الفحش لو كان مثالًا لكان مثال سوء»[٥]، وفي رواية أخرى عنه: عليه السلام «البذاء من الجفاء والجفاء في النار»[٦]، وعنه عليه السلام: «إن الفحش والبذاء والسلاطة من النفاق»[٧]، فمن يكون سليطًا على الآخرين فإنه من المنافقين، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم إن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين الفاحش المتفحش»[٨].

---

(١) صحيح البخاري. ج٤، ص ٩٣، حديث ٦٠٣٠.
(٢) جامع أحاديث الشيعة. ج ١٣، ص ٤٣٤.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج٤، ص٤١٩، حديث١٢٦٩١.
(٤) الكافي. ج ٢، ص ٣٢٤، حديث٣.
(٥) المصدر نفسه. ج ٢، ص ٣٢٤، حديث٦.
(٦) المصدر نفسه. ج٢، ص ٣٢٥، حديث٩.
(٧) المصدر نفسه. ج ٢، ص ٣٢٥، حديث١٠.
(٨) جامع أحاديث الشيعة. ج ١٣، ص ٤٣١، حديث١١٢٦.

لماذا بعض الناس يستخدمون أسلوب السب والشتم وسلاطة اللسان؟ يجيب الإمام الباقر ﷺ عن ذلك بقوله: «سلاح اللئام قبيح الكلام»[1] هذا من لؤم نفسه؛ لأنه لا يملك منطقًا، لذلك يستخدم السب والشتم.

---

(١) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ١٨٥.

سيكولوجيّة الغيبة

إنّ وجود عرض جسمانيّ في الإنسان يكشف عن خلل داخليّ في وظائف أعضائه، ونظام حركة الأجهزة داخل جسمه؛ فيسعى الأطباء لتبيّن ذلك الخلل عبر التحاليل والفحوصات المخبريّة، وأنواع الأشعة، دون أن يتعاملوا مع ذلك العرض بشكل سطحيّ ظاهريّ، بل يحاولون فهم سبب وعلّة هذا المرض، ومن ثمّ يصفون له العلاج.

وكما هو الأمر في الأمراض الجسمية، كذلك الحال في الأمراض النفسيّة والأخلاقيّة؛ فحينما نجد عند الإنسان عرضًا من أعراض أمراض النفس والأخلاق، فلا بُدّ أن نفتّش ونُجري التحاليل والفحوصات داخل نفس هذا الإنسان، لنرى الخلل الذي أوجد هذا العرض الخارجيّ السلوكيّ.

وهذا الأمر من وظائف علم النفس؛ إذْ يسلّط هذا العلم الضوء على العالم الداخليّ لنفس الإنسان، ليكتشف أسباب الأمراض، ومنتجات السلوك، ودوافع التحرّك والممارسات عند الإنسان.

وقد نصّت تعاليم الديانات وتوجيهات الأنبياء والأئمة ﷺ، وأيضًا نصائح وآراء الحكماء والعرفاء، على هذا الاتجاه قبل أن يتبلور ويتطوّر علم النفس المعاصر؛ من هنا نجد أنّ كثيرًا من النصوص الدينيّة، سلّطت الأضواء على خلفيّة السلوك والممارسات التي يقوم بها الإنسان، على أساس أنّ هذا السلوك أو الممارسة الخارجيّة إنما هي حصيلة شيء داخليّ أدى إلى ذلك السلوك.

ونشير إلى أنّ حديث الأنبياء والأئمة عن هذه الأمور إنما يتّكئ على الوحيّ، أمّا العرفاء والحكماء فحديثهم عن ذلك ناتج من تأملهم ودقّة ملاحظتهم، وتراكم الخبرة والتجربة في معرفة البشر والمجتمعات لديهم، من هنا جاءت هذه الحكم والتوجيهات الرائعة.

الغيبة كسلوك

ومن الأمراض التي سلّطت النصوص الدينيّة الضوء على أسبابها وعللها: «الغيبة»، والتي تعني ذكر معايب الناس لإسقاطهم والتشهير بهم؛ حينما يرصد الإنسان نقاط ضعف الآخرين وثغراتهم ويتحدّث عنها.

«رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ.

قِيلَ: أَ رَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ.

قَالَ ﷺ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1].

والنصّ أعلاه يفرّق بين الغيبة والبهتان، وهو مطلب أساسٍ لا بُدّ من الالتفات إليه جيّدًا، ومعرفة خطورة الابتلاء بهذه الأمراض الأخلاقيّة الخطيرة؛ فحينما يذكر الإنسان أخاه بشيء موجود فيه، ويريد من خلال ذلك التشهير به، وهو يعلم أنْ ذكر ذلك يزعجه ويغيظه فهذا هو: «الغيبة»؛ أمّا إذا ذكر الإنسان أخاه بشيء ليس فيه، مفتريًا عليه بذلك، فهذا هو: «البهتان».

لكن ما هو السبب الذي يولّد هذا المرض ـ أعني الغيبة ـ عند الإنسان؟

والجواب: بدايةً علينا أن نميّز بين الغيبة كحادثة عابرةٍ استثنائيّةٍ يمارسها الإنسان، وربما يندم عليها بعد ذلك، وبين الغيبة كسلوك عام يمارسه البعض يوميًّا، ويلتذّ به،

(١) صحيح مسلم. باب تحريم الغيبة، ص١٣٩٧، حديث٢٥٨٩.

ويتعايش معه، ويحترفه، وحديثنا حول الثانيّ دون الأوّل.

لقد كشف أمير المؤمنين عليه السلام عن السبب الذي يؤول إلى ظهور مثل هذا المرض النفسيّ الأخلاقيّ؛ معبّرًا عن الغيبة بكونها جهد العاجز؛ وحينما نحاول التأمّل في هذه الكلمة القصيرة المعبّرة فسوف نجد أنّها تحمل مضمونًا عاليًا.

أسباب الغيبة في نماذج عمليّة

الحالة الأولى:

إذا شاهدنا إنسانًا شغله الشاغل الحديث عن أخطاء الناس ومعايبهم، ونقاط ضعفهم، إمّا بلسانه، أو بقلمه، فلا شكّ بوجود خلل داخليّ عنده وضعف في شخصيّته؛ ذلك أنّ الإنسان الذي تكون لديه اهتمامات حقيقيّة في تطوير ذاته، وتقديم منجزات في حياته، لا يملك وقتًا للحديث عن أخطاء الآخرين وعيوبهم، وإنما يتحدّث عن أخطاء الآخرين: من يعيش حالة الفراغ وعدم وجود الاهتمامات، فلا يوجد ما يملأ عليه حال الفراغ، ليشغل تفكيره ونفسه، فهو عاجز وضعيف لا يمتلك اهتمامات حقيقيّة، فيشغل نفسه بهذا السلوك والممارسة.

إنّ كثيرًا من الناس الذين يمتهنون الغيبة كسلوك، إنما يعود إلى الفراغ من الاهتمامات الحقيقيّة؛ ومن كان عنده اهتمامات حقيقية لا شكّ أنّه سيبتعد عن الحديث عن أخطاء الآخرين وثغراتهم.

يصف أحدهم جلسات زملائه الليلية فيقول: إنّها مليئة بالغيبة وذكر معايب الآخرين، إلّا إذا كانت هناك مباريات فإنها تشغلهم عن ذلك.

الحالة الثانية:

وحينما يلحظ الإنسان خطأً لدى شخص آخر، فإمّا أن يكون ذا أهليّة ولديه دوافع صالحة، فيقوم بنصح صاحب الخطأ لتجاوز خطئه، ويتعاون معه من أجل تصحيح الخطأ، كما إذا لاحظ إنسانًا مريضًا فيذهب لمساعدته والوقوف إلى جنبه بنيّة حسنة خالصة.

وأما إذا كان الإنسان لا يملك هذه اللياقة والروح الخالصة، ويعاني من فشل وعجز عن أن تكون له هذه اللياقات، فتراه بدل أن يهتم بمعالجة الأخطاء عند الآخرين، يقوم بالتشهير بها، والتحدّث عنها، فهو عاجز عن مساعدة الآخرين لإصلاح أخطائهم، فيتوجّه للحديث عن تلك الأخطاء، بدل أن يقوم بإصلاحها أو المساعدة على ذلك، ومن هنا تكون الغيبة جهد العاجز.

الحالة الثالثة:

وإذا تنافس الإنسان مع الآخرين فشاهد أنهم قد سبقوه وتجاوزوه في السباق، فالمفترض أن يتحفّز وينشغل بتطوير نفسه، لكن بعض الناس يشعر بالفشل والضعف حينما يرى تقدّم الآخرين عليه، وتجاوزهم إيّاه، وهو غير مجتهد في مسيرته، فحينها يسلّي نفسه بالحديث عن أخطائهم، ويعوّض نقصه بالحديث عن ثغراتهم؛ فالغيبة جهد من يعجز عن التقدّم والتفوّق على الآخرين.

وهناك كلمة رائعة تروى عن أمير المؤمنين عليه السلام تُعطي مقياسًا يلقي بظلاله على جوهر مفهوم الغيبة، وبعض جوانبها: «ذَوُو الْعُيُوبِ يُحِبُّونَ إِشَاعَةَ مَعَايِبِ النَّاسِ لِيَتَّسِعَ لَهُمُ الْعُذْرُ فِي مَعَايِبِهِم»[(١)].

نعم؛ حينما يكسل الطالب عن التفوّق في دراسته، تراه يتحدّث في منزله وأمام أهله عن الفاشلين فقط، دون أن ينقل شيئًا عن المتفوقين من زملائه، وكأنه يريد أن يقول: إنّ فشله ليس وليد نقص فيه، وإنما لمبررات أخرى، بدليل وقوع كثيرين مثله في ذات الفشل، وهكذا ينطلق من يستغيب الناس من هذه الخلفيّة.

هكذا يلخّص الإمام عليه السلام سيكولوجيّة الغيبة لدى المغتاب؛ فالإنسان العاجز والمتعثّر الذي لا يملك إرادة التطوير والتقدّم، والانشغال بالاهتمامات الحقيقيّة، هو الذي يمارس هذا العمل والموبقة الأخلاقيّة.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٠٩، حكمة٤٥.

وهناك رواية أكثر تفصيلًا مرويّة عن الإمام الصادق عليه السلام تتحدّث عن أنواع الغيبة بتفاصيل أكثر، قال فيها: «أَصْلُ الْغِيبَةِ مُتَنَوِّعٌ بِعَشَرَةِ أَنْوَاعٍ: شِفَاءِ غَيْظٍ؛ وَمُسَاعَدَةِ قَوْمٍ؛ وَتُهَمَةٍ؛ وَتَصْدِيقِ خَبَرٍ بِلَا كَشْفِهِ؛ وَسُوءِ ظَنٍّ؛ وَحَسَدٍ؛ وَسُخْرِيَّةٍ؛ وَتَعَجُّبٍ؛ وَتَبَرُّمٍ؛ وَتَزَيُّنٍ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَةَ فَاذْكُرِ الْخَالِقَ لَا الْمَخْلُوقَ، فَيُصَيِّرُ لَكَ مَكَانَ الْغِيبَةِ عِبْرَةً، وَمَكَانَ الْإِثْمِ ثَوَاباً»[1].

على الإنسان أن يكبح هذه الحالة في نفسه، وإذا رأى أنه قد تورّط في هذه الممارسة، فعليه أن يستغفر الله سبحانه وتعالى ويتراجع فورًا.

ورد عن عليّ عليه السلام: «لَا تُعَوِّدْ نَفْسَكَ الْغِيبَةَ؛ فَإِنَّ مُعْتَادَهَا عَظِيمُ الْجُرْمِ»[2].

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «تَرْكُ الْغِيبَةِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعاً»[3].

البحث عن عيوب الناس

تحفل الحياة الاجتماعية للناس بأنماط لا حصر لها من السلوك الصالح ومن السلوك الخطأ. وتنحصر مسؤولية الفرد في الاهتمام بما يعنيه من هذه الأعمال والسلوك، التي يلحظها ضمن حياته الاجتماعية اليومية، فإذا كانت نزعة الفرد نزعة صالحة خيّرة، فسينصبّ اهتمامه على السلوك الخيّر، وعلى النقيض من ذلك، إذا كانت نزعاته سيئة، فسيندفع للاهتمام بما يتلاءم مع تلك النزعة من سلوك.

إنّ الإنسان العاقل غالبًا ما يبحث عن الوجه الخيّر وأعمال الصلاح في بيئته الاجتماعية، فيزداد تحفّزًا لتمثل أعمال الخير والسلوك الحسن، وليجسّدها في حياته، في مقابل ذلك يغضّ العاقل الطرف عن الأعمال السيئة عند الآخرين، الموجودة بطبيعة الحال في كلّ مجتمع بشري. وبذلك يتجه الإنسان العاقل للاهتمام

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٢٥٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٤١٩، حكمة١٧٦.
(٣) مستدرك الوسائل. ج٩، ص١١٧، حديث ١٠٤٠٤.

بالأعمال الحسنة الصالحة، فيقف عندها ويتأمّل فيها ويتحدّث عنها، حتى يزداد تحفّزًا لتجسيدها في نفسه ونشرها في مجتمعه.

التفتيش عن المعايب

غير أنّ هناك صنفًا من الناس لا يهمّهم سوى التفتيش عن كلّ ما يشين من السلوك. فمثل هؤلاء تراهم غارقين في البحث عن أخطاء وزلّات ومعايب الآخرين، والحديث عنها، وتناقلها على أوسع نطاق، فما لك ولمعايب الآخرين وزلّاتهم؟.

إنّ غاية ما ينبغي للمرء في هذا الصّدد هو الحذر وتوقّي الانزلاق في المعايب والأخطاء التي وقع فيها الآخرون، لا أن يحترف التفتيش والحديث في زلّاتهم وعثراتهم. ومن العجب ترى بعض الناس مولعين للغاية في التنقيب عن عثرات الناس وزلّاتهم، كما لو كانوا رادارات مسلّطة على حياة الآخرين الخاصة والعامة، وهذه من أسوأ الرذائل التي قد تعتري أيّ امرئ من الناس.

إنّ النصوص الدينية تنهى بشدّة عن تعقب زلّات الناس على أيِّ نحوٍ من الأنحاء. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا رأيتم العبد متفقّدًا لذنوب الناس ناسيًا لذنوبه فاعلموا أنه قد مكر به»[1]، وتنطوي الرواية الشريفة على عدّة أبعاد، بدءًا من استنكار تعقّب عثرات الآخرين والتنقيب عن أخطائهم، واستطرادًا بلفت نظر المتورّطين في هذه الرذيلة إلى أنهم أنفسهم لا يخلون من عثرات، وأنّ عليهم عدم نسيان ذلك، فهم ليسوا قطعة من الكمال لا نقص فيها!، فالأحرى بهم أن يفتّشوا عن أخطائهم ويتوقّوا الوقوع في الزّلات، ثم لتنتهي الرواية بالتحذير المغلظ بتوصيف من يقع في هذا السلوك المشين بأنه «قد مُكر به»، أي إنّه قد أوقع نفسه في فخ وورطة سرعان ما سيرى نتائجها السلبية في الدنيا والآخرة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١٥.

سمات سيئة

هناك سمات عديدة لمسلك المفتشين عن معايب وزلّات الآخرين:

١. تأمل عيوب الناس

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «تأمّل العيب عيب»[١]، إنّ من يُمْعِنُ النظر والتدقيق في عيوب الناس، فهو بهذا السلوك إنّما يرتكب عيبًا، ولعلّ أقرب توصيف لنوعية متابعة الإنسان لأعمال الآخرين، هو ما يفعله النحل الذي لا يحطّ سوى على الورود والأزهار العبقة الرائحة فيمتص منها الرحيق، بخلاف الذباب الذي لا يعرف سوى القمامة، وكذلك الأمر مع الأشخاص، فالشخص الباحث عن زلّات وعثرات الآخرين، إنّما يتقمّص سلوك الذباب الذي يبحث في المزابل، في مقابل من يتخلّق بأخلاق النحل، حيث يهتم بالجوانب المشرقة عند الآخرين، المتمثلة في نجاحاتهم وإنجازاتهم وإيجابيّاتهم، فيتحدث عنها وينشرها ويشيع الأجواء الصالحة في مجتمعه، تحفيزًا لذاته لبلوغ ما حقّقه الآخرون.

٢. نشر المعايب

يعمد المفتشون عن معايب الناس إلى إظهار عيوب الآخرين ونشرها على أوسع نطاق. وقد فسحت وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة المجال واسعًا أمام هذا الصنف من الناس، فمثل هؤلاء لا يدّخرون جهدًا في نشر معايب الآخرين عبر أيّ وسيلة تصل إليها أيديهم، واللافت أنّ الأخبار السلبية والكاذبة سرعان ما تنتشر انتشار النار في الهشيم، بحيث يتداولها البعض على قاعدة «انشر تؤجر»، ودونما تمحيص ولا تدقيق لحقيقة الخبر، ولا إدراك لخطورة هذه الممارسة المضرّة بالآخرين، في مقابل ذلك لا تلقى الأخبار الإيجابية التي تتحدث عن المنجزات والنجاحات عُشْرَ الاهتمام الذي تحظى به الأولى.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٧٣، حكمة ١٠.

٣. اختلاق المعايب

ينحو محترفو البحث عن عيوب الناس نحو اختلاق المعايب اختلاقًا، وتلفيقها للآخرين. ولعلّ الواحد من هؤلاء يستيقظ صباحًا فلا يجد خبرًا يسيء للآخرين فيقلقه ذلك كثيرًا، ولربما عمد عندها لاختلاق الشائعات وإلصاقها بالناس جزافًا.

٤. التشويه وسوء التفسير

يعمد المفتشون عن معايب الناس، إلى إساءة تفسير أعمال وتصرّفات الآخرين. فقد يقوم الآخرون بأعمال إيجابية، غير أنّ محترفي التفتيش عن الزلّات، يعمدون إلى تشويه وإساءة تفسير تلك الأعمال الإيجابية، فبنظر صاحب النظارة السّوداء تتحول الإيجابيات والجوانب المشرقة عند الآخرين إلى معايب ومثالب يطعن عليهم بسببها.

النتائج والتداعيات

هناك نصوص دينية كثيرة تحذّر الإنسان من التورط في هذه الخصلة الذميمة، والتفتيش عن عيوب الناس. ولعلّ أول محاذير هذا المسلك الخطأ هي انشغال المرء بمثالب الناس والغفلة عن عيوبه، كما لو أنه خالٍ تمامًا من الأخطاء والعيوب، التي من الحريّ أن يتجه نحو إصلاحها. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[1]، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام أنه قال: «أفضل الناس من شغلته معايبه عن عيوب الناس»[2]، وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «أعقل الناس من كان بعيبه بصيرًا وعن عيب غيره ضريرًا»[3].

وينبغي أن نلفت النظر هنا، إلى أنّ مسلك التفتيش عن الأخطاء، كما يجري على صعيد الأفراد، فهو يجري أيضًا على مستوى الجماعات. فقد تتورّط بعض

---

(١) نهج البلاغة. الخطبة ١٧٦.

(٢) جامع أحاديث الشيعة. ج١٤، ص٢٠٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٢، حكمة ٢٨٠.

الجماعات الدينية أو السياسية والاجتماعية في مسلك الإساءة للجماعات الأخرى، برصد عثراتها ونشرها عوضًا عن التفتيش عن عيوبها هي ومراجعة أخطائها.

إنّ النصوص الدينية توجّه الإنسان المسلم إلى أن يتسامى على هذه الحالة، فلا يفتّش عن العيوب في علاقاته مع الناس. وقد توعّد القرآن الكريم بالويل لمن يسلك مسلك التنقيب عن عيوب الآخرين، قال تعالى: «ويل لكل همزة لمزة»، والهمزة هنا تأتي بمعنى سوق نقاط الضعف عند الآخرين بغرض كسر شخصيّاتهم، ولمزهم من خلال استغابتهم والتنقيص من مقامهم، وقد توعّد الله سبحانه أصحاب هذا المسلك بالويل والخزي والعذاب. وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسب ابن آدم من الإثم أن يرتع في عرض أخيه المسلم»[١].

بين النقد والتشهير

وهنا ينبغي الالتفات إلى عدم الانخداع بالخوض في شخصيات الآخرين والانتقاص منهم، بادّعاء الحقّ في النقد وحرية التعبير عن الرأي، فلا ضير من مناقشة الأفكار وتقويم المواقف ضمن حدودها، أمّا الإساءة للأشخاص والتلفيق عليهم، بحجة حرية التعبير فتلك مخادعة فجّة للذات، ذلك أنّ حرية التعبير في تناول أفكار الآخرين ومناقشتها أمر صحيح، وحقٌّ مشروع، أمّا المساس بكرامة الأشخاص، والتجريح في شخصياتهم، والتشكيك في نيّاتهم، فلا صلة لذلك كلّه بحرية التعبير بتاتًا، بل هو اعتداء سافر تجرّمه الأعراف والقوانين. وتشير النصوص الدينية إلى أنّ الله سبحانه ينتقم من الإنسان المتتبع لعيوب الآخرين، وأنّ من بحث في أسرار غيره أظهر الله سبحانه أسراره، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عوراته، ومن تتبع الله عوراته فضحه في جوف بيته»[٢]، وعن الإمام عليّ عليه السلام: «ومن تتبع عورات الناس كشف الله عورته»[٣].

---

(١) محمد الريشهري. حكم النّبيّ الأعظم، ج٤، ص٦٢٥.

(٢) الشيخ المفيد. الأمالي، ص١٤١، حديث٨.

(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص٤٣٨.

إنّ شيوع مسلك البحث عن أخطاء وزلّات الآخرين سيجعل الجميع عرضة لأخطاره. فلا يظننّ أحدٌ أنه سيكون بمنأى عن ارتدادات هذا السلوك المشين في حال استفحل في الوسط الاجتماعي، لذلك ينبغي أن ينأى الجميع عن هذه الرذيلة حتى لا يساهم أحدٌ في تعزيزها في المجتمع، ويكون أحد ضحاياها، ولعلّ ذلك من المعاني التي تشير إليها النصوص، بأن الله يفضح ويكشف عيوب من يمارس هذا الدور.

التشهير بأخطاء الآخرين

يعرف كل إنسان أنه معرّض للنواقص والعيوب، وقد تصدر منه الأخطاء وتنتابه الثغرات، غير أنه مع ذلك يحرص بشدة على صيانة سمعته أمام الآخرين. فلا أحد يرغب في أن تظهر نواقصه وعيوبه أمام الناس، ولا يحب أن تنتشر عثراته وأخطاؤه في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، حرصًا منه على الحفاظ على سمعته ناصعة لا تشوبها شائبة. فكل إنسان يريد أن تظل عيوبه مستورة. من هنا يأتي السؤال عن السبيل إلى أن تكون عيوب الإنسان مستورة عن الناس، حتى لا تخدش شخصيته ولا تتأثر سمعته؟

إن ثمة طرقًا عديدة تساعد الإنسان على صيانة سمعته. يأتي في طليعتها؛ أن يتعاهد الإنسان نفسه، فيتلافى ما فيه من مساوئ ونواقص، فإذا أراد المرء ألّا يذكره الناس بسوء، فإن أول ما ينبغي له فعله هو أن يحرص على ألّا يصدر منه سوء. والحال أننا ما دمنا بشرًا معرضون لارتكاب الخطأ، فالواجب أن يتعهد الواحد منا بمراجعة نفسه؛ لأن الاستمرار في ارتكاب الأخطاء يجعل الإنسان مكشوفًا أمام الناس، فقد لا يطلع الناس على أخطائك في المرة الأولى والمرتين والثلاث، لكن الاستمرار في ارتكاب الأخطاء، يجعل احتمالات انكشافها أكبر. وبذلك يكون أول طريق للحفاظ على السمعة وصيانة العرض، أن يتلافى المرء الوقوع في السيئات والنواقص ضمن سلوكه العام.

استر يستر الله عليك

أما الطريق الثاني الذي يساعد في الحفاظ على السمعة الشخصية للإنسان، فهو أن يطلب الستر من الله تعالى. ويدعو المرء ربه أن يستر أخطاءه، وألّا يفضحه على رؤوس الأشهاد في الدنيا والآخرة، كما هو وارد في كثير من الأدعية المأثورة.

إن الله سبحانه يضع مقايضة يسيرة مع الإنسان، بأن يستر سبحانه عليه أخطاءه، مقابل أن يستر هو على أخطاء من حوله من الناس. فإذا أراد الإنسان أن يستجيب الله دعاءه، ويستر عليه أخطاءه، ويتجاوز عن عثراته وذنوبه، فما عليه سوى أن يفعل الشيء نفسه مع الآخرين.

ضمن هذا السياق يمكن فهم الموقف النبوي مع من جاءه ﷺ قائلًا: يا رسول الله، أحب أن يستر الله عليّ عيوبي، فقال ﷺ: «استر عيوب إخوانك يستر الله عليك عيوبك»[1]. واللافت أن النبي ﷺ لم يقل للرجل اذهب وأكثر من الصلاة والصيام والدعاء وأداء الحج حتى يستر الله عيوبك، بل ركز ﷺ على المسألة الأهم وهي أن يستر الرجل عيوب إخوانه، حتى يستجيب الله له ويستر عيوبه.

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ستر أخاه المسلمَ في الدُّنيا، ستره اللهُ يومَ القيامةِ»[2]، ذلك أنه مهما كانت سعة الفضيحة في الدنيا، فإنها لا تعدل شيئًا مقابل الفضيحة الأكبر على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وغاية ما هو مطلوب لتلافي هذا الموقف يوم الحساب، هو ما ورد آنفًا من ستر عيوب الإخوان.

في مقابل ذلك، ورد في النصوص الدينية أن من يتعمد هتك ستر الآخرين، فإن الله تعالى يهتك ستره ويفضحه. وحذرت نصوص عديدة من الوقوع في هذا الخلق السيء. ومن ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من بحث عن أسرار غيره أظهر

---

(١) كنز العمال، ج ١٦، ص ١٢٩.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج٥، ص٤٤٨، حديث ٢٣٤١.

الله سبحانه أسراره»[١]، وورد عنه عليه السلام: «من كشف حجاب أخيه، انكشفت عورات بيته»[٢]، وعنه عليه السلام: «من تتبع عورات الناس كشف الله عوراته»[٣]، روى الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن جده صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تتبعوا عورات المؤمنين، فإن من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عوراته، ومن تتبع الله عورته، فضحه ولو في جوف بيته»[٤]. ذلك أن من يتعمد هتك أستار الآخرين وفضح عوراتهم، فإنه مهما جاهد في التستر على عوراته، فإن الله سبحانه سيكون له بالمرصاد، فيفضحه ويهتك أستاره وأسراره.

صناعة الاجواء النقيّة

ويأتي الطريق الثالث في صيانة السمعة، من خلال الإسهام في صناعة مجتمع إيجابي. ذلك أنه من صفات المجتمعات السلبية الميل نحو نشر المعايب والسلبيات والمساوئ على بعضهم بعض، في مقابل ذلك غالبًا ما تغيب هذه الممارسة في المجتمع الذي تسوده الإيجابية والاستقامة الأخلاقية، فلا يجري فيه كشف العيوب وتداول أخطاء الناس.

إن السلوك الفردي لكل فرد من أفراد المجتمع هو في مجموعه ما يصنع الحالة العامة في المجتمع، فمتى ما تحدثتَ عن عورات وعثرات الآخرين، فإنك بذلك تساهم على نحو مباشر في سيادة هذا السلوك، ولعل أقرب مثال على ذلك، ما يجري في العالم الافتراضي عبر مواقع الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، عندما يأتي من يسل لسانه ليجلد الآخرين وينال منهم بأقبح ما يكون، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «تتبع العيوب من أقبح العيوب وشر السيئات»[٥]، وذلك لما في هذا السلوك السيئ من تحفيز للآخرين على الرد المقابل.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٣٥، حكمة ٤١٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٦١، حكمة ١٣٢٦.

(٣) المصدر نفسه. ص٣٣٦، حكمة ٤٦٠.

(٤) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٢١٤، حديث١٠.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٧٤، حكمة ١٧.

والسؤال هنا، لماذا يتورط البعض في تعزيز هذا المسلك، فينشغل بالبحث عن معايب الأطراف الأخرى وينشرها على الملأ؟

ليس هناك أحد في منأى عن الوقوع في الخطأ. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدرى ما تتصرف الأيام بك»[١]، فمن يعمد اليوم إلى التهريج على الآخرين لمجرد وقوعهم فيما يعتبره خطأ أو عثرة، من يضمن بأن لا يقع هذا المهرج نفسه غدًا في موقف مشابه؟ وما الذي سيصيبه وقد ترك لدى الآخرين خلفه سلسلة من الإحن والثارات، وعزز بسلوكه أسلوبًا سلبيًا في المجتمع؟ إنه ببساطة سيدفع ثمن وضريبة ما زرعه من سلوك سلبي. إن على من يفتش عن عيوب الآخرين أن يضع في اعتباره أنه عرضة للعثرات، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من طلب عيبًا وجده»[٢]، أي إن من جهد في التفتيش عن العيوب فسيجدها، وقال عليه السلام: «لا تبتهجن بخطأ غيرك فإنك لن تمتلك الإصابة أبدًا»[٣]، إن من يفتش عن أخطاء الآخرين، فإن عليه أن يعلم أن الصواب لن يكون حليفه على نحو دائم، إنه ليس معصومًا عن الخطأ، وهو عرضة للوقوع في العثرات شأنه شأن الآخرين. وعنه عليه السلام: «مَن عابَ عِيبَ، ومَن شَتَمَ أُجيبَ»[٤]، وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرض الناس قرضوه ومن تركهم لم يتركوه»[٥].

متخصصون في نشر المعايب

هناك صنف من الناس «متخصصون» في نشر معايب الآخرين، ولعل ذلك ناجم من عقدة شخصية قوامها الشعور بالنقص والحسد، والتغطية على أخطائهم الشخصية، كما يعبّر عن ذلك ما ورد عن علي عليه السلام: «ذووا العيوب يحبّون إشاعة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٢٧٩، حكمة ٢١٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٥٠، حكمة ٩٢٦.
(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص٥٢٣.
(٤) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٩١، حديث٩٥.
(٥) الكافي. ج٨، ص٨٦، حديث٤٧.

معايب الناس»[١]، فهذا الصنف من الناس يكاد يتخصص على نحو حصري في تتبع وترويج أخبار المعايب والعثرات التي يقع فيها الآخرون، متجاهلًا أن للناس حسناتهم وسيئاتهم، يفعلون الصواب وقد يقعون في الأخطاء. ومن المهم أن يكون الإنسان ناشرًا للحسنات ومروجًا للإيجابيات، من خلال تداول أفضل ما عند الآخرين من أخبار وإنجازات، فالنحل يذهب للأزهار والفواكه الطيبة ليمتص منها الرحيق، فيما يقع الذباب على القاذورات والأوساخ، فليختر المرء من أيّ نوع يكون، ولا نظن أن عاقلًا يختار لنفسه أن يعيش بين ركام المساوئ التي يتتبعها ويفتش عنها.

ووردت جملة من النصوص الدينية التي تشدد على حرمة تتبع العورات وإفشاء المعايب والعثرات. فقد جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن أحد أصحابه قال له، عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال عليه السلام: نعم، قلت، أيعني سفليه؟ فقال عليه السلام: «ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سره»[٢]. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «حسب ابن آدم من الإثم أن يرتع في عرض أخيه المسلم»[٣]، وجاء في الأثر، أن نبي الله عيسى عليه السلام مرّ مع الحواريين على جيفة، فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب؟ فقال عليه السلام: «ما أشدّ بياض أسنانه»[٤]، فقد كان عيسى عليه السلام يريد لفت نظرهم إلى أن لا تستولي السيئات على أذهانهم، ولا تستقطب السلبيات وحدها أنظارهم، فهناك جوانب إيجابية في كل شيء.

من هنا، فإن على الإنسان المؤمن الذي يتقي الله أن يحسب حسابًا عند الخوض في أعراض الناس وعثراتهم، وليعمد لسترها عليهم، حتى يستر الله عليه عيوبه.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٠٩، حكمة ٤٥.

(٢) الكافي. ج٢، ص٣٥٨، حديث٢.

(٣) تنبيه الخواطر. ج٢، ص١٢٢.

(٤) بحار الأنوار. ج١٤، ص٣٢٧، حديث٤٧.

الفصل الرابع

أخلاق التعامل

الرصيد الإيجابي للتداخل مع الناس

هناك قدر من التداخل بين الناس تفرضه طبيعة الحياة، إذ لا يستطيع إنسان أن يعيش في عزلة عن الناس. وهناك مستويات متقدمة من التداخل، الذي يُقبل عليه الإنسان عن قصد وإرادة، ويتقاطع مع صميم اهتماماته. مع تفاوت مستوى الاهتمام بشبكة العلاقات الاجتماعية من شخص لآخر.

إثراء المشاعر الإنسانية

إنّ التداخل مع المحيط الاجتماعي أمر بالغ الأهمية؛ لأنه يعود على الإنسان بدرجة عالية من الفائدة. ونتاج كبير من الإيجابيات.

ولعلّ أولها: أن التداخل مع الناس يثري المشاعر الإنسانية في نفس الإنسان، مشاعر الحبّ والودّ والتعاون والإحسان، في مقابل ذلك، تبقى هذه المشاعر في أدنى مستوياتها متى ما اختار الإنسان الاعتزال عن الناس.

تطوير المهارات والقدرات

أما الميزة الثانية: فهي تقوية وتطوير المهارات الاجتماعية عند الإنسان، من قبيل القدرة على بناء العلاقات، والتأثير في نفوس الآخرين، ومواجهة المشاكل، وإدارة الأزمات، وحسن التصرف في مختلف الظروف. إن هذه المهارات لا تتأتى من خلال التلقي النظري غالبًا، بقدر ما تتأتى عن طريق الممارسة، فكلّما تداخل الإنسان مع الناس على نحو أكبر، تبلورت عنده هذه المهارات بالتوازي.

روافد للفكر والتجربة

والايجابية الثالثة: أنّ التداخل مع الناس يمثل رافدًا حيويًّا للأفكار والمعلومات والتجارب. وكما قيل «العلم كله في العالم كله»، وأعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه، وعقولهم إلى عقله، وكلما ارتبط الإنسان بأيٍّ طرف، انفتحت أمامه نافذة غنية بالتجارب.

قوة المجتمع

أمّا الإيجابية الرابعة: فهي أنّ تداخل الإنسان مع محيطه الاجتماعي يسهم في تمتين الرابطة والتماسك في المجتمع، حيث أنّ المجتمع الذي يهتم أبناؤه بالتواصل والتعاون فيما بينهم، تكون درجة التماسك، وحال التكافل، فيه أقوى وأفضل.

عرض الأفكار والآراء

والإيجابية الخامسة: أنّ التداخل الاجتماعي يشكّل فرصة ثمينة للإنسان، للتبشير بأفكاره ووجهات نظره. فإذا كان لدى أيّ شخص أو جماعة، آراء دينية، أو سياسية، أو ثقافية، وكانت هذه الجهة مهتمة بنشر هذه الأفكار والآراء في محيطها، فمن الطبيعي أن يمثل التداخل مع الناس قناة مهمة لبث تلك الأفكار، ويكون المحيط الاجتماعي أكثر إلمامًا بها. وعلى النقيض من ذلك سيلفّ الغموض صورة وأفكار أيّ جهة إذا ما اتّسمت بالانكفاء على نفسها.

نيل مرضاة الله

وأخيرًا، فإنّ التداخل مع الناس يمثل سببًا لمرضاة الله، والتقرب منه سبحانه وتعالى، ونيل الأجر والثواب.

إنّ المتأمل في النصوص الدينية، يلمس على نحو جليٍّ، أنّ فضل وثواب خدمة الناس، وحسن العلاقة بهم، يفوق بمراحل فضل تأدية العبادات المستحبة. جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته الأخيرة للحسنين وهو يحثّهما على إصلاح ذات

البين: «فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ﷺ يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ»[1]، ولا يخفى أن صلاح ذات البين يدخل في صميم العمل الاجتماعي.

وورد عن رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سرورًا»[2]، فالنبي ﷺ يشير هنا بوضوح تام، إلى أن أحبّ الناس إلى الله، هم أولئك الذين ينفعون الناس، ويدخلون السرور على قلوبهم، ولم يقل ﷺ أن أحبّ الناس هم أولئك الذين يؤدون الصلاة والصيام ـ بالرغم من علوّ شأن هاتين العبادتين وغيرهما ـ. وبذلك نخلص إلى أن الخدمة الاجتماعية، لها شأن وثواب عظيم عند الله سبحانه، وتعود بالفائدة على الإنسان نفسه في دنياه وآخرته.

مكاسب تشوبها سلبيات

وبقدر ما في العمل الاجتماعي، والتداخل مع الناس، من إيجابيات عظيمة، فإنه كذلك لا يخلو من السلبيات والمشاكل. ولعلّ هناك من يبرّر تنصله من الانخراط في العمل الاجتماعي بوجود تلك السلبيات والمشاكل.

ومنها عدم تفهّم بعض الناس لطبيعة دور الناشط الاجتماعي، ووجود من يسيء ويتهم ويؤذي ويعرقل طريقه، كلّ ذلك صحيح ومتوقع، ذلك أن الناس يختلفون في مستوياتهم وأمزجتهم وأفكارهم، وهناك إمكانية لصدور الخطأ، غير أنّ الحلّ لا يكمن في الابتعاد عن الناس، وإنما في التزام اليقظة، والاستعداد لمواجهة مثل هذه السلبيات، والعمل على تجاوزها، والتغلب عليها. فإنّ من يشترط لانخراطه في العمل الاجتماعي بألّا يواجه مشكلة، وألّا يتكلم عليه ولا يؤذيه أحد، فمثل هذا يبحث عن مجتمع من الملائكة؛ لأنّ ما يطلبه خلاف الطبيعة البشرية.

تحمّل الأذى في العمل الاجتماعي

من هنا فالمطلوب أن يتحمّل الناشط الاجتماعي الأذى في سبيل الله. وضمن

(١) نهج البلاغة. رسالة ٤٧ ومن وصية له عليه السلام للحسن و الحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم.
(٢) الكافي. ج٢، ص١٦٤، حديث٦.

هذا السياق نفهم الحديث الوارد عن النبي ﷺ في قوله: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[(١)]، ذلك أن من يخالط الناس، فإن عليه أن يترقب بعض الأذى الذي يصيبه من جانبهم، وهذا أمر ملحوظ في كلّ عمل اجتماعي، سواء كان في جمعية خيرية، أو نادٍ رياضي، أو مهرجان تطوعي، ولربما كان ذلك عائدًا إلى وجود مشاكل فعلية تعتري ذلك العمل نفسه، أو لاختلاف أمزجة الناس، وفي كلتا الحالتين على الناشط الاجتماعي أن يصبر ويتحمل. إنّ على الإنسان أن يضاعف من دوره الاجتماعي، في محيطه العام، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وأن يهيئ المنخرطون في العمل الاجتماعي أنفسهم لمواجهة السلبيات، وألّا يجعل أحدٌ من تلك السلبيات مبرّرًا للانكفاء والانعزال.

وهنا لا بُدّ أن نعرب عن تفاؤلنا إزاء انتشار الأنشطة الاجتماعية المختلفة، في محيطنا الاجتماعي؛ لأنّ وجود الجمعيات والهيئات واللجان والمهرجانات ومختلف الأنشطة المنبثقة عنها، مؤشر إيجابي على حيوية المجتمع. ولا ضير في صدور بعض الانتقادات تجاه هذه الجمعية الخيرية، أو ذلك المهرجان التطوعي، لدواعٍ مختلفة، إمّا لأخطاء تحصل، أو جرّاء مخالفات شرعية في نظر البعض، كلّ ذلك أمر وارد، لكن المخرج لا يكمن في العزوف عن تلك الأنشطة، وإنما في المزيد من التفاعل، والتوجه جديًّا نحو تجاوز وتصحيح الأخطاء.

وينبغي أن نقول هنا، أنّه بالقدر الذي لا يجوز السكوت فيه على الأخطاء، فإنه لا يجوز أيضًا التشهير والتسقيط، وعرقلة العمل الاجتماعي، بحجة وجود بعض الأخطاء، وإنما الصحيح هو تشجيع الأنشطة الاجتماعية إجمالًا، والسعي في الوقت ذاته من أجل إصلاح الأخطاء، التي يمكن أن تعتريها. وهذا جانب من معنى الصبر على الأذى، بتجاوزه ومعالجة الخطأ. على هذا النحو ينبغي للإنسان المؤمن أن يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، بخدمة الناس والتداخل معهم.

---

(١) كنز العمال. ج٩، ص٢٢، حديث ٢٤٧٣٨.

ثقافة الاحترام

يودّ الإنسان أن تُحترم شخصيته من قبل الآخرين، وأن تُراعى مشاعره وأحاسيسه، وألّا يُساء إلى مقدساته ورموزه.

وذلك حقّ مشروع ينطلق من حبّ الإنسان لذاته، وحرصه على كرامته، واهتمامه بانتمائه الاجتماعي.

لكن تحقيقه يتطلب من الإنسان أن يتعامل مع الآخرين على هذا الأساس، فيحترم شخصياتهم، ويراعي مشاعرهم، ولا يسيء إلى مقدساتهم ورموزهم.

لأنه إذا أهان الآخرين وأساء إلى رموزهم، لا بُدّ أن يتوقع منهم ردّ الفعل المشابه، ولا يستهين بقدرتهم على الردّ، ولو كان يراهم في موقع ضعف، فإن الضعيف قد يصبح قوياً، وخاصة في هذا العصر الذي انتشرت فيه وسائل القوة المالية والتكنولوجية، بعد أن كانت محتكرة، وزادت فيه ثقة الناس بذواتهم الفردية والجمعية.

كما أن من يهين أحداً فإنه يسهم في نشر هذا الخلق السيئ، وتطبيع الجرأة على ارتكابه، مما قد يجعله أحد ضحاياه.

إذا أهنْتَ تُهان

وقد أشارت النصوص الدينية إلى هذه الحقيقة، ضمن تحذيرها ونهيها عن إهانة الآخرين والإساءة إليهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ فَيَسُبُّوا اللَّـهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٠٨].

وتتضمن الآية نهياً صريحاً للمسلمين عن سبّ الأصنام وعبدتها، حتى لا يتجرؤوا على سبّ الله تعالى، فكلّ مجتمع له رموزه التي يقدسها كما تشير الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي جعلنا من طبيعة كلّ أمة أن ترى منهجها مقدساً، حقاً كان أم باطلاً.

وهذا مبدأ تقرره الآية الكريمة للالتزام به في مختلف مواقع الصراع الاجتماعي، دينيًّا كان أو فكرياً أو سياسياً، بأن لا ينزلق الناس في صراعاتهم إلى الأساليب القذرة، كتبادل السبّ والشتم.

قال القرطبي في تفسيره: «قال العلماء: حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسبّ الاسلام، أو النبي ﷺ، أو الله عزّ وجلّ، فلا يحلّ لمسلم أن يسبّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية»(١).

وقال الطباطبائي: «الآية تذكر أدباً دينيًّا تصان به كرامة مقدسات المجتمع الديني، وتتوقى ساحتها أن تتلوث بدرن الإهانة و الإزراء، بشنيع القول والسب و الشتم والسخرية ونحوها، فإنّ الإنسان مغروز على الدفاع عن كرامة ما يقدسه، والمقابلة في التعدي على من يحسبه متعديًا إلى نفسه، وربما حمله الغضب على الهجر والسبّ لما له عنده أعلى منزلة العزة والكرامة، فلو سبّ المؤمنون آلهة المشركين، حملتهم عصبية الجاهلية أن يعارضوا المؤمنين بسبّ ما له عندهم كرامة الألوهية، وهو الله عزّ اسمه، ففي سبّ آلهتهم نوع تسبيب إلى ذكره تعالى بما لا يليق بساحة قدسه وكبريائه»(٢).

---

(١) تفسير القرطبي. ج٧، ص٤١.

(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص٣٢٥.

وفي هذا السياق يأتي ما رواه الإمام محمد الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لعن الله من لعن أبويه. فقال رجل: يا رسول الله، أيوجد رجل يلعن أبويه؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم، يلعنُ آباء الرجال وأمهاتهم فيلعنون أبويه»[١].

ومثله في صحيح البخاري: عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه»[٢].

وورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام أنه قال: «يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ»[٣].

إلى جانب النصوص الدينية، هناك مبادئ ومواثيق حقوق الإنسان، التي تشكّل في مجملها خلاصة للفكر الاجتماعي، وتعبّر عن الضمير الإنساني، وهي تؤكد رعاية حقوق الإنسان الماديّة والمعنوية.

ومن أواخر هذه المواثيق ما أقرّته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) من تأسيس (ثقافة الاحترام) وهو قرار قدّمه واقترحه مندوب (المملكة العربية السعودية) الدكتور زياد الدريس، واستطاع حشد دعم كافٍ من الأعضاء للتصويت عليه عام ٢٠١٦م، في الدورة التاسعة والتسعين بعد المئة، بعد سنة ونصف من النقاش في ثلاث دورات لمجلس المنظمة.

ويدعو القرار إلى الارتقاء بمساهمات المنظمة الدولية لتعزيز ثقافة الاحترام المتبادل.

---

(١) الكافي. ج٨، ص٧١.

(٢) صحيح البخاري. ج٤، ص٨١، حديث ٥٩٧٣.

(٣) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

وقال الدكتور الدريس: إنه في أعقاب حادثة (شارلي ايبدو) تصاعد الحديث والجدل في شأن التلاقي بين ثنائية (حرية التعبير) و(الرموز الدينية)، وتكمن المشكلة في أن الغرب يستخف بتقديس الرموز الدينية، وبمبدأ التقديس عموماً، لكنه يقوم واعياً أو غير واعٍ بتقديس حرية التعبير، من ذلك الإطار نبعت فكرة أن الاحترام المتبادل هو السبيل الوحيد لخلق التوازن بين هاتيك الثنائية المتنازعة.

وأضاف في كلمته أمام المجلس: نحن اليوم نؤسّس لمبدأ جديد في اليونسكو عنوانه: ثقافة الاحترام. حضرت وشاعت هنا خلال العقود الماضية مبادئ عدة، مثل: التسامح، التفاهم، الحوار، السلام. لكن هذه المرة الأولى التي نضع فيها (الاحترام) على طاولة النقاش والاستخدام، ضمن أدوات التداول في اختلافاتنا الطبيعية التي تندرج تحت التنوع الثقافي للبشر. من الاحترام أن لا نسيء أو نشتم الآخرين تحت أيِّ ذريعة أو سبب، فحتى لو لم يكن الآخر مستحقاً للاحترام، فإنني سأمتنع عن شتمه احتراماً لنفسي ولقيمي التي نشأت عليها[١].

الوسط الديني الموبوء

وإذا كان الدين سبّاقاً ورائداً في إقرار مبدأ الاحترام المتبادل، كما رأينا في عدد من النصوص الدينية، فلماذا نجد في الوسط الديني تجاوزاً لهذا المبدأ، عبر تبادل السباب والشتائم واللعن، في مجال الاختلافات الدينية والمذهبية والفكرية، وعبر تعمّد الإساءة من قبل كلّ جهة لرموز ومقدّسات الجهات الأخرى؟

وكان يفترض أن يكون المتدينون أنموذجاً ومثلاً في التزام المبادئ والأخلاق، في اختلافاتهم وتنوعاتهم.

ولعلّ المشكلة تكمن في اعتقاد كلّ فئة دينية أنها تمثل الحقّ المطلق، وأن غيرها باطل محض، ثم الاعتقاد بأنّ دينها يأمر بإهانة أهل الباطل والإساءة إليهم.

---

(١) جريدة الحياة الصادرة بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠١٦م.

وهذا خطأ كبير وافتراء على الدين، وهو مجرد تبرير لنزعة الهيمنة والعدوان، وتوارث الأحقاد والأضغان، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّـهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

لأنّ من يراهم الإنسان أهل باطل لا يخرجهم باطلهم عن الانتماء للنوع البشري، والصنف الإنساني، ولا يسقط حقوقهم الإنسانية، ومنها حق الاحترام، وقد منح الله تعالى بني البشر حق الكرامة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، وجاء عن رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله من ابن آدم»(١).

هذا التكريم لا يختص بأهل الحقّ ولا يستثني أهل الباطل، بل يعمّ كل أبناء البشر. يقول السيد الآلوسي البغدادي في تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي جعلناهم قاطبة، برّهم وفاجرهم ذوي كرم، أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر(٢).

ويقول السيد الطباطبائي: يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر مع الغضّ عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحصنة، فالكلام يعمّ المشركين والكفار والفساق(٣).

ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر قوله: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ... فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»(٤).

كما أنّ على أهل الحقّ مسؤولية تجاه أهل الباطل، وهي دعوتهم إلى الحقّ،

---

(١) كنز العمال. ج١٢، ص١٩٢، حديث ٣٤٦٢١.
(٢) السيد محمد شكري الآلوسي البغدادي. روح المعاني في تفسير القرآن، ج١٥، ص١١٧.
(٣) السيد محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص١٥٢.
(٤) نهج البلاغة. كتاب٥٣.

وتشويقهم إلى منهجه، واستقطابهم إلى رحابه، وذلك لا يكون إلّا باتباع الأساليب الجذابة المؤثرة في الطرف الآخر، كما يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

أما إهانة الآخرين، ولعن رموزهم، والإساءة إلى مقدّساتهم، فإنه عامل تنفير وتشويه، وسبب للتوتر والاحتراب، يهدد السلم الاجتماعي، ويمنع التعايش، ويقدِّم عن الدعوة وأهلها أنموذجاً سيئاً ممقوتاً.

تنقية الحالة الدينية

ما أحوجنا كمنتمين للحالة الدينية إلى أن يحترم بعضنا بعضاً، حينما نختلف في مذاهبنا وأفكارنا ومرجعياتنا، وما أسوأ ما تعانيه ساحتنا الدينية من صراعات تُستخدم فيها الأساليب القذرة، بإهانة كلّ طرف للآخر، واتهامه في دينه، وإسقاط رموزه وشخصياته، لتكون النتيجة اهتزاز صورة الدين، وزعزعة الثقة بنماذج المتدينين.

من الطبيعي أن تتنوع التوجّهات والآراء في المجتمع الديني، وأن يتعدد المراجع الذين يلتف حولهم المتدينون، ومن حقّ كلّ طرف أن يعبّر عن رأيه وذاته، ضمن إطار الاحترام المتبادل.

أما أن ترى جهة نفسها أنها وحدها تحتكر الحقّ والصواب، وأنّ رموزها ومرجعياتها فقط أهلٌ للقداسة والاحترام، ثم توجّه الإهانة والإساءة إلى سائر الرموز والمرجعيات، وتحظر عليهم التعبير عن آرائهم المختلفة معهم، فإن هذا ما لا يمكن قبوله ولا تحقيقه، لأنّ الأطراف الأخرى مقتنعة أيضاً بصوابية آرائها وتوجّهاتها، ولا ترضى بالإساءة لرموزها ومراجعها، مما يدفعها لمقابلة الإهانة بإهانة، وردّ الإساءة بإساءة، وذلك هو ما تعيشه الحالة الدينية في كثير من الساحات، مما يضرّ بسمعة الدين ومصالح مجتمع المؤمنين.

من هنا تأتي ضرورة تعزيز ثقافة الاحترام، وتنقية الحالة الدينية من هذا الوباء الفتّاك.

احترام الناس

لا شيء يُسعد الإنسان كشعوره باهتمام الآخرين به، فذلك ما يعزّز ثقته بنفسه، ورضاه عن ذاته، ويشدّه إلى الآخرين.

إنّ فرح الإنسان باحترام الآخرين له أكثر من فرحه بعطاياهم المادية، وما نراه من ارتياح الطفل حين تحتضنه أمّه، أو يقبّله أبوه، أو يضاحكه أحد، هو تعبير عن هذه الحاجة العاطفية التي تواكب الإنسان طوال حياته، وإن تغيّرت مظاهرها وصور متطلباتها.

ومن العادات الجديدة الحسنة حفلات التكريم للمبدعين والمتميزين، التي تترك أثرًا كبيرًا في نفوسهم، وتثري مشاعرهم وأحاسيسهم، وتحفّز الآخرين للإبداع والتفوق حتى يحظوا بتكريم مماثل.

وكذلك أعياد الميلاد العائلية، التي تمنح الفرصة للعائلة لإبداء الحبّ والاهتمام بكلّ فردٍ من أفرادها بمناسبة عيد ميلاده.

ويؤكّد الإسلام أهمية احترام الآخرين، وإبداء التقدير لهم، وإظهار الاهتمام بهم، فكلّ فردٍ من البشر هو مخلوق لله، وهو محلّ تكريمه، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولا يحقّ لك أن تهين مَنْ كرّمه الله، وفي حديث عن النبي ﷺ يعبّر فيه عن الناس بأنهم (عيال الله)، ومن الطبيعي ألّا يرضى الله بإهانة أحدٍ من عياله.

مظاهر الاحترام

وقد اهتمت التعاليم الدينية بالتأكيد على مفردات سلوكية لتبادل الاحترام بين الناس، وفي طليعتها إلقاء التحية والسلام، حيث ينبغي للإنسان حين يقابل أحدًا أن يبدأه بالسلام، ويبادر بإلقاء التحية عليه، حتى وإن كان صغيرًا، فقد كان رسول الله ﷺ ملتزمًا السلام على الصبيان، وورد عنه ﷺ: «خمس لا أدعهنّ حتى الممات: ...

التسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدي»[١].

وعنه ﷺ: «إنّ أبخل الناس من بخل بالسلام»[٢].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام»[٣].

وإذا كان الابتداء بالسلام مستحبًّا فإنّ ردّ السلام والتحية واجب، ولا يجوز لك تجاهل من يلقي عليك السلام ويحييك، بل عليك أن تشكر له تحيته، وتردّ سلامه، بترحيب أفضل وأجمل، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وعنه ﷺ: «السلام تطوع والردّ فريضة»[٤].

وعن علي عليه السلام: «السلام سبعون حسنة تسع وستّون للمبتدئ وواحدة للرادّ»[٥].

بل لو كان الإنسان منشغلًا بأداء الصلاة، فإنّ ذلك لا يعفيه من واجب ردّ السلام، فيجب ردّ السلام، بنفس الصيغة، ويأثم المصلي إذا لم يفعل ذلك.

البشاشة وحسن الاستقبال

حين يستقبلك إنسان بوجه طلق منشرح، ويقابلك بالبشاشة والترحيب، فإنّ ذلك يبعث البهجة والسرور في نفسك، ويشجّعك على التفاعل معه، وطرح ما لديك من أمور عليه، أما إذا استقبلك بوجه منقبض مكفهر، فإنك لن ترتاح ولن تتفاءل بلقائه.

إنّ حسن الاستقبال هو مؤشّر الاحترام والتقدير، وهو ما يصنع أرضية العلاقة السلمية والتعامل الإيجابي بين الناس، بينما يوحي الفتور والجفاف بعدم الاهتمام

(١) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٦٧، حديث١.

(٢) كنز العمال. ج٢، ص٦٤، حديث٣١٣٣.

(٣) الكافي. ج٢، ص٦٤٤، حديث٣.

(٤) كنز العمال. ج٩، ص١٢٢، حديث ٢٥٢٩٤.

(٥) بحار الأنوار. ج٧٣، ص١١، حديث٤٦.

بالطرف الآخر، وضعف الرغبة في التواصل معه. لذلك ركزت التعاليم الدينية على هذا الجانب، حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اِلق أخاك بوجهٍ منبسط»(١).

وعنه ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر»(٢).

وجاء عن علي عليه السلام: «الْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ»(٣).

وعنه عليه السلام: «بِشْرُكَ يدلّ على كرم نفسك»(٤).

وتتأكّد أهمية حسن الاستقبال بالنسبة لمن هم في موقع التصدّي لحاجات الناس ومشاكلهم، فإنّ من يقصدهم يكون تحت ضغط حاجته ومشكلته، وحين يُستقبل بفتور ولا مبالاة، فإنّ ذلك يضاعف عليه الضغوط، ويملأ نفسه بالتشاؤم والانزعاج.

فالطبيب حين يستقبل مريضه، بصدر رحب، وطلاقة وجه، فإنّ ذلك يرفع معنويات المريض، ويجعله أكثر تجاوبًا مع برنامج العلاج، بعكس ما إذا كان الطبيب جافًّا فاترًا في استقباله للمريض.

وكذلك الموظف حين يستقبل المراجعين، فإنّ لطريقة استقباله أثرًا كبيرًا على نفوسهم، وينطبق ذات الأمر على علماء الدين الذين يجب أن يتحلّوا بأعلى قدرٍ من الأخلاق السامية في استقبال الناس، والتواضع لهم، ليجذبوا الناس إلى الدين بأخلاقهم، وليكونوا قدوة بسلوكهم.

ونشير أخيرًا إلى أهمية حسن الاستقبال للفقراء والمحتاجين، من قبل مسؤولي الجمعيات الخيرية، أو مكاتب العلماء، أو ذوي الخير من المحسنين، فإنّ الحاجة تُشعر صاحبها بالضعف، والسؤال فيه نوع من المذلّة، لكن حسن الاستقبال هو الذي يخفف الوطأة على الفقير والمحتاج، لذلك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا

---

(١) الكافي. ج٢، ص١٠٣، حديث٣.

(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص١٠٣، حديث١.

(٣) نهج البلاغة. حكمة٦.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٧١، حكمة٢٢.

تَنْهَرْ﴾ أي لا تزجره ولا ترفع صوتك عليه.

إنّ مراعاة مشاعر الفقراء والمحتاجين عندما يعرضون حاجتهم، أهمّ من إعطائهم المساعدة والدعم، وإذا رافق العطاء لهم شيء من الاهانة أو الجرح للمشاعر، فلا قيمة لذلك العطاء عند الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ فالاعتذار للفقير عن عدم المساعدة بكلمة طيبة توحي بالاحترام والتقدير، خير من مساعدة يرافقها جرح لمشاعر الفقير وامتهان كرامته.

إظهار الاهتمام

حين يدخل المجلس شخص، فإنّ على الجالسين أن يظهروا الاهتمام به، فيفسحوا له في المكان، ويبدوا له التقدير، ولو بأقلّ حركة للاحتفاء به.

قال الصحابي الجليل سلمان الفارسي: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكئ على وسادة فألقاها إليَّ، ثم قال: يا سلمان! ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكرامًا له إلّا غفر الله له»(١).

وكان ﷺ يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته(٢).

وكان ﷺ إذا جلس إليه أحد تزحزح له شيئًا، روي أنه «دخل على النبي ﷺ رجل المسجد وهو جالس وحده فتزحزح له وقال: ان من حق المسلم على المسلم إذا أراد الجلوس أن يتزحزح له»(٣).

هكذا يربينا الإسلام ويعلمنا على إبداء الاحترام والإكرام لكلّ الناس، وبذلك

---

(١) بحار الأنوار. ج ١٦، ص ٢٣٥

(٢) المصدر نفسه. ج١٦، ص٢٢٨.

(٣) وسائل الشيعة. ج ١٢، ص٢٢٧.

ننال رضا الله سبحانه، وننعم بعلاقات طيبة في محيطنا الاجتماعي.

الاحترام والإكرام خلق حضاري

كما يحتاج جسم الإنسان لبيئة صحيّة يأمن من خلالها الأمراض والأسقام، وتساعد أجهزته وأعضاءه للقيام بدورها السليم، كذلك تحتاج نفسه إلى بيئة اجتماعية سليمة، من أجل أن تكون مشاعره وأحاسيسه سوية وفي المسار الإيجابي. وكما أن للميكروبات والجراثيم أثرًا سيئًا على جسم الإنسان، فكذلك للأجواء الاجتماعية السلبية أثر سيئ على نفس الإنسان، بخلاف الأجواء الإيجابية التي تنعكس عليه بالراحة والرضا وتدفعه للسلوك المستقيم.

الاحترام حاجة إنسانية

من أهم الأمور التي يحتاجها الإنسان في بيئته الاجتماعية هو احترام الآخرين له. إذا كان الناس يتبادلون الاحترام، فإن نفوسهم تكون مرتاحة، ومشاعرهم وأحاسيسهم تكون سوية، وإذا ما فقدوا الاحترام فيما بينهم، تكون النفوس معرضة لاضطرابات تدفع إلى ردود فعل سلبية، وسلوك عدائي تجاه بعضهم بعضًا. من هنا تسعى المجتمعات الراقية إلى المحافظة على أجواء الاحترام داخل محيطها، ونجد في تعاليم الإسلام ما يؤكد على هذا الجانب. فالذين تعيش معهم بشر مثلك، وكما أنك تود أن تُحترم وتُقدر، فهم أيضًا يودون ذلك. وكما تنزعج أنت من أي إساءة وإهانة، فالآخرون كذلك. بالإضافة إلى أن تعاملك الحسن مع من يعيش معك يعزز هذا السلوك في المجتمع، فتضمن أن يتعامل الناس معك ومع عائلتك تعاملًا حسنًا.

النصوص الدينية الواردة في هذا الجانب كثيرة، منها ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أذلّ الناس من أهان الناس»[1]. من يسيء للآخرين يكشف عن نفسية غير سوية، بخلاف من يحترم الناس. الإسلام يؤدب المسلم على أن يتعامل مع الآخرين بالاحترام مهما اختلفت مواقعهم وألوانهم وتوجهاتهم. حتى الصغار فإن الإسلام

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٢.

أولاهم عناية فائقة، ووضع لهم حظًا وافرًا من الاحترام، فلا ينبغي الإساءة للصغير أو إهانته، كان رسول الله ﷺ يبدأ الأطفال بالسلام، ويوجه أصحابه لاحترام الأطفال، ولذلك تجد أن الطفل في بيوت الأئمة عليهم السلام ينادى بالكنية، فلا يكتفى بالاسم المجرد فقط (يا فلان) بل يقال له يا (أبا فلان) حتى يشعر بقيمته ومكانته. بينما تجد في بعض المجتمعات حتى اسم الطفل المجرد يشحون به عليه فيغيرونه إلى ما يشعره بالنقص.

هذه حالة متخلفة؛ لأن الطفل يعيش مرحلة التنشئة وبناء الشخصية، إذا تربى على الاحترام فسوف يحترم الآخرين. وأنت ترى كيف أن الطفل يلتقط كلماته من داخل بيته، فإذا سمع كلامًا بذيئًا فسوف يتعلمه ويتداوله، لذلك لا ينبغي للرجل إذا حصل بينه وبين زوجه خلاف أن يهينها وينهال عليها بالكلمات النابية سيما بمحضر أطفاله، لأن ذلك يوجد جرحًا كبيرًا في مشاعرهم وأحاسيسهم. وعلى الرجل أن يعلم أن إهانة المرأة خلاف الرجولة، روي عنه ﷺ أنه قال: «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم»[١].

الكلمة الطيبة

الإسلام يربينا أن ننظر للإنسان من خلال إنسانيته، فنتعامل معه بالحسنى مهما اختلف لونه وشكله وتوجهه وموقعيته، يقول الحديث الشريف عنه ﷺ: «من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها، ومجلس يكرمه، لم يزل في ظل من الله تعالى ممدود عليه بالرحمة ما كان في ذلك»، بكلمة طيبة تستطيع أن تدخل السرور على قلب أخيك، كما في الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكلمة الطيبة صدقة»[٢]، كما أن الابتسامة أيضًا لها دورها في نفسية الإنسان يقول ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[٣]، يتعجب الإنسان كيف يبلغ بالبعض البخل حتى بالابتسامة في وجه من يلقونه من الناس! علمًا بأن البحوث العلمية تشير إلى أن الابتسامة تصنع أثرها

(١) كنز العمال. ج١٦، ص٣٧١، حديث ٤٤٩٤٣.
(٢) وسائل الشيعة. ج٥، ص٢٣٤، حديث ٦٤٢١.
(٣) كنز العمال. ج٦، ص٤١٠، حديث ١٦٣٠٥.

السحري في صحة الإنسان، حيث تساعد على تخفيف ضغط الدم، وتنشيط الدورة الدموية، واتزان نبض القلب، وما إلى ذلك، ولكنك تجد من يقابل الناس باكفهار وبرود وتجاهل.

أشعِر من يقابلك باهتمامك واحترامك له، حتى يقبل عليك، ويأنس بك وتأنس به. ورد عن الإمام الباقر ﷺ: «عظموا أصحابكم ووقروهم ولا يتجهم بعضكم على بعض»[١]، ينبغي أن نرتقي في تعاملنا مع بعضنا، وأن نحترم بعضنا بعضًا، سيما المجتمعات التي تعيش حالة من التهميش والانتقاص يفترض أن تعوض ذلك في تعاملها الداخلي، فإذا كان الآخر يسيء لأبناء المجتمع فلماذا يسيء أبناء المجتمع لبعضهم بعضًا؟

إكرام الناس

اهتم رسول الله ﷺ وأهل بيته الكرام باحترام الآخرين وإكرامهم وأكدوا عليه قولًا وعملًا، وقد ورد عنه ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جليسه»[٢]. وعن الإمام الصادق ﷺ: «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل»[٣]. وعنه ﷺ: «إنه من عظّم دين الله عظّم حق أخوانه، ومن استخف بدينه استخف بإخوانه»[٤].

كما جاء في صفة خلق رسول الله ﷺ: أنه كان أكثر الناس تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآن ولم تجر موعظة، ما شتم أحدًا بشتمة، ولا لعن امرأة ولا خادمة بلعنة، ولا يأتيه أحد حرًا أو عبدًا أو أمة إلا قام معه في حاجته، يبدأ من لقيه بالسلام ومن رامه بحاجة بادره حتى يكون هو المنصرف، وما مدّ أحد يده فيرسل يده حتى يرسلها، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا وخفض صلاته وأقبل عليه وقال: ألك حاجة؟

---

(١) بحار الأنوار. ج٧١، ص٢٥٤.

(٢) كنز العمال. ج٩، ص١٥٥، حديث ٢٥٤٩٠.

(٣) الكافي. ج٢، ص٢٠٦.

(٤) مستدرك الوسائل. ج٩، ص٥٠، حديث ١٠١٦٩.

الترحيب:

الترحيب: بأن تلقي على القادم عليك تحية تشعره بسرورك بقدومه، كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قال لأخيه المؤمن مرحبًا، كتب الله له مرحبًا إلى يوم القيامة»[١]. ليس من الخلق الإسلامي ألا تكترث بالقادم عليك أو أن تستقبله ببرود مشاعر، سيما الإنسان المتدين ينبغي أن يكون أكثر احترامًا للآخرين، يخبرني شخص أنه دخل على شخص متدين وله مكانة مرموقة، وكانت بيده سبحة وهو يلهج بالتسبيح، ثم يكمل الرجل متعجبًا: دخلت مع ولدي وجلسنا ولكنه لم يلتفت إلينا، بل ظل يلهج بتسبيحه!

هذا ليس من أخلاق الإسلام، إذ كان رسول الله ﷺ يخفف صلاته ليقبل على القادم إليه.

الإطعام:

ومن مظاهر الإكرام الإطعام: وهو من خلق الكرام، كما نقرأ في القرآن الكريم عن ضيف إبراهيم الخليل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [سورة الذاريات، الآيات: ٢٤-٢٦].

وهناك رواية جميلة تقول إن رسول الله ﷺ في إحدى الغزوات «مر به ركب وهو يصلي فوقفوا على أصحاب رسول الله ﷺ فسألوهم عن رسول الله ﷺ ودعوا وأثنوا وقالوا: لولا أنا عجال لانتظرنا رسول الله ﷺ فأقرؤوه السلام ومضوا، فانفتل رسول الله ﷺ مغضبًا ثم قال لهم: يقف عليكم الركب ويسألونكم عني ويبلغونني السلام ولا تعرضون عليهم الغداء»[٢]!

---

(١) الكافي. ج٢، ص٢٠٦.

(٢) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٦٣.

البشاشة رسالة حبّ وتقدير

الإنسان يستقبل الناس بوجهه، فهم لا يرون قلبه، ولا يعلمون ما بداخله، إنما يتعرفون إلى الإنسان من خلال قسمات وتعابير وجهه، التي يستقبلهم بها.

لذا فإن النصوص الدينية تؤكد على ضرورة أن يتحلى الإنسان بصفة البشر، وطلاقة الوجه؛ لأن وجه الإنسان هو المرآة التي تعكس مشاعره وأحاسيسه الداخلية، فكيف هي الصورة التي تُريد أن ترتسم عنك في نفوس الناس؟ بإمكانك تحقيقها من خلال ملامح وجهك حين تلقاهم. وحتى لو نطق الإنسان بكلمات الودّ، وكانت تعابير وجهه مخالفة لما يقول، فإن الناس لن يستقبلوا تلك الكلمات برحابة صدر.

إن البعض قد لا يُعير هذا الجانب أهمية كبيرة، ولا يستفيد من هذه الخصلة للنفوذ إلى قلوب الناس، بل إن بعضًا من الناس يُقابل الآخرين بوجهٍ عابس مكفهر، ليكشف لمن يُقابلهم عن وجود مشكلة نفسية يعيشها، أو أنه لا يحمل مشاعر الودّ والمحبة تجاههم.

لكن الإنسان الواعي يُدرك أهمية هذا الجانب، فتراه يحرص على أن تكون مقابلته للناس بوجهٍ طلقٍ مبتسم، لكي يُعطي انطباعًا إيجابيًّا عن نفسه، ويمتلك قلوب الآخرين باستفادته من هذه الخصلة المهمة.

من ناحيةٍ أخرى، فإن الإنسان عندما يُقابل الناس بوجهٍ طَلِقٍ، فإنه لا يبذل جهدًا، بل إنه يبعث في نفسه الراحة، وفي الوقت نفسه يكسب مودة الآخرين، وورد عن رسول

الله ﷺ أنه قال: «يا بني عبد المطلب، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحُسن البشر»[١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «البشاشة فخُّ المودة»[٢]، وقال عليه السلام: «البشر إسداء الصنيعة بغير مؤنة»[٣]، والصنيعة تعني: المعروف، فتارة يقدّم الإنسان المعروف للآخرين بالمال أو الجاه، وتارةً أخرى يكون ذلك من خلال استقبالهم بالبشر، وهذا الجانب لا يحتاج من الإنسان مؤونة.

ويُعطي رسول الله ﷺ معنى آخر حين يقول: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة»[٤].

إن الابتسامة بحدّ ذاتها مريحة للإنسان؛ لأنها تبعث مشاعر إيجابية في أعماق النفس، وإن كانت مصطنعة.

ولا يعني هذا أن حياة الإنسان تخلو من الأحزان والآلام، إلا أن النصوص تُربّي الإنسان أن ينطويَ على حزنه في داخل قلبه، يقول الإمام علي عليه السلام: «إن بشر المؤمن في وجهه، وقوّته في دينه، وحزنه في قلبه»[٥].

البشاشة كرم وعطاء

البشاشة تدلّ على كرم الإنسان، والعبوس إنما يُعبّر عن تأصّل حالة البخل في نفسه، يقول الإمام علي عليه السلام: «بشرك يدلّ على كرم نفسك»[٦]. وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أتى رسول الله ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، أوصني. فكان فيما أوصاه أن قال ﷺ: إلقَ أخاك بوجهٍ منبسط»[٧]، وعنه ﷺ: «إن الله يُبغض المعبّس في وجه

(١) الكافي. ج٢، ص١٠٣.
(٢) تحف العقول عن آل الرسول. ص٢٠٢.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٤) كنز العمال. ج٦، ص٤١٠.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) الكافي. ج٢، ص١٠٣.

إخوانه»[١]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ثلاثٌ من أتى الله بواحدةٍ منهنّ أوجب الله له الجنة: الإنفاق من إقتار، والبشر لجميع العالم، والإنصاف من نفسه»[٢].

وكما ينبغي للإنسان أن يقابل الناس بوجهٍ منبسط، فإن المحيط القريب منه: أسرته، وأقرباؤه، وجيرانه، وزملاؤه، هم الأولى بأن يلقاهم بطلاقة الوجه، وبحُسن البشر، وعلى الإنسان أن يجعل ذلك عادةً له، فالخير عادة والشر عادة. وذلك يشقّ له طريق النجاح في الحياة؛ لأنه بحاجة لأن تكون علاقته مع الآخرين علاقة إيجابية.

كما أن استقبال الناس بالبشر قد يزيح عنهم آلامًا في نفوسهم، وأحزانًا في قلوبهم.

وحين يكون الإنسان في موقع حاجة الآخرين كالموظف، الذي يتقاضى راتبًا للقيام بعمله، عليه أن يحسن استقبال المراجعين، لكن البعض من الموظفين يتعامل مع الناس بتعالٍ، وكأنه يُحسن إليهم ويتفضّل عليهم، وبعضهم يسعى لإرهاب مُراجعيه، وهذا يدلّ على لؤمٍ في النفس؛ لأن كريم النفس يتسامى عن مثل هذه الأساليب القبيحة. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسوة والقدوة، فهو مع مكانته وعظمته، كان أكثر الناس تبسّمًا في وجوه أصحابه، يُكرم كلّ مقبلٍ عليه، وإن كان غير مسلم، وكان يلتفت إلى أصحابه حين يأتي بعض زعماء القبائل والعشائر، ويقول لهم: «إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه»[٣].

وعلى المدرسين أن يأخذوا هذه الصفة منهجًا في أداء وظيفتهم التعليمية، فيستقبلون طلابهم بطلاقة وجه، وهكذا في مختلف المواقع والمجالات.

وفوق كل تلك المكاسب، فإن البشاشة، وطلاقة الوجه، وحسن البشر مع الناس من موجبات الثواب، وعلى الإنسان أن يستزيد من ثواب الله تعالى عبر مختلف السبل والوسائل.

---

(١) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣١٢.

(٢) الكافي. ج٢، ص١٠٣.

(٣) كنز العمال. ج٩، ص١٥٣.

حسن الاستقبال

تولي الآداب الإسلامية أهمية قصوى لمسألة التحية وحسن استقبال الآخرين. ذلك أنه حين يلتقي الإنسان أخاه الإنسان فهو لا يقابل كتلة صماء جامدة، وإنما يقابل إنسانًا ملؤه الأحاسيس والمشاعر التي تستوجب المراعاة وإبداء الاهتمام، بانشراح صدر وطلاقة وجه.

وقد أشارت كثير من النصوص الدينية إلى أن مشاعر الإنسان تنعكس حتمًا على قسمات وجهه، فإذا كان غاضبًا بان ذلك في وجهه، وكذلك الأمر إن كان غير مبال بالطرف الآخر. لذلك أكدت كثير من تلك النصوص لقاء المرء بالآخرين بوجه طلق، فتلك صدقة ومعروف لا يقلّ عن التصدق بالمال.

إبداء الاهتمام والاحترام

وقد ورد التأكيد في الشريعة باستمرار على إبداء التحية وإبراز الاهتمام عند لقاء أي إنسان كان. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»[1]، وكان رسول الله ﷺ يسلم على الأطفال والفتيان، بل ينبغي للإنسان إذا دخل منزله أن يلقي التحية على أهله، كما يقول تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾، وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية «هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم

---

(١) الكافي. ج٢، ص٦٤٥، حديث٢.

على أنفسكم»(١).

إن على المرء أن يعوّد نفسه إيلاء الاهتمام بالآخرين. ولعلّ هذا ما يضع علامة سلوكية فارقة بين الناس، فبعض الناس لديه هذه العادة الطيبة التي يُشعر من خلالها الآخرين باهتمامه الكبير بهم، فيما آخرون لا يستنكفون عن التعاطي مع الناس بفتور ودرجة أدنى من الاهتمام، أما الصنف الثالث فهم أولئك الذين لا يجدون حرجًا في مواجهة الآخرين بوجه مكفهر. فطريقة التعاطي مع الناس وإيلاء الاهتمام بهم إنما هي عادة يختارها المرء عن قصد.

خلفية الاهتمام بالناس

ولعل هناك باعثين يدفعان المرء نحو حسن استقبال الآخرين، يتمثلان في سلامة النفس وامتلاك الوعي. إذ تشير النصوص الدينية إلى أن سلامة نفس الإنسان تمثل أساسًا صلبًا لحسن علاقة المرء بنظرائه، فالنفس الخالية من العقد عادة ما تبدي الاهتمام بالآخرين، وعلى النقيض من ذلك أولئك الذين امتلأت نفوسهم بالعقد، فإنهم غالبًا ما ينظرون للآخرين باحتقار وترفع. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا الصدد: «الطلاقة شيمة الحر»(٢)، ويعني بالحر تلك النفس المتحررة من العقد، ويقول عليه السلام: «بشرك يدل على كرم نفسك»(٣).

أما الباعث الآخر فهو الوعي، وذلك بأن يعي المرء أهمية العلاقات الإنسانية، فمن يعي ذلك سيولي اهتمامًا عظيمًا بالآخرين، ويحرص على الظهور بشوشًا، طلق الوجه في تعامله معهم. يقول الإمام علي عليه السلام: «من الدهاء حسن اللقاء»(٤)، ويعني الإمام عليه السلام بذلك بأن من ذكاء المرء أن يكون حسنًا في لقائه مع الآخرين.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٨١، حديث٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٤٣، حكمة ١١٩٢.

(٣) المصدر نفسه. ص١٧١، حكمة ٢٢.

(٤) الجليس الصالح والأنيس الناصح. ص٨٦.

حينما يعوّد الإنسان نفسه هذه العادة الحسنة فإنه سينجح في علاقته مع الآخرين، فهذا الأمر داخل في باب الاكتساب والتطبع، فعلى المرء أن يعوّد نفسه كيفية التعامل الحسن مع الآخرين، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، صديقًا أو خادمًا أو أيًّا كان، إذ لا ينبغي بأيّ حال أن يسلك سلوك الغاضب المتجبر، حتى في تعاطيه مع عائلته وأهل بيته، أو مع الضعفاء من خدمه والعاملين تحت يده. فسلامة النفس وامتلاك الوعي كفيلان بوضع الأسس الصلبة لعلاقة صحية مع الآخرين تبدأ من فن التعامل معهم.

ثمار الاستقبال الحسن

إن استقبال الآخرين على نحو حسن فيه كثير من الفوائد الدينية والدنيوية لعل من أبرزها ما يلي:

كسب رضا الله

إن من أول فوائد حسن استقبال الآخرين هو كسب رضا الله واجتناب غضبه. فكما يتطلع المرء لاكتساب الأجر من الله حين يصلي ويصوم ويؤدي العبادات، فإن في التعامل الحسن مع الآخرين أجرًا يعادل ما تحصل عليه من أداء نوافل العبادات، ولربما فاق ذلك بأضعاف. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة: الإنفاق من إقتار، البشر لجميع العالم، والإنصاف من نفسه»[1].

ولعل السؤال هنا؛ إذا كانت البشاشة في وجوه الآخرين من موجبات الجنة، فماذا تخسر أيها الإنسان إذا لقيت الناس بوجه طلق؟. إن من المستغرب أن بعض الناس لا تكاد تجود نفسه بالبسمة في وجوه الناس، ويبخل بانفراج أساريره معهم، كما لو كانت هذه البسمة باهظة الثمن ويصعب عليه أن يعطيها لأي شخص!. كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن الله يبغض المعبس في وجه إخوانه»[2]، وعن علي عليه السلام: «إذا لقيتم

---

(١) الكافي. ج٢، ص١٠٣، حديث٢.

(٢) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٢١، حديث١.

إخوانكم فتصافحوا وأظهروا لهم البشاشة والبشر، تتفرقوا وما عليكم من الأوزار قد ذهب»[١]. فاستقبال الآخرين على نحو حسن هو مدعاة لرضا الله سبحانه وتعالى.

كسب القلوب

إن من النتائج المباشرة لحسن استقبال الآخرين، كسب قلوبهم، والتأسيس لعلاقة ناجحة معهم. يروي الإمام الصادق عليه السلام عن جده النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «حسن البشر يذهب بالسخيمة»[٢]، أي البغضاء. ويقول علي عليه السلام: «البشاشة فخ المودة»[٣]، فكما تنصب فخاخًا لاصطياد الطيور، فإن البشاشة بمنزلة الفخاخ المخصصة للظفر بودّ الآخرين، وهذا يشمل جميع المحيطين بنا أيًا كانوا، ابتداء من أفراد العائلة، وبحسب الرواية عن علي عليه السلام: «وَ لَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ»[٤]، وانتهاء بآخر من تتعاطى معهم من عامة الناس. فحسن الاستقبال والبشاشة والوجه الطلق مدعاة لكسب قلوب الناس على أي حال.

ويحضرني هنا ما كتبه إليّ أحد الطلاب المبتعثين للدراسة في الولايات المتحدة، حين أشار إلى أن أهم ما لفت نظره في تلك البلاد، هو أن غالب من تعامل معهم أشعروه بالاهتمام البالغ، وحين راجع المستشفى شعر باهتمام الجميع به، بدءًا من موظفي الاستقبال مرورًا بتعاطي جميع طاقم المستشفى، وصولًا لتعامل الطبيب المعالج. ولعلّ تعاملًا حسنًا من هذا القبيل، مفيد بالدرجة الأساس في تحقيق أول العلاج، بخلاف من يستقبلك بغضب وضيق صدر، فإنه قد يضاعف عليك المرض.

وهكذا الحال في طريقة الاستقبال لدى جميع المرافق العامة، ومنها المطارات مثلًا، فكثيرًا ما يتحدث العائدون من السفر إلى بلادهم عن انطباعاتهم الإيجابية أو السلبية إزاء استقبال موظفي الجوازات أو الجمارك لهم، فبعض هؤلاء الموظفين

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٢٢٥، حديث٨.

(٢) الكافي. ج٢، ص١٠٤، حديث٦.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣٩.

(٤) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

أحرار وعندهم درجة عالية من التربية والأخلاق، فتجدهم يرحبون بالقادمين، فيما يصرّ البعض الآخر على استقبال الناس بوجه مكفهر مغضب، فلنا أن نتساءل حينها عن ردة فعل هذا القادم وهو يرى أن أول من يستقبله في البلد بهذا الجفاء والجفاف، والأدهى من ذلك إذا كان القادم من غير مواطني البلاد، فلك أن تتخيل الانطباع الذي سيتركه هذا الموظف لدى هذا الزائر، وأي صورة سيعكسها عن صورة البلد. إن على الإنسان أن يشعر الآخرين، أيًا كانوا، باهتمامه بهم.

لا عذر لسوء الخلق

إن على الإنسان المسلم أن يدرّب نفسه على حسن استقبال الناس في جميع الأحوال تأسيًا بسيرة النبي ﷺ. وحتى لو كان الشخص يعاني من مشكلة أو مرض يؤثر على مزاجه، فهذا ليس عذرًا لسوء الخلق مع الآخرين، وكما في الحديث الوارد عن الإمام علي عليه السلام: «المؤمن حزنه في قلبه وبشره في وجهه»[١]. فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام يصف خُلق رسول الله ﷺ بالقول: «كان يعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحدًا أكرم عليه منه»[٢] فكل شخص يشعر مع رسول الله أنه أهم شخص عنده ﷺ، بخلاف ما تراه عند البعض، فقد يسلم عليك ولكنه يبقى مشغولًا بأمر آخر كالعبث بهاتفه الجوال مثلًا، وهذا ليس من الخلق القويم، فكل من جالس الرسول ﷺ صار جليسه حتى يكون الآخر هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، ومن يتحدث معه ﷺ يترك له النبي العنان مهما طال حديثه فلا يقطع عليه حديثه، وورد عن أنس بن مالك أنه قال: «أُقيمَتِ الصلاةُ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُناجي رجلًا في جانبِ المسجدِ، فما قام إلى الصلاةِ حتى نام القومُ»[٣].

وعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٧٣، حديث٤١.

(٢) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٤٣٨، حديث١.

(٣) صحيح البخاري. ج ١، ص ١٥٨.

أيام سأل عنه»[١]، وفي ذلك درس للإمام و المأمومين بأن يتفقدوا من يحضر معهم الصلاة، ويسألوا عمّن يتغيب عنهم، ويبدوا له اهتمامهم، فإن كان غائبًا دعوا له، وإن كان شاهدًا زاروه، وإن كان مريضًا عادوه، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لحظاته بين أصحابه ـ أي كان يدير نظره على جميع من يجلس معه ـ فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله يده من يديه حتى يكون هو التارك[٢]، و«ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك»[٣].

هكذا ينبغي أن يتأسى المسلم بنبيه، وهكذا ينبغي أن نأخذ بهذه الأخلاق، فنلقى الآخرين بوجه طلق ففي ذلك خير الدنيا والآخرة.

---

(١) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٣٣.

(٢) الكافي. ج٢، ص٦٧١.

(٣) تفسير القرطبي. ج١٨، ص٢٢٧.

الهدية تزرع المحبة

ليس شيء يسعد الإنسان، ويزيده ثقة بنفسه، أكثر من شعوره باهتمام من حوله به، ومساندتهم له. وفي المقابل ليس هناك شيء يؤذي الإنسان ويزعجه أكثر من إحساسه بإهمال من حوله له، إذ ينتابه شعور بالدونية، وأنه لا قيمة له عندهم، إضافة إلى ما يكتنفه من ألم وشعور بالوحدة والوحشة أمام تحدّيات الحياة ومشاكلها.

هذه الحالة يعيشها الإنسان في مختلف أطوار حياته مع تفاوت درجاتها. فمرحلة الطفولة يحتاج أن يشعر بعناية أمه وأهله، فيبكي في بعض الأحيان لا لجوع أو لعطش، وإنما لشعوره بالحاجة إلى العطف والحنان، وبمجرد أن يُحتضن ويُقبَّل يهدأ روعه ويسكن. وإذا رأى الطفل والدته منشغلة عنه يحاول أن يلفت نظرها إليه بمختلف الوسائل والأساليب.

هذا الشعور لا يقتصر على مرحلة الطفولة والصغر فحسب، بل إنه يزداد ويشتدّ إذا كبر الإنسان وأصبح هرمًا ضعيفًا. فكبير السنّ قد لا يحتاج شيئًا ماديًّا، لكنه يحتاج إلى أشياء معنوية تشعره بقيمته، واهتمام من حوله، لكي لا يتأذّى نفسيًّا.

الإنسان في حالة مرضه ينتابه هذا الشعور أيضًا، فقد لا يستطيع من حوله تقديم العلاج له، لكن وجودهم حوله واهتمامهم به يرفع من معنوياته، مما يساعده في التغلب على مرضه، جاء عن مولى للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: مرض بعض مواليه، فخرجنا إليه نعوده، ونحن عدة من موالي جعفر، فاستقبلنا جعفر عليه السلام في

بعض الطريق فقال: لنا أين تريدون؟ فقلنا: نريد فلانا نعوده، فقال لنا: قفوا! فوقفنا، فقال: مع أحدكم تفاحة أو سفرجلة أو أترجة أو لعقة من طيب أو قطعة من عود بخور؟ فقلنا ما معنا شيء من هذا، فقال: أما تعلمون أن المريض يستريح إلى كلّ ما أدخل به عليه؟»[(١)].

وهكذا حينما يرزأ الإنسان بفقد عزيز فهل يريد من الناس أن يعطوه مالًا أو مشربًا أو مأكلًا؟ كلا، ولكنه يريد منهم الاهتمام والالتفاف حوله. لذلك فإن الإسلام يحث الإنسان أن يهتم بمن حوله وخاصة في أوقات ضعفهم ومحنهم، حتى يبادلوه نفس الشعور في وقت حاجته لهم.

ومن الصور التي تشير إليها النصوص الدينية لإشعار الآخرين بالاهتمام، مسألة الهدية. أنْ تقدّم لشخص ما شيئًا يدخل عليه السرور والبهجة، وتشعره باهتمامك به. وقد وردت نصوص كثيرة تشجع على التهادي كالرواية التي وردت عن رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا فإن الهدية تذهب بالضغائن»[(٢)]. فالهدية تنتج المحبة، بل تفك حالة الاحتقان والبغض إن كان موجودًا. قد تكون بينك وبين شخص ما قريبًا كان أو بعيدًا تشاحن واختلاف، وبهدية تقدمها له تزيل هذه المشكلة والضغن، وهذا أمر يؤكّده علماء النفس والاجتماع. على الإنسان ألّا يغفل هذا الجانب عمّن هم قريبون منه.

حين يحدث خلاف بينك وبين زوجتك، وتخرج من منزلك، فعد لها بهدية تزيل هذا الاحتقان والخلاف، ولا تعد لفتح الملف السابق من جديد. وهكذا الحال مع الوالدين والأولاد، وكلّ من حولك، جاء في الرواية عن رسول الله ﷺ: «جبلت النفوس على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[(٣)]. وهناك رواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة

---

(١) الكافي. ج٣، ص١١٨، حديث٣.

(٢) المصدر نفسه. ج ٥، ص ١٤٤، حديث ١٤.

(٣) كنز العمال. ج١٦، ص١١٥، حديث ٤٤١٠٢.

إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور»[١].

وجاء عن الإمام الرضا عن آبائه عن رسول الله ﷺ: «نعم الشيء الهدية مفتاح الحوائج»[٢]. قد تُهدي شخصًا شيئًا ما، ثم تحتاجه يومًا فتكون مفتاحًا لحلّ قضيتك. وفي رواية جميلة مفادها أن الهدية قد تكون أكثر نفعاً من الصدقة، كما جاء عن علي عليه السلام: «لأنْ أهدي لأخي المسلم هدية تنفعه أحبّ إليّ من أن أتصدّق بمثلها»[٣].

لهذا ينبغي للإنسان أن يستفيد من هذه الوسيلة لتأكيد حالة المودة بينه وبين الآخرين، وليشعرهم باهتمامه، وليزيل أيّ ترسّبات أو أيّ حساسيات حادثة.

قبول الهدية ورمزيتها

في المقابل ينبغي للإنسان المُهدى إليه أن يتقبل الهدية. ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله ﷺ: «من تكرمة الرجل لأخيه أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده ولا يتكلّف له شيئًا»[٤].

وهنا نقطة مهمة وهي رمزية الهدية. من الجيّد أن تقدم هدية لصاحب مناسبة سعيدة كالزواج مثلًا، أو لشفاء من مرض، أو لقدوم مولود جديد. ولكن ينبغي مراعاة الجانب المادي، فليس من الصحيح أن يُتكلّف في الهدية، بل هو منهي عنه كما في النص السابق: «ولا يتكلّف شيئًا». لكننا نجد في مجتمعاتنا أن الهدية أصبحت ثقلاً وعبئاً، وفي بعض الأحيان تكون هناك مزايدة، فإذا حصل شخص على هدية قيمتها مئة ريال ردّها في مناسبة أخرى بضعف القيمة. وهذا غير صحيح؛ لأنه قد يسبب حرجاً لكثيرين.

ثم إنّ قبول الهدية ينبغي أن يكون من أيّ شخص كان؛ غنيًا أو فقيرًا، ولا ينبغي

(١) وسائل الشيعة. ج٢١، ص٥١٤، حديث٢٧٧٢٨.

(٢) عيون أخبار الرضا. ج ٢، ص ٧٩، حديث ٣٤٢.

(٣) الكافي. ج٥، ص١٤٤، حديث١٢.

(٤) المصدر نفسه. ج٦، ص٢٧٦، حديث١.

رفضها ترفّعًا، أو شفقة، فردّ الهدية إهانة لمن يقدمها. جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أن زوجه أم المؤمنين عائشة قالت: أهدت إليَّ امرأة مسكينة، فلم أقبلها رحمة لها. فذكرت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «ألا قبلتيها منها وكافيتيها منها فلا ترى أنك حقّرتيها. يا عائشة! تواضعي، فإن الله يحب المتواضعين ويبغض المستكبرين»[(١)]. وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ولو أهدي إليَّ ذراع لقبلت»[(٢)].

موظفو الدولة وقبول الهدية

هناك حالة استثنائية في الإهداء أو في قبول الهدية، تتمثل في عمال الدولة وموظفيها. فالإهداء لهم أمر مشكل، ولا ينبغي لهم أن يقبلوا الهدايا، وخاصة بالنسبة للمراجعين؛ لأن الهدية قد تأخذ منحى الرشوة والمحسوبيات. ومع الأسف الشديد، أصبحت هذه الحالة منتشرة، حتى تعوّد الموظفون هذا الأمر.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هدايا العمّال (موظفي الدولة) حرام كلها»[(٣)]. وورد في السيرة النبوية أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استعمل عاملًا، فجاءه العاملُ حين فرغ من عملِه، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا لكم وهذا أُهديَ لي. فقال له: (أفلا قعدتَ في بيتِ أبيكَ وأمكَ، فنظرتَ أيُهدى لك أم لا). ثم قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشيةً بعد الصلاةِ، فتشهَّد وأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثم قال: (أمّا بعد، فما بالُ العاملِ نستعملُهُ، فيأتينا فيقول: هذا من عملِكم، وهذا أُهديَ لي، أفلا قعدَ في بيتِ أبيهِ وأمِهِ فنظر: هل يُهدى لهُ أم لا، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ، لا يغلُّ أحدُكم منها شيئًا إلا جاء به يومَ القيامةِ يحملهُ على عُنقهِ»[(٤)].

هذا الأمر تجده مطبقًا في الدول الغربية، فإن أيّ شخص يوظف في الدولة، سيما إذا كان ذا منصب كبير، يُعمل له ذمّة مالية، ترصد من خلالها ممتلكاته لينظر

(١) كنز العمال. ج٥، ص ٨٢١، حديث ١٤٤٨٢.

(٢) صحيح البخاري. ص٣٩٠، حديث ٥١٧٨.

(٣) كنز العمال. ج٦، ص١١٢، حديث ١٥٠٦٨.

(٤) صحيح البخاري. ص ٢٤٠، حديث٦٦٣٦.

في التغير غير الطبيعي في حسابه، ويُساءل عنه، فإذا ما ثبت عليه رشوة أو قضايا غير قانونية عوقب عليها. أما في بلداننا فقد يصل المسؤول الوظيفة فقيرًا، وبعد فترة تجد ممتلكاته في ازدياد، بيوت وقصور وسيارات وأرصدة مالية، وليس هناك من يسأله من أين لك هذا؟! هذا فساد واضح. ولهذا تسعى الآن هيئة مكافحة الفساد على إقرار نظام الذمم المالية لموظفي الدولة سيما أصحاب المناصب العليا.

التهادي بين الناس يكرّس حالة المودة بينهم، فينبغي الحثّ عليه، بشرط ألّا يكون هناك أيّ تكلّف، وأن تقبل هذه الهدية من أيّ شخص كان، ويستثنى من ذلك موظفو الدولة. ولا تقتصر الهدية على الأشياء المادية بل حتى المعنوية كالحكمة والموعظة والإرشاد وهي الأهمّ. ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله تعالى بها هدى أو يرده عن ردى»[1].

---

(١) كنز العمال. ج١٠، ص١٧٢، حديث ٢٨٨٩٢.

حسن الاستماع والإصغاء للآخرين

امتلاك النعمة شيء، ودرجة الاستفادة منها شيء آخر. قد يمتلك الإنسان نعمة من النعم فلا يحسن الاستفادة منها، أو تكون استفادته منها بدرجة منخفضة. لهذا يوجّه الدين الإنسان إلى الالتفات للنعم التي منحه الله إيّاها، وأن يحسن الاستفادة منها إلى أعلى درجة ممكنة. ومن أعظم النعم الإلهية نعمة السمع، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ومن أهمّ وظائف هذه النعمة أن يسمع الإنسان ما عند الآخرين، ومن الطبيعي أن يستفيد من سمعه، لكن الكلام في حسن الاستفادة، وفي بلوغ أقصى درجات الاستفادة، وهذا الأمر الذي تهدف التعاليم الدينية للتوجيه إليه. عليك أن تحسن الإصغاء للآخرين حينما يتحدثون، فهو أنفع لك.

لماذا لا يصغون للآخرين؟

لكن بعض الناس لا يدرّبون أنفسهم على حسن الاستماع والإنصات وذلك لأحد الأسباب التالية:

الأول: حينما يصاب الإنسان بنوع من الغرور والاستهانة بما لدى الآخرين، فلا يرى أن ما يقولونه شيء مهم يستحق الاستماع والإصغاء، فيعرض عن حديثهم ويتلاهى عنه، ولربما قاطعهم، أو تعامل معهم بما ينفرهم من الحديث معه، وهذا سوء تعامل مع نعمة السمع، وبالتالي خسران الاستفادة، فكما قيل: العلم كله في

العالم كله، أنت لديك علم ومعرفة، لكن قد تكون علمت شيئًا وغابت عنك أشياء، فلماذا لا تستمع إلى الآخرين، وتطّلع على ما لديهم وما عندهم؟

القرآن الكريم يمدح المؤمنين بأنهم الذين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، والاستماع غير السّماع، فهو يعني قصد السمع والاهتمام بما يقال، ولكن ما كلّ ما يسمعه الإنسان يكون صحيحًا أو أنه الأفضل والأصوب، لذا لا بُدّ من إعمال العقل للتمييز بين ما هو حسن وما دون ذلك، وما هو أحسن، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، يسمعون كلامًا كثيرًا لكنهم يستمعون ويتّبعون الأحسن منه.

قد يجمعك لقاء بمن يخالفك في الدين، فلا تحتقره على أنه غير مسلم، إنه بشر ولديه عقل ووجدان وتفاعل مع الحياة، فلربما كان لديه ما هو مفيد، فـ «الحكمة ضالة المؤمن»[(١)]، وعندنا نصوص تأمر بأخذ الحكمة حتى من المشرك أو المنافق، فعن عليٍّ عليه السلام: «خذوا الحكمة ولو من المشركين»[(٢)]، وعنه عليه السلام: «الحكمة ضالة كلّ مؤمن فخذوها ولو من أفواه المنافقين»[(٣)].

وكذلك من يخالفك في المذهب والرأي، ينبغي أن تصغي لحديثه، ولو كنت في معرض خيار بين أحد أمرين: أن تستمع لمخالف، أو لموالف، فاختر المخالف؛ لأن الموالف ـ الموافق ـ هو أنت، نسخة مكررة عنك، كأنك تنظر إلى نفسك في المرآة، لكن المخالف قد يطلعك على شيءٍ آخر لم تكن تعرفه، من ثم تفكر فيه، فلربما كان صحيحًا ولربما كان خطأً.

الثاني: حينما يكون الإنسان في مكانة عالية، ويرى أن الذين حوله أقلّ منه فهمًا وإدراكًا، فإنه يستهين بكلامهم. ولذلك نماذج واضحة منها:

- **الأب**. يرى نفسه سلطة عليا في المنزل، فما عسى أن يكون شأن الزوجة

---

(١) نهج البلاغة. قصار الحكم رقم ٨٠.

(٢) بحار الأنوار. ج٢ ص٩٧، حديث ٤١.

(٣) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ، ص٢٢.

أو الأولاد عنده؟ قد يتجاهل حديثهم، أو لا يسمح لهم بالحديث. وقد كنّا نلاحظ في السابق مثلاً حين يكون المجلس ممتلئًا بالكبار ويريد الشاب أن يتكلم، فإن أباه ينهاه عن الحديث لوجود الكبار، وهذا خطأ، فحديثه إن كان فيه خلل سوف يجد من يوجهه إلى ما هو صحيح. بينما بعض الآباء الواعين على العكس من ذلك في الاهتمام بالحديث مع أبنائهم، وحين يتناقشون مع أبنائهم قد يحصلون على آراء ما كانوا يتوقعونها منهم. كما أن الحديث مع الأبناء ينمّي إدراكهم وأفكارهم وثقتهم بأنفسهم.

- **الحاكم**. حيث يرى بيده السلطة وأزمّة الأمور، فلا يرى أن هؤلاء المواطنين الضعفاء هم في مستوى من الرأي الذي يمكن أن يعتدّ به في الفكر والسياسة مثلًا، وقد كان الإمام علي عليه السلام يشجع مواطنيه أيام خلافته على طرح أرائهم أمامه، ويطمّنهم أنه لا ينزعج من نقدهم، بل يرحّب به، يقول عليه السلام: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»[(١)].

- **الطبيب**. يرى في نفسه أنه أعلم وأخبر من المريض، لهذا لا يكلف نفسه الاستماع إلى المريض كثيرًا إما غطرسة، أو أنه ليس لديه وقت ليضيعه مع كلّ مريض. يصف الدواء وإذا ناقشه المريض، قال نفّذ ولا عليك. بينما الأطباء في الغرب يصرفون وقتًا مع المريض في شرح المرض له، وإعطائه نبذة عنه ولو عن طريق مكاتبهم وسكرتاريتهم. الإصغاء للمريض يفيد الطبيب في تشخيص المرض، وكشف بعض الجوانب التي قد لا تظهرها الفحوص والتحاليل، ويفيد المريض بإشعاره بالاهتمام والعناية.

---

(١) نهج البلاغة. خطبة رقم ٢١٦ خطبها في صفين.

- **المعلم**. بحاجة إلى أن يسمع من تلاميذه ويشجّعهم على المناقشة والحوار، فهذا يجعله مفضلًا لدى الطلاب. فالتعليم عبر التلقين أسلوب متخلف، وإثارة ذهن الطالب وتدريبه على التفكير هو المطلوب.
- **عالم الدين**. يحتاج إلى هذا الأمر أيضًا، فقد يلفت الإنسان العادي نظر العالم إلى جانب مهم، وخاصة في قضايا التشخيص والتطبيق للأحكام والقيم الدينية. عن الحسن بن الجهم قال: كنا عند الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وذكرنا أباه ـ الإمام موسى الكاظم عليه السلام ـ فقال عليه السلام: «كان عقله لا يوازى به العقول. وربما شاور الأسود من سودانه ـ أي الغلام ـ فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فأجاب عليه السلام: إن الله تعالى ربما فتح على لسانه»[1].

وكم من خادم أو عامل تحدث مع صاحب العمل ولفت انتباهه إلى شيءٍ كان غائبًا عن ذهنه.

فوائد الإصغاء والاستماع

لهذا على الإنسان ألّا يتكبر على الآخرين، وأن يصغي لحديثهم، فهذا يعود عليه بمنافع، أهمها:

أولًا: الاستفادة منهم.

ثانيًا: الإصغاء للآخرين يعتبر مظهرًا من مظاهر الاحترام لهم. فحين تصغي لشخص أيًّا كان فإنك تشعره بقيمته واحترامه، بينما إذا لم تكن مباليًا بحديثه فإنك تشعره بالازدراء والتحقير. الصغير يحتاج من الكبير أن يصغي إليه، والكبير الطاعن في السنّ بحاجة كذلك إلى أن يسمعه الشاب ومن هم دون سنه، فكما يحتاج الطفل إلى مزيدٍ من الدلال والحبّ، فإن الكبير يحتاج إلى مزيدٍ من الاحترام والتقدير، والشباب عليهم أن يعرفوا أنهم في يومٍ

---

(١) بحار الأنوار. ج٨٨، ص٢٥٤، حديث ٥.

ما سيكونون شيوخًا في هذه الحالة، لذلك على الإنسان أن يسمع للكبير فهو يرتاح لذلك، وهو ما يشير إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، لا تُبْدِ التبرّم من كلام وتصرف الكبير. في بعض الأحيان لضعف الذاكرة قد يكرر القصة لأكثر من مرة، فلا تشعره بالضجر، ففي ذلك جرح لمشاعره.

ثالثًا: الإصغاء للآخرين يفيدهم في تنفيس الاحتقانات وإزالتها من نفوسهم. قد يتحدث لك شخص بمشكلة يراها كبيرة، لكن إصغاءك إليه، وإتاحتك الفرصة له لكي يبدي ما في نفسه يزيح عنه هَمّ المشكلة شيئًا ما، والعكس تمامًا لو واجهته بالصدّ وعدم الاهتمام فإن المشكلة تتكرس عنده وتزداد. هذا أمر ملحوظ على صعيد العائلة والأصحاب، وحتى مع عامة الناس، فإذا حدثك أيّ شخص عن مشكلة يواجهها فاستمع إليه، فأنت تساعده وتريحه نفسيًا فلا تبخل عليه. الحكام إذا أتاحوا للناس فرصة الحديث والتعبير عن قضاياهم فإن ذلك في مصلحتهم ومصلحة الشعب والوطن. أما تكميم الأفواه فهو كبت، والكبت يولّد الانفجار.

من هنا جاء كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وتَعَلَّم حُسنَ الاستِماعِ كَما تَعَلَّمُ حُسنَ القَولِ»[1]، حاول أن تفهم كلام الطرف الآخر، مهما كان ذلك الطرف، وكما ورد عن علي عليه السلام: «لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال»[2]، وعنه عليه السلام: «خذ الحكمة ممن أتاك بها، وانظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال»[3]، البعض يتأهّب للردّ على شخص يراه خارج دائرته، لا لأن قوله غير صواب، فهو لم يسمعه، لكنه يتوقع منه أن يقول ما

(١) بحارالأنوار. ج ١، ص ٢٢٢، حديث ٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٤٢٣، حكمة ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه. ص ١٩٩، حكمة ١٥.

هو خطأ فلا يصغي له، وهذا خطأ كبير. استماعك له يتيح لك فرصة التفكير والحكم بعقلانية، حاول أن تجد بين ثنايا حديثه نقاطًا إيجابية. وقد تسمع فكرة من شخص لكنه لا يحسن التعبير عنها، فحاول أن تلتقطها وتصوغها بالشكل المناسب. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عَوِّدْ أذنك حسن الاستماع»[1]. حاول أن تتدرب على هذه الحالة، بعض الأحيان تدخل مجلسًا وكلّ شخص أو شخصين يتحدثون في جانب، أو إذا تحدث شخص قطعوا عليه كلامه. كان من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ما قطع على أحدٍ حديثه قطّ، وهناك رواية عن أنس قال: «أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَعَرَضَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم رَجُلٌ فَحَبَسَهُ بَعْدَ مَا أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ»[2] وفي رواية أخرى «أقيمت صلاة العشاء فقال رجل: لي حاجة، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يناجيه حتى نام القوم أو بعض القوم ثم صلوا»[3].

هكذا يعطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس فرصة للتعبير عمّا بداخلهم، وهذا درس لنا.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص٣٤١.

(٢) صحيح البخاري. كتاب الأذان، حديث ٦٤٣.

(٣) صحيح مسلم. كتاب الحيض، حديث ١٢٦.

احترام خصوصيات الآخرين وأسرارهم

لكل إنسان في حياته خصوصيات لا يحب أن يطّلع الآخرون عليها، وذلك حقّ من حقوقه، حيث نصّت القوانين والمواثيق الحقوقية على عدم جواز انتهاك شخصية الإنسان في خصوصياته، كما أن التعاليم الدينية أيضًا أعطت الإنسان هذا الحقّ وجعلت لخصوصياته حرمة، فلا يجوز لأحدٍ أن يكشف شيئًا مما يراه الآخرون سرًّا من أسرارهم وخصوصية من خصوصياتهم، سواء كان ذلك على مستوى وضعهم المادي، أو كلامهم ومواقفهم، وما يرتبط بأيّ شأنٍ من شؤونهم الخاصة.

الحديث هنا عن الحقّ الشخصي، فإذا كان للإنسان سرٌّ لا يريد أن ينشره بين الناس، فهذا حقّه وله حرمته، ولا يحقّ التعدّي عليه، وقد عالجت التعاليم الدينية هذا الأمر في أبعاد:

الأول: الإنسان يتحمل مسؤولية أسراره وخصوصياته

وذلك بأن يكتم ما لا يريد نشره، كما يقول الشاعر:

إذا المـرء أفشـى سـرّه بلسـانه ولام عليـه غيـره فهـو أحمـقُ

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

البعض يفشي سرّه لشخص ما، ويريد منه التكتم عليه، ولكن قد يكون هذا سببًا لإفشاء السرّ غالبًا، فإذا كان صاحب الشأن لم يحتمل كتمانه، فكيف بالآخر؟

وقديمًا قيل: كلّ سرٍّ جاوز الاثنين شاع. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء

أحفظ لسرّه»[١]، وعنه ﷺ: «صدر العاقل صندوق سرّه»[٢] وعنه ﷺ: «كلما كثر خزّان الأسرار كثر ضياعها»[٣].

لا بُدّ أن يكون الإنسان رزينًا وقادرًا على كتمان سرّه، وإن احتاج الأمر إلى مِرَان. الإمام جعفر الصادق ﷺ يوصي قائلًا: «لا تطلع صديقًا من سرّك إلا على ما لو اطّلع عليه عدوك لم يضرّك»[٤].

الثاني: كتمان أسرار الآخرين

حياة الإنسان مرتبطة بالآخرين، فمتى ما اطّلع على أسرارهم لسبب ما، فعليه أن يكتمها. وقد جاء في التعاليم الدينية تحذير من إفشاء ما يخصّ الآخرين، سواء علمت به عن طريق إخبار الشخص نفسه، أو عن طريق آخر، ومن الواجب على كلّ إنسان أن يحترم خصوصيات الآخرين، وإفشاؤه لها يُعَدّ خيانة، كما ورد عن الحسن البصري: «إن من الخيانة أن تحدث بسرِّ أخيك».

على الطبيب مثلًا أن يحفظ أسرار مرضاه، ولا يحقّ له الحديث عن خصوصياتهم، إلا في الدائرة التي يسمح بها المريض، أو لها ارتباط بمصلحته.

وفي العلاقة الزوجية حيث يطّلع كلا الزوجين على خصوصيات الآخر، فالعلاقة بينهما مفتوحة كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[سورة النساء، الآية: ٢١]، فلا يحقّ لأيٍّ منهما أن يفشي أسرار الآخر، سواء كانت العلاقة الزوجية قائمة بينهما أو انتهت بسبب الطلاق أو الوفاة، وخلاف ذلك يُعَدّ خيانة، كما روي عن رسول الله ﷺ: «إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرّها»[٥].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص٣٠.

(٢) نهج البلاغة. الحكمة ٦.

(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص٣٩٦.

(٤) بحار الأنوار. ج٧١، ص١٧٧، حديث ١٥.

(٥) صحيح مسلم. ج٤، ص١٥٧.

ومن المجالات التي تحدثت عنها النصوص الدينية ما يرتبط بالميت، فالمغسّل قد يطّلع على بعض الخصوصيات في جسد الميت، عليه كتمانها، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من غسّل ميتًا فأدّى فيه الأمانة ولم يفشِ عليه ما يكون منه عند ذلك، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[١].

والسفر أيضًا مجال للاطّلاع على أسرار المرافقين وخصائصهم. لهذا على رفيق السفر أن يتحفظ على خصوصيات من يسافر معهم، وليس من الصحيح أن يعود بلده وينشر ما اطّلع عليه من الآخرين، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس من المروءة أن يحدث الرجل بما يلقى في السفر من خير أو شرّ»[٢].

وكذلك من وثق بك وكشف لك شيئًا من خصوصياته، فعليك أن تتحمل الأمانة وتصونها، ورد عن النبي ﷺ: «إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»[٣]. أي إن التفاتته دليل على حذره من سماع الآخرين لحديثه. فعليك أن تراعي حذره وتحفظ سرّه.

بهذا يظهر أن الإسلام عالج أدقّ تفاصيل العلاقة بين أبناء البشر، حتى تكون العلاقة بينهم علاقة ودّ وانسجام، وصون واحترام. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن عبد الله بن سنان قال: قلت له عليه السلام: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: «نعم». فقلت: أعني سفليه؟ قال عليه السلام: «ليس حيث تذهب إنما هو إذاعة سرّه»[٤].

لهذا على كلّ إنسان أن يحفظ أسرار الآخرين، ومن القبيح أن يكون همّ الإنسان هو البحث والتنقيب عن أسرار الناس، وليعلم أنه كما لغيره سرّ لا يريد كشفه، فله هو أيضًا أسرار لا يريد كشفها، ومتى ما كشف سرّ غيره انكشف سرّه هو أيضًا، كما ورد

---

(١) مسند أحمد. ج٦، ص١٢٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه. ج٢، ص٢٧٤.

(٣) سنن أبي داود. ج٢، ص٤٤٩.

(٤) الشيخ الطوسي. تهذيب الأحكام، ج١، ص٣٧٥، حديث ١١.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من بحث عن أسرار غيره أظهر الله أسراره»(١).

التدخل في شؤون الغير وخصوصيات الآخرين

إنّ من الطبيعي أن يهتم الإنسان بما يرتبط بشؤون حياته الخاصة ومصالحه الذاتية. وأن يصرف جهده في التفكير والسّعي من أجل خدمتها. ولأنّ الإنسان جزء من المجتمع، فإنّ من الطبيعي أيضًا أن يهتم بالشأن الاجتماعي العام، وله الحقّ في ذلك، وقد يرقى هذا الاهتمام إلى مستوى الواجب المتحتم عليه، سواء لاعتبارات دينية أو اجتماعية أو إنسانية.

وإذا كان من الطبيعي جدًّا أن يهتم المرء بشؤونه الخاصة والشأن الاجتماعي العام، إلّا أنّ من غير الطبيعي أبدًا أن يتدخل الإنسان بالشؤون الخاصة المرتبطة بغيره من الأشخاص؛ لأنّ كلّ إنسان له حياته الخاصة وشؤونه الشخصية، العائلية والمالية والصحية والعبادية، وله أنماط سلوكه وعلاقاته الاجتماعية.

لون من العدوان

وكما لا يرغب المرء أن يتدخل الآخرون في شؤونه، فإنّ عليه هو ألّا يتدخل في شؤون الآخرين؛ لأنّ حياة الإنسان الخاصة ملك له، وأسراره وقضاياه الشخصية حصن داخلي لا يرغب في تجاوز الآخرين عليه. فكما لا يرغب المرء بأن يقتحم الآخرون عليه بيته دون استئذان أو موافقة منه، كذلك الحال مع أيّ تدخل في شؤون الآخرين الخاصة، فهو تصرف غير مقبول أيضًا، ويُعدّ ضربًا من ضروب العدوان، فالعدوان على الآخرين ليس مقتصرًا على الاعتداء البدني، أو سرقة الأموال والممتلكات الخاصة وحسب، وإنّما التدخل في خصوصيات الآخرين هو الآخر مظهر من مظاهر العدوان؛ لما في ذلك من أذى شخصي يترتب على هذا التدخل، ولما في (دسّ الأنف) في شؤون الآخرين من إرباك حياتهم، فكم من العوائل تعرضت للأزمات والمشاكل نتيجة تدخل الآخرين في شؤونها.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص٤٣٦.

وينبغي القول في هذا المقام أنّ رفض التدخل في شؤون الآخرين لا نعني به النأي عن شؤون الأغراب والأجانب فقط، وإنّما يشمل ذلك أيضًا التدخل في شؤون أقرب المقربين، من الأبناء الراشدين والإخوة والأصدقاء. إنّ العلاقة القريبة بالآخرين لا تجيز للمرء التدخل في شؤونهم الخاصة على نحو تلقائي، ولا يجوز أن يبرّر ذلك التدخل بإسداء النصيحة لهم أو ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاههم، ذلك أنّ إسداء النصيحة له ضوابطه، وعلى رأسها أن يجري تقديمها في حال الطلب، ناهيك عن أنّ النصيحة لها آدابها، ومن ذلك عدم ملاءمتها في حال انعدام رغبة الآخرين في الاستماع لها. وكذلك الحال مع مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي له أحكامه وضوابطه، والذي لا يسوغ إلّا في حالات الضرر والمخالفة الصريحة للشرع، وليس من موارد ذلك الشؤون الذاتية الخاصة بالإنسان، فلا يصحّ الخلط بين الأمور.

أسباب التطفل

هناك جملة أسباب تدفع البعض للتدخل في الشؤون الخاصة بالآخرين:

١. الرغبة في التسلية وملء الفراغ، فهناك أناس فارغون لا شغل عندهم، فيتسلّون بالتدخل في شؤون الآخرين، وغاية الهم عند أمثال هؤلاء أن زيدًا واقع في مشكلة مع زوجه هذه الأيام، وأنّ عمرًا لديه خلاف مع ولده!.

ينبغي أن يقال لهؤلاء؛ ما شأنكم والناس، وما الذي يسوّغ لكم التدخل في شؤون الآخرين!، اللهم إلّا الرغبة في التسلّي بشؤون الناس، نتيجة الفراغ وقلة الاهتمامات المفيدة، وهي الصفة الذميمة التي ابتلي بها بعض الناس.

٢. الرغبة في استعراض القدرات، يسعى البعض لإظهار أنفسهم بمظهر المُنظّر الجهبذ، وصاحب الرأي الأوحد، في كلّ الشؤون والقضايا، وبذلك يسوّغ الواحد من هؤلاء لنفسه دسّ أنفه في كلّ شأنٍ خاصّ بالآخرين، حتى تجده في موضع الناصح للتاجر الخاسر، والمشير على المريض الخارج من عملية

جراحية معقدة، وحلال المشاكل العائلية، كلّ ذلك دون أن يُستشار أو يطلب رأيه أحد، اللهم إلّا إبداء القدرات التي لم يجد لها سبيلًا سوى التدخل في شؤون الآخرين.

٣. وجود عقد نفسية وشحنات سلبية وتراكمات يسعى البعض لتنفيسها عن طريق التطفل على حياة الآخرين.

٤. ابتلاء البعض بنزعة فضولية تدفعه لدسّ أنفه في كلّ شاردة وواردة، تتعلق بالحياة الخاصة بالآخرين، فلا يكاد يرى شخصًا إلّا ويسعى لإشباع فضوله بالوقوف على كلّ صغيرة وكبيرة متعلقة بذلك الشخص، وقد يبدو الأمر للوهلة الأولى صادرًا عن نية حسنة، لولا أنّ الطريقة الخطأ التي يتناول بها خصوصيات الآخرين تستحيل إلى تدخل سلبي مقيت!.

إنّ تناول شؤون الآخرين بدافع من الفضول هو تدخل غير مبرّر في خصوصياتهم.

٥. نزعة البعض لممارسة النفوذ وفرض الوصاية على الغير، فأمثال هؤلاء يريدون من الآخرين أن يكونوا مثلهم.

٦. ابتلاء البعض بنزعة الإيذاء، فهؤلاء يدسّون أنوفهم في شؤون الآخرين بغرض إيذائهم والنيل منهم.

مستويات التدخل في شؤون الآخرين

ويتدرج التدخل في شؤون الآخرين إلى درجات:

الدرجة الأولى من خلال تتبع الأخبار الخاصة بالآخرين عن طريق المراقبة والتلصص، فأمثال هؤلاء لا تشبع فضولهم الإجابات العامة حول بعض الشؤون الخاصة، بل لا يرضيهم إلّا أن يقفوا على كلّ تفصيل خاصّ بغيرهم، حتى لو كان الطرف الآخر لا يرغب في الإفصاح عنه، كأن يتعلق الأمر بأوضاع صحية حسّاسة،

أو رحلات خاصة أو قضايا عائلية، كلّ ذلك بدافع من نزعة فضولية نحو تتبع أدق الشؤون الخاصة بالآخرين.

الدرجة الثانية من خلال مواجهة الناس بالملاحظات، والعتاب على مواقفهم المتعلقة بشؤونهم الخاصة، التي لا دخل لزيد أو عمرو بها.

الدرجة الثالثة المتمثلة في بثّ الإشاعة وتشويه السمعة، فما يكاد يقع المتطفل على معلومة خاصة عن الطرف الآخر إلّا ويبدأ في ترويجها والتطبيل عليها، حتى تصبح عنده مادة للحديث في المجالس. والسؤال؛ من يا ترى يجيز لهؤلاء فعل هذه الممارسة القميئة، ومن سمح لهم بها، ولماذا يعوّد المرء نفسه على هذا السلوك.

الزجر الديني

إنّ التعاليم الدينية تنهى بشدة عن التدخل في شؤون الآخرين. ومن ذلك ما ورد عن النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]، وأجلى مصاديق ما لا يعني الإنسان، هي الشؤون الخاصة بالآخرين. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ»[2]، أي إنّ من كريم الأفعال التغافل عن ما نعرف من خصوصيات الآخرين، فلا يجري الحديث معهم بشأنها، ولا سؤالهم عنها، ما لم يطلبوا النصيحة، فمن الواجب إجمالًا النأي عن الخوض في خصوصيات الآخرين، خاصة إذا كانت تمثل نقاط ضعف عندهم. وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أعقل الناس من كان بعيبه بصيرًا وعن عيوب غيره ضريرًا»[3]، في إشارة منه عليه السلام إلى أنّ عين العقل تكمن في الكفّ تمامًا عن النظر في عيوب الآخرين على حساب العيوب الذاتية. كما روي عنه عليه السلام: «تأمّل العيب عيب»[4]، أنّ العيب كلّ العيب في تفحّص عيوب الآخرين، علاوة على كونه ذنبًا فهو فوق ذلك خلق سيئ.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٧٧.

(٢) نهج البلاغة، حكمة ٢٢٢.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) المصدر نفسه.

الفضول من سمات التخلف

وتتفاوت المجتمعات في مستوى بروز هذه الظاهرة، حيث تحترم المجتمعات المتحضرة خصوصيات الأفراد، وتنبذ التدخل في شؤونهم الخاصة، سواء كانوا أغرابًا أم كانوا من القريبين كالأبناء والإخوة والأصدقاء، حتى بات من المعتاد ألّا يسأل أحدهم الآخر عن شيءٍ من خصوصياته، ما لم يكن هناك مقتضى يدعو لذلك.

أما في مجتمعاتنا فالأغلب سيطرة الفضول، بل لا يكاد يوجد فيها حدود للحياة الخاصة للأفراد، لدرجة يكاد يبدو فيها الفرد صفحة مفتوحة للآخرين، بما في ذلك أخباره وخصوصياته، فلا احترام للحياة الخاصة.

هذا وتعزّز بعض الأعراف العامة هذه الحالة، ومن ذلك على سبيل المثال اعتياد البعض عند الجلوس على الطعام أن يُلزم أحدهم الآخر بتناول صنف معيّن من الطعام، بل ويشدّد الطلب عليه، حتى مع اعتذار الطرف الآخر مرارًا عن تناول ذلك، إما لعدم الرغبة أو لأسباب صحية، وهذا نمط سلبي خطأ.

وعلى هذا النحو قد يتدخل الوالدان في خصوصيات ابنهم المتزوج، وفي نمط علاقته بزوجه، وهو تدخل خطأ وفي غير مكانه، فالابن هو المعني بتسيير شؤونه العائلية، وينطبق الحال على تدخل عائلة الزوجة في نمط علاقتها بزوجها. وربما ينظر البعض إلى هذا النمط من التدخل بين الزوجين باعتباره أمرًا عاديًا، لكنه غالبًا ما يترك ندوبًا غائرة، وينعكس آثارًا سلبية على العلاقة الزوجية، بل وسائر العلاقات الاجتماعية.

من هنا ينبغي للإنسان المسلم أن يحرص على حسن إسلامه، وكما روي عن النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]، ذلك أنّ النأي عن التدخل في شؤون الآخرين هو ما يمثل الإسلام الحسن، وهو ما يظهر جمال الإسلام، وخلق المتديّن، وبذلك يخلص مفهوم الحديث إلى أنّ من يتدخل فيما لا يعنيه فإنه سيئ في إسلامه.

---

(١) سنن الترمذي. ج٣، الطبعة الأولى ١٤٢١، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢٩١، حديث٢٣١٧. وفي الأمالي للشيخ المفيد، ص٣٤، حديث٩.

فن التغافل

تتفاوت انفعالات الناس واستجابتهم مع ما يدور حولهم من أحداث، بين الانغماس الكلي فيها، وبين التجاهل التام لها، ونجد ذلك مثلًا في مرور شخصين بحادثة مرورية، فقد يقف أحدهما ويتأمل ويتساءل ويتفاعل مع الحادث، فيما يمرُّ الآخر كما لو لم يَرَ شيئًا. فالحدث هو ذات الحدث، لكن مستوى التفاعل اختلف من شخص لآخر.

وعلى غرار ذلك قد يدخل شخصان إلى معرض فني، فيقف الأول عند لوحة ما متأملًا مدة من الزمن، بينما يمرّ عليها آخر مرور الكرام، فكلا الشخصين نظر إلى اللوحة لكن مستوى الاهتمام اختلف بينهما.

هكذا الأمر في مختلف شؤون الحياة، فاهتمام المرء بما يرى ويسمع هو الذي يحدد درجة تأثره بذلك الحدث. فهناك من الناس من لا يبالي بأيّ شيء، ولا يهتم بما يجري حوله من أحداث ومواقف، فهو يجسد اللامبالاة بأجلى صورها، فيما قد يهتم أشخاص آخرون بكل شيء، ويتفاعلون مع كل حدث، سواء ما يستحق منها الاهتمام، وما لا يستحق.

أما اللون الثالث من الناس فهم أولئك الذين يختارون ما يستحق التوقف عنده، ويتجاهلون ما لا يستحق إعارته أدنى اهتمام. والصحيح هو موقف هذه الفئة الأخيرة، فمن غير المقبول ألّا يبالي المرء بكل ما يجري حوله، كما أنه من غير الصحيح أن

يشغل باله بكل ما يحدث أمامه، فليست كل الأشياء تستحق الاهتمام والتفاعل. من هنا على المرء أن يتحكم في انفعالاته على ما يجري حوله، بشكل لا ينغمس في كل أمر مهما صغر، ولا أن يتجاهل ما يدور في بيئته تمامًا، وإنما عليه أن يختار بين ما يستحق الاهتمام وما ينبغي عنده التغافل.

التغاضي عن الصغائر

كل إنسان هو جزء من محيط اجتماعي متشعب، بين الأسرة في المنزل، وزملاء العمل، وسائر أفراد المجتمع، فهو لذلك مطالب بالاتزان والتغاضي عن كثير من الصغائر التي ترتكب حوله. إذ من غير المتوقع أن يسرك كل ما يقوله أو يفعله الآخرون، إن لدى بعض الناس شعورًا مرهفًا، وحساسية مفرطة، حينما يرى ما يخالف رغبته، ويسمع ما لا يريحه، في مقابل ذلك قد يتجاوز البعض الآخر الكثير من تلك المواقف ولا يشغل باله بالجزئيات والتوافه في محيطه الاجتماعي، وهذا هو المطلوب.

إن قدرًا من التغافل أمر مطلوب على أكثر من صعيد، بدءًا من المحيط العائلي، وانتهاءً بالبيئة الاجتماعية. فقد لا تعجب بعضنا تصرفات الأطفال نتيجة الإزعاج الصادر عنهم في المنزل، هنا ينبغي أن نتفهم وضع الأطفال فلا نكون صارمين معهم إلى حدّ المبالغة، وهكذا الحال بالنسبة لتعامل الزوجين مع بعضهما، إذ تقتضي الضرورة من كليهما أن يمررا ويتغاضيا عن الكثير من التصرفات التي قد لا تعجب أحدهما من الآخر، والحال نفسه ينطبق على التعاطي مع الأصدقاء وزملاء العمل، أو ما يواجه المرء من تصرفات في الشارع العام.

كنت ذات مرة في سيارة مع بعض الأصدقاء، ومرت سيارة بطريقة غير مناسبة، فما زاد قائد السيارة التي نسير بها عن قول سامحك الله، واكتفى بذلك في مواجهة التصرف الأرعن لسائق المركبة الأخرى، بينما أحد الراكبين معنا لم يرتح للأمر، وغضب، وظل طوال الوقت متوتر الأعصاب، بل زاد على ذلك بأن ظل يردد في

اليوم التالي إن تصرف السائق الآخر ظل يزعجه حتى إنه لم يستطع النوم ليلة أمس!.

يتحسّس بعض الناس من أدنى الأشياء، فيما يمتلك البعض الآخر القدرة على تجاوز صغائر الأمور. فلو أخذنا مسألة التعرض لانتقادات الآخرين، فهناك من يتقبل هذا الأمر، تأسيًّا بالأنبياء والمصلحين والعلماء الذين لم يكونوا ـ مع علو مقامهم ـ في منأى عن النقد والطعن، لكن البعض ليس لديه الاستعداد لتقبل أدنى كلمة تقال بحقه، بل هو على استعداد لتتبع ما قيل ومتى ومن قال.

التغافل صفة سمو ونجاح

إن مصطلح التغافل في الآداب والأخلاق الإسلامية عنوان مهم، يعني تعمد الغفلة عن قصد. فقد يكون المرء يعلم بالشيء لكنه يتظاهر بعدم العلم والدراية، والنصوص الشرعية تدفع باتجاه اتخاذ جانب الغفلة المقصودة، فلا ينبغي الوقوف عند كل كلمة تصل مسامعنا، ولا الانشغال بكل موقف يجري في محيطنا الاجتماعي. ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ»[1]. وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «نِصْفُ الْعَاقِلِ احْتِمَالٌ وَ نِصْفُهُ تَغَافُلٌ»[2]، ومعنى ذلك أن يتحمل العاقل بعض الأمور ويتجرعها رغم مرارتها وقساوتها، فيما يتغافل عن البعض الآخر، كما لو أنها لم تحصل أمامه، ولم يسمع بها.

ثمة حقائق تدفع الإنسان العاقل نحو اتخاذ هذا الخلق العظيم المتمثل في التغافل، ومنها:

أولًا: إن على المرء أن يدرك الطبيعة البشرية التي يعيش ضمنها، فالبشر معرّضون للوقوع في الأخطاء، ويعتريهم النسيان والانفعال، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ

(١) نهج البلاغة، حكمة ٢٢٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٩٦٤١.

فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ»[١]. فإذا أردنا العيش مع أناس لا يصدر منهم الخطأ فلن نحصل على ذلك في الدنيا، ولينظر كل منا لنفسه، ألا ترى أنه يصدر منك ما يزعج الآخرين، من نسيان وخطأ وانفعال، والغريب أن بعض الناس يريد من الآخرين أن يعذروه لأنه بشر ويعرض له النسيان والغفلة، لكنه لا يريد من جهته أن يعذر الآخرين. علينا أن نعي أن من نعيش معهم بشر وليسوا ملائكة، فلا بدّ أن نتحمل بعض التجاوزات والأخطاء من الآخرين.

ثانيًا: الحساسية المفرطة تجاه أخطاء الآخرين سبيل لتنغيص العيش. ولعل من أبرز أسباب نكد العيش هو التدقيق طويلًا في كل خطأ يصدر من الآخرين صغيرًا كان أم كبيرًا، فليس من المناسب أبدًا أن ينشغل المرء بسفاسف الأمور، فينطبق عليه ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من لم يتغافل عن كثير من الأمور، تنغّصت عيشته»[٢].

ثالثًا: التغافل ضرورة للعلاقة الناجحة مع الآخرين. فالعلاقة مع الناس إذا لم تعتمد على شيء من التغافل لا يمكن لها أن تنجح، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «من لم يؤاخِ إلا من لا عيب فيه، قلّ صديقه»[٣]. وعنه عليه السلام: «من ناقش الإخوان قلّ صديقه»[٤]، وورد في الأثر «كثرة العتاب تذهب بالودّ» فالناس قد لا يتحملون العتاب طويلًا، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «التمسوا لإخوانكم العذر في زلاتهم وهفوات تقصيراتهم»[٥].

ويقول الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا   صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

---

(١) نهج البلاغة. من كتاب له للأشتر النخعي، كتاب ٥٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٦٢، حكمة ١٣٩٠

(٣) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ٢٧٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٦٧، حكمة ١٥٢٥.

(٥) مستدرك الوسائل. ج ٩، ص ٥٧، حديث٨٠١٩٣.

ويقول شاعر آخر:

ليس الغبي بسيدٍ في قومه   لكن سيد قومه المتغابي

وفي البيت إشارة واضحة إلى أن الذي يعلم ما يسوؤه ويغض الطرف عنه هو الأكثر أهلية لسيادة قومه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيال: ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل»[١].

من هنا، فإن علينا أن نتنبه لهذا الأمر، ونسير حسب المنهجية الأخلاقية التي يأمرنا بها الإسلام، في علاقاتنا داخل الأسرة، ومع الجيران والأصدقاء، وكل من يحيط بنا، علينا أن نتسامح ونتجاوز، وألّا نقف عند كل شاردة وواردة فننشغل عمّا هو أهم.

بقي أن نشير إلى أنه لا يكفي الإيمان والاقتناع بهذه القيمة الأخلاقية، بل يحتاج الإنسان إلى أن يروّض نفسه عليها، ويتدرب على ممارستها، حتى يتقن فن التغافل.

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول. ص٣٥٩.

لا تعجل في الحكم على الآخرين

قد تصدر من إنسان إساءة أو خطأ تجاه آخر، وهو يقصد تلك الإساءة وذلك الخطأ. وفي حالات أخرى، قد تصدر الإساءة أو الخطأ لكن من دون قصد، لعدم الانتباه مثلًا. ومثاله أن تمرّ على إنسان فلا تحييه؛ لأنك لم تلتفت إليه، لا لأنك قاصد عدم تحيته. أو تحصل لصديق حادثة معينة فلا تواسيه فيها لا لعدم اهتمامك بالأمر، بل لأنك لم تعلم بما حصل. فأنت في مثل هذا التقصير معذور، وعلى الطرف الآخر أن يعذرك؛ لأنه قد يكون في مثل هذا الموقف ويتمنّى من الآخرين أن يتفهموه ويعذروه. لذلك على كل إنسان ألّا يتعجل في الحكم على الآخرين، ويتهمهم بتعمّد الخطأ تجاهه، وإنما يضع الاحتمالات المختلفة نصب عينيه، ليجد لهم عذرًا، كما يقول الشاعر:

تأنَّ ولا تعجل بلومك صاحبًا   لعلَّ له عذرًا وأنت تلوم

يطلب البعض من الآخرين تفهّمه وتقبّل أعذاره، لكنه في المقابل لا يتفهّم ظروف الآخرين فيتسرّع في الحكم عليهم واتخاذ مواقف تجاههم.

من ناحية أخرى، قد يكون الطرف الآخر مخطئًا حقًّا، لكنه قد أدرك خطأه، وأبدى أَسَفَهُ على صدور الخطأ منه وقدّم اعتذاره، فلماذا لا نقبل عذره؟ ولماذا لا نغفر ونصفح؟!

الإسلام يربي الإنسان على سعة الصدر وعلى التسامح في تعامله مع الآخرين،

وحينما نتحدث عن الآخرين نقصد القريبين والبعيدين، الزوج، الأبناء، الأصدقاء، الزملاء، حينما تجد تقصيرًا من أي أحد فلا تتسرع في الحكم عليه وإدانته، عليك أن تضع الاحتمالات المختلفة لتلمّس العذر له، من هنا يأتي ما ورد عن أمير المؤمنين ﵇: «أَعْقَلُ النَّاسِ أَعْذَرُهُمْ لِلنَّاسِ»[1]. ذلك لأنه يُحكّم عقله في تقويم تصرفات الآخرين، ولا يُحكّم انفعالاته وعواطفه، حيث يضع نفسه مكان الآخرين فيرى أنّه يمكن أن يحصل منه ما حصل منهم. لذلك جاءت النصوص الكثيرة توجّه الإنسان إلى أن يلتمس العذر للآخرين في تصرّفاتهم وأعمالهم، اتصلت بصديقك مثلًا ولم يرد عليك، فلا تفترض أنه يتعمّد تجاهلك، بل افترض أنه مشغول، أو أنّ الهاتف النقّال بعيد عنه، ينبغي أن يدرّب الإنسان نفسه على إيجاد أعذار للآخرين، ورد عن رسول الله ﷺ: «اطلب لأخيك عذرًا فإن لم تجد له عذرًا فالتمس له عذرًا»[2]، أحد العلماء يقول: ليتنا نأخذ درسًا من النملة الصغيرة التي تحدث القرآن عنها في قصة نبي الله سليمان ﵇: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[سورة النمل، الآية:١٨]، فقولها لا يشعرون يعني قد يدوسونكم ولكنهم غير قاصدين ذلك، ولم تسئ الظنّ في الطرف الآخر.

كما أن على الإنسان أن يدرّب نفسه على قبول اعتذار المسيء حتى لو كان خطأ مقصودًا، إذا ما أبدى أسفه واعتذر. بعض الناس يصعب عليه تقبّل عذر الطرف الآخر بل ربما رفضه، وهذه مخالفة كبيرة لتوجيهات الدين، ورد عن النبي ﷺ: «من لم يقبل المعذرة من محقّ أو مبطل لم يرد عليَّ الحوض»[3]. وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من لم يقبل العذر من متنصّل صادقًا كان أو كاذبًا لم ينل شفاعتي»[4]. قد يكون العذر غير

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٣٨٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٦٥، ص١٠٠، حديث٤.
(٣) كنز العمال. ج٣، ص٣٧٨، حديث ٧٠٣٢.
(٤) من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٣٥٣.

حقيقي لكن عليك أن تقبله، وورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «لا يعتذر إليك أحدٌ إلا قبلت عذره وإن علمت أنه كاذب»[١]. وعنه عليه السلام: «وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحوّل إلى يسارك فاعتذر إليك فاقبل عذره»[٢].

هكذا يربي الإسلام الإنسان على معالجة المشاكل مع القريبين والبعيدين، وهذا من مصلحة الإنسان الفرد والمجتمع؛ لأن ذلك ينتج صفاء النفس. جرّب أن تضع عذرًا لأحدٍ لتقصير صدر منه، ستشعر حينئذٍ بارتياح نفسي، أما إذا اعتقدت أنه متقصّد فستبقى مشغول البال منزعجًا لما حدث. من ناحية أخرى، فإن التماس الأعذار للآخرين، وتقبّل أعذارهم هو الذي يساعد على إنجاح علاقات الناس بعضهم مع بعض.

---

(١) الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة. ص٥، حديث ٤.

(٢) الكافي. ج٨، ص١٥٣، حديث١٤١.

العتاب وحماية العلاقات الاجتماعية

في علاقة الإنسان مع الآخرين، من القريبين كأفراد العائلة وزملاء العمل، أو البعيدين ممن تربطه بهم علاقة تعامل، قد يواجه تصرفاً لا يعجبه، ويتأذّى منه، وقد يبلغه عن أحدٍ ما يزعجه ويسيئه. وهنا غالباً ما ينفعل الإنسان، ويرتب أثراً، ويتخذ موقفاً، يبدأ بإدانة ذلك الطرف والحكم عليه بالخطأ، ويقوده ذلك للسّخط عليه والزعل منه، ثم مقاطعته ومعاداته، وأخيراً اتخاذ إجراءات عملية ضدّه.

العتاب أولاً

لكن هناك مرحلة ينبغي أن تسبق هذه الخطوات والإجراءات وهي ما يطلق عليها مرحلة (العتاب).

عن أمير المؤمنين عليه السلام في وَصِيَّتِهِ لِمُحَمَّدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ ـ: «لا تَصرِمْ أخاكَ عَلَى ارتِيابٍ، ولا تَقطَعْهُ دونَ استِعتابٍ، لَعَلَّ لَهُ عُذراً وأنتَ تَلومُ»[1].

والعتاب يعني إشعار الطرف الآخر بعدم الارتياح مما حصل منه، ومساءلته عن الدافع لذلك. ومن خلال ردّ فعله على عتابك تتضح لك الصورة لتتخذ الموقف المناسب.

وهنا توجد عدة احتمالات:

(١) وسائل الشيعة. ج ١٢، ص ٢١٧، حديث ٢.

١. فقد يتبيّن لك براءته من الخطأ المتصور، فهو لم يقل ما بلغك أنه قال، أو لم يعمل ما تصورت أنه عمله.

ورد عن علي عليه السلام: «رُبَّ مَلُومٍ ولا ذَنْبَ لَهُ»[١].

٢. وقد يتضح لك أنّ هناك سوء فهم لقوله أو تصرفه. وأنه لم يقصد الإساءة.

حدث أنّ جماعة في مجلس تناولوا شخصاً لعدم مساهمته في مشروع خيري، فدافع عنه صديقه بأنّ ظروفه المالية صعبة، فذهب من أخبره أنّ فلانًا يقول عنك أنك في أزمة مالية، غضب وجاء منفجرًا في وجه صاحبه، هل شكوت لك الفقر؟ هل أنا محتاج إليك؟ أنا وضعي المادي أحسن منك، وكادت أن تنقطع العلاقة بينهما، وقد يحصل مثل هذا الموقف كثيرًا عندما يُنقل الكلام أو الفعل مفصولًا عن سياقه وخلفياته.

٣. وقد يظهر لك أنّ له عذرًا في تصرفه الذي أزعجك، فهو لم يزرك في مرضك أو لم يحضر مناسبتك؛ لأنه لم يعلم أو لأنه مسافر، أو لأنه مريض.

٤. وقد يتراجع عن خطئه ويعتذر عمّا صدر منه، وعليك أن تقبل عذر أخيك وصديقك، لتستمر العلاقة والمودة، وتعود الأمور إلى طبيعتها معه.

وبهذا يظهر دور العتاب في تلافي القطيعة والعداوة، وضمان استمرار المودة والعلاقة، كما أشار الإمام عليّ عليه السلام فيما روي عنه: «العِتابُ حَياةُ المَوَدَّةِ»[٢].

وكما قيل: العتاب صابون القلوب، أي يغسل ما يعلق بها من البغضاء والشحناء.

على ماذا نعاتب؟

ولكن هل كلّ أمر يستحقّ العتاب؟

هناك نصائح دينية وتربوية وإدارية توجه الإنسان إلى أن يتغاضى ويتغافل عن

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٢١٦، حكمة ٨٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٤٥، حكمة ١٢٩٧.

أشياء كثيرة، فليس كلّ شيءٍ يستحق أن تهتم به وأن تتخذ موقفاً من أجله، يقول أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ، لِمَ فَعَلْتَ كَذَا، وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا»[١].

وورد عن علي عليه السلام: «لا تُكْثِرَنَّ العِتابَ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّغِينَةَ، وَيَدْعُو إِلَى البَغْضاءِ»[٢].

وكما قال الشاعر:

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً   صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه

إنّ بعض الناس يبالغون في العتاب على كلّ شيء فيسببون الحرج للآخرين، مثلاً: يعاتب على عدم معرفته وتذكّر اسمه، حين يسألك بإلحاح: ألا تعرفني؟ ألا تذكرني؟

ولعلّ عهدك به بعيد، أو لقاؤك به كان عابرًا، لكنه قد يحرجك بالمحاسبة، كيف نسيتني وقد لقيتك في المكان الفلاني، أو قمت لك بتلك الخدمة؟!

وبعضهم قد يعاتبك على عدم حضور مناسبته في فرح أو ترح. أو حتى على عدم تكرار حضورك. أو لأنك أغفلت دعوته في مناسبة ما!

فنّ العتاب

عليك أن تأخذ مستوى وظرف الطرف الآخر عند معاتبتك له، فلا تعاتب ولدك الصغير كما تعاتب الكبير الناضج المدرك، ولا تحاسب العامل الأجنبي إن أخطأ في فهم ما تريد كما تحاسب أبناء لغتك والعارفين بلهجتك.

لذلك ورد عن رسول الله ﷺ: «عَاتِبُوا أَرِقَّاءَكُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[٣].

وينبغي أن تكون لبقًا في معاتبتك، تتحدث بهدوء دون صراخ أو انفعال، فذلك

---

(١) صحيح مسلم. باب الفضائل، بَابُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، حديث رقم ٤٣٩٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ. ص ٥١٩.
(٣) جار الله الزمخشري. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج٣، ص٣٥٠.

لن يكون عتاباً وإنما سيصبح مشاجرة.

ومن المفضل أن تبدأ عتابك بذكرك إيجابيات من تعاتبه، ليكون أكثر تقبلًا وتجاوبًا مع عتابك. وكما قيل: امدح على قليل الصواب يكثر من الممدوح الصواب.

وتجنب الاستفزاز في معاتبتك والتعنيف والتوبيخ؛ لأنّ ذلك قد يدفع الطرف الآخر لردّ فعل سلبي، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «الْإِفْراطُ فِي الْمَلامَةِ يَشُبُّ نارَ اللَّجاجَةِ»[١]، وعنه عليه السلام: «إِذا عاتَبْتَ فَاسْتَبْقِ»[٢].

ومن الخطأ تكرار العتاب في ذات الموضوع؛ لأنه قد يثير في نفس من تعاتبه روح التحدّي، فيستمر على خطئه، مما يفقد العتاب تأثيره، حيث ورد عن الإمام علي عليه السلام: «إيّاكَ أن تُكَرِّرَ العَتبَ؛ فَإِنَّ ذلكَ يُغري بِالذَّنبِ، ويُهَوِّنُ العَتبَ»[٣].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص ٢٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ١٦٠، حكمة ١٤٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص ١٦٤.

الميزان في توقعاتك من الآخرين

في علاقة الإنسان وتعامله مع المحيطين به، تكون له رغبات وطلبات يتوقع منهم تحقيقها وتنفيذها، فإذا لم يستجب أحد منهم لشيء من طلباته، أو لم يكن وفق توقعاته، فإنّ ذلك يسبب له انزعاجًا، قد يؤثر على علاقته بالطرف الآخر.

يمكن للإنسان أن يتلافى كثيرًا من المشكلات في علاقاته مع من حوله، إذا اعتمد ميزانًا في طلباته وتوقعاته منهم.

ماذا تطلب ممن حولك، وماذا تتوقع منهم؟

ينبغي أن يكون لك ميزان ومعيار في هذه التوقعات والطلبات، ويمكن تصنيف طلبات الإنسان ممن حوله على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: عمل سهل يكون القيام به ميسورًا على الطرف الآخر.

المستوى الثاني: عمل فيه مشقة وعسر، جسميًّا أو نفسيًّا، ماديًّا أو معنويًّا.

المستوى الثالث: ما يكون متعذرًا، لا يمكن القيام به.

عليك أن تعرف وتصنّف طلباتك ضمن أيّ مستوى من هذه المستويات؟

حينما تريد من أحدٍ شيئًا أو تتوقع منه عملًا، عليك أن تعرف تصنيف ذلك في أيّ دائرة بالنسبة له، وبالنظر إلى وضعه وظروفه، فلا تطلب من أحدٍ أو تتوقع منه إلّا ما كان سهلًا ميسورًا عليه، وبذلك تتحقق توقعاتك وتستقيم علاقاتك، وتريح نفسك

من تداعيات أيّ تعقيد في تعاملك مع المحيطين بك.

البعض قد لا يفكر في هذا التصنيف، ويرغب أن يقدم له صديقه خدمة ما، فإذا اعتذر أو تأخر، اعتبره مقصّرًا في حقّه، وربما ساءت علاقته به، بسبب ذلك الأمر!

بينما يجد الطرف الآخر مشقة في تلبية طلب صديقه.

وهنا يحدث الخلاف في الرأي، يقال لصاحب الطلب: إنّ الرجل لا يتمكن، ويجد مشقة وعناء فيما طلبت! ويكون ردّه: أنا أعلم، أنه يستطيع ذلك!!

تُرى من الذي يحدد إمكانية الطرف الآخر؟

تفهم ظروف الآخرين

في المسائل الشرعية، يطلق الفقهاء على الحرج المعفي عنه (حرج شخصي) فالمكلف هو الذي يُقدّر الحرج بنفسه.

فعلى سبيل المثال: إذا كان في الصوم حرج على الإنسان، فإنه يسقط وجوبه عليه، وينتقل تكليفه إلى القضاء أو الكفارة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وهو المعني بتقدير الحرج ونسبته، والشرع يأخذ بتقديره، يقول تعالى: ﴿بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[سورة القيامة، الآية: ١٤].

البعض لا يستوعب هذه القاعدة الشرعية العقلية، فيرفض اعتذار الطرف الآخر ولا يقدّر ظروفه، وهو ما يؤدي إلى توتر العلاقات مع الآخرين!!

على الإنسان أن يقبل تقويم الآخرين لظروفهم، لا أن يفرض تقويمه عليهم ويلزمهم به.

ما يطلبه الزوج من زوجه، والصديق من أصدقائه، والوالدان من أبنائهما، ينبغي أن يكون ضمن دائرة الممكن، ويراعى فيه ظرف الطرف الآخر وأوضاعه، فلا يكون تحقيق الطلب على حساب ظروف الآخرين وأحاسيسهم ومشاعرهم، فهذا ليس إنصافًا، وسيؤدي إلى تعقّد العلاقات معهم، كما يمكن أن يصيب الإنسان بعقدة

نفسية؛ لأنه لم يتحقق له ما أراد، لهذا ورد عن علي عليه السلام: «إذا أَرَدتَ أن تُطاعَ فَاسأَلْ ما يُستَطاعُ»[١].

على الإنسان أن يخفض سقف توقعاته من الآخرين، ولا يلقي بعبئه على غيره، حتى لو كانوا قريبين منه، ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصفه للمؤمن «قَليلُ المَؤونَةِ، كَثيرُ المَعونَةِ»[٢].

البعض يتصور أنّ هذا الحديث يطبق مع الآخرين البعيدين فقط!

إنّ مفاد الحديث يجري في تعامل الإنسان حتى مع الزوج والأولاد.

على الإنسان أن يلتمس الأعذار للآخرين حينما لا يستجيبون لطلباته وتوقعاته، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «اِقْبَلْ أَعْذارَ النّاسِ تَسْتَمْتِعْ بِإِخائِهِمْ وَالْقَهُمْ بِالْبِشْرِ تُمِتْ أَضْغانَهُمْ»[٣].

ينبغي أن تتفهم ظروف الآخرين وتعذرهم فيما هم فيه، فالتعاليم الدينية توجه الإنسان إلى تربية نفسه وتدريبها على أن يكون سهلًا متسامحًا ميسراً في تعامله مع الآخرين، وتحذّره من أن يكون سببًا لإيجاد أيّ حرج أو مشقة على من حوله.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «المُؤمِنُ لَيِّنٌ هَيِّنٌ سَمحٌ»[٤].

وهذه الصفات ينبغي أن يتلمّسها الإنسان في نفسه، ويطبقها داخل بيته، وفي تعامله مع عماله، وزملائه وأصدقائه.

وعنه صلى الله عليه وآله: «أَدْخَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا، وَبَائِعًا، وَقَاضِيًا، وَمُقْتَضِيًا»[٥].

فالإنسان الذي يكون مرنًا في تعاملها مع الآخرين، في مختلف أموره، يتفضل الله

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٥٦، حكمة ٣٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٦٧، ص٧١، حديث ٣٤.

(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص٧٧، حديث١٨٥٧.

(٤) الشيخ الطوسي. الأمالي، ص٣٦٦، حديث٧٧٧.

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٣، ص١٧٧، حديث١١٨١.

عليه بدخول الجنة، كما ورد عنه ﷺ: «حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ»[١].

فالمؤمن الواعي يفتش في نفسه عن هذه الصفات، ليتأكد من صدق إيمانه ويطمئن إلى مستقبله الأخروي، فلا يكفي أن يتأكد الإنسان من صحة وضوئه وصلاته وصومه، وهي أمور مهمة، لكن تعامله مع الآخرين وخاصة القريبين منه يجب أن يكون في سلم أولوياته.

إنّ نهج التسامح الذي يأمرنا الله به في تعاملنا مع الناس، هو في الواقع نهج بدأ به في تعامله معنا، سواء في التشريع أو الحساب، يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

واليسر هو الشيء الخفيف السهل، والعسر هو ما يقوم به الإنسان بكلفة ومشقة، ولهذا لم يفرض الله على الإنسان تكليفًا يصيبه بمشقة وحرج، حتى يربي الإنسان على هذا الخُلق في تعامله مع الآخرين.

الأوامر التي تصدرها لأبنائك ولعائلتك، أو لعمالك وزملائك، عليك أن تريد بهم اليسر ولا تريد بهم العسر.

ونشير هنا إلى ثلاثة مجالات مهمة في تعامل الإنسان مع من حوله:

في العلاقة بين الزوجين

على الزوج أن يقرّر ويؤكد في نفسه وسلوكه بحيث يكون تعامله مع زوجته باليسر واللين، فللمرأة مشاعرها وظروفها وأحاسيسها، فينبغي التعامل معها على هذا الأساس.

لا تتوقع من زوجتك ولا تطلب منها ما يسبب لها حرجًا ومشقة، وعلى الزوجة أيضًا أن تراعي ظروف زوجها فلا تحرجه بطلباتها، وخاصة في الجانب الاقتصادي،

(١) مسند أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّة، مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، حديث٣٨٠٨.

وإذا كان الزوج يعاني من وضعٍ اقتصادي معيّن، فعلى الزوجة أن تراعي ظروفه فلا ترهقه بالطلبات، ولا ترفع مستوى توقعاتها، فكم من المشاكل العائلية تحصل بهذا السبب؟!!

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق: «وأمَّا حَقُّ الزَّوجَةِ: فأنْ تعلَمَ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَها لَكَ سَكَنًا وأُنسًا، فَتعلَمُ أنَّ ذلِكَ نِعمَةٌ مِنَ اللهِ عَليكَ، فَتُكرِمُها وَتَرفَقُ بِها»[1].

في التعامل مع الأولاد

عَنْ يُونُسَ بْنِ رِبَاطٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «رَحِمَ اللهُ مَنْ أَعَانَ وَلَدَهُ عَلى بِرِّهِ.

قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يُعِينُهُ عَلى بِرِّهِ؟

قَالَ: «يَقْبَلُ مَيْسُورَهُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ مَعْسُورِهِ، وَلا يُرْهِقُهُ، وَلَا يَخْرَقُ بِهِ»[2].

عليك أن تعين ابنك وتشجعه وتساعده على أن يكون بارًّا بك، بأن تقبل ميسوره، ولا تتوقع منه ما يسبب له كلفة أو حرجًا في ظروفه العائلية أو العملية أو الاجتماعية.

إنّ جيل الأبناء يعيشون اليوم ظروفًا جديدة، ولهم سلوكهم وآراؤهم وعلى الآباء أن يقدّروا ذلك.

لا تتوقع أن يكون ابنك نسخة طبق الأصل منك، أو أن ينجز كلّ ما تتوقع وكلّ ما تريد، وهناك كلمة مشهورة تروى عن الإمام علي عليه السلام يقول: «لا تَقسِروا أولادَكُم عَلى آدابِكُم، فَإِنَّهُم مَخلوقونَ لِزَمانٍ غَيرِ زَمانِكُم»[3].

عليك أن تتفهم ذلك، وإذا رأيت أمرًا فيه كلفة ومشقة على ابنك لا تلزمه به، وفي

---

(١) وسائل الشيعة. ج١١، ص١٣٤. ورسالة الحقوق: حق الرعية، الرعية بملك النكاح، ج١، ص٢٨.
(٢) الكافي. ج٦، ص٥٠، حديث٦.
(٣) شرح نهج البلاغة. ج٢٠ ص٢٦٧ حديث١٠٢.

مقابل ذلك هناك توصيات دينية للابن أن يتفانى في خدمة والديه، ففي ذلك مصلحته دنيا وآخرة، ورصيد من التوفيق والبركة يسعده في حياته.

توصيات وتعاليم كثيرة توجه الابن أن يبذل جهده في خدمة والديه، ومن جانب آخر توجيه للأب أن يتجاوز عن تقصير أو قصور ابنه، حتى يبقيه في دائرة البر، ولا ينزلق به إلى دائرة العقوق.

وقد أثبتت الدراسات والتقارير أنّ الشدة على الأبناء والبنات، وخاصة في هذا العصر لها نتائج خطيرة، حيث تتحدث الإحصائيات عن هروب بعض الفتيات من عوائلهن بسبب ما يحصل لهن من عنف وشدة في التعامل، وطبق إحصائية لوزارة العمل والتنمية الاجتماعية في المملكة العربية السعودية: تم تسجيل ١٧٥٠ حالة هروب لفتيات من أهاليهن سنة ١٤٣٦هـ![١].

ووفقًا لتقرير صادر عن برنامج الأمان الأسري الوطني لعام ١٤٣٨هـ، فإنه تم تسجيل ٦٩٢ حالة إيذاء داخل الأسر في مقابل ٤٢٢ حالة في العام الذي قبله، علمًا بأنّ الحالات التي سجلت للعام ١٤٣٨هـ ضد ٦٧٦ طفلًا في المنشآت الصحية في المملكة!![٢].

فيما كشف الاستشاري النفسي والأسري الدكتور مسفر المليص، أنّ «الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان استقبلت أكثر من ٢٠٠٠ شكوى خلال عام واحد، تتعلق بالعنف الأسري»[٣].

هذه الحالات التي ترصد ويبلّغ عنها وهناك حالات كثيرة لا يعرف عنها.

ما الذي يدفع الفتاة لتهرب من بيت أهلها؟!

هناك عوامل كثيرة، والعنف الأسري أحدها، إذا لم تستوعب عاطفيًّا، أو لم تؤخذ

---

(١) صحيفة الوطن السعودية، خبر بعنوان: ٦٧ ٪ من الفتيات الهاربات أجنبيات، ٠٩/ ٠٩/ ٢٠١٦م.

(٢) صحيفة الحياة، ١٠ يناير ٢٠١٨م، http://www.alhayat.com/article/909391.

(٣) صحيفة الوطن السعودية، خبر بعنوان: ٦٧ ٪ من الفتيات الهاربات أجنبيات، ٠٩/ ٠٩/ ٢٠١٦م.

ظروفها بعين الاعتبار، فإنّ لذلك نتائج خطيرة جدًّا.

التعامل بين الأصدقاء والزملاء

أصدقاؤك وزملاؤك يمثلون حلقة من أهم حلقات العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن أن تنجح في استمرار هذه العلاقة دون أن تكون واقعيًّا في طلباتك وتوقعاتك منهم، لتكن طلباتك ضمن دائرة الميسور، ولا تشقّ على أصدقائك وإخوانك بتوقعاتك وطلباتك.

مجتمعنا من المجتمعات التي تتكثّف فيها العلاقات الاجتماعية، وبذلك تزداد درجة التوقعات والطلبات، فكلّ فرد يطلب من أصدقائه زيارته وحضور مناسباته الاجتماعية، ولا يمكن أن تبقى هذه العلاقات في الإطار الصحيح ما لم يكن هناك تقدير لظروف الآخرين.

وفي بعض الحالات أنت تريد أن تكرم صديقك وتقدم له خدمة، لكن هذا العمل فيه مشقة وكلفة عليه!!

والكثير منا يغفل عن هذه الزاوية.

الإمام الحسن العسكري تروى عنه كلمة جميلة، نحتاجها كثيرًا في مجال علاقاتنا الاجتماعية، يقول عليه السلام: «لا تكرم الرجل بما تشق عليه»[1] أنت تريد أن تكرمه، لكن عليك أن تراعي ألّا يسبب له حرجًا وكلفة لجهة من الجهات!

ومن أمثلة ذلك الولائم والدعوات، فقد يدعو أحدهم صديقه لحضور مناسبة مع بعد المسافة وحصول المشقة، ولا يقدّر ظروفه، أو يطلب منه تناول ما لا يناسبه من أنواع الطعام!!

ينبغي أن نأخذ كلّ هذه الأمور بعين الاعتبار.

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول. ص ٤٨٩.

اشكر من حولك وتجاوز عن أخطائهم

يواجه الإنسان ضمن حياته اليومية، في محيطه الصغير أو مجتمعه الكبير، خليطًا من المواقف الإيجابية والسلبية، التي يحتاج معها إلى ضبط ردود أفعاله، على نحو متّزن.

والإنسان كتلة من المشاعر، لا يمكنه أن يكون في منأى عن التأثر، سلبًا أو إيجابًا، فإذا ووجه بعمل جميل فهو يرتاح إليه نفسيًّا، وإذا ووجه بعمل سيء فهو يتأذّى وينزعج منه، هذا من طبيعة البشر. لكن السؤال هنا، هو عن كيفية ترجمة المرء لمشاعره وأحاسيسه وردود فعله إزاء المواقف الإيجابية والسلبية التي يصادفها في تعامله مع الآخرين؟

إبداء الشكر والرضا

إنّ أول وأهمّ ما يتوجب على المرء تجاه ما يقدمه الآخرون إليه من أعمال تسرّه، هو إبداء الشكر وإظهار السرور لصاحب المعروف. كأيِّ عمل إيجابي تقدّمه الزوجة في المنزل، أو تصرف جميل من أبنائه، أو خدمة يقدمها جارٌ أو زميل أو أحد المعارف، فجميع تلك الأعمال تستحق الشكر. بعض الناس بخلاء في إظهار ارتياحهم وشكرهم للآخرين، وهذا نوع من الجفاف في التعامل. ذلك أن من الواجب التعبير عن مشاعر السرور والرضا إزاء من يحسنون إلينا، وهذا تحديدًا ما يعبّر عنه بشكر المعروف وشكر الإحسان. إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام وفي شطر من

دعاء مكارم الأخلاق يطلب من الله سبحانه أن يُسدّده ويوفقه لأنْ يشكر الحسنة، أي العمل الجميل الذي يسديه الآخرون له.

الشكر على أداء الواجب

وينبغي الملاحظة هنا، بأنّ إسداء الشكر والتقدير لأهل المعروف، يبقى مسلكًا جديرًا بالاهتمام، حتى لو كان ذلك المعروف مرتبطًا بصميم واجبات الآخرين. فمن أعظم مكارم الأخلاق إِبداء الشكر إزاء أيِّ عمل جميل يقدم لنا على نحو مطلق، ويجري ذلك ـ على سبيل المثال ـ مع ما تقدّمه الزوجة داخل المنزل، فهي تستحق كلّ الشكر بالمطلق، لا كما يفهمه بعض الأزواج المنتفخين ذاتيًّا، من أنّ الزوجة إنما تقوم بما تقوم به باعتباره جزءًا من واجبها، وبذلك لا تستحقّ عليه حمدًا ولا شكورًا! وهذا خلاف المنهج الرباني، فربنا سبحانه وتعالى يشكر عباده المؤمنين، ويجازيهم بالثواب، ويعدهم بحسن المآب، مع أنهم لم يقوموا إلّا بواجباتهم التي فرضها سبحانه عليهم.

وعلى غرار ذلك، ينبغي أن يبدي الآباء الشكر لأبنائهم الذين يبرونهم ويحترمونهم، مع أنّ ما يقوم به الأبناء هو واجب عليهم، لا كما يفعل بعض الآباء الذين ربما لا يجدون بأن عليهم إبداء مشاعر الامتنان أمام الأبناء، معتقدين –خطأً– بأن ذلك من صميم واجبات الأبناء وحسب، فلا يستحقون عليه الشكر.

وسواء أُسدي المعروف من الأهل والأصدقاء أو الزملاء والجيران، من المهم أن يعوّد المرء نفسه شكر الحسنة الصادرة من أيٍّ كان، بما في ذلك الزوجة أو الخادمة أو العامل أو السائق الذي يوصلنا، كما أنّ من المهم النأي عن العجرفة التي تستكثر تقديم عبارات الشكر التقليدية للعاملين تحت أيدينا، على قاعدة أنهم يتسلّمون مكافأة لقاء عملهم ذاك. إنّ على الإنسان حين يجد عملًا إيجابيًّا من الآخرين، أن يشجّعهم على الاستمرار في هذا المسلك الحسن، من خلال شكرهم حتى لو كان ذلك العمل جزءًا من واجباتهم.

الشكر حقٌّ للمحسنين

وثمّة دواعٍ ومبرّرات عديدة لإبداء الشكر والإشادة بالعمل الجميل من الآخرين. ولعلّ أول هذه المبررات، هو أنّ تقديم الشكر لأهل المعروف حقٌّ أدبيٌّ معنويٌّ للطرف الآخر، ونجد ذلك جليًّا في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام حين قال: «أما حقّ ذي المعروف عليك أن تشكره وتذكر معروفه»، فالزوجة التي تصرف جهدًا هائلًا في تربية الأبناء، ورعايتهم في كلّ شؤون حياتهم، وتوفير جو مريح لعائلتها وزوجها، تستحقّ الإشادة وتقديم عظيم الشكر والامتنان لها على ذلك. والأمر ذاته ينطبق على الزوجة التي ترى زوجها يكدّ على توفير لقمة العيش للعائلة، وينفق عليها، ويهتمّ بمختلف شؤون المنزل، فعليها أن تعوّد نفسها شكر زوجها على كلِّ عمل إيجابي وجميل يؤدّيه تجاهها، وإن كان واجبًا شرعيًّا عليه.

التشجيع على الخير

أما المبرر الثاني فهو ما يقدّمه الشكر والإشادة بالعمل الحسن، من تشجيع وتعزيز لذلك السلوك عند أهل المعروف. متى ما وجدوا انعكاس ذلك إيجابًا، في ردود فعل الآخرين المليئة بالشكر والعرفان، وقد ورد في هذا السّياق عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «شكرك الراضي عنك يزيده رضا ووفاء»[(١)]، وأيضًا: «شكرك للسّاخط عليك يوجب لك منه صلاحًا وتعطّفًا»[(٢)].

وثالث المبررات أنّ هذا المسلك يعزّز السّلوك الإيجابي في الواقع الاجتماعي العام. حين يتعارف الناس على شكر الطيبين، وتقدير الأعمال الإيجابية، والإشادة بها، فهم بهذه الممارسة يحفّزون بعضهم بعضًا على أداء المعروف، والأعمال الحسنة، والإشادة بالمبادرات الخلاقة، ضمن محيطهم الاجتماعي العام.

وعلى النقيض من ذلك، سيغدو المجتمع سلبيًّا إذا تمت مجافاة أهل المعروف،

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٣٢، حكمة ١٨.

(٢) المصدر نفسه. ص٢٣٢، حكمة١٩.

وتجاهل إحسان المحسنين في خدمة الجميع، وربما عُدّ أولئك الذين لا يشكرون أهل الإحسان باعتبارهم قاطعي طريق المعروف، ذلك أنّ فاعلي الخير بشر لهم مشاعرهم، ويتأثّرون بما حولهم، فإن وجدوا الشكر على صنيعهم تشجعوا واستمروا في فعل الخيرات، وإن ووجهوا بالإساءة أو التجاهل فسينال ذلك من عزائمهم، ولربما تأثر عطاؤهم لمجتمعهم سلبًا.

واستدراكًا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنّ المؤمن الواعي ليس في وارد انتظار الشكر من الناس على أعماله الخيرة، بقدر ما ينتظر الثواب من الله متمثلًا بقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّـهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٩] فالعمل لوجه الله هو الأصل في سيرة المؤمنين، لكن مع ذلك يبقى الإنسان بشرًا له مشاعر وأحاسيس تتأثر بواقعها المحيط سلبًا وإيجابًا، وحيثما غاب الشكر لأهل المعروف، حضر التثبيط لتوجهات الخير والمعروف. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعي سبيل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»[1]. من هنا ينبغي أن يعوّد المرء نفسه شكر كلّ عملٍ إيجابي، وأن يشيد بأيِّ فعل خير يُسدى إليه شخصيًّا، أو يصبّ في اتجاه خدمة المجتمع عمومًا.

التغاضي عن الإساءات

في المقابل، ينبغي للمرء أن يُحسن ترجمة ردود فعله إزاء المواقف السلبية التي قد يتعرض لها ضمن حياته اليومية. ذلك أنّ المحيطين بالإنسان ليسوا ملائكة، وإنما هم بشر مثله، ومن المتوقع أن يجدهم يقعون في الخطأ والجهل والغفلة، ولا شك أنّ المرء سيناله انزعاج حين تطاله تصرفات مسيئة من المحيطين به، فهناك من يأتي رد فعله مزيجًا من الغضب والعداء والقطيعة مع المسيئين، في حين تشدّد التعاليم الدينية على أن يكون المسلم الواعي مغضيًا متجاوزًا عن تلك الإساءات، فإذا ما

(١) من لا يحضره الفقيه. ج٢، ص٥٧، حديث ١٦٩٦.

أخطأت الزوجة فليتجاوز الزوج، وإذا ما أخطأ الزوج بحقّ زوجته فلتتجاوز هي عن ذلك، وعلى غرار ذلك ما يمكن أن يجري بين الآباء والأولاد، وبين الجيران والزملاء والعاملين، فالمطلوب في كلّ الأحوال أن يتمتع الجميع باستعداد نفسي للتغاضي.

من غير الصحيح أن يتصلّب المرء في مواقفه فلا يتسامح مع من أخطأ بحقّه. حتى إنّ بعض الناس يصعب عليه أن يتجاوز عن كلمة خرجت خطأ من فم زوجته التي عاشت معه عمرًا طويلًا، بل وتظلّ تلك الكلمة وذلك الخطأ لازمة دائمة في قلبه ونفسه!، وذات الأمر ينطبق على الزوجة في حال صدر الخطأ من زوجها، فمن الواجب عليها ألّا تضع ذلك التقصير أو تلك الزلة عنوانًا يلخص كلّ حياتها مع زوجها، فتصل إلى حدِّ التنكر لكلّ المعروف الذي كان بينهما على مدى طويل، وضمن هذا السياق نفهم كلمة الإمام زين العابدين عليه السلام حين يقول في دعاء مكارم الأخلاق: «أن أشكر الحسنة وأغضي عن السيئة»، وإغضاء المرء عن السيئة هنا، أي التجاهل لها،وكأنه لم يَرَهَا، وكما لو أنّها لم تكن أصلًا.

وتتجه كثير من النصوص الدينية إلى تحفيز الإنسان على التجاوز عن أخطاء الآخرين. ومن هنا جاءت الإشادة الإلهية بالصفة الأخلاقية المتمثلة في كظم الغيظ، في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٤]، هذه الصفة العظيمة ينبغي أن يضعها المرء في الاعتبار عند تعامله مع زوجه وأبنائه وخدمه والعاملين عنده والمحيطين به، فلا يحسن أن تبقى هذه التوصية الأخلاقية الإلهية مجرّد آيات نسمعها، فيملؤنا الإعجاب والانبهار بمن يتمثّلها من الأئمة والأولياء، ونقف عن هذا الحدّ.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم»[1]، وفي رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «عليكم بالعفو، فانّ العفو لا يزيد العبد إلّا عزًّا»[2]، ذلك أن عفو

(١) ابن حجر الهيثمي. مجمع الزوائد، ج٨، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٨٢، حديث ١٣٠٦٤.

(٢) الكافي. ج٢، ص١٠٨، حديث٥.

الإنسان عن الأخطاء، يجعل من نفسه نفسًا طيبة مرتاحة، بينما سيكون وقوفه عند الأخطاء سببًا للألم في نفسه، ولربما انعكس على هيئة مشاكل نفسية يمكن أن تلم به، وقد ورد في ذات السياق عنه ﷺ: «من كثر عفوه مُدّ في عمره»، علاوة على ما ينطوي عليه العفو عن الآخرين من دعوة ضمنية لهم للمراجعة وإعادة النظر في سلوكهم وسوء تصرّفهم، فقد شكى رجل لرسول الله ﷺ من تقصير وإساءة بعض من حوله، فأرشده ﷺ قائلًا: «اُعفُ عنهم تستصلح به قلوبهم»[1].

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٦، ص٢٨٨.

التكلّف في العلاقات الاجتماعية

يسلّط القرآن الكريم الأضواء على جوانب من مناطق الضعف وموارد الخلل في شخصية الإنسان وسلوكه، وذلك حتى يتلافاها ويتجاوزها، مستهدفًا ترشيد سلوك هذا الإنسان وصناعة شخصيته السوية المستقيمة.

ومن نقاط الضعف التي تطرأ على سلوك الإنسان، ما أشارت إليه الآية الكريمة بمصطلح (التكلّف)، وذلك بأن يكون الإنسان متكلّفًا في سلوكه. يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على تبليغ الرسالة، ثم ينفي عن نفسه صفة (التكلّف) لغرض لفت النظر إلى سلبية هذه الصفة فيقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

فالتكلّف صفة مذمومة في شخصية الإنسان، وقد وردت نصوص كثيرة تحذر الإنسان من هذه الصفة، منها ما ورد عن النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء والأمناء والأتقياء براء من التكلّف»[1].

والتكلّف في معناه هو التصنع والتظاهر بشخصية على غير الحقيقة، كأن يدّعي الإنسان مكانة ليست له، أو يتبوأ مقامًا في غير محله. ومن معاني التكلّف أن يتحمل الإنسان مشقة في تعامله مع الآخرين دونما داعٍ ومبرر، وهذا مقصد البحث. إذ ينبغي

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي. سنن النبي ﷺ، طبعة ١٤١٦هـ، (قم المقدسة: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص١٢٩.

أن يتسم تعامل الإنسان مع الآخرين من حيث الأصل، بالبساطة والبعد عن التكلّف، وتكبّد المشقة.

هنا لا بُدّ من التوضيح بأن هذا لا يعني بأي حال عدم إيثار الآخرين على النفس والمبادرة في قضاء حوائجهم، فهذا التصرف لا يطلق عليه تكلّفًا بل يسمى إيثارًا، يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وهذا في الشريعة أمر ممدوح. بل المقصود من التكلّف هنا، هو التكلّف في التعامل مع الآخرين، عبر تحميل الذات مشقة دون داعٍ سوى الرياء وطلب السمعة، فهذا منهي عنه شرعًا.

ذلك على غرار المريض الذي يوصيه الأطباء بالتزام الفراش وطلب الراحة التامة، لكنه مع ذلك يخالف رأي الأطباء فيلتزم استقبال ضيوفه، لا لشيء إلا ليجامل أصدقاءه على حساب صحته، هذا من التكلّف المذموم في بعض صوره.

التكلّف في الضيافة

وكذلك ما يرتبط بأمور الضيافة مثلًا، فالضيافة شيء محبوب ومندوب، لكن التكلّف فيها مذموم، وهناك نصوص كثيرة تعالج هذا الأمر، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «شرّ الأخوان من تتكلّف له»[1]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن لا يحتشم من أخيه ـ والاحتشام بمعنى تحمل الحرج ـ وما أدري أيهما أعجب الذي يكلف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلّف له، أو المتكلّف لأخيه»[2].

فهناك بعض الضيوف يكلفون على غيرهم فلا يقبلون إلا ببرتوكول معين، والإمام الصادق يتساءل هنا: أيهما أعجب هذا الذي يكلّف غيره، أم الشخص الذي يكلف نفسه في حين يمكن للآخر أن يقبل منه اليسير الممكن.

وروي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «لا تكرم الرجل بما يشق عليه»[3] وذلك

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) الكافي. ج ٦، ص ٢٧٦.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول. ص ٤٨٩.

كما يحدث في بعض الأحيان من إصرار على شخص ما بقبول الدعوة أو شيء ما بخلاف رغبته، وقد يكون في ذلك ضرر عليه، من هنا يوصي الإمام بألا تشق على أحد إن كنت تريد إكرامه.

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان عفويًا ومنبسطًا في تعامله مع الآخرين، فقد ورد عن النبي ﷺ: «من تكرمة الرجل لأخيه المسلم أن يقبل تحفته ويتحفه بما عنده ولا يتكلّف له شيئًا»[١].

وعن الحارث الأعور قال أتاني أمير المؤمنين علي فقلت له: يا أمير المؤمنين، ادخل منزلي، فقال: «أدخل شرط ألا تدّخر عني شيئًا مما في بيتك، ولا تتكلّف شيئًا مما وراء بابك»[٢]. وفي رواية (ولا تجحف بالعيال)[٣] أي لا يكون إكرام الضيف على حساب أهل الدار.

وهناك في السياق ذاته رواية لافتة عن أبي وائل قال: دخلت أنا وصاحب لي على سلمان الفارسي، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم، ثم جاء بخبز وملح ساذج لا إدام عليه، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا هذا زعتر، فبعث سلمان بمطهرته ليرهنها عند البقال ليشتري زعترًا، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك الله لم تكن مطهرتي مرهونة عند البقال[٤].

العادات المكلّفة

علينا أن ننشر ثقافة عدم التكلّف في مجتمعنا، خصوصًا في مجال العادات الاجتماعية، ومنها ما يرتبط بحفلات الزواج، فجميعنا يدرك حجم الكلفة القائمة

---

(١) الكافي. ج ٦، ص ٢٧٦.
(٢) وسائل الشيعة. ج٢٤، ص ٢٧٩.
(٣) الشيخ الصدوق. عيون أخبار الرضا، ج٢، ص ٢٣٥.
(٤) بحار الأنوار. ج٢٢، ص ٣٨٤.

في حفلات الزفاف النسائية تحديدًا، وهي كلفة مرهقة لأصحاب المناسبة والضيوف المشاركين فيها على حد سواء، لكننا جميعًا متواطئون على هذا النهج مع شديد الأسف. فعادة ما ينتهي حفل استقبال المهنئين ويبدأ زفاف العريس في وقت مبكر نسبيًا قد لا يتعدى الساعة العاشرة والنصف مثلًا.

وقد درجت مجتمعاتنا في السابق على زفاف العريس إلى بيت الزوجية وقد سبقته عروسه، فيدخل بيته وهي بانتظاره، لكن الأمر الآن انقلب، فحفلات الزفاف لدى النساء باتت تستمر حتى ساعات الفجر مع الأسف، بل إن وجبة العشاء لا تقدم للضيوف إلا بعد منتصف الليل!، وهذا برنامج مكلف ومزعج لجميع الأطراف، خصوصًا في ظل تزايد حفلات الزواج في العطل الصيفية، فكثير من المدعوات مضطرات تحت وقع الالتزام الاجتماعي لتلبية الدعوة لحضور أكثر من حفلة زواج، في أوقات متقاربة، ما يعني ذلك تأخر كثير من النساء عن العودة لبيوتهن وأزوجهن وعيالهن، الأمر الذي ولد مشاكل كثيرة بين العوائل، لا لشيء سوى هذا التكلّف المبالغ فيه.

إننا مدعون لإعادة النظر في هذه البرامج، حتى تكون بعيدة عن التكلّف، دون أن نحرم أنفسنا فرصة مشاركة بعضنا أفراح بعض.

لا تبخل بالنصيحة والتذكير

في أعماق الإنسان فطرة نقيّة توجهه إلى الخير، وضمير يقظ يحذّره من الشر، وفوق ذلك لديه عقل يميز بين الخير والشر. هذه كلها مقومات وأسباب تدفع الإنسان إلى سلوك طريق الخير، وتردعه عن السير في طريق الشر، لكنه إلى جانب ذلك ينطوي على غرائز وشهوات، قد تميل به عن طريق الخير، وتنحرف به نحو الشّر والفساد، كما أن هناك شيطانًا يتربص بالإنسان فهو له عدو مبين، يغويه ويوقعه في المهالك. فيعيش الإنسان طيلة حياته مهما بلغت درجة إيمانه هذا الصراع المحتدم بين الخير والشر.

ومن توفيق الله تعالى للإنسان أن يبعث له من ينبّهه، فقد يغفل، أو يقع تحت ضغط الشهوة، وقد تلتبس عليه الأمور فلا يميز بين الخير والشّر. حينئذٍ يُقيّض الله تعالى للإنسان من يكون مذكّرًا ناصحًا ينبهه من غفلته، ويرفع معنوياته أمام ضغط الشهوات والغرائز، يُبيّن له ما التبس عليه من الأمور. فوجود الواعظ نعمة من الله على الإنسان، لكن بشرط أن تتهيأ نفس الإنسان للموعظة والنصيحة، فبعض الناس تأخذهم العزة بالإثم، تصيبهم حالة الغرور والتعصب، فيرفض النصيحة والناصح، إما بمبرر عدم قبول التدخل في شؤونه، وأنه أعرف بنفسه من غيره، وهذه عصبية نابعة من الغرور. على الإنسان أن يهيئ نفسه لتقبل النصيحة، خذ ما يقال وتأمل فيه، وإلا انطبق عليك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّـهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٠٦]، نعمة ساقها الله إليك أن بعث لك من يذكرك وينصحك.

ينشغل ذهن الإنسان أحيانًا بأمرٍ ما، فيذهب اتفاقًا إلى مسجد أو حسينية، أو يستمع إلى مذياع أو تلفاز، فيسمع كلامًا يلامس ما يفكر فيه. يتعجب البعض كيف حصل ذلك، هل يعلم المتحدث ما يدور في بالي؟! المتحدث لا يعلم، إنما هو توفيق من الله تعالى ساقه إليه. ومتى كان الإنسان يقظًا استفاد من هذه المنحة الإلهية. ورد عن الإمام علي عليه السلام: «نعم الهدية الموعظة»[١]. وعنه عليه السلام: «اسمعوا النصيحة ممن أهداها إليكم»[٢]. لست مجبرًا أن تأخذ بكلام الناصح، ولكن أعطِ نفسك فرصة أن تفكر فيما قاله لك، لا يحجب الغرور عنك ذلك، كما جاء عن الإمام علي عليه السلام: «بينكم وبين الموعظة حجاب من الغرة»[٣]. والغرة إما بمعنى الاغترار أو بمعنى التعصب أو الغفلة. وهو عليه السلام يرى أن قبول النصيحة توفيق عظيم: «من أكبر التوفيق الأخذ بالنصيحة»[٤].

إسداء النصيحة

وكما أن على الإنسان أن يتقبل النصيحة ويتأمل فيها، عليه ألّا يبخل على غيره بالتذكير والنصح. بعض الناس يبخلون بنصح الآخرين وكأنهم يدفعون أموالًا طائلة! يمشي في طريق ويراه مغلقًا في آخره فيضطر للعودة، وهو في طريق العودة يرى شخصًا آخر يسلك نفس الطريق لكنه لا يكلف نفسه أن ينبّهه للأمر.

في القضايا المادية والمعنوية يبخل بعض الناس على غيرهم بالنصيحة والموعظة، مع أنهم لا يخسرون شيئًا بل يربحون؛ لأن الدال على الخير كفاعله. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة، أمشاهم في أرضه بالنصيحة

---

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص ٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه. ص ٨٩.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٢٨٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٧١، حكمة ٥٧.

لخلقه»(١). وورد عن علي عليه السلام: «ابذل لصديقك نصحك»(٢). وعنه عليه السلام: «المؤمن غريزته النصح»(٣)، وعنه عليه السلام: «النصيحة من أخلاق الكرام»(٤). وكما يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

في بعض الأحيان قد تقرأ كتابًا جميلًا فقل لمن تجلس معهم عن إعجابك بالكتاب وشوّقهم إلى قراءته، حتى يستفيدوا. شجع على سماع محاضرة أعجبتك، على حضور صلاة الجماعة، على عمل الخير. قل كلمة معروف فإنك لن تخسر بل تربح، وكم من كلمة أحيت صاحبها بعد الموت، في بعض الأحيان يقول الإنسان كلمة حق وهو يعتقد أنها لا تفيد من يحدثه، ولكن يكتشف فيما بعد أنها أخذت دورها وأثرت في نفسه.

أخبرني أحد الإخوان، قال: كنت في المحكمة وجاء رجل مغضبًا يريد تطليق زوجته، وحينما أعطي موعدًا لذلك غضب أكثر، حيث يريد إجراء الطلاق في نفس الوقت، فنصحته بأن فكر قليلًا ولعلّ التأخير خير لك. فغضب وانفعل عليّ، لكني لم أبالِ ومضيت في نصحي. بعد أسبوع جاء وقبّل رأسي، واعتذر لرفع صوته، وقال: بعد أن خرجت فكرت في كلامك ورتبت أموري وها أنا في علاقة طيبة مع زوجتي الآن.

طبيعة الإنسان طبيعة طيبة، حتى لو تظاهر بالرفض، لكنه قد يكون نوعًا من التعزز والتمنع الظاهري، وفي داخل نفسه قد تتفاعل النصيحة.

يُحكى أن رجلًا جاء إلى منزله ولبس ملابس جديدة، يريد أن يذهب لأمر فيه معصية، فجاءه ابنه يطلب منه إيصاله مكانًا ما. قال الأب: أنا في عجلة من أمري. فأصرّ عليه الابن، فقال الأب: أين تريد؟ قال: الآن وقت الصلاة ولا أريد أن يفوتني

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٠٨، حديث ٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٧٤، حكمة ٥٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٦٦، حكمة ٢٠٨٥.

(٤) المصدر نفسه. ص٦٨، حكمة ٢١٤١.

من الصلاة شيء. لم يقبل الأب، لكن حين ركب سيارته، فكر في نفسه، وقال ابني الصغير مستعجل للذهاب للمسجد حتى لا تفوته ركعة من الصلاة! وأنا مستعجل حتى أذهب لمعصية الله! وعاد لبيته، وقبّل ابنه وذهب معه للمسجد.

لذلك تقول الآية الكريمة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. أصحاب الآراء السديدة في المجتمع لا ييأسوا من إسداء النصح، كنت أقول للإخوة الذين يبلغون أو يشتغلون بنصح الناس، ولا يرون تجاوبًا كبيرًا، أقول لهم: إن التبليغ والتذكير مثل المستشفيات والصيدليات والأطباء، فمهما كثر العدد لكن الأمراض تبقى ولا تنتهي، وإذا كنا لا نستطيع استئصال كل الأمراض، فهل نغلق المستشفيات؟

فعلينا ألّا يبخل بعضنا على بعض في النصيحة وأن نتهيأ لتقبلها.

التحفيز نحو السلوك الإيجابي

للإنسان شهوات تدفعه للشّر، ولكن في أعماقه نزوع إلى الخير، وهذه النزعات أعمق من دوافع الشر. وقد زود الله تعالى الإنسان بإرادة قوية يستطيع أن يكبح بها دوافع الشر، فمن المفترض أن يكون الإنسان أقرب إلى الخير منه إلى الشّر، كما أن إمكانات سلوك الخير أعظم بكثير من إمكانات مزالق الشّر. والنصوص الدينية التي تتحدث عن جنود العقل تكشف شيئًا من هذه الحقيقة، فجنود العقل أكثر وأقوى عند الإنسان من جنود الجهل والشر. لكن الظروف الخارجية لها الأثر الأكبر في توجهات الإنسان، فإذا عاش في بيئة تحفّزه للخير، وتشجعه عليه فإنه يكون أكثر استجابة للخير والصلاح، بينما إذا عاش في بيئة تحرّض لديه الشهوات والأهواء، وتشجعه على الانحراف والفساد، فإنه معرّض للانزلاق والانحراف.

من هنا تأتي أهمية التحفيز لدوافع الخير في الأجواء التي يعيشها الإنسان. كلما توفرت للإنسان محفزات نحو الخير ازداد عطاءً في مجال الخير. لذلك يتحدث التربويون وخبراء الإدارة عن دور التحفيز في التربية والإدارة.

في مجال التربية يقررون أن المربي إذا استخدم آليات التحفيز لأبنائه وطلابه، ولمن يريد توجيههم، فإن هذه المنهجية تؤتي ثمارًا طيبة. وكذلك في المجال الإداري حينما يدير الإنسان مشروعًا، ولديه مجموعة من الموظفين، فالباحثون الإداريون يشيرون إلى دور التحفيز في صنع الإبداع والإتقان عند الموظفين.

وهناك حديث كثير في العلوم المعاصرة عن مفهوم التحفيز، ويعرّف بأنه: مؤثر خارجي يحرّك شعور الإنسان ويجعله يسلك سلوكًا معينًا لتحقيق الهدف المطلوب. في مجال الإدارة يقول الباحثون: أثبتت الدراسات أن الموظفين يعملون بكفاءة تعادل فقط ٦٠٪ مما يستطيعون تقديمه للعمل. وعن طريق التقنيات التحفيزية الفعالة يمكن تعديل هذه الإحصائية وطرق باب الأربعين في المئة من الطاقة الكامنة في داخلهم.

مفهوم التحفيز في التوجيه الديني

لهذا نجد حضورًا لمفهوم التحفيز على الخير في التوجيهات الدينية؛ لأن الخالق جلّ وعلا يعلم دور التحفيز في دفع الإنسان نحو الخير. إن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. وفي آية أخرى يعد الله تعالى بمضاعفة الأجر سبعمائة ضعف يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾، وفي آيات أخرى هناك وعد مفتوح بمضاعفة الثواب دون حدود يقول تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وماذا يعني عشر أمثالها؟ العلماء يقولون: هذا هو الحدّ الأدنى لمضاعفة الأجر والثواب، لكن المجال مفتوح إلى سبعمئة ضعف بل أكثر من ذلك، وبغير حساب محدد. وهذا كله من أجل أن يتحفز الإنسان لفعل الخير. والقرآن الكريم يشير إلى أن عمل الخير ليس فقط فيه ثواب كبير، وإنما يُذهب تبعات ما قد يقع فيه الإنسان من شرّ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

نستفيد من ذلك أن الإنسان يجب أن يكون واثقًا بهذا التحفيز الإلهي، وكيف لا يثق الإنسان؟ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾، الله تعالى يفي بعهده وليس أوفى منه ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

من جهة أخرى علينا أن نستفيد من منهجية التحفيز في تعاملنا مع من حولنا. أنت تريد أن تربي أبناءك فحاول أن تُحفّزهم بدل الترهيب والقسوة. حفزهم بالمدح والثناء

على كلّ عمل طيب، وكافئهم على أعمالهم الحسنة. وكذلك مع الزوجة والأصدقاء وكل من حولك. بعض الناس من طبيعتهم يميلون إلى الشدة والعنف، لكن التوجيه الديني يؤكّد لنا سلوك منهجية التحفيز، صحيح أننا بحاجة للردع والعقوبة في بعض الأحيان، لكنها يجب أن تكون بمقدار الضرورة، وأن تكون استثناءً، أما الأصل الذي يجب أن نراهن عليه فهو منهجية التحفيز، وقد تحتاج هذ المنهجية إلى زمن حتى تثمر.

كذلك الحال بالنسبة للمعلم مع طلابه، فالتقارير تشير إلى أن المعلم الذي يستخدم هذه المنهجية مع طلابه يكون أنجح من المعلم الذي يستخدم الشدة والردع. وفي التعامل مع الموظفين والعمال والناس بشكل عام، فإن الأمر مطلوب أيضًا. وعلينا ألّا نغفل جانب العمل التطوعي، ونحن نجد شكوى من عدم الإقبال على العمل التطوعي، فالتحفيز للعمل التطوعي فيه فوائد كثيرة، منها: إظهار دور المتعاونين مع الجمعيات الخيرية، والثناء على دورهم، وتقديرهم أمام المجتمع، ومكافأتهم معنويًا، فهذا يحفّز من يتعاون على المزيد، ويحفّز الآخرين على الانخراط في العمل الخيري.

الفراق الجميل .. فراق بالتي هي أحسن

يعيش الإنسان علاقات اجتماعية متعددة، ويسعى إلى النجاح في جميع علاقاته ومعاملاته، لكنه قد يضطر لإنهاء بعض هذه العلاقات لأي سبب من الأسباب، وفي لحظات إنهائه لهذه العلاقة أو تلك، يغفل عن تحقيق النجاح، فيكون في حالة من التشنج والخلاف، قد تنتج مشكلة تأخذ أبعاداً وتداعيات تتجاوز حدودها الطبيعية.

ونشير هنا إلى بعض مظاهر هذه الحالة السلبية:

المظهر الأول: مجال المعاملات

من الطبيعي أن يحصل الخلاف في بعض المعاملات التجارية بين البائع والمشتري، أو المؤجر والمستأجر، أو أي اتفاق تعاملي بين طرفين، وفي بعض الحالات ينتهي المطاف بالمتعاملين إلى إلغاء العقد، وإنهاء المعاملة، وفي هذه الحالة ينبغي أن يستحضر الإنسان التوجيهات الدينية التي تدعوه إلى حسن التصرف في إنهاء المعاملة مع الآخرين، وقد قيل: «الدين المعاملة»، ولا تقتصر المعاملة على الاستمرار في العلاقة، بل حتى في طريقة إنهاء هذه المعاملة، بحيث تكون وفق الأخلاق والتعامل الحسن الجميل.

وعلى سبيل المثال، حين يستأجر شخص شقة أو منزلاً، ثم يحصل اختلاف ما، ويريد صاحب الشقة أن يُخرج المستأجر، أو يريد المستأجر أن يخرج، ينبغي أن يكون الخروج سليماً، خالياً من النزاع والشقاق، كما تقول الآية المباركة ﴿وَأَخْرِجْنِي

مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، وكذلك في عمليات البيع والشراء، والتعامل مع الخدم والعمال، أي معاملة تجارية يدخل فيها الإنسان عليه أن يحافظ على حسن الدخول، وحسن الخروج.

من جهة أخرى، فإن من الخطأ أن يحمّل الإنسان الآخرين المسؤولية دائماً، ففي حالات الخلاف يمكن أن تنتهي العلاقة بالصلح والتنازل، لكن البعض يعيش حالة خلاف دائم مع كل من يتعامل معه، فصاحب الحملة التي يسافر فيها من وجهة نظره سيئ، وسائق سيارة الأجرة سيئ، وصاحب المطعم سيئ، فينهي العلاقة معهم في صورة نزاع، ويقرر أن غيره يتحمل مسؤولية هذا النزاع.!

المظهر الثاني: في العلاقات والحياة الزوجية

رغم أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى، إلا أن بعض الحالات قد تفرض (الطلاق) كحل للمعالجة، حيث يجد الزوجان أن حياتهما الزوجية لا يتحملان استمرارها لوجود مشكلة أو خلاف أو عدم انسجام، أو لأي سبب آخر، وهنا لا بد من التنبه إلى ضرورة إنهاء هذه العلاقة في جو من التفاهم والتعامل الحسن الجميل، كما هو صريح الآية المباركة ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[سورة البقرة، الآية:٢٢٩] بعيداً عن إقامة الدعاوى والدخول في نزاعات ومشاكل تؤثر على حياة الإنسان ومستقبله ومستقبل أبنائه،وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[سورة البقرة، الآية:٢٣١].

فالانفصال لا يؤسس ـ بالضرورة ـ إلى حالة نزاع أو عداوة، بل يمكن أن يكون في حالة من التراضي والتفاهم كما كانت بداية الارتباط في حالة من الرغبة والاقتناع.

ومن الخطأ الفادح أن يسعى أحد الطرفين أو كلاهما إلى الانتقام من الآخر، يقول الله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[سورة البقرة، الآية:٢٣١]؛ لأن الإضرار بالغير ظلم للنفس، حيث يعيش الإنسان حالة من التوتر والتشنج تؤثر على حياته، و في السياق نفسه يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ

قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سورة البقرة، الاية:٢٣٧].

ففي حالات الطلاق والانفصال، على كلا الطرفين أن يقدما التنازل الكاشف عن سلامة المشاعر وبعد الأفق.

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾[سورة النساء، الآية:١٣٠].

المظهر الثالث: علاقات الصداقة والتعاون الاجتماعي.

يكسب الإنسان في حياته أصدقاء، ويشترك معهم في مشاريع عمل اجتماعية، كالعمل في جمعية خيرية، أو نادٍ رياضي، أو لجنة أو مؤسسة ثقافية، وقد تستمر هذه الرابطة لعدة سنوات، وفي بعض الأحيان يقرر أحدهم الخروج من هذه الدائرة لأي سبب من الأسباب، فتأتي هذه الآية لتذكره بالخروج الجميل المناسب ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ خروج لا يخلف وراءه مشاكل، أو أحقادًا أو ضغائن، وهذا يحتاج إلى استحضار حقيقة التدين ومراقبة المشاعر، فهذه المواقف معيار للتدين و الإيمان والتقوى.

هل يفارق الإنسان من معه بطريقة سليمة أم لا؟!

يقول الشاعر:

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى   وفارق ولكن بالتي هي أحسن

في رواية للإمام الصادق عليه السلام: «ان أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يواخي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يومًا ما»[1].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «أبعد ما يكون العبد من الله أن يكون الرجل يواخي

(١) الكافي. ج٢، ص٣٥٥.

الرجل وهو يحفظ عليه زلاته ليعيّره بها يومًا ما»[١].

لذلك على الإنسان المؤمن أن يراعي هذا الأمر في علاقاته مع الآخرين.

وفي رواية أخرى جميلة عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فيسدّ عليه طريق الرجوع إليك، فلعل التجارب ترده عليك»[٢] فالتتبع لعثرات الصديق خلاف الآداب و التدين والأخلاق.

هذه كلها تمظهرات لمعنى الآية الكريمة ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

فالفراق بالتي هي أحسن يحتاج من الإنسان أن يكون ورعاً في دينه، مسيطراً على انفعالاته و عواطفه، لا ينتقم من الآخرين عندما تحصل أقل مشكلة، أو عند الاختلاف في وجهات النظر.

هذه هي آداب الإسلام التي تريد منا أن نكون مسلمين حقيقة وصدقًا، يعني ملتزمين بأوامر الله تعالى، ثم تشير الآية إلى حاجة الإنسان إلى عون الله ونصره ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ ذلك أن الالتزام بهذه الأخلاقيات ليس بالأمر الهيّن، والإنسان محتاج في ذلك إلى توفيق الله سبحانه وتعالى إن هو أراد ذلك.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٢١٩.

(٢) المصدر نفسه. ج٧١، ص١٦٦.

الفصل الخامس

في السلوك الاجتماعي

التواصل الاجتماعي

طبيعة حياة الإنسان البشرية تفرض عليه نوعًا من التواصل مع محيطه الاجتماعي.

أولًا: لأن الإنسان يأنس بأبناء جنسه، ولا يستطيع أن يعيش من دونهم، أو بعيدًا عنهم. وقد ذكر بعض اللّغويين أن كلمة الإنسان مشتقة من الأنس، على اعتبار أن الإنسان يأنس بمثله. ولو أنك وفّرت لإنسان كل ما يحتاجه في حياته وعزلته عن الناس، بحيث يعيش بمفرده، فإن ذلك لن يريحه، لهذا فإن من أقسى أنواع العقوبات السجن الانفرادي.

فالإنسان بشكل طبيعي يميل إلى أبناء جنسه ويأنس بهم، وبالتالي لديه دافع طبيعي للتواصل مع الناس.

ثانيًا: حاجات الإنسان الحياتية تفرض عليه أن يتواصل مع الآخرين، فهو لا يستطيع أن يوفّر كل حاجاته بنفسه، فقد يمرض فيحتاج إلى الطبيب، وهو بحاجة إلى العامل في البناء وغيره، وهو يشتري من السوق، وقد يعمل لدى أحد أو يعمل لديه أحد، إن طبيعة الحياة تجعل المصالح مشتركة، والحاجات متداخلة بين الناس، وهذا يفرض على الإنسان حالة من التواصل مع الآخرين.

لكن هذا التواصل يبقى في مستواه الأدنى وفي حالته الأولية الساذجة. ويحتاج المجتمع إلى نوع أرقى من التواصل، وهذا يختلف من مجتمع إلى آخر.

وقد كنا نعيش تواصلًا مكثفًا في مجتمعنا حين كانت الحياة على بساطتها، وكان الناس يعيشون في مناطق جغرافية محدودة، وضمن اهتمامات محدودة، لكننا الآن، ومع التطور الذي حصل في واقع حياتنا، لم نعد نعيش درجة التواصل الاجتماعي السابقة. ولعلّ من أبرز الأسباب:

- انتشار الناس جغرافيًا، فما عاد الإنسان مقيمًا في نفس الحي الذي نشأ فيه.
- انشغالات الناس واهتماماتهم تشعبت في هذا العصر، بعكس ما كانت عليه حياتهم في الماضي، حيث تنتهي جميع أعمالهم بحلول الظلام، ويُصبح الوقت متاحًا للتواصل، وحتى في النهار فإن دائرة الاهتمامات محدودة. أما في زمننا المعاصر فقد انشغل الإنسان باهتمامات مختلفة، معرفية وعملية وغيرها، ما قلل من حصة العلاقات الاجتماعية.
- انخفاض الروح الاجتماعية عند أكثر الناس لصالح الاهتمام الفردي، حيث أصبح كل واحدٍ مشغولًا بنفسه، وفي بعض الأحيان ينشغل حتى عن عائلته وأسرته، بانشغالات بعضها لا تستحق التفريط بحق الأسرة، كمتابعة بعض الأفلام على التلفاز، أو الانغماس في المتابعة على الإنترنت. وقد أثّر هذا حتى على علاقة الأم مع أطفالها، إذ لم تعد العلاقة وثيقة وحميمة كما كانت عليه في الماضي. والأب كذلك أصبح بعيدًا عن أسرته بسبب هذه الاهتمامات ذات الطابع السلبي في حالات كثيرة.

هذه الاهتمامات زادت عند الناس على حساب توجههم الاجتماعي، وإن كنا لا زلنا نحتفظ بدرجة من التواصل، لكنه في الغالب تواصل مناسباتي كمناسبة الزواج والعزاء. وهو تواصل شكلي، غير أن ما نحتاج إليه هو التفكير في التواصل ذي المضمون.

وأشير هنا إلى أبرز معالم التواصل الاجتماعي المطلوب:

أولًا: التقارب النفسي الروحي

الحياة بطبيعتها لا تخلو من ضغوط ومشاكل، خصوصًا في هذا العصر، فيحتاج الإنسان إلى من يتضامن معه نفسيًّا، وإلى من يقترب منه روحيًّا، ليخفف عنه الآلام، ويرفع معنوياته. ويحتاج الإنسان إلى من يستشيره ويأخذ برأيه. وتُشير روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المضمون، وتُعبّر عنه بإدخال السرور إلى قلب الأخ المؤمن، فعن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «من لقي أخاه بما يسره سرّه اللّه يوم القيامة»[١]، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من سرَّ مسلمًا سرَّه اللّه يوم القيامة»[٢]، وعنه عليه السلام: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سرورًا أنه عليه أدخله فقط، بل واللّه علينا، بل واللّه على رسول اللّه»[٣].

ثانيًا: التعاون في تيسير شؤون الحياة

كل مجتمع يواجه مشاكل، وكل قوم في منطقتهم لهم احتياجات، ولا يستطيع الإنسان بمفرده أن يحلّها ويعالجها، وإنما يحتاج أن يتعاون مع الآخرين. وكمثال تقريبي: تربية الأبناء في عصرنا الحاضر في الغالب تكون عملية شاقّة، إذا أراد الأب أو الأم وحدهما القيام بهذا الدور، ولكن عندما تكون هناك برامج ولجان تخلق الأجواء الصالحة، وتسعى من أجل بناء الجيل الجديد بناءً سليمًا، فهذا يكون أكبر إعانة للأسرة على تربية أبنائها. ويؤكد القرآن الكريم على هذا المضمون في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة: الآية ٢].

ثالثًا: المشاركة في خدمه الأهداف المجتمعية

كل مجتمع لديه تطلعات وأهداف مشتركة، دينية أو سياسية أو اجتماعية. هذه الأهداف المشتركة تحتاج إلى تعاون وتواصل اجتماعي، يحمل هذا المضمون،

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٣٥٦.

(٢) مستدرك الوسائل. ج٢، ص٤١٥.

(٣) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٣٤٩.

ويساعد المجتمع على تحقيق الأهداف والتطلعات المشتركة التي يبحث عنها ويسعى من أجلها. والإمام علي عليه السلام يُوصي بهذا المضمون في آخر وصيةٍ له، فيقول: «وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع»[١]، والتباذل هنا بمعنى البذل والعطاء.

نحو أطر جديدة للتواصل الاجتماعي

المجتمعات المتقدمة تبحث عن الأطر التي من شأنها أن تُحقق تطلعاتها، ونحن كمجتمع متدين ينبغي أن يكون الأولى بنا السعي لذلك، لكي تكون في المجتمع أطر للتواصل الاجتماعي، من شأنها أن تُحقق المضامين التي سبق الحديث عنها.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى أنه في المملكة هناك توجه نحو بناء مؤسسات المجتمع المدني، ففي مجلس الشورى يتم التطرق لهذا الموضوع، وكذلك وزارة الشؤون الاجتماعية أصدرت كتابًا يضم (١٧٦) مشروعًا مقترحًا للتنمية الاجتماعية، ترتبط بالأطفال والشباب والنساء وكبار السن، ولمختلف المجالات المعرفية والتربوية والاجتماعية تحت عنوان (دليل المشروعات الاجتماعية في لجان التنمية الاجتماعية) ١٤٢٥هـ بإعداد نخبة من المختصين والمختصات.

والعالم اليوم يزخر بالأطر الجديدة والناجعة في هذا المجال، وقد نشرت (جريدة اليوم) في ٢ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٦م، تقريرًا عن إطارٍ جديد تشكّل في نيو دلهي بالهند قبل ٦ سنوات، تحت عنوان (مشروع بها جيتاري) ويعني المشاركة. هذا الإطار تبنته مجموعة من المتقاعدين، وهدفه متابعة الأجهزة والدوائر الحكومية، ومراقبة سير الإدارات فيها، وتوجيه الملاحظات التي يرون أنه من الضروري الانتباه لها. في بداية الأمر لم يكن هناك تجاوب معهم، بل لم يكن يُسمع لهم، ولكن فيما بعد أصبح معهم (١٤٠٠٠) عضوًا، وحققوا خلال ٦ سنوات ألف قصة نجاح، وفي عام ٢٠٠٥م خصصت الأمم المتحدة لهم جائزة باعتبارهم أفضل

(١) نهج البلاغة. ص٣٦١.

جماعة في العالم في خدمة النشاط الاجتماعي. حيث يعقد الأعضاء اجتماعات مع أعضاء البرلمان، ومسؤولين كبار في الحكومة، والوكالات المدنية، لحل مشكلات الخدمات، ومناقشة الخطط المطروحة في موضوعات منها توفير إمدادات الكهرباء والمياه، وعزل المواد الصلبة في القمامة، وقضايا الصحة، وتمكين المرأة من ممارسة حقوقها، والاهتمام بالبيئة، كتنمية الحدائق، مما زاد المساحة الخضراء في نيودلهي عشرة أضعاف.

وهنا كلمة أوجّهها للمتقاعدين بأن يُفكّروا كما الآخرون، لماذا نجد في العالم مؤسسات للمتقاعدين، وفي مجتمعنا الكثير من المتقاعدين غاية ما يقومون به تكرار الحج وزيارة المراقد المقدّسة، وهذه الأمور مع أهميتها إلا أن خدمة المجتمع لا تقل ثوابًا عنها إن لم يكن ثوابها أكبر.

ويتعجب الإنسان من طبيعة الأطر التي تُطرح في تلك المجتمعات، ومنها ما نشرته (جريدة الحياة) في ٩/ ٢/ ١٤٢٢هـ عن تأسيس نادٍ في (مدينة نيم) الفرنسية، اسمه: (نادي الأغبياء الفخورين بغبائهم)، ومن شروط الانضمام لهذا النادي أن يكون الشخص غبيًّا ويفتخر بغبائه، ولديهم شعار: الغبي ذكي يجهل ذكاءه.

ونشرت (جريدة الحياة) أيضًا في ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٣هـ خبرًا عن مسيرة للدفاع عن كرامة القطط في روما، تجمع فيها نحو (٢٠٠٠) شخص.

في تراثنا الإسلامي هناك أوقاف كبيرة تهتم بمثل هذه القضايا، ومنها أن أحد التجّار وقف قطعة نخلٍ كبير من أجل إطعام القطط الجائعة عند مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في مشهد، والسبب أنه عند زيارته للمرقد الشريف ترك بعض حاجياته عند مدخل المقام وفيها كمية من اللحم كان اشتراها لغذائه، وعند خروجه لم يجدها، لأن القطط الموجودة في تلك المنطقة أخذتها[١].

---

(١) حسن موسى الصفار. الأوقاف وتطوير الاستفادة منها، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، (القطيف: أطياف للنشروالتوزيع)، ص١٦.

وما نخلص إليه من هذا الطرح، أنه في مجتمعنا ينبغي التفكير في أطر جديدة لمعالجة قضايا المجتمع، وحل مشاكله، ولا يكفي أن نجلس في المجالس وننتقد الأوضاع دون أن يكون لنا أي تحرك. ثم إن الدولة تتحمل الجزء الأساس من معالجة المشاكل، والمجتمع بجميع فئاته يتحمل جزءًا أيضًا، فليس هناك دولة تستطيع أن تُعالج كل المشاكل، ما لم يكن هناك تعاون من قبل المواطنين.

من هنا على الجميع تحمل المسؤولية في هذا الجانب، بأن يتعاون المجتمع مع الأطر القائمة، كالجمعيات الخيرية واللجان الاجتماعية، والأندية الرياضية، والمجلس البلدي، ولا يُبرر أحد بأنه لا وقت لديه لهذه الأمور، فنحن نجد أن الكثير من أبناء المجتمع يصرفون غالب أوقاتهم على قضايا هامشية، كالسهر مع الثلة، وذلك على حساب أعمالهم وعوائلهم ومجتمعهم.

وأذكر هنا بعض النماذج لأطر جديدة:

أولًا: مجالس العائلة

من الأطر الجميلة (مجالس العائلة) التي بدأت تتشكل وتقدم تجارب ناجحة على هذا الصعيد، وهذا الإطار مهم جدًّا لما فيه من تأصيل لصلة الرحم، التي يؤكد عليها الإسلام تأكيدًا بالغًا، وأحاديث رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الكرام ﵈ تزخر بالعديد من النصوص التي تؤكد أهمية صلة الرحم، فقد ورد عنه ﷺ: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم»(١). وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها اللّه عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيصيرها اللّه عز وجل ثلاث سنين، ثم تلا ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»(٢).

وفي رواية أن الإمام الصادق ﵇ التفت إلى أحد أصحابه وهو ميسّر وقال له:

---

(١) تفسير الرازي. ج١٧، ص٧١، ومثله في وسائل الشيعة ج٢١، ص٥٣٦ بعبارة (إن أعجل...).

(٢) مستدرك الوسائل. ج١٥، ص ٢٤١، الآية ٣٩ من سورة الرعد.

«يا ميسر لقد زيد في عمرك، فأي شيء، تعمل»؟ قال: كنت أجيرًا وأنا غلام بخمسة دراهم، فكنت أجريها على خالي[١]. وفي رواية أخرى: «يا ميسر لقد حضر أجلك غير مرة كل ذلك يؤخرك اللّه لصلتك لقرابتك»[٢].

وسأل أحدهم الإمام الصادق ﵇ وهو الجهم بن حميد قال: قلت لأبي عبد اللّه: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليَّ حق؟ قال: «نعم، حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم، وحق الإسلام[٣].

فصلة الرحم قضية مهمة جدًّا، واعتذار البعض بالانشغالات أمرٌ غير مقبول، وفيه ضياع للأجر والثواب الجزيل، وعدم استجابة لتعاليم الإسلام، ففي الحديث عن رسول اللّه ﷺ: «أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة»[٤].

فمجالس العائلة من الأطر التي ينبغي السعي باتجاهها، وليس بالضرورة أن يجتمع جميع أفراد العائلة، إذ يكفي تكوين لجنة تجتمع دوريًّا وهي تتفقد شؤون العائلة، ويُمكن عن طريق هذه اللجنة تجميع العائلة في مناسبات منتظمة.

ثانيًا: لجان ومراكز الأحياء

تكونت في مجتمعنا الآن أحياء جديدة، والساكنون فيها من مناطق مختلفة، وفي بعض الأحيان لا يعرف بعضهم بعضًا، مع العلم أن الإسلام قد أوصى بالجار وأكد على حقوقه، يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، و﴿الْجُنُبِ﴾ تعني ليس من أقربائك، وبعض المفسرين قالوا: ليس على دينك. وبعض الروايات تُشير

---

(١) بحار الأنوار. ج٤٧، ص٧٨.
(٢) المصدر نفسه. ج٧١، ص١٠٢.
(٣) الكافي. ج٢، ص١٥٧.
(٤) مستدرك الوسائل. ج١٥، ص٢٣٧

إلى أن حد الجوار أربعون بيتًا من جميع الاتجاهات، ورد عن معاوية بن عمار أنه سأل الإمام الصادق: جعلت فداك ما حد الجار؟ قال: «أربعين دارًا من كل جنب»[١].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن بالله، والله لا يؤمن بالله، والله لا يؤمن بالله» قالوا ومن يا رسول الله؟ قال: «جار لا يأمن جاره بوائقه» قالوا: يا رسول الله وما البوائق؟ قال: «شره»[٢].

من هنا فإن وجود لجان لهذه الأحياء الجديدة أمرٌ في غاية الأهمية، وهذه اللجان من شأنها تفعيل النشاط الاجتماعي في هذه الأحياء، وطريق لتعارف أهل الحي مع بعضهم بعضًا. ووزارة التنمية الاجتماعية تعهدت بدعم هذه اللجان. ومن البرامج المطروحة: متابعة أمور ومصالح الحي، توثيق العلاقة بين أبناء الحي، إنشاء مكتبة عامة للحي، إنشاء نادٍ رياضي للنساء. وقد طبعت الوزارة كتابًا حول الموضوع بعنوان (مراكز الأحياء) ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

إن مجتمعنا بحاجة ماسّة لتجديد أطر التواصل الاجتماعي، فما عادت الأطر القديمة قادرة على تفعيل هذا الجانب بالشكل المطلوب.

الجانب الاجتماعي في العبادات

العبادات الإسلامية فيها بعد اجتماعي واضح، ولعل أبرز هذه العبادات وضوحًا الحج، إذ إن المسلمين يحجون إلى بيت الله الحرام في زمن واحد، ويجتمعون على صعيد واحد.

ومن البرامج العبادية المهمة، ذات الطابع الاجتماعي: صلاة الجماعة، يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[سورة البقرة: الآية ٤٣]. ويتّفق جميع المسلمين على تشريع صلاة الجماعة في الصلوات الواجبة، كما يتفقون على عدم صحة صلاة الجمعة والعيدين ـ في حال وجوب صلاة العيدين ـ إلاّ جماعة.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٣٢.

(٢) مجمع الزوائد، ج٨، ص١٦٩، باب جار السوء.

ووقع الخلاف بين الفقهاء في حكم صلاة الجماعة في الفرائض اليومية، والآراء في حكمها ثلاثة:

الأول: واجبة فرض عين: وهو رأي المذهب الحنبلي وبعض الأحناف[١].

الثاني: واجبة فرض كفاية: وهو رأي الشافعية[٢].

الثالث: سنّة مؤكّدة:وهو رأي الجعفرية[٣]، والمالكية وبعض فقهاء الحنفية[٤].

هذا وقد وردت أحاديث وروايات كثيرة تؤكّد على أهمية صلاة الجماعة، ومنها ما جاء عن رسول اللّه ﷺ في حديث ذكرته المصادر من الفريقين: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة»[٥] وفي صحيح مسلم «صلاةٌ مع الإمام أفضل من خمس وعشرين صلاة يصليها وحده»[٦].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «من ترك الجماعة رغبة عنها وعن جماعة المسلمين من غير علّة فلا صلاة له»[٧].

وكذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ لم يصلِّ جماعة فلا صلاة له بين المسلمين، لأن رسول اللّه ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يصلِّ في المسجد مع المسلمين إلا من علة»[٨].

---

(١) الموسوعة الفقهية. ج١٥، ص٢٨١.

(٢) وهبة الزحيلي.الفقه الإسلامي وأدلته. ج٢، الطبعة الثالثة١٤٠٩هـ، (دمشق: دار الفكر)، ص ١٥٠، قال: «في الأصح المنصوص».

(٣) محمد بن جمال الدين مكي العاملي. اللمعة الدمشقية ج١، ص ٣٧٧، محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، العروة الوثقى ج١، ص٥٤٣.

(٤) الفقه الإسلامي وأدلته. ج٢، ص١٤٩.

(٥) وسائل الشيعة. ج٨، ص ٢٨٩.

(٦) صحيح مسلم. ص ٣٢٦، حديث ٢٤٨.

(٧) وسائل الشيعة. ج٧، ص ٢٩٩.

(٨) المصدر نفسه. ج٨، ص ٢٩٣.

وقد سأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام: عن ما يروي الناس أن الصلاة في جماعة أفضل من صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين صلاة، فقال: «نعم، صدقوا»[(١)].

وقد تحدث السيد محمد كاظم اليزدي رحمه الله في العروة الوثقى عن الترغيب في صلاة الجماعة بشكل تفصيلي ومن عباراته ما يلي: (هي من المستحبات الأكيدة في جميع الفرائض، خصوصًا اليومية منها وخصوصًا في الأدائية، ولا سيّما في الصبح والعشاءين، وخصوصًا لجيران المسجد أومن يسمع النداء، وقد ورد في فضلها وذم تاركها من ضروب التأكيدات ما كاد يلحقها بالواجبات) إلى أن قال رحمه اللّه: (وكلما كان المأمومون أكثر كان الأجر أزيد، ولا يجوز تركها رغبة عنها أو استخفافًا بها... فمقتضى الإيمان عدم الترك من غير عذر سيما مع الاستمرار عليه، فإنه كما ورد لا يمنع الشيطان من شيء من العبادات منعها)[(٢)].

فوائد صلاة الجماعة

لصلاة الجماعة فوائد جمّة في حياة المسلمين، نذكر منها:

١. تعزيز الحالة الدينية

حينما يحضر المسلمون المسجد، ويصلون مع بعضهم بعضًا، تتعزز الحالة الدينية في نفس كل واحد منهم، فمن طبيعة الإنسان أنه عندما يرى كثرة من الناس تمارس عملًا معينًا، يعطيه ذلك دافعًا للقيام بهذا العمل الذي يجد الآخرين يقبلون عليه، فالعمل الجمعي له وقع وقيمة في النفوس، وبما أن صلاة الجماعة هي في الأصل أداء للواجب والتكليف الشرعي، ومظهر من مظاهر التديّن، فتعزيزها تعزيز للحالة الدينية الاجتماعية. وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام بقوله: «إنما جعلت الجماعة لئلا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة للّه إلا ظاهرًا مكشوفًا

---

(١) المصدر نفسه. ج٨، ص ٢٨٦.

(٢) العروة الوثقى. ج١، ص ٥٤٣، فصل في الجماعة.

مشهورًا، لأن في إظهاره حجّة على أهل الشرق والغرب»[١].

٢. تأكيد التداخل بين اتصال العبد باللّه وصلته بالناس

فالمصلي عندما يأتي للجماعة في المسجد ينوي الصلاة مخلصًا للّه سبحانه، لكنه يؤديها مع جماعة المؤمنين، وهذا يؤكّد ـ وبشكل جليّ ـ أن للدين بعدين، البعد العبادي المتعلّق بالصلة باللّه تعالى، والبعد الاجتماعي المتعلّق بعمق العلاقة بين الفرد وبني مجتمعه.

٣. توثيق الروابط الاجتماعية

ففي صلاة الجماعة يلتقي المؤمنون ويتعرف بعضهم على بعض، وتكون فرصة للتواصل اليومي، وتبادل الأحاديث والأوضاع الاجتماعية، كما يعيش المصلون حينما يقفون خلف إمام واحد، وبجانب بعضهم بعضًا، حالة من المساواة وانعدام الطبقية بين مختلف فئاتهم وشرائحهم، وهو أمر يعزز حالة التوادّ والمحبة بين الناس.

٤. التربية على النظام

صلاة الجماعة تربي الإنسان على النظام والانضباط الجماعي، فإذا واظب المصلي على الجماعة، فسينضبط في أداء الصلاة في وقتها، وعلى العكس من ذلك الصلاة فرادى، حيث لا يكون هناك أي مُلزم لأدائها في أول وقتها.

وفي الجماعة تعويد على النظام، حيث يكبر المأمومون بعد الإمام ويؤدون جميع أفعال الصلاة بعده، إلى أن تنتهي الصلاة ويقفون صفوفًا منتظمة متراصة.

٥. التوجيه والمعرفة الدينية

توفر صلاة الجماعة فرصة جيّدة للتوجيه والمعرفة الدينية، حيث يستفيد المصلون من حضورهم للصلاة باستماع الخطب والمواعظ الدينية، وعرض أسئلتهم واستفتاءاتهم على إمام الجماعة، إذا كان من أهل المعرفة والعلم.

---

(١) وسائل الشيعة. ج٥، ص ٣٧٢.

العزوف عن صلاة الجماعة

وقد يتساءل البعض: ما دامت لصلاة الجماعة هذه الفوائد والآثار الطيبة على المجتمع، إضافة إلى ما ورد من النصوص الدينية في الحث عليها، وتبيين عظيم ثوابها عند اللّه تعالى، فلماذا نجد العزوف عند الكثيرين عن حضورها، حيث لا يمثل الحضور لصلاة الجماعة إلا نسبة محدودة من المجتمع؟

لا بدّ أن هناك أسبابًا لعل من أبرزها ما يلي:

الأول: ضعف الاهتمام الديني

فمن يهتم بتعاليم الدين لا يترك صلاة الجماعة، إذا كان عارفًا بقيمتها وفضلها عند اللّه، ومن يرغب في ثواب اللّه تعالى، لا يتأخر عن صلاة الجماعة، مع ما ورد فيها من الأجر العظيم والثواب الكبير.

لكن يبدو أن الكثيرين يفتقدون رغبة الإقبال على هذه الشعيرة العظيمة، بسبب ضعف الاهتمام الديني في نفوسهم.

الثاني: ضعف التشجيع

حيث لا نجد في المجتمع حثًا وتشجيعًا كافيًا على أداء صلاة الجماعة، فالكتابات حولها قليلة، والخطباء نادرًا ما يتعرضون لفضل صلاة الجماعة، ولحث الناس على المواظبة عليها.

بل إن بعض الخطباء وطلاب العلوم الدينية قلّ أن يرى الناس حضورهم في صلاة الجماعة، فيما عدا تصديهم للإمامة، وكأن طالب العلم لا صلة له بهذه الشعيرة إلا إذا كان إمامًا.

الثالث: الكسل

إن قسمًا من الناس يستثقل الذهاب إلى صلاة الجماعة، لأنها تأخذ جزءًا من وقته، وتصرف شيئًا من جهده، فيرى صلاته منفردًا في البيت أسهل وأيسر، مع أن الوقت

والجهد اللذين تستلزمهما صلاة الجماعة محدود ضئيل، وهو يصرف أضعاف ذلك الوقت والجهد على سائر شؤون حياته من الكماليات والرفاهيات.

الدعوة لصلاة الجماعة

يحتاج مجتمعنا إلى حملة مكثفة من التوعية والتوجيه لحث الناس على صلاة الجماعة، بنشر الكتب والمقالات التي تتناول فضلها وأهميتها، وينبغي أن تفتح المنتديات على مواقع الانترنت باب النقاش والبحث حول أسباب العزوف عن صلاة الجماعة في المجتمع، وطرق التشجيع على المواظبة عليها، والعلماء والخطباء عليهم أن يكرروا الدعوة إليها والحث على الاهتمام بهذه الشعيرة العظيمة.

ويمكن الاستفادة من الجوال، بإرسال رسائل قصيرة إلى الأصدقاء والأقرباء، لدعوتهم لصلاة الجماعة.

ولو تشكلت في كل مسجد لجنة للدعاية والإعلام لصلاة الجماعة، وابتكار الوسائل والأساليب المؤثرة في جذب الناس لها، فإنها ستحقق نتائج جيدة.

وعلى كل فرد منا أن يحث ويشجع أقرباءه وأصدقاءه، ولا يسأم من دعوتهم لصلاة الجماعة، فإن الدال على الخير كفاعله. وذلك مصداق من مصاديق الدعوة إلى اللّه والأمر بالمعروف.

وأما شرط العدالة الذي يشترطه الإمامية في إمام الجماعة فليس بمستوى التعقيد الموجود، وهي لا تعني العصمة، بل تعني ألا يفعل المحرمات ويترك الواجبات، يقول السيد اليزدي: العدالة ملكة الاجتناب عن الكبائر وعن الإصرار على الصغائر، وعن منافيات المروّة الدالة على عدم مبالاة مرتكبها بالدين، ويكفي حسن الظاهر الكاشف ظنًا عن تلك الملكة[1].

وقد ترتفع العدالة عن إمام الجماعة بفعل المحرّم وتعود إليه بالتوبة، يقول السيد

---

(١) العروة الوثقى. ج١، ص٥٧٠، مسألة ١٢.

السيستاني: ترتفع العدالة بمجرد وقوع المعصية وتعود بالتوبة والندم[1].

ويكفي في إثبات العدالة للإمام شهادة عادلين، قال السيد اليزدي في العروة الوثقى ووافقه السيد السيستاني ما يلي: بل يكفي الاطمئنان إذا حصل من شهادة عدل واحد، وكذلك إذا حصل من اقتداء عدلين به، أو من اقتداء جماعة مجهولين به[2]، وهناك بعض المذاهب الإسلامية لا يرون شرط العدالة.

(١) السيد علي الحسيني السيستاني. منهاج الصالحين، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، (قم المقدسة: مدين)، مسألة ٣٠.

(٢) العروة الوثقى، مع تعليقة السيد السيستاني، مسألة ١٩٧٥.

التنافس الإيجابي وتقدم المجتمع

من حب الإنسان لذاته يرغب أن يحوز أكبر قدر ممكن من المكاسب والمصالح، وفي بعض الأحيان قد لا يلتفت إلى مكسب معين، فإذا ما رأى أن غيره قد أحرز هذا المكسب يحصل لديه تحفز نحو ذلك المكسب، وبالتالي فإن أي تقدم يحرزه إنسان في المجتمع قد يحفز الآخرين حتى يصلوا إلى مستواه، لوجود طموح التفوق.

وكحالة طبيعية في الإنسان السوي، أنه يسعى جاهدًا ليكون متقدمًا على الآخرين، وفي مختلف الميادين، بعكس الإنسان الخامل، فما الفرق بين الشخصيتين؟

الإنسان السوي يكون لديه طموح، والذي لا يملك طموحًا للتفوق هو إنسان خامل.

الإنسان السوي يتمنى الخير لنفسه، ويتمنى المصلحة الأكثر لذاته، ويرغب فيها، ويفتش عن الطرق التي يتقدم من خلالها كما تقدم الآخرون.

لكن الإنسان الخامل عادة ما يكون فاقدًا للثقة بنفسه، فيبحث عن المبررات، التي يُبرر بها تقاعسه.

المحور الأساس للتفوق

هناك عوامل مساعدة للتفوق والتقدم، ولكن المحور الأساس للتفوق هو الإرادة. فالإنسان الذي لديه إرادة يتجاوز الصعوبات والعوائق.

وهنا نذكر هذه القصة التي تكشف قيمة الإرادة: كانت هناك إحدى الطالبات المتفوقات من المنطقة الشرقية في المملكة (مي الملحم)[١] التي حازت جائزة الأمير محمد بن فهد للتفوق العلمي (وهي جائزة تهدف لتحفيز الطلاب والطالبات للتفوق والتقدم في دراستهم) أربع مرات متتالية، في المرحلة الابتدائية (١٤١٢هـ) والمتوسطة (١٤١٨هـ) والثانوية (١٤٢١هـ) والمرحلة الجامعية (١٤٢٦هـ)، رغم أنها كانت مبتلاة بمرض مزعج وهو المرض المعروف بـ (أنيميا البحر الأبيض المتوسط) وهو مرض يصيب الدم ويحرم الإنسان من كريات الدم الحمراء التي تحمل الأوكسجين إلى القلب.

وقد اكتشف والداها مرضها بعد ولادتها بثلاثة أشهر وأصبحت بذلك تحتاج إلى نقل دم شهريًا.

وتبديل الدم ليس بالأمر اليسير فهو مرض صعب، ولكنها مع هذا المرض تفوقت في كل المراحل، وقد نشرت عنها الصحف في حينها.

هكذا إذا كانت لدى الإنسان إرادة للتقدم والتفوق يستطيع أن يتخطى العوائق وصعوبات الظروف التي يعيشها.

قصة من التراث

يقول الأصمعي: كنت أطوف بالبيت فوجدت شخصًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يدعو بإلحاح ويبكي: اللهم إني أسألك ميتة أبي خارجة، ويُكرر هذا الدعاء ببكاء.

يقول: تساءلت في نفسي ما هي ميتة أبي خارجة!! فهل هو حقق فتحًا كبيرًا واستشهد، أو قام بإنجاز علمي ضخم ومات؟! يقول: بعد أن أكملت طوافي، جئت عند ذلك الرجل وتركته يهدأ قليلًا من بكائه وتضرعه وتهجده، ووجهت السؤال إليه: كيف كانت موتة أبي خارجه؟!

---

(١) جريدة اليوم، العدد ١٢٠٢٢، الصادر بتاريخ الاثنين ١٧/ ٤/ ١٤٢٧هـ.

قال: ألا تعلم؟ قلت: لا!

قال: إن أبا خارجة أكل حتى امتلأ، وشرب حتى ارتوى، ونام في الشمس. فمات شبعان، ريان، دفآن.

بعض الناس ليس لديهم طموح فتراه يراوح مكانه فيقبل بأقل مستوى دراسي، وأقل مستوى وظيفي، وهذه طبيعة الإنسان الخامل، بينما الإنسان السوي يتطلع لأعلى مستويات الطموح في مختلف المجالات، يقول «أبو الطيب المتنبي»:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

ووردت روايات ونصوص كثيرة تشجع الإنسان على علو الهمة، كما جاء عن الإمام علي عليه السلام: «خير الهمم أعلاها»، وعنه عليه السلام: «من رقى درجات الهمم عظمته الأمم»، وعنه عليه السلام: «من شرفت همته عظمت قيمته»[١].

ونقرأ في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إذ يقول: «اللهم صل على محمد وآل محمد وبلغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال»[٢].

مشروعية التنافس

إذا فكر كل إنسان سوي في أن يكون متفوقًا متقدمًا، فإن ذلك يؤدي إلى حصول تنافس في المجتمع، وهذه ميزة المجتمعات المتقدمة. بعكس المجتمعات الراكدة، فالناس فيها يميلون إلى السكون، فإذا كان هناك رأي سائد، أو فكرة رائجة، أو زعامة متمكنة، فإنهم ينزعجون من ظهور رأي آخر، أو فكرة أخرى، أو بروز زعامة جديدة.

والسبب في ذلك أن بروز أفكار جديدة، أو ظهور قوة جديدة في المجتمع، تخلق

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) الإمام زين العابدين علي بن الحسين. الصحيفة السجادية، ص١٤٥.

حالة من التنافس، وهذه الحالة غير مقبولة في المجتمعات الراكدة؛ لأنهم في الغالب يحملون شعار الحفاظ على الوحدة ضمن مجتمع واحد، وضمن حالة واحدة، معتقدين أن تعدد الآراء والأفكار والزعامات تُسبب تمزق المجتمع.

وفي الواقع فإن أي تقدم بالفعل يسبب مشكلات، وتحوطه عوائق، لكن الركود بحد ذاته مشكلة أكبر، ويُحدث تخلفًا عظيمًا في المجتمع.

التنافس حالة فطرية طبيعية يدعمها العقل، والمتنافس إنسان لديه طاقة وكفاءة، وهذا المتنافس إذا كان في مجتمعٍ متقدم تنمو طاقاته وقدراته، أما إذا كان في مجتمع راكدٍ متخلف فإن طاقاته تخبو وتوأد. وهذا الكلام يجري على الأفراد والجماعات.

وهنا كلمة رائعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تروى عنه: «الناس بخير ما تفاوتوا فإذا تساووا هلكوا»[(١)].

فالتفاوت هو الذي يذكي روح التنافس والتقدم.

والتنافس في مصلحة المجتمع، حيث يفجر كل إنسان طاقته وقدراته، وكل جهة من جهات المجتمع تسعى للتقدم، وهذا من مصلحة المجتمع.

ونحن نرى في الأمور الاقتصادية إذا كانت هناك جهة واحدة تحتكر السوق ولا يوجد من يُنافسها، فإن ذلك ليس في صالح المجتمع، لأن هذه الجهة ستتحكم في السوق، وتتحكم في الأسعار، ولا تهتم يتطوير منتوجها، وفي ذلك ضرر على الناس. ولكن إذا كان هناك تنافس وكان أمام الناس أكثر من خيار، فذلك من مصلحتهم. وهو دافع للمؤسسات لتقوي نفسها، وتطور إنتاجها، وأسلوب تعاملها، وهذا في صالح المجتمع.

والتنافس هو الذي ينضج الآراء، إذا كانت فكرة سائدة في المجتمع، فكيف نضمن أن هذه الفكرة ناضجة وأنها الأفضل والأصوب؟ لا يُمكن ذلك إلا من خلال

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق، ص٥٣١.

ظهور فكرة أخرى، عندها سيكون نقاش حول الأفكار، فيتبين أي الأفكار أصوب وأحسن، وهذا الكلام ليس على صعيد الآراء والأفكار فقط، بل حتى على صعيد الزعامات والقوى في المجتمع.

تعاليم الإسلام تشجع على التنافس، وتدفع الناس نحوه في العمل، وفي مختلف المجالات، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، بمعنى أن الحياة هدفها أن تتفجر الطاقات والكفاءات، وهذا لا يحصل إلا بالتنافس، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي فليتنافس الناس في أعمال الخير، فالمجال مفتوح، والتنافس مطلوب. وفي آية أخرى، يقول اللّه تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٤٨]، استبقوا من المسابقة بمعنى كل شخص يحاول أن يصل قبل الآخر إلى الخيرات. وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[سورة المؤمنون، الآية: ٦١].

ونحن نقرأ في سيرة نبينا محمد ﷺ كيف كان يثير التنافس الإيجابي في نفوس أصحابه، ويقر هذه الحالة، كما في مشهد حديثه مع الأنصار بعد غزوة حنين.

تقول الرواية التاريخية: أعطى الرسول ﷺ ما أعطى من العطايا لقريش من المؤلفة قلوبهم، ولم يكن للأنصار منها شيء، حتى كثرت منهم القالة، وقال قائلهم: (لقي واللّه رسول اللّه ﷺ قومه)... وقال سعد للرسول: يا رسول اللّه إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

فقال الرسول: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

قال: يا رسول اللّه ما أنا إلا من قومي.قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فلما اجتمعوا أتاهم الرسول ﷺ فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: «يا معشر الأنصار،

ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم! ألم آتكم ضُـلَّالًا فهداكم اللّه، وعالة فأغناكم اللّه، وأعداء فألف اللّه بين قلوبكم!».

فقالوا: بلى، اللّه ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: «بماذا نجيبك يا رسول اللّه؟ للّه ولرسوله المن والفضل!». قال: «أما واللّه لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدّقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكَلْتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول اللّه إلى رحـالكم؟... فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجـرة لكنت أمرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»... فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[1].

إذن التنافس الإيجابي مشروع ولا يخل بالوحدة، فالوحدة لا تعني أن يذوب الناس جميعًا في اتجاه واحد، ورأي واحد، إنما التعدد أمر مفيد ومشروع، والتعددية لا تعني التمزق والتفرق. قد نختلف في الرأي والتوجه والانتماء، ولكن تجمعنا مصلحة واحدة وقواسم مشتركة، فلا مشكلة في الأمر. وجود التعدد ليس سيئًا، إنما المهم كيف ندير هذه الحالة من خلال التنافس الإيجابي.

الصراع السلبي والتنافس الإيجابي

البعض من الناس إذا رأوا منافسين لهم يصبح لديهم حالة سلبية تجاه المنافسة، ولهذه الحالة السلبية أو الصراع السلبي مظاهر، من أبرزها:

أولًا: كراهة المنافس وقطيعته

فبعض الناس يكره أن يبرز منافس له، وينزعج ويتألم، ويغفل عن أنه كما من

(١) تاريخ الطبري. ج٢، ص٣٦١.

حقه أن يعمل، فمن حق غيره أن يعمل أيضًا. وهذه حالة سلبية يمقتها الإسلام، وقد تصل بالإنسان إلى الحسد، بيد أن الإنسان المؤمن لا يحسد، بل يغبط أخاه المؤمن بأن يتمنى أن يتقدم كما تقدم غيره، وهذا أمرٌ مشروع، أما أن تصل المسألة إلى الحقد والكراهية فهذا يُسمى حسدًا، وفي كلمة جميلة لأمير المؤمنين عليه السلام: «الحاسد مغتاظ على من لاذنب له»[1].

والقرآن الكريم يحكي لنا قصة ابني آدم وكيف أن أحدهما وهو (قابيل) قرر قتل أخيه (هابيل) لا لشيء إلا لأن اللّه تقبل قربانه، يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

ثانيًا: الإساءة والعدوان على المنافس

قد يتجرأ البعض فيسيء للمنافس ويعتدي عليه، سواءٌ بتسقيط شخصيته أو تشويه سمعته، أو عرقلة أعماله، أو أن يسيء له بأي طريق كان.

هذه الإساءة لا مبرر لها، والمشكلة أن الإنسان إذا سار بهذا الاتجاه يتأخر أكثر. هناك رواية جميلة عن أهل البيت عليهم السلام، جاء فيها: «إن من يبني ولا يهدم يرتفع بناؤه، وإن كان يسيرًا. ومن يبني ويهدم يوشك أن لا يرتفع بناؤه»[2].

لماذا يتجه البعض لتسقيط الآخرين؟ لماذا تتعدى على الآخرين وتسيء لهم وتشوه سمعتهم لأنهم سبقوك أو تفوقوا عليك؟ أو لأنهم أحرزوا ما لم تحرز؟ هذا لا يُخوّلك ولا يُبرر لك الاعتداء عليهم.

فالصراع السلبي يؤثر على الجهة نفسها، ويضر بالمجتمع، ومن جهةٍ أخرى يخلق صراعات وعداوات، مما يؤدي إلى تفريق المجتمع وتمزيقه.

---

(١) ابن أبي جمهور الأحسائي. عوالي اللئالي، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (قم المقدسة: سيد الشهداء)، ص٢٩٢.

(٢) بحار الأنوار. ج٦٧، ص٢٨٦.

التنافس الإيجابي طريق العقلاء

عندما نتكلم عن التنافس الإيجابي لا نتكلم عن حاله مثالية خيالية، فنحن نرى المجتمعات الأخرى المتقدمة، قد فتحت الباب للمنافسة في كل المجالات، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، والأهم من ذلك كله هم يتنافسون على أشياء مهمة، وعلى أرفع المستويات، كإدارة الحكم وقيادة المؤسسات الدولية. أما في عالمنا العربي والإسلامي فالمنافسة على أشياء محدودة، ومع ذلك نجد الصراعات والعداوات قائمة.

صور التنافس الإيجابي

أولًا: الاعتراف بالآخر واحترامه.

ثانيًا: المراهنة على بذل الجهد

إذا كنت تحب أن تتقدم، ولا يتفوق عليك الآخرون، عليك أن تضاعف جهدك، وتطور عملك وإنجازك، فهذا هو السبيل والطريق للنجاح والتنافس الإيجابي، وهو ما تدعو إليه آيات القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

كم هو عميق معنى هذه الآية الكريمة، وهي تؤكد على العاملين والناشطين أن لا يعبئوا بما يشغلهم عن إنجازاتهم وتقدمهم، وإن واجهوا من يُعرقل طريقهم فعليهم أن يتمسّكوا بهذا النهج الذي تُقدمه الآية المباركة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. أما إذا انشغل العاملون بالمهاترات التي يُراد منها عرقلة نشاطهم، فإنهم بذلك يُحقّقون أهداف المغرضين، ويتأخرون في مسيرتهم.

وفي آية أخرى يأمر اللّه تعالى النبي ﷺ بأن يخاطب أهل الكتاب قائلًا: ﴿وَأُمِرْتُ

لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وما نجده من مهاترات السجال المذهبي لا يخدم الإسلام ولا المسلمين، وقد انشغلت الأمة خلال أكثر من ١٤٠٠ سنة بهذا السجال، وإلى متى نبقى في هذا النفق؟! فلنتجه نحو البناء والتنافس الإيجابي، في خدمة قضايا أمتنا، وخدمة مصالحنا، وكل واحد يسير على منهجه ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، والساحة هي التي تقوّم، والناس هم الذين يراقبون، والتاريخ هو الذي يحكم، ويوم القيامة يفصل اللّه تعالى بين الناس، هذا هو المنطق العقلائي، وهذا هو المنطق الصحيح.

ثالثًا: التعاون في خدمة القضايا المشتركة

إذا كنا أبناء مجتمع واحد، وتهمنا خدمة مجتمعنا، فعلينا أن نتعاون في خدمة المجتمع. لماذا تحطّمني وأحطمك؟ لماذا تعرقل طريقي وأعرقل طريقك؟ لماذا تشوّه سمعتي وأشوه سمعتك؟ نحن من مجتمع واحد، أي قوة تنشأ هي قوة لنا جميعًا، وأي نشاط هو لصالح الجميع. فالمهم أن يكون هناك تعاون وتواصل بين مختلف التيارات.

والمهم هنا أن نتجه نحو التنافس الإيجابي حتى نخدم مجتمعنا، وعلينا أن نتعاون إيجابيا لا أن نتصارع صراعًا سلبيًا نهدد به وحدة المجتمع.

هذا هو التنافس الإيجابي الذي ينبغي أن نهتم ونتعاون من أجل تعميق جذوره في المجتمع.

وأخيرًا علينا أن نبذل الجهد في نشر ثقافة التنافس الإيجابي، وعلى الواعين من المجتمع تحمل المسؤولية سواءً العلماء أو المثقفين.

ومن المؤسف أن تكون هناك حالة من التفرج على المشاكل التي تحصل بين الفئات والجماعات، وهذا أمرٌ خطأ، فالإسلام يدفعنا باتجاه الإصلاح، كما ورد عن

النبي ﷺ: «إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»[1].

فمن الضروري أن نتوجه لإصلاح ذات البين، ونشر ثقافة التنافس الإيجابي، وأن نخلق بيئة في مجتمعنا تتسع للجميع، وتذكي التنافس الايجابي لصالح الجميع، وعلى مختلف الصُّعُد.

(١) وسائل الشيعة. ج١٨، ص٤٤١.

الصراعات والتزام الأخلاق

الحالة الطبيعية للإنسان أن يعيش في سِلْم وتعاون مع أفراد جنسه ونوعه، ويتجنّب مواطن الصراع والنزاع، وهذه هي الحالة التي من المفترض أن يلتزم بها كل إنسان عاقل، يسترشد عقله وضميره في علاقاته مع الآخرين.

إن حالة العداوة والصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان حالة شاذّة وفي غير مصلحته الشخصية، والصالح العام، ذلك أن المجتمع ينمو ويتطوّر ضمن علاقات بينية جيدة. أما حالة الصراعات والنزاعات بين أفراد المجتمع فإنها:

١. تخلق حالة من التشاحن بين الأفراد، وتستهلك جهودهم في النواحي السلبية، بدل أن تُصرف في تحقيق البناء والتطوير والتقدّم، وخدمة الصالح العام.

٢. وكذلك تجعل الخصم يعيش حالة من الاضطراب والتوتّر النفسي تجاه خصمه، ورد عن الإمام علي عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب»[1].

٣. بالإضافة إلى ما تخلقه من أجواء الرعب والخوف وعدم الاطمئنان، ذلك أن حالة العداوة والخصومة تجعل كل طرف في مرمى سهام الطرف الآخر، من حيث الاعتداءات المتوقّعة، مما يربك الأمن الاجتماعي، ويسلبه مقوّمًا من أهم مقوّمات استمراره وبقائه.

---

(١) الكافي. ج٢، ص٣٠٠.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش ضمن مجتمع يفقد فيه الإحساس بالأمن والاستقرار النفسي.

وفي هذه النقطة يؤكّد الحكماء: على أن الكراهية والخصومة حتى مع الصغير الذي قد لا تكون له مكانة اجتماعية بارزة، قد تؤثّر في مسألة الأمن والاستقرار الاجتماعي، لأنها حالة تدفع الإنسان ـ مهما كان موقعه وحجمه ـ إلى حب الانتقام بأي طريقة ووسيلة من الوسائل الممكنة.

٤. وأخيرًا، فإن العداوة مع الآخرين والصراع معهم قد تقحم الإنسان في المحرّمات، من خلال القيام بعمل ما هو حرام وغير مشروع حبًّا في الانتقام، وما تولّده حالة الكراهية والصراع من اندفاعٍ عند الإنسان نحو كثير من الوسائل، المحرّم منها والمحلل، ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللّٰهَ مَنْ خَاصَمَ»[١].

لذا فمن التوجيهات الدينية للإنسان المسلم أن يبتعد قدر الإمكان عن العداوة والخصام، وهذا ما يؤكّد عليه نبينا محمد صلى الله عليه وآله فيما روي عنه: «ما عهد إليَّ جبرئيل في شيء ما عهد إليَّ في معاداة الرجال»[٢]، وفي رواية أخرى: «لم يزل جبرئيل ينهاني عن ملاحاة الرجال»[٣]، والمقصود بِـ (الرجال) ـ هنا ـ مطلق الإنسان، ذكرًا كان أو أنثى.

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «رأس الجهل معاداة الناس»[٤]، وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «معاداة الرجال من شيم الجهّال»[٥].

---

(١) نهج البلاغة. من قصار حكمه عليه السلام.

(٢) الكافي. ج٢، ص٣٠٢

(٣) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٢٤.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٧١، حكمة ٢٦.

(٥) المصدر نفسه. ج٢، ص٢٨٢، حكمة ٧٣.

من هنا على الإنسان الفرد والمجموع تجنّب الدخول في صراعات وعداوات مع هذا الطرف أو ذاك، وفي حال سعى البعض لاتخاذ موقف عداوة، فعلى الإنسان أن يفرّ من تلك العداوة.

والعاقل من يتجنّب الوقوع في مثل هذه المزالق ويبتعد عنها، وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرًا، فقل له: إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة»[1].

هذا هو منهج العقلاء الذين لا يستجيبون للإثارات والاستفزازات، ومن يقع في مثل هذه المواقف يكشف عن ضعف رجوعه إلى عقله، وسيطرة الانفعالات عليه.

والمقصود بتجنّب الصراعات على أي نحو كانت، سواء كانت على الصعيد الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو على المستوى الشخصي.

هذه المواقف تحتاج إلى التحمّل وضبط الأعصاب والانفعالات، يقول تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[سورة فصّلت، الآية: ٣٥].

العداوة خلل طارئ والمحبة هي الأصل

الأصل في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان هي المحبة والتعاون على تسيير أمور الحياة المشتركة، علاقة قائمة على أساس الأنس والألفة، ونحن نرى مظاهر ذلك مثلًا عند الأطفال، حيث تراهم ينجذبون لبعضهم بعضًا، بغض النظر عن مختلف الفوارق التي يراها أهاليهم، ونرى تجليات الإنسانية الأصيلة في حالة الكوارث الطبيعية، حيث يكون هناك تعاطف وتناسٍ لجميع الفوارق، ونرى كذلك استيحاش الإنسان إذا عاش بمفرده مبتعدًا عن بني جنسه، فلو عاش في جزيرة مترامية الأطراف وحده، ورأى ذات يوم إنسانًا مثله فإنه سيأنس بوجوده، مهما كان يختلف عنه لغة أو لونًا أو عرقًا أو انتماء.

(١) مستدرك الوسائل. ج١١، ص٢٩٠، حديث ١٣٠٥٤.

هذا كله يدل على انشداد الإنسان لأخيه الإنسان، ولكن قد تطرأ حالات تسبب سوء تفاهم وعداوة بين الأفراد أو الجماعات. وهي حالة طارئة خلاف الأصل، لكن هذا الأمر يغيب عن بال كثير من الناس. فيعتقد أن التاريخ سيقف عند موقف معين، وأن هذه العداوة ستستمر إلى يوم القيامة، وهذا نابع من الغفلة والجهل. الإنسان الواعي فردًا أو مجتمعًا إذا حصلت بينه وبين آخر عداوة، ينظر إلى هذه العداوة على أنها حالة طارئة، ويتصرف على هذا الأساس عبر المنهجية التالية:

أولًا: السعي لتقصير أمد الخلاف

وردت نصوص كثيرة تحث الإنسان على ألّا يستمتع بوجود حالة العداوة مع أي كان، وأن يسعى لتجاوزها، جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الاستصلاح للأعداء بحسن المقال وجميل الفعال أهون من ملاقاتهم ومغالبتهم بمضيض القتال»[1]، هذا كلام أشجع الناس الذي لا يخاف المعارك، لكن هذا الشجاع لا يرى الحرب مع الآخرين بطولة إذا كان هناك مجال للهروب منها وتجاوزها، وعنه عليه السلام: «من استصلح عدوه زاد في عدده»[2]، وعنه عليه السلام: «من استصلح الأضداد بلغ المراد»[3].

لذا على الإنسان أن يتعامل مع أي عداوة على أنها طارئة ويعمل من أجل إزالتها، ويقول تعالى في سياق الحديث حول علاقة المسلمين مع الأعداء الكفار، ﴿عَسَى اللَّـهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ هؤلاء الكفار الذين تعادونهم، والله يطلب منكم البراءة منهم باعتبارهم أعداءً، عليكم أن تعرفوا أن العداوة التي بينكم وبينهم ليست حتمية ولا أبدية ﴿وَاللَّـهُ قَدِيرٌ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم يشير إلى أن عليكم أيها المؤمنون خلق الأجواء المناسبة لتقصير أمد هذه العداوة ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تعاملك الجيد مع المخالف هو الذي يصنع الأجواء لتبديل موقفه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

لكن هذا الأمر لا يتفهمه ولا يستطيع تحمله أي إنسان، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الذين عندهم إيمان وسعة أفق، هم الذين يستطيعون ذلك، وإلا غالبًا ما يعيش الناس على أوتار انفعالاتهم وتوتراتهم.

ثانيًا: التوازن في المحبة والعداوة

الإنسان العاقل يتخذ سبيل التوازن في محبته وعداوته، كما في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[١].

التوازن في كل شيء مطلوب، حتى في الحب والبغض، فهذا الشخص الذي تحبه وتعطيه كل أسرارك قد يبغضك يومًا فعليك أن تحاذر، وذاك الشخص الذي تبغضه وتعاديه قد يقترب إليك يومًا ما، فلا تقطع سبل العودة إليه فإن ذلك من الجهل. ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا، أحبب حبيبك هونًا ما، وابغض بغيضك هونًا ما»[٢]، البعض من الناس يبالغ في أقل مشكلة خلاف، ويصنع منها قضية كبرى، حتى مع زوجته التي عاش معها حياته الخاصة، كما يعبر القرآن الكريم ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، يتناسى ذلك ولا يترك مجالًا للرجعة، وهكذا مع الجار أو الصديق أو أي أحد.

ثالثًا: السعي للصلح

الأمر الآخر الذي يطلب من الإنسان في حالة وجود مشكلة أو عداوة بينه وبين الآخر، أن يسعى ويبادر للصلح وحل المشكلة، كما ورد عن رسول الله ﷺ حول علاقة المسلم بأخيه المسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان

---

(١) كنز العمال. ج١٦، ص١١٤، حديث٤٤٠٩٩.

(٢) الأمالي. ص٧٠٣، حديث ١٥٠٥.

فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[١]. هذا ما يوجه له الدين الكريم، لكن الشيطان الرجيم يصرف الإنسان عن هذا الموقف السليم، ويحرضه بأن ذلك ضعف ومذلة. وهذا ما يجعل كثيرًا من الناس يعرضون عن المبادرة للصلح، بل الأدهى من يرفض الصلح إذا عرض عليه!

ينبغي أن نستفيد من توجيهات رسول الله ﷺ وأهل البيت، وأن نعتبر من مواقفهم، ونحذو حذوها، وجميل أن نتذكر وصية أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه حينما سمع بعضهم يسبون أهل الشام، لم يرضَ بذلك ونصحهم قائلًا: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَ لَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ ذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَ أَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَ قُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ وَ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَ بَيْنِهِمْ وَ اهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَ يَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَ الْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ»[٢] هذا توجيه نابع من العقل والفطرة، ومؤيد من الوحي، أن الإنسان في علاقته مع أخيه الإنسان عند الاختلاف سواء كان خلافًا دينيًا أو مصلحيًا أو عائليًا أو أي نوع كان، عليه أن يعلم بأن حالة العداء طارئة، وأن يتعامل معها على هذا الأساس، ويسعى لتقصير أمدها، ويبادر للصلح.

التزام الأخلاق في الصراع

في بعض الأحيان قد يضطر الإنسان لدخول الصراعات مع الآخرين، وأبرز مثال على ذلك ما يحدث في بعض حوادث السير، عندما لا يكون أحد الطرفين هو المخطئ، إذ يجد نفسه في نزاع وصراع مع الطرف الآخر.

وكذلك في بعض المواقف الشخصية، وفي هذه الحالة على الإنسان المسلم أن يتحلّى في مواقف الصراع بأخلاقياته وضوابطه، فالصراع له حدود وضوابط، وهذا ما نجده بارزًا في مواطن الحروب والمعارك العسكرية، حيث كان لها في الماضي

(١) صحيح مسلم. ج ٨، ص ٩.
(٢) نهج البلاغة. خطبة ٢٠٦.

ضوابط يراعيها المتحاربون فيما بينهم، وقد وضعت لها المنظّمات الدولية في هذا العصر أنظمة وقوانين دولية يجب على كل طرفين متنازعين مراعاتها والالتزام بها.

والمتتبّع لسيرة نبينا الأعظم محمد ﷺ يراه قد وضع كثيرًا من الضوابط والقوانين لطريقة سير المعركة، كان يلزم المسلمين بها، فكان إذا بعث سرية (فرقة من الجيش) يجمعهم قبل انطلاقهم، ويقول لهم: «بسم اللّه، وباللّه وفي سبيل اللّه، وعلى ملّة رسول اللّه، لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صبيًّا ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة، إلا أن تضطروا إليها»[(١)] يوصيهم بالتخلّق بهذه الأمور في حروبهم مع الأعداء.

ومن يقرأ غزوات الرسول ﷺ يجد روعة الالتزام بالقيم والأخلاق في تلك المعارك والحروب، وكان ﷺ يغضب غضبًا شديدًا حينما يخالف أحد من أصحابه وجنوده شيئًا من تلك الأخلاق والآداب، ومما ورد في هذا المجال ما يلي:

١. أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول اللّه ﷺ قتل النساء والصبيان[(٢)].

٢. وفي إحدى المعارك مَرَّ بلال بامرأتين مسبيتين على المعركة، ونظرتا إلى جثث القتلى من اليهود، فغضب رسول اللّه ﷺ ونادى بلالًا، وقال له: «أنزعت الرحمة من قلبك، حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟!»[(٣)].

٣. وفي بعض المواقف كان المسلمون يفرقون في الأسر بين الأمهات وأولادهنَّ، فكان رسول اللّه ﷺ يغضب من مثل هذه الحالات والمعاملة غير الإنسانية.

لقد كان ﷺ حريصًا على الالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية في المعارك والحروب.

وهو أمر نجده في التعاليم والأحكام الإسلامية، حتى في حال القصاص، فالآية

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٥٨.

(٢) صحيح البخاري. ج٢، ص٢٧٦، حديث ٣٠١٤.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة. ج٧، ص٧٣٩.

الكريمة التي تجيز الاقتصاص من القاتل، لولي الدم تأمره بألاَّ يسرف في القتل، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[سورة الإسراء، الآية: ٣٣].

فولي المقتول في الإسلام مخيَّر بين الاقتصاص من القاتل، وبين أخذ الدية، وفي حال أراد الاقتصاص فله ذلك ضمن ضوابط، وليس كما كان شائعًا في الجاهلية من الثارات المتبادلة بين العشائر والقبائل.

وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يجسّد أروع مثال على الانضباط والتزام مبادئ وقيم الإسلام الحنيف، ففي وصيته الأخيرة قبل رحيله عليه السلام يقول: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَ لَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله يَقُولُ إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَ لَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[(١)].

وهناك أمثلة كثيرة على احترام الأخلاق والضوابط في مسائل الصراع والاختلاف، ففي باب الغيبة يذكر الفقهاء أن من موارد جواز الغيبة: غيبة الفاسق المتجاهر بفسقه، ولكن فيما هو متجاهر بالفسق فيه، فإن كان يتجاهر بشرب الخمر، فيجوز غيبته في هذه المعصية، ولا يجوز غيبته فيما هو متخفٍّ بالفسق فيه.

أدبيات الخلاف

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من وجود تيارات وتوجّهات متباينة، والمجتمع الإسلامي الذي تتعدّد فيه التيارات الفكرية، فإن الإسلام ألزم معتنقيه بضوابط شرعية لا بد من مراعاتها في تعاملهم مع بعضهم بعضًا، وفي أخلاقيات الخلاف بينهم.

لذلك لا يجوز لأي جماعة تختلف مع غيرها من الجماعات أن تلجأ لأساليب التسقيط والكذب والادعاءات الباطلة، فهذه ممارسات محرّمة في الإسلام.

---

(١) نهج البلاغة. من وصية له عليه السلام للحسن و الحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم.

وهو أمر يجب على المسلم مراعاته حتى مع من يعتدي عليه ويظلمه، يقول تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٤].

إن اللّه تعالى يؤكّد على أنه في حال حدوث اعتداء على جماعة أو فرد من المسلمين، فعليهم ألاَّ يبالغوا في الردّ على الاعتداء، بل في حال الردّ فليعتدوا بالمثل تمامًا.

إن مجموع هذه الأحكام تؤكّد على نقطة مهمّة في مسألة العلاقات الإنسانية، وهي أنه في حال عدم وجود وفاق فعلى الجميع التحلّي بآداب وضوابط معينة، حتى لا تتطور حالة الخلاف إلى نوع من التصادم والاحتراب، ما قد يؤدّي إلى انتهاك الحرمات لخدمة هذا الصراع.

إن أساليب الكذب والغيبة والافتراءات، وتسقيط بعض الشخصيات من خلال ترويج بعض الإشاعات حولها، وسائل غير مبرّرة في الإسلام، حتى لو مورست بعناوين شرعية، كعناوين الدفاع عن العقيدة ونشر الفضيلة، فالحق لا يطلب بالباطل، يقول تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وذلك بمعنى: ألاَّ يدفعنّكم عداوة وبغض قوم لكم أو عداوتكم لهم على ألا تعدلوا في تعاملكم معهم، فالإنسان ـ أثناء الصراع ـ بحاجة إلى التقوى والتزام الحدود.

إن من أهم الموارد التي تُعرف فيها التقوى موارد الخلاف والصراع، والكيفية التي يتعامل بها الإنسان مع الذين يختلف معهم.

ونرى أن أغلب المتدينين يحافظون على الالتزام بالضوابط الشرعية في الحالات العادية، لكن الاختبار والمحكّ الحقيقي يتبيّن في حالات الخلاف وكيف يتعاملون معها ويتعاطون مع مشاكلها.

إن بعضهم يفقدون تديُّنهم وتقواهم وأخلاقهم؛ لأنهم اختلفوا مع بعض الأطراف أو الجهات الأخرى.

اليسر في القوانين والعادات والسلوك

التيسير والتعسير سلوكان متمايزان متضادان، فالتيسير يعني جريان الأمور بسهولة ومرونة دون تكلّف، فيما التعسير يعني الشدة والضيق والتعقيد في الأمور. يتوق الإنسان دائمًا إلى إتمام أموره بيسر وسهولة، وقد ورد في الآية القرآنية الدعاء على لسان نبي الله موسى ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾. وشددت تعاليم الإسلام على ترسيخ ثقافة اليسر والتيسير، والنهي عن العسر والتعسير، وهناك الكثير من النصوص والتعاليم الواردة في الشريعة التي تصب في هذا السياق، ومنها الآية الكريمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

هناك ثلاثة جوانب يمكن من خلالها تسليط الضوء على مسلكي اليسر والعسر، في حياة الأفراد والمجتمعات:

أولاً: سلوك الأشخاص

من السهل على أي منا ملاحظة مدى الشعور باليسر والسهولة التي يلاقيها أثناء تعامله مع نوعية معينة من الناس في حياته العامة، فيما ينتابه على النقيض من ذلك تمامًا شعور مختلف عند تعامله مع صنف آخر من الناس. فالصنف الأول لا تكاد ترى من طرفهم أي تعقيد وصعوبة في تعاملهم مع الآخرين، بينما تجد لدى الصنف الآخر نزعة دائمة لتعكير صفو الآخرين وتنكيد حياتهم. في هذا المجال حثت النصوص الشرعية الإنسان المؤمن على أن يكون متسامحًا متساهلًا في تعامله مع الآخرين،

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا»[١]، ومضمون حديث النبي الأكرم يشمل التعاطي الشخصي في كل شأن من شؤون الحياة، فاليسر والبعد عن تعقيد الأمور هو المطلوب دائمًا.

إن تيسير الأمور يشمل أبسط الأشياء حتى في قضايا البيع والشراء، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «أدخل الله الجنة رجلًا كان سهلًا مشتريًا وبائعًا، وقاضيًا ومقتضيًا»[٢].

ويحضرني في هذا السياق، ما لمسته ذات مرة وأنا في محل تجاري من ضيق وانقباض على وجه البائع تجاه أحد الزبائن، فسألته عن سبب ضيقه من ذاك الزبون تحديدًا، فاشتكى لي صاحب المحل بأن ذلك الزبون لا يشتري شيئًا بيسر أبدًا، فهو يعمد للجدال والمماكسة لدرجة أتمنى معها لو أن ذلك الغرض غير موجود عندي، حتى لا يأتي لمحلي بتاتًا. وورد عن النبي ﷺ: «حُرّمَ على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[٣]، وعن جابر بن عبدالله الأنصاري عن رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[٤].

يشجع الإسلام الإنسان المسلم على أن يكون سهلًا في التعامل مع الآخرين، وذلك لا يعني بأي حال أن يضيع الواحد حقوقه فيكون مغبونًا، فقد ورد في الحديث عنه ﷺ: «إن المغبون لا محمود ولا مأجور»[٥]، وإنما المطلوب من الإنسان الاتزان في الدفاع عن حقه، والبعد عن التعقيد في تعاطيه مع الآخرين على حد سواء.

في هذا السياق يمكن ملاحظة حالة اليسر والعسر على المستوى الشخصي عند التوسط لفك النزاعات بين الأشخاص، فإذا ما صادفت شخصًا سهلًا لينًا تستبشر وتشعر بارتياح بالتوسط بين المختلفين، أما إذا ابتليت بطرف متشدد، عندها يأتي

---

(١) صحيح البخاري حديث٦٩.

(٢) كنز العمال. ج٤، ص٤٤، حديث٩٤٢٥.

(٣) مسند أحمد. ج ١، ص ٤١٥.

(٤) صحيح البخاري. حديث٢٠٧٦.

(٥) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٩٧.

الشعور بالعسر وصعوبة الأمر، وأن الأمر لن ينتهي بسرعة ويسر.

كما يمكن ملاحظة هذا السلوك عند التعاطي مع بعض الموظفين في الإدارات العامة، فهناك موظف لديه نزعة مزاجية لتعقيد المراجعين، فلا تمشي عنده المعاملات بيسر، ويهون الخطب إذا كانت المسألة خاضعة لتطبيق اللوائح والأنظمة، غير أن الأمر كثيرًا ما يكون بخلاف ذلك، حيث تحكيم الهوى والمزاج الشخصي، وهذا أمر لا يجوز.

ثانيًا: في الأنظمة والقوانين

تمتاز بعض البلدان بقوانين سلسة ويسيرة، تساهم في تسهيل حياة الناس، فيما تتسم بلاد أخرى بقوانين معقدة، تعرقل حياة الناس على شتى المستويات التجارية والثقافية والاجتماعية.

في بعض البلدان يمكن ملاحظة مدى سهولة الحصول على تراخيص الأنشطة التجارية بسهولة ويسر، فيما تنزع بلدان أخرى نحو وضع شتى أنواع القيود والعقبات أمام تأسيس المشروعات التي يفترض أن تصب في مصلحة البلد، في نهاية المطاف. إذ يحتاج أي صاحب مشروع جديد في البلاد ذات القوانين المتخلفة، لمشوار طويل من الإجراءات البيروقراطية والتوسل بالوساطات الكبيرة، الأمر الذي يقوده للإحجام عن مشروعه في أحيان كثيرة، نتيجة الصعوبة في الحصول على التصاريح المطلوبة.

يشار في هذا المجال إلى التجربة الرائدة لإمارة دبي، ونجاحها في استقطاب رؤوس الأموال والأنشطة التجارية، والمشروعات الضخمة، فكيف نجحت هذه الإمارة الصغيرة فيما عجز عنه الآخرون. وما الذي يميزها عن غيرها من البلدان المجاورة؟ ولماذا نجد رؤوس الأموال الضخمة لتجار الخليج تصب هناك؟ حقيقة الأمر يكمن السر في حجم التسهيلات المقدمة، وسهولة القوانين، ويسر الإجراءات، بما يفوق البلاد المجاورة بمراحل، هذا هو سر النهضة الاقتصادية في هذه الإمارة.

هناك جهتان مؤثّرتان في تعزيز حالة اليسر أو غيابها في البيئة الاجتماعية:

الأنظمة والقوانين

بعض الدول تكون أنظمتها معقّدة، وإجراءاتها الروتينية مكثفة. فإذا أراد المواطن أن ينجز عملًا فإن ذلك يتطلّب منه وقتًا وجهدًا، لمراجعة عدد من الدوائر الحكومية، وتوفير الشروط المطلوبة، ما يطلق عليه البيروقراطية، أي سلطة المكاتب. وهذا يُشكّل حالة إيذاء، ويحدّ من حركة الناس وإبداعهم، وقدرتهم على الإنتاج، كما أنه يسبب مشاكل كثيرة على مستوى الأداء الاقتصادي وحركة التنمية. لذلك فإن الدول التي تسعى لتخفيف الأعباء والإجراءات، تستقطب المستثمرين، بينما يهرب رأس المال المحلي من البلاد التي لها أنظمة وإجراءات معقّدة.

ثالثًا: في العادات والأعراف

لكل مجتمع عاداته وتقاليده الاجتماعية، وما يميز بعض المجتمعات بعدها عن التكلّف والتعقيد في عاداتها وتقاليدها، في مقابل مجتمعات أخرى ساهمت عاداتها في إضفاء المزيد من الأعباء والتكاليف على عاتق أفرادها. ولو أخذنا تقاليد المجتمعات في موضوع الزواج مثلًا: فسنجد أن هناك مجتمعات تكتفي بالحد الأدنى من التقاليد لإتمام حفل الزفاف، بما يوفر الاحتفاء البهيج دون كلفة باهظة، لكن بعض المجتمعات تفرض تقاليدها أن ينفق الزوج على حفلة الزفاف أضعاف تكاليف الزواج، وبشكل يفوق ما ينفقه المتزوج على تقديم المهر وترتيب منزل الزوجية.

إضافة إلى بذل جهود كبيرة مضنية، تحصل بسببها مشاكل وحساسيات، هنا يمكننا القول إن مجتمعنا مع الأسف من المجتمعات المعقدة في هذا المجال، فالناس لا زالوا يتفننون في ابتداع عادات وتقاليد جديدة ترهق كاهلهم، حتى إن تكاليف حفلات الزواج لدى السعوديين بلغت في عام واحد أكثر من ١,١ تريليون ريال حسبما نشرت صحيفة اليوم بتاريخ ١٤/ ٨/ ١٤٣٢هـ الموافق ١٥/ ٧/ ٢٠١١م.

اللافت في الأمر أن مجتمعنا لا زال مستغرقًا في إدراج عادات جديدة بين الحين

والآخر، فبعد حفلات الزفاف جاءت حفلات عقد القران، وحفلات تخرج الصغار من رياض الأطفال وغيرها. مع ما يصاحب ذلك من تكاليف مالية لا تساهم سوى في استنزاف الأموال، وزيادة الأعباء على كاهل الأسر. حقيقة الأمر، لا يستحق هذا النوع من المناسبات أكثر من لفتات رمزية بعيدة كل البعد عن التكلّف والتعقيد.

ولعل ذات الأمر ينسحب على الاحتفالات التي تقيمها بعض اللجان الخيرية ولجان التكريم ضمن احتفالاتها، والتي تعمد لتقديم دروع تذكارية باهظة الثمن. أصل الاحتفاء وتكريم الناشطين حسن، لكن لا يجب أن يكون على نحو مبالغ فيه ومكلف ماليًا.

ولعل أغلبنا رأى كيف أن مجتمعات أخرى اعتادت على تبادل الهدايا الرمزية دون النظر لسعرها، حتى إننا نجد على مستوى رؤساء الدول، يتبادلون هدايا رمزية قد لا تتعدى الصور التذكارية لبعض الآثار، وفي مقابل ذلك نستغرب نحن اندفاع مجتمعنا باتجاه تعقيد شؤون حياتهم يومًا بعد آخر.

لقد تناول القرآن الكريم مزايا خاصة لرسالة النبي الأكرم ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فعلينا ألّا ننساق مع الصرعات الجديدة، والعادات والتقاليد المرهقة لكاهل الجميع، سواء في حفلات الزواج، ومراسيم العزاء، التي باتت لا تخلو من تعقيدات مزعجة كذلك، فهذا خلاف التيسير. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «تياسروا في الصداق»[1] بمعنى التساهل وتيسير مهور النساء، وعنه ﷺ: «إِنَّ مِنْ يُمْنِ المرأةِ تَيْسِيرُ خِطْبَتِهَا وَتَيْسِيرُ صَدَاقِهَا وتيسيرُ رَحِمِهَا»[2] أي ولادتها، وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[3]. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله

(١) كنز العمال. ج ١٦، ص ٣٢٤.

(٢) مجمع الزوائد. ج ٤، ص ٢٨١.

(٣) صحيح البخاري. حديث٦٩.

ﷺ: «علموا ويسروا ولا تعسروا»[1].

وتبعًا لذلك علينا تعزيز هذه المفاهيم الواردة في السنة المطهرة ضمن تعاملنا في شتى أمور الحياة.

تيسير العادات والتقاليد الاجتماعية

حين يتمكّن الإنسان من أداء عمله، وتحقيق أيّ مقصد من مقاصده بيسر وسهولة، فإن ذلك يريحه نفسيًا، ويوفّر عليه الوقت والجهد لصالح إنجاز أعمال ومقاصد أخرى. أما إذا واجه صعوبات وتعقيدات في طريقه لإتمام أيّ غرض من أغراضه، فإنه يتأزّم نفسيًّا، ويضطر لإنفاق مزيد من الجهد والوقت على حساب أعمال أخرى. لذلك يرغب الإنسان أن يرى اليسر والسهولة في جميع أعماله، وأداء مهمّاته.

المجتمعات التي تكون من سماتها اليسر والسهولة في الأنظمة والأعراف، يعيش أفرادها بارتياح نفسي، ويكونون أكثر قدرة على الإنتاج، وتوفير الوقت والجهد. أما المجتمعات التي تعيش في ظلّ تعقيد الأنظمة والأعراف، فإن أبناءها يصيبهم الانزعاج والتذمر الدائم؛ لأنّ أداء أيّ عمل يعني لهم الدخول في معركة تستثير أعصابهم، وتسلب ارتياحهم.

والبشرية طوال تاريخها تكافح من أجل التطوير في المجال العلمي والتكنولوجي، رغبة في تقليل الجهد، وتوفير للوقت. فالجهد الذي كان يستهلكه الإنسان في إعداد الطعام مثلًا أو السفر والتنقل أو التصنيع والإنتاج الزراعي، أو أيّ عمل آخر، جرى خفضه واختصاره بتوفر الوسائل الحديثة.

ومن أبرز سمات الدين الإسلامي أن جعل اليسر مقصدًا من مقاصد التشريع، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. والنصوص التي تؤكّد أهمية اليسر والسهولة كثيرة.

---

(١) كنز العمال. ج ١٠، ص ٢٤٩.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم من ولي شيئًا من أمور أمتي فَرَفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه»[1]. وهذا حضٌّ على تيسير أمور الناس، ونهي عن تعقيد الإجراءات والأنظمة.

إنّ مجتمعاتنا تعاني مشكلة التعقيدات في الدوائر الرسمية، فالقضية الصغيرة قد تأخذ من الوقت والجهد الشيء الكثير، إما بسبب الأنظمة المعقدة، أو في بعض الأحيان بسبب عدم وضوح الإجراءات، أو بسبب الميول الشخصية للموظفين، فكلّ موظف يضيف تعقيدات وفق ما يحلو له، أو يماطل المراجعين دون مبرر.

نحن في عصر تتجه فيه الدول إلى الحكومة الإلكترونية. حتى يتم تسهيل وتعجيل إنهاء معاملات الناس، وتصريف أمورهم، مما يوفر الراحة للمواطنين، ويسرع بحركة التنمية الوطنية والإنتاج.

في مجتمعاتنا كثير من مناسبات الأفراح والأتراح تتخللها أعراف وتقاليد فيها حرج وعسر. إن مشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم أمر حسن، لكن لا ينبغي المبالغة في المراسيم والبروتوكولات على حساب راحة الناس وأوقاتهم. فعلى سبيل المثال، اصطفاف عدد كبير من أهالي وأصدقاء العريسين، وكذلك في مجالس العزاء، ومصافحة كل واحد منهم ومعانقته، وأخذ الصور التذكارية أصبح سببًا للكلفة والحرج والإيذاء.

ينبغي التخفف من هذه الأعراف. وهذا يحتاج وعيًا من الجميع، فالله يريد لنا اليسر فلماذا نطلب غير ذلك لأنفسنا، ثم نتداول التذمّر والتشكّي من هذه التقاليد التي أثقلنا بها أنفسنا، وبإمكاننا تغييرها وتبديلها.

المجتمع يدفع ثمن العادات المرهقة

حينما يريد الإنسان ممارسة سلوك اجتماعي معيّن، فإن عليه أن يأخذ بعين

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٣٥٢. صحيح مسلم، ص١٠١٦، حديث ١٨٢٩.

الاعتبار انعكاسات ممارساته على الساحة الاجتماعية. فقد يقوم الإنسان بعمل جيد، وهو في أصله مباح، ولربما كان مستحبًا بالعنوان الأولي، لكن المدار حول أثر هذا العمل على المجتمع، فإن ترك أثرًا سلبيًا فإن المباح قد يتحول إلى حرام، والمستحب قد يصبح مكروهًا، ولا يصح للإنسان أن يبتكر عادة وإن كانت حسنة، ويغض الطرف عن آثارها إذا كانت سيئة على مجتمعه.

معيار لتقويم العادات

ولعلّنا نجد هذا المعنى واضحًا في الرواية التي نقلتها المصادر الشيعية عن الحسين بن أبي العلاء حيث قال:

خرجنا إلى مكة نيفًا وعشرين رجلًا، فكنت أذبح لهم في كل منزل شاة: فلما أردت أن أدخل على أبي عبد الله عليه السلام قال: يا حسين، وتذلّ المؤمنين؟ قلت: أعوذ بالله من ذلك، فقال: بلغني أنك كنت تذبح لهم في كل منزل شاة، فقلت: ما أردت إلا الله، قال: أما علمت أن منهم من يحب أن يفعل مثل فعالك فلا يبلغ مقدرته فتقاصر إليه نفسه، قلت: أستغفر الله ولا أعود[1].

هذا الراوي وهو الحسين بن أبي العلاء، من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام. وقد وثقه بعض علماء الحديث، كالنجاشي من الأقدمين، والسيد الخوئي من المتأخرين في معجم رجال الحديث.

ومفاد الرواية أن الحسين بن أبي العلاء كان ذا سعة وثراء، وشهامة وكرم، وكان أثناء خروجه إلى حج بيت الله الحرام يذبح شاة ليطعم من معه من المؤمنين كلما حلّت القافلة في منزل. وعمله هذا دليل على كرمه وجوده، ولا شك أن إطعام الطعام أمر مستحب، فكيف إذا كان لحجاج بيت الله الحرام؟ فالأجر فيه مضاعف وهو عنوان لخدمة ضيوف الرحمن. بيد أن الرواية تشير إلى انزعاج الإمام عليه السلام من هذا الفعل، حيث عاتب ابن أبي العلاء ووبّخه: وتذلُ المؤمنين؟ وقد دهش الحسين

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص ٤١٥، حديث٦.

لذلك وقال مدافعًا عن نفسه: ما أردت إلا الله! وهنا بدأ الإمام يلفت نظر صاحبه إلى الخطأ الذي وقع فيه: أما كنت ترى أن فيهم من يحب أن يفعل فعلك فلا يبلغ مقدرته ذلك، فتقاصر إليه نفسه؟!

إن الإمام عليه السلام يريد أن يقول له إن عملك في عنوانه الأولي حسن، ولكن ألم تلتفت إلى انعكاساته على من معك، ومن تريد أن تكرمهم؟ أنت مع جماعة وتذبح لهم من حسابك الخاص، ومن حرِّ مالك، وتقوم بضيافتهم دائمًا وأبدًا، وفي القوم من يريد أن يعمل عملك كي يرد جميلك، ويحفظ العشرة، ويكافئ الإحسان بالإحسان، لكن يده قصيرة، لا يستطيع أن يضيّف أصحابه بالمستوى الذي صنعته أنت، فتولد في نفسه حسرة ويشعر بالانكسار والضعف. ولربما شقّ بعضهم على نفسه فيبذل فوق طاقته مجاراة لك، فتكون قد سننت سنة أرهقت بها من حولك.

عندها أدرك الرجل الأمر وقال في الحال: أستغفر الله ولا أعود.

عادات فيها أذىً وإثم

إننا حين نقرأ مثل هذه الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، علينا أن نأخذ منها الدروس والعبر، وأن نطبقها كما لو كان الأئمة قد وجهوا الكلام لنا مباشرة.

إن لكل مجتمع عادات وتقاليد، وهي تبدأ بممارسة فرد لشيء ما، ثم يتبعه هذا وذاك، وهكذا تنتشر في أوساط المجتمع، وبعد مدة من الزمن تصبح عرفًا اجتماعيًا. قد يبتكر الإنسان عادة حسنة فيثيبه الله عليها، وقد يبتدع فكرة يكون أثرها سلبيًا على المجتمع فيتحمل وزرها وإن كان عمله في حدّ ذاته مباحًا.

إننا نشهد بين الحين والآخر ولادة عادات جديدة في مجتمعنا المنهك اقتصاديًا تزيد من معاناته وشقائه. نلحظ ذلك في كثير من المناسبات الاجتماعية، ولا فرق فيما إذا كانت مناسبة فرح أو حزن. فحفلات الزواج أصبحت باهظة الثمن، ولا تختلف عنها كثيرًا مجالس العزاء التي تقام لفقد قريب. والحال نفسه في الهدايا التي يتم تبادلها في المناسبات، ومنها هدايا المواليد وأعياد الميلاد.

إن ابتكار عادات جديدة في المجتمع وإن كانت تحمل في عناوينها الأولية الإباحة والاستحباب، لكنها قد تتحول إلى إثم وكراهة، إذا كانت مدعاة لإرهاق كاهل المجتمع، وعلينا أن نتنبه لهذا الأمر حتى لا نعرّض أنفسنا للإثم. فالإمام حين وجه صاحبه إلى ترك عمل مستحب حتى لا يرهق من معه، لم يكن الخطاب خاصًا به فحسب، بل هو موجّه لنا جميعًا. وإذا كان الرجل قد أدرك ما يرمي إليه الإمام وبادر في الحال للاستغفار والعزم على عدم العود للأمر، حيث قال: أستغفر الله ولا أعود. وفيه إشارة إلى الترك حالًا، فالرجل لحسن إيمانه عزم الترك مباشرة، وهذا ما ينبغي أن يكون منا جميعًا تجاه العادات التي ابتكرناها وولدت لنا إرهاقًا وعناءً.

على الإنسان أن يحسب لغيره من أبناء المجتمع حسابًا. فإذا كان ذا قدرة على فعل عمل ما، فليأخذ بعين الاعتبار أن هناك من يريد أن يعمل مثله ولا يستطيع، وهذا يولد انكسارًا في نفسه، أو حرجًا إذا أصرّ على عمله حتى لا يكون في مستوى أقل من غيره، لأنه سيسمع ألسنة جارحة في مجتمعه لا تعلم وضعه، فيضطر لإخراسها حفظًا لماء وجهه.

حينما يريد الإنسان أن يفرح بزواجه ـ وهذا من حقّه ـ فعليه أن يتخذ أمرًا يرضي مشاعره، ولا يرهق من يأتي بعده. حتى لو كانت له قدرة وإمكانية، فعليه أن يتذكر أن هناك من لا يستطيع ذلك. لقد أصبحت عادات الزواج مرهقة للغاية، وللتوّ قد قرأت تحقيقًا عن العادات الاجتماعية حول الزواج، وكان أحد الشباب من أصحاب الدخل المحدود يقول إن زواجه كلفه ٢٠٠ ألف ريال منها ٣٠ ألف ريال للمهر، والباقي كلها على مراسيم الضيافة وعادات أخرى!

هذه أمور تسبب حرجًا وانكسارًا في نفوس الشباب، والحالة تكون أبرز في المجتمع النسائي لرقة عواطفهن. فالمرأة تريد أن تُزف بالشكل الذي تُزف فيه كل فتاة في أبهى صورة وأجمل احتفال، وإذا كان الأمر متعسرًا عليها لضعف الإمكانات المادية عند زوجها أو أهلها، فإن ذلك يحدث إنكسارًا في نفسها، أو يشكل ضغطًا

عليها، فتوقع زوجها وعائلتها في حرج وعسر. علينا أن نتذكر قول الإمام عليه السلام لصاحبه: وتذل المؤمنين؟ هذا إثم وجرم كبير.

عادات تزيد الأعباء

إننا إذ نكرر القول والتذكير بهذا الأمر، لما نشهده من تطور الحال، وزيادة الأعباء على أبناء المجتمع. هذه العادات الباهظة هي من أسباب صنع العنوسة، بسبب البذخ الصارخ الذي نمارسه في حفلات الأعراس، فهذا (بما كسبت أيدينا). فمن أين لشاب محدود الدخل أن يلبي كل هذه المبالغ الطائلة؟ كانت الأمور ميسرة، حفلات عقد الزوج تقام في بيت والد العروس ببساطة، لكن الأمر تطور فأصبحت حفلة أشبه بحفلة الزواج! وهناك إصرار على إقامتها ولو بعد حين وكأنها واجبة فيتم قضاؤها بعد فوات وقتها قربة إلى الله تعالى!

والأمر كذلك في مأتم العزاء لوفاة قريب. حيث يجتمع الأهل ثلاثة أوقات، الأمر الذي يستلزم ثلاث وجبات، وتعطيل أعمال، وبذل جهد وتعب كبير، ولا شك أن بعض العوائل يرهقها ذلك. ولكننا نصرُّ على ما يرهقنا حتى لا نبدو أقل من غيرنا. يقول أحد المؤمنين: جاءني أحد الأصحاب يطلب مني قرضًا حسنًا، فسألته لماذا؟ قال: لأقيم بها ذكرى الأربعين على روح والدي!

لماذا هذا التكلّف وكأن إقامة الأربعين واجبة؟ فقط لأنه وإخوانه لا يريدون أن يكون أبوهم أقلّ من غيره! وذكرى الأربعين أساسًا ما كانت تقام إلا لأهل العلم تعزيزًا لمكانتهم وتخليدًا لذكراهم، إلا أن البعض بدأ بإقامتها لذويهم، وشيئًا فشيئًا أصبحت عرفًا في بعض أوساط مجتمعاتنا. والمشكلة أنك تجد من يزايد في الأمر، فيجنح للعادات المرهقة مدعيًا أنه من سيقوم بها إذا تخلى عنها غيره من عائلته، ويضع الآخرين في حرج. ولا يصح أن نحتجّ بعناوين أخرى بأن ذلك نفع للمتوفى وفيه أجر وما شابه، إذا كان ذلك يسبب حرجًا للآخرين.

أصبح من الواجب علينا ونحن نعيش هذه الظروف أن ننشر ثقافة التسهيل. وأن

يشجع بعضنا بعضًا على عدم التكلّف في مراسيم المناسبات. لا يصح للبعض منا أن يلوم من حوله ـ ولو على سبيل المزاح ـ لعدم استضافتهم في مناسباتهم، فقد يكون في ذلك عبء عليهم وحرج، بل ينبغي التشجيع حتى يعيش الناس اليسر وعدم التكلّف مع الآخرين. مراعاة أحوال الناس وظروفهم أمر يتحتم علينا أخذه بعين الاعتبار.

الأحياء الجديدة وحسن الجوار

تحضّ تعاليم الإسلام على الاهتمام بمسألة الجار وحقوقه، ذلك لأن التجاور السكني يمثل أرضية وباعثًا إلى الوئام النفسي والتعاون الاجتماعي. فحينما يعيش الناس متجاورين كما هي طبيعة حياتهم، فإن هذا التجاور السكني، ينبغي أن ينعكس عنه نوع من التقارب النفسي، والتعاون الحياتي الاجتماعي، فهذا من مصلحة الجميع، وهو علامة حيوية في أي تجمع. أما إذا كان التجاور مجرد تجاور في مباني البيوت، دون أي انعكاس اجتماعي، فهذا يعني فقدان الحيوية والحالة الإنسانية الحضارية التي ينبغي أن تكون بين الناس، وهو خلاف لتعاليم الدين الحنيف في مسألة الجيرة.

تغيرات حالة الجوار

إن طبيعة الحياة تقتضي أن تعيش مجموعة من الناس في منطقة واحدة تكون محلًا لسكناهم وإقامتهم. حيث لا يرتاح الإنسان للعيش بمفرده في منطقة معزولة ونائية، حتى لو توفرت له كل الخدمات، علاوة على أن تداخل مصالح الناس يفرض عليهم التقارب والتجاور في مساكنهم، فالإنسان يحتاج إلى أخيه الإنسان في سائر شؤون حياته، لذلك يعيش الناس كمجموعات يقضي بعضهم حاجة بعض، من خلال اختلاف مهامهم ومهنهم.

من هنا تكونت الأحياء والقرى والمدن، حتى البدو في الصحراء يلجؤون إلى العيش ضمن مضارب تجتمع حول المراعي ومنابع المياه. ولقد كان التجاور السكني

في الماضي يقوم على أسس قبلية وعمق تاريخي، فكل قبيلة تسكن في حي واحد أو منطقة واحدة، كما كان له عمق تاريخي يعتني فيه الفرد بالحفاظ على جيرانه الذين كانوا هم أنفسهم جيران أبيه وجده. لكن تطور الحياة ونشوء المجتمعات الصناعية والمدن الحديثة، وتنوع اختيارات البشر الوظيفية، قد تضطر الإنسان إلى الانتقال من منطقة إلى أخرى، ليعيش في نهاية المطاف ضمن منطقة سكنية إلى جانب سكان آخرين لا يمتون إليه بأدنى صلة. لقد بات التجاور اليوم في الأعم الأغلب غير مستند إلى العمق العائلي القبلي ولا التاريخي، وإنما فرضته ظروف الحياة على الناس، ودفعتهم للسكنى في حي واحد، بل في عمارة سكنية واحدة إلى جانب بعضهم بعضًا.

من هنا يُعد تزايد واتساع حالة التواصل والتفاعل النفسي بين الجيران مؤشرًا على حالة من الشهامة والحيوية. وعلى النقيض من ذلك إذا انخفضت عندهم هذه الدرجة فإن التفاعل الحياتي ينخفض. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه عن أهل القبور حيث يصفهم قائلًا: «جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون»[1]. فقبور الموتى متلاصقة، ولكن لأنهم موتى فهم لا يتزاورون ولا يستأنسون ببعضهم بعضًا، وكذلك الأمر بالنسبة للناس الأحياء، فكلما ارتفعت عندهم حالة التواصل والتفاعل النفسي، فذلك يعني مستوى متقدمًا من الحياة والحيوية، أما إذا انخفضت فإن التفاعل الحياتي ينخفض عندهم.

الاهتمام الديني بحق الجوار

لقد وردت في مسألة حق الجار آيات وأحاديث كثيرة تؤكد على أهمية بالغة لهذا الأمر. فقد قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، واختلف المفسرون في معنى الجار الجنب والجار ذي القربى، فقال بعضهم حين يكون الجار من أسرتك

(١) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص٤٣٣.

وعائلتك، فهذا معنى الجار ذي القربى، أما الجار الجنب فهو الجار غير القريب منك نسبًا. وقال بعضهم: لعلّ المقصود من الجار ذي القربى القريب منك في الدين، أي الذي يتوافق معك دينيًا أو مذهبيًا، أما الجنب فهو الذي لا يوافقك في الدين ولكن مع ذلك أنت مأمور بالإحسان إليه.

نحن بحاجة إلى استعادة تعاليم الدين في الحث على حسن الجوار. ذلك لأن مجتمعاتنا باتت تعيش جوارًا حديثًا، أو جوارًا مصطنعًا إن جاز التعبير، بخلاف ما جرت عليه العادة في الماضي، حين كان الناس يتجاورون لعقود من الزمن، إذ نتيجة لظروف العصر بات الموظفون والمبتعثون للدراسة يلجؤون للسكنى خارج مدنهم وقراهم، ليصبح لديهم هناك جيران جدد. ولو أتيحت الفرصة للمرء أن يختار جيرانه الصالحين فسيكون ذلك هو الأفضل، فإن جار السوء مشكلة، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «جار السوء أعظم الضراء وأشد البلاء»[1]، غير أنه من غير الخفي، أن ظروف الحياة الراهنة قد لا تسمح بذلك غالبًا، فقد بات الحصول على سكن خاص مهمة شاقة، فمن غير المتصور أن يكون لدى كثيرين في هذه الحالة ترف المفاضلة بين مجاوريهم، فالخيارات أمام الناس باتت ضيقة جدًا مع انعدام توفر الأراضي، وارتفاع الأسعار، الذي طال الأراضي وإيجارات الشقق السكنية على السواء، فقد بات الناس أمام أزمة سكن حقيقية، فلا مجال عندها للاختيار.

أخلاق العلاقة مع الجار

لقد وضع الإسلام جملة معايير دينية وضوابط أخلاقية للعلاقة مع الجيران، قوامها التعامل الحسن معهم. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا»[2]. ومغزى ذلك أن الإحسان للجار هو من أبرز مظاهر الإيمان، فهناك دلالة ضمنية تشير إلى أن من لا يحسن مجاورة من جاوره فهو ليس بمؤمن، أو على

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٨٥، حكمة ٣.

(٢) أمالي الصدوق. ص٢٦٩، حديث٢٩٥-١٦.

الأقل ناقص الإيمان، أو ليس صادق الإيمان.

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»[(١)]. وقيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، قال: «هي في النار»[(٢)]. وورد عنه ﷺ: «من آذى جاره حرم الله عليه ريح الجنة»[(٣)]. كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله في وصيته الأخيرة: «اللَّهَ اللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ»[(٤)]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن من آمن جاره بوائقه»[(٥)] يعني من أمن ظلمه واعتداءاته.

إن على المرء أن يذهب بعيدًا في مراعاة جيرانه، وتجنب أي قدر من الأذى والاعتداء، أو الإساءة والإزعاج لهم.

وعلينا هنا أن نتوقف مطولًا عند نقطة مهمة، فبعض الناس يتصور أنه يعمل عملًا صالحًا بإقامة تلاوة القرآن الكريم، أو عقد مجلس عزاء في منزله، فيستخدم لأجل ذلك أحدث مكبرات الصوت، ويطلق العنان للصوت الصادر عن المجلس، هنا ينبغي أن يراعي المرء على نحو بالغ مدى ارتياح أو انزعاج جيرانه لهذا الأمر، فإذا كانوا مرتاحين فأهلًا وسهلًا، وله الأجر والثواب بإشاعته الأجواء الدينية في محيطه، ولكن إذا كان واحد من الجيران لسبب أو لآخر يشعر بانزعاج من مكبرات الصوت، فعلى صاحب المجلس الديني أن يعلم حينئذٍ أنه لن يحرم الثواب وحسب، وإنما قد يتحمل وزر أذى الجار، وهو بذلك يقترف حرامًا يعاقب عليه من قبل الله عز وجل. ويكفي في هذا الصدد ما ورد عن رسول لله ﷺ: «من آذى جاره حرم الله عليه ريح الجنة».

علينا أن نضع بعين الاعتبار أن حسن الجوار ليس خاصًا بأصحاب المنازل فقط.

---

(١) مستدرك الوسائل.ج ١٢، ص٨١.
(٢) كنز العمال. ج ٩، ص١٨٧.
(٣) من لا يحضره الفقيه. ج ٤، ص١٣.
(٤) نهج البلاغة. وصية ٤٧.
(٥) الكافي. ج٢، ص٦٦٨.

وإنما على القائمين على المساجد والحسينيات أن يراعوا أيضًا هذا الأمر، فجيران المسجد لهم حق الجوار، وينبغي أن نشعرهم بأن جوارهم هذا مصدر خير وسعادة لهم، وليس وبالًا عليهم، فهذا ما ينبغي أن نحذر منه.

التعارف والتعاون بين الجيران

في الشريعة نصوص كثيرة حول حسن الجوار، وكف الأذى عن الجار، والتعاون بين الجيران، نكتفي هنا بالتأكيد على بعض مضامينها:

أولًا: ينبغي أن يبادر المرء للتعرف على جيرانه والتواصل معهم. وخاصة إذا كانوا من عوائل ومناطق أخرى لم تكن تربطه بهم سابق علاقة أو معرفة، فعليه حينئذ أن يبادر للتواصل معهم، حتى وإن اختلفوا معه في النسب والعقيدة، لأن النصوص التي تتحدث عن حسن الجوار لا تشترط ذلك بل ورد في الحديث «أحسن مجاورة من جاورك»[1]، دون تحديد لدين ومذهب ذلك الجار. وعطفًا على ذلك فقد فهم المفسرون مصطلح ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الوارد في الآية أنه القريب من دينك، فيما ﴿الْجَارِ الْجُنُبِ﴾ من لا يرتبط معك في دين، وكلاهما مطلوب منك الإحسان اليه.

إن الإسلام لا يقرر أن تكون المجتمعات نقية خالصة، بحيث يقطن أهل كل ملة أو مذهب في حي خاص بهم، لذلك كان المسلمون منذ صدر الاسلام يجاورون غير المسلمين. وورد في هذا السياق عن مجاهد أنه قال: كنتُ عندَ عبدِ اللَّهِ بنِ عُمرَ وغلام لهُ يسلُخُ شاةً فقالَ: يا غلامُ إذا سلختَ فابدَأ بجارِنا اليَهوديِّ حتَّى قالَ ذلِكَ مرارًا فقالَ لهُ: كَم تقولُ هذا؟ فقالَ: إنَّ رسولَ اللَّهِ لم يزَل يوصينا بالجارِ حتَّى خَشينا أنَّهُ سَيورِّثُهُ[2].

من هنا فلا ضرورة لأن يكون هناك نقاء خالص للمجتمع بحيث يكون

---

(١) مستدرك الوسائل. ج ٨، ص٤٢٦.

(٢) الأدب المفرد. ص١٢٨، وصححة الألباني في تعليقه.

بأجمعه على دين أو مذهب واحد. قد يبحث المرء دون شك عمن ينسجم معهم، لكن هذا ليس أمرًا إلزاميًا بأيّ حال. بل على العكس من ذلك ينطوي التنوع على مكاسب قد لا ترد في الحسبان، من قبيل التعارف وتبادل الثقة بين المختلفين عقديًا، لذلك لا بُدّ للإنسان أن يبادر للتعرف على جيرانه، فمثلًا على المبتعث للدراسة في بلاد أخرى أن يبادر إلى التعرف على جيرانه، مهما كان دينهم ومذهبهم، ليقدم لهم أنموذجًا حسنًا لدينه ومذهبه، فمن الخطأ اللوذ بالانغلاق والانكفاء على الذات.

ثانيًا: ينبغي للناس في الأحياء الجديدة أن يكثفوا التعاون فيما بينهم، عبر تأسيس مجالس الأحياء. ففي ذلك فوائد جمة، لجهة إيجاد التفاعل النفسي بين الأهالي، علاوة على حلّ مشاكل الحي، والسعي لتوفير الخدمات، والالتفاف حول المسجد والحسينية والعالم الموجود في المنطقة.

ثالثًا: لقد فصلت النصوص الدينية في مسألة حدود الجوار وقدرتها إلى أربعين دار. إذ يظن بعض الناس أن مسألة الجيرة مقتصرة على أهل المنزل الملاصق لبيتهم فقط، وهذا غير دقيق، فقد ورد عن النبي ﷺ: «كل أربعين دارًا جيران من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الجوار أربعون دارًا من أربعة جوانبها»[٢]، فجميعهم تنطبق عليهم أحاديث حسن الجوار.

إن علينا أن نهتم بهذا الجانب حتى نستفيد من هذه التعليمات، وحتى يكون المجتمع متعاونًا متماسكًا، يقف الناس إلى جانب بعضهم بعضًا، فذلك بالتأكيد ما ينعكس على سلامة نفوسهم وحسن تسيير أمورهم.

---

(١) الكافي. ج ٢، ص ٦٦٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٧١، ص١٥١، حديث٦.

احترام كبار السن

في حياة الإنسان ومسيرته الكثير من المحطات التي توجب الوقوف والتأمل، وكلما تعمق الإنسان بفكره في مسيرة حياته اكتشف كثيراً من السنن والبصائر، فمراحل عمره تختزن بعض الأسرار و تستوعب كثيراً من الحِكم.

تبدأ مسيرة الإنسان في هذه الدنيا بعد أن يتجاوز عالم الأرحام، وما فيه من تعقيدات تتجلى فيها قدرة الخالق وحكمته، ثم يمر بمرحلة الطفولة التي تمثل البدايات الأولى لتشكيل شخصيته، حيث تتداخل عوامل الوراثة والتربية والبيئة في صناعة الإنسان، بالشكل الذي يؤثر على كل مسيرته في الحياة، وقد أثبتت الدراسات الحديثة مدى تأثير عالم الوراثة والتداخل الكبير بين طبيعة الإنسان وما يحمله من جينات وراثية، أما تأثير التربية والبيئية والمحيط الاجتماعي، فهي واضحة وظاهرة، وقد تناولتها البحوث العلمية بالكثير من الدراسات والتحقيقات. كل هذه العوامل والظروف تستدعي انتباه العامل في حقل الإصلاح الاجتماعي بوصفها عوامل مشتركة وذات تأثيرات واضحة على حياة الفرد والجماعة، كما أن معالجة الظواهر السلبية في المجتمع لا تتحقق بصورة جذرية إلا من خلال اكتشاف البنية المحركة لها.

الشيخوخة المرحلة الحساسة

وإذا كان الاهتمام بالطفولة يفرض نفسه على المجتمع البشري، بسبب عمق

مشاعر الانجذاب والمحبة للأطفال، ولوجود الآمال المعقودة على مستقبلهم، فإن مرحلة الشيخوخة بحاجة إلى إثارة الاهتمام بها؛ لأن الإنسان فيها يفقد عوامل الجذب والاستقطاب، وقد يتحول إلى عبء ثقيل في نظر المحيطين به، لذلك يهمنا الحديث عن كيفية التعامل مع كبار السن، ومراعاة مالهم من مشاعر وأحاسيس؛ لأن التكامل الاجتماعي لا يتحقق إلا من خلال إيجاد نوع من الروابط الواضحة بين أجيال المجتمع، ومن أوثق أنواع الروابط هو تحقيق الاحترام لطبقة كبار السن.

وللتأكيد على هذا السلوك لا بدّ من الإشارة إلى الخلفية التي تستدعي هذا النوع من الاحترام، فإن التفكر والتأمل في حقيقة الإنسان تقود إلى اكتشاف كون نمو الإنسان وتكامله يتحقق ضمن بعدين: البعد المادي الحسي والبعد الروحي المعنوي، والتوازن بينهما هو الذي يحقق الاستقرار ضمن المسار المرجو للإنسان، وكثير من المشاكل التي تعترض حياة الإنسان هي نتاج طبيعي لحالات الإفراط أو التفريط في أحد البعدين، فلا بدّ من الوعي والفهم لحقيقة الإنسان المركب من جسم وروح، فلا تهمل الروح لصالح الجسم، كما هو حال كثير من الفلسفات المادية والحسية، ولا يُهمل الجسم لصالح الروح، كما هو موجود في بعض النزعات الصوفية والعرفانية، وبهذه الطريقة نضمن بناء الإنسان بصورة متكاملة ومستوعبة للواقع الموضوعي لكينونته.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذه النظرة الشمولية للإنسان يجب أن تُراعى في كل مراحل حياة الإنسان، فلا يكون الاهتمام بالطفل مثلًا منحصراً في الجوانب الحسية على حساب ما له من شعور وإحساس، لأننا نجد بحكم الملاحظة أن الطفل يعيش على أحاسيسه ومشاعره، فأول ما تبدأ في النمو عند الإنسان هي المشاعر والأحاسيس، بل نجد أن نموها أسرع من نمو جسمه، فإن الطفل الصغير يبدأ في الحياة من خلال تفاعل الأحاسيس مع ما حوله من محيط، فالابتسامة تترك أثرها في نفس الطفل، بينما النظرة الشزراء الغاضبة توجد أثراً سيئاً في نفس الطفل، وحينما

ينمو جسم الطفل وتنمو مداركه العقلية، تصبح هناك جهات مزاحمة للمشاعر والأحاسيس، فهناك مدارك عقلية، وهناك قوة جسمية، وهكذا تستمر مسيرة الإنسان بين حاجات جسمه، وإدراكات عقله، ونمو أحاسيسه ومشاعره.

رعاية الجسم واحترام المشاعر

ومن أهم ما يجب الالتفات إليه، هو وجود علاقة متبادلة بين جسم الإنسان وبين مشاعره وأحاسيسه، فكلما بدأ ضعف الجسم عند الإنسان من جديد في حالة الشيخوخة، عادت إليه حالة نمو المشاعر والأحاسيس، كما أن الصغير في صغره يعيش على أحاسيسه ومشاعره أكثر، فإن الإنسان إذا كبر سنه يحتاج إلى إحاطة معنوية أكبر، فتصبح مشاعره مرهفة رقيقة تمامًا كالطفل، مع بعض الفوارق، فأقل شيء يرضيه، وأبسط شيء يزعجه، ومن هنا نفهم تأكيد النصوص الشرعية على احترام الصغير والكبير، لوجود قاسم مشترك بينهما، وهي مدى الحاجة في هذه السن للجوانب المعنوية والشعورية، لذلك تؤكد الروايات على الرحمة بالصغير ورعاية مشاعره وأحاسيسه، كما تؤكد على احترام الكبير وتوقيره للسبب نفسه، ومن منطلق التقدير لخدماته كإنسان عاش في هذه الحياة، وقدم خدمات، كل حسب دوره، ولا بد أن يشعر بالتقدير في هذا المجتمع الذي عاش فيه.

من هنا يمكننا الجزم بأن من أبرز عناوين الأخلاق والآداب في أي مجتمع إنساني، هي احترام الكبير لكبر سنه، بغض النظر عن الميزات الأخرى، مثل علمه، أو ثروته، أو وضعه الاجتماعي؛ لأن كبر السن بحد ذاته موجب من موجبات الاحترام والتقدير، وبما أن دورة الحياة مستمرة دون توقف، فإن الجميع يستفيد من انتشار هذه الثقافة، حيث يصبح الاحترام هو أساس العلاقة بين الأجيال، فالصورة التي يريدها كل واحد منا لطريقة تعامل المجتمع معه في حال أصبح كبير السن، يتم تقريرها الآن أي في حالة الشباب، فإذا عمل الجميع على احترام الكبار، وتمت تربية الأبناء على هذه الثقافة، وتعززت هذه القيمة في المجتمع، حينها سوف نستفيد منها جميعاً عندما

نتقدم في السن.

احترام الكبير خلق إنساني

الاحترام لكبار السن نزعة متأصلة في ضمير الإنسان ووجدانه، وهي تعبر عن الفطرة الإنسانية الصافية القائمة على الرحمة، فالإنسان بطبعه يعطف قلبه ويتحنن على من يمر بسن الشيخوخة والعجز، حتى لو لم يجد من يوجهه لهذا الفعل.

من هنا يمكننا القول إن القسوة مع كبار السن تمثل انحرافاً عن فطرة الإنسان، وبذلك نسجل صوت إدانة للتفكك الاجتماعي، وانعدام روابط الصلة بين طبقات المجتمع، الذي تعاني منه كثير من المجتمعات، بل وصل الأمر في بعض المجتمعات الغربية إلى درجة انعدمت معه أواصر الصلة بين الأبناء والآباء، في مظاهر مرعبة، مما استدعى تدخل بعض المنظمات والمؤسسات المدنية لتحدّ من خطر هذا التدهور الخطير في العلاقات الاجتماعية، وهذه حالة من الوعي تحاول استدراك أخطاء الثقافة المادية القائمة على الأنانية الفردية، ومعالجة الآثار السلبية لها على الصعيد الأخلاقي والاجتماعي، الأمر الذي يؤكد على أن طبيعة الفطرة الإنسانية النقية تدعو لاحترام الكبير، ومضافاً إلى الفطرة فإن الإنسان عادة ما ينشأ ويترعرع في ظل الكبار، ويرى كونهم مصدراً للعطاء وتجارب الحياة، لذلك يشعر بفضلهم عليه، وهذا موجب للاحترام ايضاً، هذه هي خلفية ضرورة احترام الكبار وتوقيرهم.

وفي مجتمعنا كانت هذه هي الحالة السائدة، سواء داخل الأسرة أو في المجتمع بشكل عام، فتجد الجميع يظهر كل الحبّ والاحترام والتقدير لكبار السن، ولكن مع الأسف الشديد بدأنا نجد بعض الحالات والمشاهد التي تنذرنا بأن هذه القيمة الأخلاقية قد تبدأ في الانحسار، فتجد الشاب المفتول العضلات يمارس عنفوانه وغطرسته أمام من هم أكبر منه سنًا، بالتأكيد هذه ظواهر سلبية تمثل شذوذاً في السلوك، وانحرافاً في الأخلاق.

التأكيد الديني على احترام الكبير

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «ما أكرم شاب شيخًا إلا وقضى الله له عند شيبه من يكرمه»[١] هذه ليست من وحي الغيب فقط، وإنما تتحدث عن سنة أخلاقية بتعزيزها في المجتمع يعمّ خيرها الجميع، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من عرف فضل شيخ كبير فوقره لسنه آمنه الله الفزع يوم القيامة»[٢] فمثل هذه الأحاديث تقودنا في التفكير لنكتشف أن الأمر ليس مجرد مجاملة، وإنما هو في الحقيقة مسعى لكسب رضا الله، والأمن من عذابه يوم القيامة، فمضافاً إلى كون التعامل باحترام مع كبار السن تعبيراً عن الأخلاق الفاضلة الكريمة، إلا أنها أيضاً طريق إلى عفو الله ورضوانه ورحمته.

وعنه ﷺ: «من تعظيم الله عزّ وجلّ إجلال ذي الشيبة المؤمن»[٣]. الإنسان الذي يوقر كبير السن هو في واقع الأمر يعظم الله سبحانه وتعالى، والعكس صحيح فالذي لا يقدّر ولا يوقر الكبير فإن ذلك يدل على استهانته بالله وعدم تقديره له سبحانه، وعن رسول الله ﷺ: «البركة مع أكابركم»[٤]. أي التمسوا البركة في كباركم، لأنهم سبقوكم في الدين، وعمل الخير، وخدمة المجتمع، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال: رسول الله ﷺ: «إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم»[٥] والظاهر من تحديد النص بالمسلم من باب كونه إنسان البيئة التي صدر فيها النص، وبالتالي يمكننا التعميم ليشمل الاحترام كل إنسان بما هو إنسان كبير في السن، وإن كان غير مسلم، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حينما رأى شيخاً كبيراً فاقد البصر، وهو يستجدي الناس غضب، والتفت قائلًا: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نصراني، فقال عليه السلام: «استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال»[٦].

(١) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٩٣.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه. ج٢، ص١٠.
(٤) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٩٤.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٦٦، حديث١٩٩٩٦.

وعن أنس قال: «أوصاني رسول الله ﷺ عن خمس خصال فقال فيها: وقّر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»[١] إلى هذا الحد يحقق توقير الكبير مكسبًا للإنسان بحيث يجعله الله من رفقاء رسول الله ﷺ يوم القيامة.

وعنه ﷺ: «إن من إجلالي توقير الشيخ من أمتي»[٢].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته عند مماته: «وارحم من أهلك الصغير ووقر منهم الكبير»[٣].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٤]. وقد أكدت بعض الأحكام الفقهية هذه الأهمية في تقديم الكبار واحترامهم، ففي صلاة الجماعة إذا تساوت الميزات في المتقدمين للإمامة، وكان أحدهم أكبر فالأفضل تقديم الأكبر سنًا في صلاة الجماعة.

فلنبدأ من خلال عوائلنا وأبنائنا ولنزرع هذا الخلق السامي في النفوس، ولنعزز السلوك الذي يظهر الاحترام كتقبيل أيدي الآباء والأمهات والأجداد، حتى تكون مظاهر التقدير كأعراف داخل الأسرة، وداخل العشيرة والمجتمع، وأن يكون شعارنا تقديم الكبير في جميع المناسبات.

---

(١) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٩٤.
(٢) كنز العمال. ج٣، ص١٧٢.
(٣) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٩٤.
(٤) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٣٨.

بين التعبير عن الرأي وافتعال الصراعات

تنطوي النزاعات البينية، على إمكانية كبيرة لتعريض الإنسان نفسه إلى الامتهان، وقلة الاحترام. لذلك تجد من يحترم ذاته، لا يشغل نفسه، ولا يبدد جهده، في توافه الأمور، ويحرص على أن تتصف نفسه بالصفات النبيلة، وألّا تتلوث بالملوثات المختلفة، تمامًا كما يحرص على نظافة لباسه من الأوساخ، وهذا هو عين الاحترام للنفس. وحين يحترم الإنسان نفسه فإنه لا يعرضها للهوان من قبل الآخرين. وحيث أنّ النزاعات والخلافات توقع الإنسان في المهانة، فإنّ من يحترمون ذواتهم يتسامون على الخلافات، وينأون عن الوقوع في منزلق النزاعات. وهذا تحديدًا ما يشير إليه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين قال: «مَنْ كَرُمَتْ نَفْسُهُ قَلَّ شِقَاقُهُ وَ خِلَافُهُ»[1].

احترام الذات باجتناب النزاعات

ذلك أنّ العداوة مع الآخر، صغيرًا كان أم كبيرًا، لها ارتدادات على الإنسان نفسه، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب»[2]، إنّ المتورط في الخصومات يجلب الهمّ والغمّ ومرض القلب لنفسه، ناهيك عمّا يتضمنه ذلك من إشغال للنفس وتبديد الجهود.

وكما في الأفراد، ينطبق الحال أيضًا على المجتمعات. فالمجتمعات التي تحترم

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٤٦١٢.

(٢) الكافي. ج٢، ص٣٠٠، حديث١.

نفسها، أكثر ميلًا إلى تنظيم خلافاتها على النحو الذي لا يوقعها في شرك التطاحن والنزاع، على النقيض تمامًا من المجتمعات المتخلفة التي تكثر فيها الخلافات والنزاعات، وهذا أوضح دليل على أن هذه المجتمعات لا تحترم نفسها؛ لأنّ المنازعات غالبًا ما تدفع للنيل من هذه الفئة أو تلك، والإساءة إلى هذه الشخصية أو تلك، الأمر الذي يقود إلى تبديد الجهود والقدرات في المجتمع برمّته.

وقد ورد في النصوص الدينية التشديد الكبير على النأي عن التنازع حرصًا على احترام وسلامة النفس. فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه جمع أبناءه يومًا وأوصاهم بالقول: «يا بني، إيّاكم ومعاداة الرجال، فإنهم لا يخلون من ضربين؛ من عاقل يمكر بكم، أو جاهل يعجل عليكم»، ثم أنشأ عليه السلام قائلًا:

سليم العرض من حذر الجوابا ومن دارَى الرجال فقد أصابا
ومن هاب الرجال تهيّبوه ومن حقر الرجال فلن يُهابا[1]

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «وإيّاك وكثرة الخصومات، فإنها تبعدك عن الله»[2]، إنّ ذلك الإنسان المتورط في الخلاف مع هذا، والصراع مع ذاك، والكلام ضد هذه الجهة والنيل من الأخرى، هذا الإنسان بعيد عن الله، حتى لو سوّل له الشيطان أنه يتقرب بأفعاله تلك إلى الله، ذلك أن الخصومات والإساءة لعباد الله تبعد الإنسان عن الله سبحانه وتعالى.

على الإنسان الواعي أن يهرب من الخصومات. وأن يستخدم أقصى درجات ذكائه وحكمته ليبتعد عن العداوات مع القريب والبعيد، وعدم الاستجابة للاستفزاز والاستدراج من قبل الآخرين. وكما يقول الشاعر:

لقد أمرُّ على اللئيمِ يسُبُّني فمَضَيتُ ثُمَّتَ قلتُ: «لا يعنيني»

والأروع من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٥، ص٥٦٢، حديث١٨٣٤.
(٢) مستدرك الوسائل. ج٩، ص٧٣، حديث ١٠٢٤٠.

أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[سورة القصص، الآية:٥٥]. وروي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلًا يشتم خادمه قنبر، وقد رام قنبر أن يرد على الرجل، فناداه أمير المؤمنين: «مهلًا يا قنبر! دع شاتمك مهانًا، تُرضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الجنة وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه»(١).

ومما روي في هذا الشأن، أنّ شخصًا شتم الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام فأشاح الإمام بوجهه عنه، فصرخ الرجل في وجه الإمام قائلًا: إيّاك أعني، فأجابه الإمام بالقول: وعنك أغضي(٢).

هناك من لديهم شهوة الصراع والاستمتاع بالنزاع. فأمثال هؤلاء في وقتنا الراهن لا شغل لهم إلّا الدخول على مواقع التواصل الاجتماعي، بحثًا عن شخص أو جهة ما يصب عليها جام غضبه وسيل شتائمه، سيما وقد وفرت هذه المواقع فضاءً واسعًا للتعبير عن الرأي.

أَوَليس الأولى بالإنسان عبر هذه المواقع أن يدعو إلى الخير بالتي هي أحسن، وأن يبشّر بالتسامح، وينشر المحبة والمودة بين الناس، عوضًا عن البحث عن كلمة يرد عليها، أو شخصٍ يتنازع معه؟ إنّ النفسية الباحثة عن الخصومة والنزاع تنمّ عن شخصية مريضة، لا تحترم ذاتها بأيِّ حال.

إنّ العاقل أحوج ما يكون إلى كبح جماح النفسية التنازعية عنده. وعلينا في هذا السبيل أن نُعزّز هذا التوجه في أنفسنا أولًا، وأن نوصيَ من حولنا بالنأي عن هذا المسلك ثانيًا، سيما في هذه الظروف التي نجد فيها الكثيرين قد فقدوا توازنهم، فهم بالكاد وجدوا أنفسهم قادرين على التعبير عن أنفسهم عبر مواقع التواصل

---

(١) بحار الأنوار. ج ٦٨، ص٤٢٤، حديث٦٤.

(٢) ابن شهر آشوب. مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٢٩٦.

الاجتماعي، وسرعان ما انزلقوا نحو إثبات وجودهم على نحو خطأ، في هذا الفضاء الافتراضي، وهذا ما وفّر الوقود للصراعات والخلافات والمهاترات.

فهم خطأ للتعبير عن الرأي

إنّ من المؤسف أن يفهم البعض مسألة التعبير عن الرأي على نحو خطأ. ذلك أن بعض من يمارسون الإساءة لغيرهم في الفضاء الإلكتروني، يزعمون أنهم يمارسون حقّ التعبير عن الرأي!. صحيح أن حرية التعبير عن الرأي تُعَدّ حقًّا أصيلًا من حقوق الإنسان، لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ تلك الحرية مشروطة بضابطتين:

الأولى: هي التعبير عن الرأي تجاه الأفكار وليس النيل من الأشخاص، فلو أنّ شخصًا ما طرح فكرة، ولدى شخص آخر فكرة مخالفة، فللثاني كلّ الحقّ في نقد الفكرة الأولى، وطرح الفكرة المقابلة لها، وليس شخصنة الأمور، والتهجم على صاحب الفكرة، والنيل منه بأقذع العبارات.

أما الضابطة الثانية، فهي البعد عن الطعن في نيّات الآخرين والتشكيك في تدينهم، حيث إنّ البعض يقفز مباشرة إلى اتهام ضمائر الناس، والتشكيك في غاياتهم، ولعلّ أبلغ ما يقال لهؤلاء هي كلمة النبي الأكرم ﷺ: **«أفلا شققت عن قلبه»**[(١)].

إنّ الهدي النبوي الشريف يرشدنا إلى أفضل الطرق حكمة في معالجة الأخطاء، دون الإساءة إلى الأشخاص. فقد ورد عن النبي ﷺ أنه إذا بلغه تصرف أو قول لا يرتضيه، فإنه ﷺ يتبع أسلوب الموعظة الحسنة على نحو جماعي في المسلمين، مع استخدام عبارته الشهيرة: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»، فهو ﷺ إنما ينتقد القول المغلوط أو التصرف الخطأ، على نحو عام دون تعيين الأشخاص. هذا هو الخلق الذي ينبغي اتّباعه ضمن العلاقات المجتمعية، وحين مناقشة الأفكار والردّ عليها.

إننا مدعوون جميعًا لاحترام أنفسنا، والنأي عن التنازع. حتى يسود الاحترام

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الإيمان، حديث ١٤٣.

أجواء المجتمع، فالمجتمع الذي تنال فئاته المختلفة من بعضها بعضًا، وتعمد إلى تسقيط رموزها، فإن مؤدّى ذلك هو التسقيط لجميع الرموز، وانعدام الاحترام لكلّ الفئات، فلا حرمة حينئذٍ لأيٍّ شخصية، ولا اعتبار لأيٍّ فئة أو جماعة، والمحصلة النهائية هو سقوط المجتمع برمّته.

مواقع التواصل الاجتماعي والإعراض عن اللغو

ثمة معايير أساسية ينبغي للإنسان أن يأخذها بعين الاعتبار، عندما يطرق سمعه كلام في هذا الشأن أو ذاك. ذلك أنّ حواس الإنسان المختلفة تقع على جميع ما يصادفه المرء من أشياء وأمور ومواقف في هذه الحياة، لكنه إنما يركز على ما يشدّه للاستماع أو النظر إليه، ويتجاوز عمّا سواه. ولربما وقع بصر الإنسان على مناظر كريهة مقزّزة، فتراه يعمد لتجاوزها سريعًا، دون إمعان النظر فيها. كذلك الحال مع ما يطرق السمع من كلام وأصوات، فالإنسان إنما يركز على ما يهتم به، ويتجاوز ما لا يهمّه. ويعود ذلك إلى ما يضعه المرء لنفسه من معايير تحدّد ما يودّ الاستماع أو النظر إليه.

ولعلّ المعيار الأساس الذي ينبغي أن يحدّد مقدار اهتمام المرء بما يطرق سمعه، هو مدى الفائدة مما يسمعه، فالمرء مدعو بداية لتقدير مدى الفائدة العائدة عليه من وراء إصغاء السمع لأيٍّ أمر، فإذا كان سيعود عليه بالفائدة، فإنه يصغي إليه، ويركز على استماعه، وإلّا فعليه أن يتجاوزه.

ومن المعلوم أنّ هناك فرقًا بين السماع والاستماع، فالسماع حالة عفوية، تتلقى خلالها الأذن جميع ما يدور حولها من أصوات دون تمييز، وبذلك يختلف السماع عن حالة الاستماع، التي تنطوي على فعل قصدي، يعمد المستمع خلاله إلى التركيز على ما يستمع إليه. من هنا فالمطلوب من الإنسان أن يتقصّد الاستماع إلى ما يفيده. وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الاعراف، الآية: ٢٠٤]، إنه سبحانه يحثنا على الاستماع للقرآن بتركيز،

لا مجرّد سماعه كأيِّ شيء آخر، ويقول تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّـهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[سورة الزمر، الآية: ١٨]، فالمؤمن معنيٌّ بتقصّد استماع الأقوال والأفكار المتعددة، حتى ينتفع بالأحسن منها.

تنزيه السمع

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان المؤمن أن يقف على جميع ما يطرق سمعه، باستثناء المفيد من الكلام. وفي السياق يقول الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام في رسالة الحقوق: «وأما حقّ السمع: تنزيهه أن تجعله طريقًا إلى قلبك إلّا لفوهة كريمة، تحدث في قلبك خيرًا، أو تكسب به خلقًا كريمًا، فإنه باب الكلام إلى القلب، يؤدي إليه ضروب المعاني، على ما فيها من خير أو شرّ»، فالمطلوب أن يتعامل المرء مع السمع، على غرار تعامله مع حاستي النظر والشم، فإذا كان من الطبيعي أن يشيح بوجهه، ويسدّ أنفه، إذا ما رأى منظرًا قبيحًا، وشمّ رائحة كريهة، فكذلك السمع ينبغي أن ينصرف به عن الاهتمام بالقبيح من الكلام.

ولعلّ أحد أكبر الأخطاء التي يقع فيها المرء، في عصر التدفق المعلوماتي الهائل، هو أن يترك نفسه فريسة سهلة للقيل والقال من مكتوب ومسموع. فقد بات يتلقى الناس الكثير من الكلام المقروء والمسموع عبر أجهزتهم النقالة، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي: من تويتر وفيس بوك وغيرهما، غير أنّ كثيرًا من هذا الكلام قد لا يكون صحيحًا، ولا مفيدًا، بل هو بالغ السوء على المتلقي في أحيان كثيرة، إلّا أنّ المؤسف هو انطلاء ذلك على من يجعلون أنفسهم في موقع المتلقّي والمتفاعل مع أيِّ كلام يصلهم، خاصة وأنّ هناك درجة من التأثر التي سيتركها الكلام الخطأ على نفس المتلقّي دون أن يشعر، وهنا مكمن الخطأ الكبير.

إضاعة الوقت

هناك محاذير كثيرة ينبغي أن تصرف المرء عن الانشغال بما لا يفيده، وعلى رأسها

إضاعة الوقت. حيث ينبغي ألّا يضيع المرء وقته واهتمامه فيما لا يعود عليه بالفائدة، فلربما كان ذلك على حساب اهتماماته الأخرى، وأن يمنع كلّ ما يسبب أيّ تأثير سيئ في نفسه، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه»[١]، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «من اطّرح ما يعنيه دفع إلى ما لا يعنيه»[٢]، واطّرح بمعنى ترك، وبذلك يكون من ترك ما يعنيه ويهمّه من الأمور، فسيجد نفسه مشغولًا فيما لا يعنيه ولا يهمّه الانشغال به، وفي رواية ثالثة عنه عليه السلام: «من اشتغل بغير المهم ضيع الأهمّ»[٣]، فما الذي يدعو المرء لتتبّع وقراءة ما لا يفيده، لا لشيء إلاّ لأنها وصلت إليه!، وهل الوقت رخيص إلى هذا الحدّ حتى تصرفه في تتبّع ما لا طائل من ورائه!

إرباك المشاعر والأفكار

أما المحذور الآخر فهو ما يصيب المرء من ارتباك المشاعر والأفكار جرّاء الانشغال بالترّهات المكتوبة والمسموعة. ذلك أنّ الانغماس في تبادل الترّهات خاصة إذا ما استهدفت النيل من هذا الشخص أو تلك الجهة، فهي غالبًا ما تأتي بنتائج عكسية تربك مشاعر وأفكار من يخوضون فيها، من هنا ينبغي أن يجنّب المرء نفسه خطر الانسياق خلف هذه الأمور.

إنّ من المؤسف أن تجد أناسًا منغمسين حتى النخاع في تداول الكلام المسيء، عن هذا وذاك، وهذه الجهة وتلك، ليتسلّى بذلك وحسب، بل وتراهم يلهثون خلف التفتيش عن كلّ ما يسيء وينال من الآخرين، ولا يدري هؤلاء أنهم بذلك إنّما يؤذون مشاعرهم ويربكون أفكارهم.

من هنا نفهم التعاليم الإلهية التي تصف المؤمنين بالإعراض عن اللغو. حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، فالمؤمنون لا يعيرون اللغو أدنى

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. صفحة ٣٢٩، حكمة ٢٠٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ. ص٤٤١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٢٩، حكمة ٢٠٢.

اهتمام، حماية لأنفسهم ومشاعرهم من أيّ تأثير سلبي. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، أنه قال: «أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله»[١]، ومضمون كلام الإمام عليه السلام هو أنّ الإعراض هو الردّ المناسب على الخائضين في اللغو والترّهات، وحين يعبّر الإمام بقوله: «فتعرض عنه لله» أي إنّ الإعراض عن اللغو إنما يمثل استجابة لأمر الله سبحانه الوارد في الآية الكريمة.

وجاء في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام: (شتم بعضهم زين العابدين صلوات الله عليه، فقصده غلمانه فقال: «دعوه فإنّ ما خفي منّا أكثر مما قالوا، ثم قال له: ألك حاجة يا رجل؟»)[٢]، واللافت هنا أنّ الإمام عليه السلام لم يعر شتيمة الرجل أدنى اهتمام يذكر، وزاد على ذلك بأن عرض عليه السلام تلبية حاجة الرجل إن كان محتاجًا.

وفي حادثة أخرى استقبل الإمام عليه السلام رجلًا آخر، فأخذ يكيل للإمام السبّ والشتم، فأجابه الإمام بالقول: «يا فتى، إنّ بين أيدينا عقبة كؤودًا، فإن جزت منها فلا أبالي بما تقول، وإنْ أتحيّر فيها فأنا شرٌّ مما تقول»[٣]، ويشير عليه السلام إلى أنّ المرء معنيٌّ بما يشغله ويهمّه من أمر دنياه وآخرته، ولا يقف عند ما دون ذلك.

من هنا ينبغي أن نتربّى على هذه المواقف الرائعة، فلا يستوقفنا أيّ كلام، ولا نتفاعل مع كلّ ما يربك أفكارنا ويؤذي مشاعرنا وأحاسيسنا.

المسيئون لا يستحقون الاهتمام

كما أنّ هناك محذورًا ثالثًا يدعونا للإعراض عن القيل والقال، وهو المتمثل في إيلاء المسيئين اهتمامًا لا يستحقونه. ذلك أنّ إبداء أيّ قدرٍ من ردّ الفعل والتفاعل مع الشتّامين إنّما يعني انتزاعهم منّا الاهتمام، وإعطاءهم وزنًا ليسوا أهلًا له، وهذا أشبه

(١) مجمع البيان. ج ٧، ص ١٥٨.

(٢) بحار الأنوار. ج٤٦، ص٩٥.

(٣) المصدر نفسه. ج٤٦، ص٩٦.

ما يكون بالخطباء المتناثرين في حديقة (هايد بارك) في لندن، التواقين لأن يستمع الناس إليهم، فبقدر ما تقف للاستماع لأحدهم فإنك بذلك تزيد من مستمعيه فتزيده وزنًا، والأمر ذاته ينسحب على بعض مواقع التواصل الاجتماعي، فكلّما زاد عداد القراءات عندهم ازداد أصحابها انتفاخًا. فالتفاعل مع الكلام السلبي يعني إعطاء الجهة التي يصدر عنها ذلك الكلام اهتمامًا تبحث عنه وتريده.

في المقابل وعلى النقيض من ذلك، إذا ما تجاهل الناس أيّ متحدّث بالسوء، فهو بذلك سيشعر بتجاهل الآخرين له فلا يعود لكلامه أدنى وزن يذكر. من هنا فالإنسان المؤمن مدعو للتقيّد بالخلق القرآني المتمثل في الإعراض عن اللغو. ويعرّف اللغويون، اللغو، بأنه ما لا يعتدّ به من كلام، أي لا قيمة ولا أهمية له، وأقصى ما يستحقه هو المجابهة بالإعراض.

إنّ ملابسات العصر الراهن تقتضي قدرًا أكبر من الإعراض والتجاهل. فهناك أطراف والغة إلى حدٍّ بعيد في قذف الآخرين بالكلام المسيء، وأطراف متورطة في دبلجة ذلك الكلام، وأطراف تسقط كلامًا ربما قيل قبل سنوات فتسقطه على مناسبة مغايرة تمامًا لما قيل فيها، وجميع هذه الأساليب باتت معروفة مكشوفة، غرضها إرباك الناس وإثارة المشاكل بينهم، وإشغالهم فيما لا طائل من ورائه.

المؤمن لا يتفاعل مع اللغو

لذلك على الواعين أن يتساموا على هذه الحالة وألّا يستجيبوا لها، وأن يمتثلوا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآيات: ١-٣]، فالمؤمنون ليسوا من ذلك الصنف الذي يستغفله الآخرون بإشغاله فيما لا قيمة له من مكتوب ومسموع، على خلاف أولئك الذين يستقبلون اللغو ويتفاعلون معه، ويعطون أهل اللغو جلّ اهتمامهم، وهذا تحديدًا ما يريده أهل اللغو.

من هنا ينبغي أن تكون عند الإنسان معايير أساسية لا يعطي معها بالًا، ولا يعير

اهتمامًا، لما ينشر من إساءات عبر مختلف وسائل التواصل الاجتماعي أو القنوات الفضائية. سواء تلك التي تنال من الأشخاص، أو التي تستهدف الجهات، فهناك جهات غارقة في الجدل المذهبي، مرة بين الشيعة والسنة، وأخرى بين الصوفية والسلفية، وثالثة بين هذه الجماعة وتلك الجماعة، فهؤلاء شغلهم بثّ الفتنة وإثارة النزاع بين الناس، هؤلاء يتحدثون باسم السنة، وآخرون باسم الشيعة، وغيرهم باسم الصوفية، وغير ذلك من العناوين والأسماء.

ويأتي التساؤل مشروعًا هنا عن الدّاعي الذي يجبرنا على الخوض مع هؤلاء الخائضين!، أوَلسنا محاسبين على أوقاتنا؟ أوَلسنا مسؤولين عن اهتماماتنا؟ ذلك أنّ أيّ وقتٍ يصرفه الإنسان على متابعة القنوات الفضائية التحريضية والمثيرة للفتن، فإنه يدعم هذه القنوات على نحوٍ أو آخر؛ لأنّ هذا ما يبحث عنه أصحاب هذه القنوات، فالمطلوب عوضًا عن ذلك الإعراض عنهم تمامًا، وكذلك الحال مع مواقع التواصل الاجتماعي التي تستهدف النيل من الآخرين، فالمطلوب أيضًا الإعراض عنها وتجاهلها كليًّا، والنأي عن متابعتها والترويج لأكاذيبها؛ لأنّ ذلك من قبيل نشر الفاحشة، والعياذ بالله.

فالمرء مدعو لتحمّل المسؤولية تجاه نفسه في المقام الأول، وتجاه القيم الأخلاقية ثانيًا، وتجاه المجتمع أخيرًا، فلا يصرف وقته، ولا يضيع جهده فيما لا يفيد، بل بعضه يضرّ، ولا يساعد في إعطاء الاعتبار للجهات التي تحترف القيام بهذه الأدوار، ولنتذكر وصف الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[سورة القصص، الآية:٥٥].

تقويم الآخرين والحكم عليهم

ومن ميادين تطبيق هذه المنهجية الخطأ الحكم على الآخرين انطلاقًا من انطباعات شخصية، فإن سيطرة النفس وغلبة الأهواء والشهوات تجعل الإنسان مزاجيًا في تقويماته، الأمر الذي يكرس النظرة السلبية بين الناس، ويؤدي إلى إفساد

الحياة الاجتماعية، وإنما يجب أن ينطلق الإنسان في تقويمه من العلم والحق؛ لأن الإنسان مسؤول عن هذه النظرة، فإذا حكم الناس على بعضهم بعضًا انطلاقًا من الظنون والإشاعات فإنهم محاسبون أمام الله، لهذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ فالإنسان مسؤول اتجاه النتائج التي تترتب على مقدمات خاطئة، أو منهجية مرفوضة من الشرع والعقل، من هنا على الإنسان أن يتثبت من مصادر معلوماته.

نعيش الآن في عصر توفرت فيه وسائل المعلومات وهو مكسب كبير للإنسانية؛ لأنه وفر فرص التواصل بين الناس فأصبحت الأخبار والمعلومات تنقل للجميع من لحظة انبثاقها ووقوعها، ولكن لأيّ مكسب مجموعة من الضوابط للاستخدام الصحيح، فإذا لم تراعَ هذه الضوابط أدت إلى الخطأ، وآلت به إلى الشقاء كوسائل المواصلات مثلًا، فالسيارة مكسب ولكن حينما يقودها الإنسان دون ضوابط، ودون مراعاة للأنظمة والقوانين، فسوف تقوده إلى كارثة، كذلك الوسائل المعلوماتية الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي، فهي في الأصل مكسب مهم، لكن تحتاج إلى ضوابط، فهناك من يسيء استخدام هذه الوسائل، حتى أصبحت مصدرًا لكثير من المعلومات الخطأ، والإشاعات الكاذبة، مما يترتب على ذلك قيام فتن ووجود مشاكل ونزاعات داخل المجتمع، وفي أوساط الشعوب والأمم، من هنا لا بُدّ للإنسان أن يقف متأنيًا حتى يستفيد من هذه الوسائل الاستفادة الصحيحة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [سورة الحجرات، الآية:٦].

التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي

أولًا: ينبغي للإنسان أن يتأكد من مصدر المعلومات، وخاصة مع هذه الفوضى في مصادر التلقي، فهناك مواقع تُنتحل على شبكة الإنترنت بأسماء أشخاص وجهات وهم لا ربط لهم بها، وهذه مشكلة عالمية يعاني منها روءساء دول

ومنظمات وشخصيات مختلفة، نشرت صحيفة الرياض يوم ٢٥ مارس ٢٠١٢ عن ممثل سعودي تفاجأ بوجود أكثر من ٣٠ حسابًا باسمه وهي لا تعنيه أصلًا، وكذلك شكى ممثلا المسلسل الشهير (طاش) بوجود أكثر من حساب باسمهما في الفيس بك، وتناقلت بعض الصحف عن لاعب في نادٍ مصري أنه يعاني من وجود ١٤٠ صفحة منتحلة باسمه، في مثل هذه الحالة على الإنسان ألّا يقبل أي خبر وأي معلومة من أي موقع لمجرد كونه باسم هذه الجهة او باسم هذا الشخص.

ثانيًا: الحذر من حالات الخصام، فلا ينبغي للإنسان أن يأخذ من مواقع الخصوم، فإذا كانت هناك خصومات عقائدية مثلًا فلا يمكن أن يأخذ من هذه المواقع ما يخص الجهة التي تتخاصم معها؛ لأن هذا يعني أنه يتقصد الخطأ والوقوع في الضلال، وهكذا هناك تيارات متعددة في أي مجتمع، فلا يحق للإنسان أن يأخذ معلومة من مواقع تيار يتعلق بتيار منافس له.

ثالثًا: أن يسعى الإنسان للتأكد من الجهة المعنية بالخبر قبل أن يرتب عليه أثرًا، ولا يتتبع الأخبار كإشاعات هنا وهناك.

رابعًا: يجب عدم التسرع في نشر المعلومات والرسائل والأخبار قبل التثبت منها، حتى لا ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة النور، الآية:١٩] لا يصح للإنسان أن ينشر أي معلومة من هذه المصادر المعلوماتية قبل التأكد من صحتها ومن صوابية نقلها، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[(١)] فمجرد الحديث بكل ما يسمع يُعدّ درجة ومرتبة من مراتب الكذب، وورد عن أمير المؤمنين علي ؏: «لا تحدث عن غير

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٨٨.

ثقة فتكون كذابًا»[١] الإنسان الذي ينشر خبرًا وصله من جهة غير موثوقة يكون مصداقًا لهذا الحديث فيكون كذابًا؛ لأنه حدث عن غير ثقة، وهناك رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ»[٢]، الدخول على بعض هذه المواقع التي تعتمد التهريج ونشر الأكاذيب يعتبر مصداقًا لتمكين سمعه للغواة، فعلى الإنسان اجتنابها.

إننا معنيون بانطباعاتنا ومواقفنا وأحكامنا على بعضنا بعضًا، فلا نلقي السمع لهذه المواقع لنقل الأخبار والإشاعات التي تنسف جسور الثقة، وتسبب المشاكل والتنازعات والفتن، وعلينا أن نتذكر ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته في حجة الوداع: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا»[٣] فأعراض الناس ومكانتهم وحرمتهم مسؤولية الجميع.

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروته، ليسقطه من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان»[٤] لذلك على الإنسان أن يكون يقظًا حذرًا في تعامله مع المعلومات المتداولة والمنتشرة عبر مواقع التواصل، حتى يحافظ على دينه ومجتمعه.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص١٠.
(٢) نهج البلاغة. كتاب ١٠.
(٣) صحيح مسلم. ص ٩٢٠، حديث ١٦٧٩.
(٤) بحار الأنوار. ج ٧٢، ص ٢١٦.

صدر حديثًا للمؤلف

- **إضاءات من السيرة النبوية** (الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م).
- **العمل التطوعي تنمية الذات وقوة المجتمع** (الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)
- **آفاق السمو الروحي** (الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **شخصية الفرد.. جدلية العلاقة بين الفرد والمجتمع** (الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **مكاشفة الذات.. النقد الذاتي واجتناب الخطأ** (الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **يقظة الروح.. في تعزيز المناعة الروحية** (الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **تربية الأبناء استثمار أفضل** (الطبعة الثالثة ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **في التنمية الأسرية** (الطبعة الثانية ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)
- **تمكين المرأة.. الفرص والتحديات** (الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)

للتواصل مع المؤلف